تاريخ النقائض في الشعر العربي

تأليف

أحمد الشايب

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٥٤

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا ، القاهرة

الإهداء

إلى . . . .

الأستاذ أنتُونى أشلِي بيڤان ناشر نقائض جرير والفرزدق ،
والأستاذ الأب أنطون صالحان اليسوعى ناشر نقائض جرير والأخطل ،
والأستاذ الدكتور طه حسين باعث درس النقائض فى الجامعة المصرية .

أهدى هذه الفصول .

أحمد الشايب

مقدمة الطبعة الثانية

منذ ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب أخذت العناية تشتد ، فى الجامعة وخارجها ، بدراسة فن النقائض وما لابسه من فنون وموضوعات ، وعكف طلاب الدراسات العليا على هذا الكتاب يتخذون من فصوله مجال بحوثهم لدرجتى الماجستير والدكتوراه ، فكأنه كان ـ فى مادته ومنهجه ـ رائداً دراسيا يستوجب علينا لله الحمد والثناء .

ولما نفدت طبعته الأولى استمر الباحثون فى مصر وغيرها يطلبونه من المكاتب ؛ فاضطررت إلى إعادة طبعه كما هو استجابة لهذه الرغبة الكريمة ؟

أحمد الشايب

أول يوليو سنة ١٩٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

- ١ -

لم تكن النقائض معروفة فى البيئات العلمية معرفة صحيحة إلى أوائل القرن العشرين حين أخذ الأستاذ أنتونى أشلى بيڤان Anthony Ashley Bevan ينشر نقائض جرير والفرزدق (١٩٠٥ — ١٩١٢ م) وحين تبعه الأب أنطون صالحانى اليسوعى فنشر نقائض جرير والأخطل سنة ١٩٢٢ م ، وكل ما كان يعرف من النقائض هو ما كان وارداً فى بعض الدواوين أو المراجع الأدبية العامة ، فكان نشر هذين الديوانين نعمة كبرى على الدراسات الأدبية فى الشرق العربى .

ومع ذلك ، لم تلق نقائض هؤلاء الفحول بمصر أو غيرها العناية التى تستأهلها ، وسارت الدراسة فى المعاهد العلمية سيرتها المألوفة من تلخيص النظريات التاريخية ونقل الآراء والملاحظات النقدية دون تدقيق واستقصاء

فلما دعيتُ للتدريس بكلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ثلاثين وتسعمائة وألف ، على ما أذكر ، كان الأستاذ الدكتور طه حسين يدرس نقائض جرير وصاحبيه مع طلاب قسم اللغة العربية دراسة تاريخية أدبية قيمة ، ويسلك فى ذلك مسلكاً علمياً ممتازاً ، ويشرك معه الطلاب فى البحث ، فكانت دراسته هذه فذة معاهد مصر والبلاد العربية جميعاً .

فلما تركت الجامعة بعد ذلك بقليل ، تابعتُ هذه الدراسة مع الطلاب فى فترات متفرقة ، تبعاً لنظام القسم وجداوله الدراسية ، وتعلقاً بهذا الفن الخطير ، على ما يستوجب من الجد ، والأناة ، وسعة الأفق ، ويثمر بذلك ثماراً عظيمة ، بعيدة الأثر فى تاريخ الأدب العربى ، ونقده ، ومقوماته .

وكنت أشعر بما يحتمل الطلاب من مشاق فى هذا الدرس مع إدراكهم جليل خطره ، وعظيم أثره ، لما يلقاهم به من غريب اللغة ، والعبارات ، والصور ، وما يقتضيهم من ثقافة متنوعة عميقة حتى يفقهوا أدباً أنشئ فى مكان وزمان بعد بهما العهد ، وكان تعبيراً عن عناصر ، وعوامل ، ومواهب وبيئات خاصة غريبة لا بد من تمثلها وتعمقها لفقه هذا الأدب ، وتبين ما فيه من خصائص موضوعية ، ومعنوية ، وأسلوبية عجيبة ، حتى كانت النقائض مثال الأدب الصعب المحبوب ، وحتى قضيت مع الطلاب شهوراً عدة فى دروس نقيضتين ... لها ساعتان كل أسبوع .

ولما فرغت منذ سنتين لدراسة الأدب القديم ، والإسلامى منه خاصة ، بدا لى أن أنشر بعض هذه الدراسة ، فطبعت «تاريخ الشعر السياسى» ووعدت فى آخره أن آخذ فى «تاريخ النقائض» ، وهنا ضممت ملاحظاتى السابقة إلى ما تيسر لى أخيراً فكان منها هذه الفصول التى أقدمها للقراء .

— ٢ —

ولم يكن من الطبعى أن يظهر التاريخ الأدبى على فن النقائض قوياً رائعاً فى زمن الأمويين دون أن تكون له مقدمات وسوابق فتحت طرقه ، وأعدّت أصوله ، ومهدت لاستحالته ، فرجعت إلى ماضى الشعر العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام فظفرت منه بحلقتين فى هذه السلسلة أو عصرين ممتازين : عصر الجاهلية وعصر البعثة المحمدية ، ووجدت لكل عصر من

الثلاثة طوابع خاصة وأخرى مشتركة بينها جميعاً ، إذ كان تطور الأدب بطيئاً ولا سيما في جانبه الفني ، وعلى هذا الأساس قام المنهج الدراسي لهذا الفن الخطير .

وكان أمامي ، مع ذلك ، طريقان :

أحدهما أن أتبع المذهب الفني الغالب ، وأساير ابن سلام في طبقاته ، فأضيف فترة البعثة إلى العصر الجاهلي إذ كان التعبير فيها جاهلياً بعامة ، وتكون فترة الأمويين هي عصر النقائض الثاني .

وثانيهما أن أعترف بفترة المخضرمين فأعدها عصراً مستقلا من عصور النقائض ، كما صنعت في تاريخ الشعر السياسي ، وكما أشار ابن رشيق في عمدته وهذا الطريق الثاني هو ما اتبعته هنا لامتياز عصر البعثة بتغير موضوعات النقائض ، ومعانيها ، وغايتها ، وبأنه عصر تحول وانتقال ظهر أثره في أسلوب الشعر ما بين جاهلي محافظ ، وآخر مضطرب ، وثالث مبعوث بعدما كان خافتاً هو شعر قريش بمكة خاصة . على أن عصر البعثة امتاز في النقائض بتدخل اليهود ، وتغير مواقف الشعراء بين مكة والمدينة ، وظهور أثر الاسلام في الشعر ، وهذه النهضة التي لابست الدعوة الاسلامية الجديدة .

ومادام الموضوع جديداً فلابد فيه من اختلاف وجهة النظر ، ولا بأس بسلوك أحد الطريقين مابقي خالياً من الخطأ الأساسي ، قائماً على أصل نافع مقبول .

وبجانب هذا الجانب التاريخي في منهجنا راعيت الجانب الفني أيضاً ، فحاولت بيان الخصائص الفنية لكل عصر من عصور النقائض . وذكرت مزايا الشعراء البارزين في كل عصر وبخاصة فحول الأمويين لما امتازوا به من تمثيل هذا الفن تمثلا واضحاً ، ونهوضهم به نهوضاً خيل للناس أنهم مُبتدعوه وأنهم أربابه الأولون .

وكانت فصول كل باب ، أو كل عصر ، خاضعة فى تنسيقها وترتيبها لأقيسة منطقية حسبما تراءى لى ، كالقول فى نشأة النقائض الجاهلية وفنونها ومقوماتها وعناصرها ، وصلاتها بأيام القحطانية ، فأيام العدنانية ، فالحوادث الاجتماعية ثم خواصها الفنية ، ومثل ذلك فى عصر البعثة ، فإذا كان العصر الأموى زادت الفصول للبحث فى شعراء النقائض ، والوقوف عند نقائض جرير وزميليه وهى التى دعوتها النقائض الخاصة ، ثم البحث فى قيمة النقائض الأموية وخصائصها الأدبية .

وقد عمدت فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام إلى أنْ عرض قسما كبيراً من نصوص النقائض لعدم جمعها فى ديوان خاص مع الإشارة إلى مراجعها ، ولم أعمد إلى نحو ذلك فى نقائض جرير والفرزدق والأخطل لجمعها فى دواوين منشورة فاكتفيت منها ببعض الشواهد .

ولما كانت هذه الدراسة جديدة فقد مهدت لها بالتعريف بالنقائض ومايقابلها من فنون أخرى نثراً ونظماً ، وبيان الطرق التى سلكها الشعراء فى نقض المعانى ، واضطرت حينئذ إلى وضع مصطلحات تميز بينها كالقلب ، والموازنة ، والتوجيه ، والتسليم ، والوعيد . ولست ، مع ذلك ، متشبثاً بها ولا مخدوعا ، فقد يوضع أدق منها إذا لزم ذلك ، ولا مشاحة فى الاصطلاح كما يقول السابقون .

— ٣ —

درس النقائض نافع من وجوه ؛ فهو كشف عن فن جديد من فنون الشعر العربى له خطره ، وله شعراؤه ، وله آثاره فى تهذيب النفوس ؛ وهو معونة قيمة فى تأريخ الأدب العربى بعامة والقديم منه بوجه خاص . ودرس النقائض هو فى الواقع درس الشعر العربى القديم فى أرقى صوره ، وأهم فنونه ، وعند أشهر فحوله وخاصة بعد الإسلام ، وبذلك يفيض على العقل ، والشعور

والذوق من جلاله وجماله ، ويعد الدارس للحياة فى عصور الحضارة العربية الأصيلة والعيش مع رجالها ، وهم يصورونها أدباً رائعاً قوياً ، ويتلاحون فى ظلالها خاضعين لعوامل خاصة وعامة ... أليس فى ذلك إطالة للعمر ، وتهذيب للنفس ، وترقية للحياة ؟

على أن هناك فنونا من الشعر ثلاثة ظفرت فى ظل الأمويين بتجديد قوى ونشاط واضح جعلها أشبه بالفنون المستحدثة ، هى النقائض ، والشعر السياسى ، والشعر الغزلى .

وكان الغزل فى الحجاز ، والآخران فى العراق ، وكان الغزل يصور شعور الأفراد ، والنقائض تمثل مواقف القبائل وشخصياتها ، والشعر السياسى يمثل الأحزاب المختلفة . . . هذا هو الغالب العام .

وقد استأثرت النقائض بفحول الشعراء وطبقتهم الأولى ، وتركت للغزل والسياسة شعراء الطبقات الأخرى ، وكان أسلوب النقائض فخما جليلا ، كما كان أسلوب الغزل رقيقاً جميلا ، وأسلوب السياسة واضحاً مختلف الصفات فكانت هذه الفنون خليقة بالعناية . وقد كنت معتزما تأريخ الغزل فى كتاب خاص إتماماً لدراسة هذه الفنون الطاغية على الشعر الأموى . ولكنى تركته — ولو إلى حين — لأحد طلاب (الماجستير) الذى أخذ يدرسه مع إشرافى .

— ٤ —

ومهما يكن ما لقيت فى هذه الدراسة من عناء ، فإنى معترف من الآن بأن النقائض فى حاجة إلى استئناف البحث سواء فى جوانبها السياسية ، والاجتماعية ، والفنية ، أو فى ما يلابسها من عوامل ومقومات ،

وما استدعت من نقد وشروح ، وأرجو أن يعنى الباحثون بدرس هذا الفن لعلهم واجدون فيه من النتائج القيمة الخطيرة كفاء ما يبذلون فى سبيلها من أوقات ومشاق .

أحمد الشايب

القاهرة فى { ٢٧ من المحرم سنة ١٣٦٥ﻫ
اول يناير سنة ١٩٤٦ م

الفهرس

تمهيد

صفحة

النقائض فى أذهان الناس ـ نشأتها العامة ـ التعريف بها لغويا واصطلاحياً ـ أركانها وقيمة المعنى بينها ـ الفرق بينها وبين المعارضة ، والمفاخرة ، والمعاظمة ـ تكون المناقضة شعراً ورجزاً ونثراً وقد تجمع بين الشعر والنثر ـ فنونها الرئيسية والثانوية ـ تكون بين شاعرين أو أكثر وبين الشاعر ونفسه ، وبين الرجل والمرأة ، وبين امرأتين ، وبين الحى والميت ، وبين مدرستين ـ تكون بشعر أصيل وآخر يتحتل به ـ البادىء والناقض ـ طرق المناقضة : القلب والمقابلة والتوجيه ، والتكذيب والوعيد ، والتسليم ١ — ٣٤

الباب الأول

النقائض فى الجاهلية

الفصل الأول : نشأة النقائض وفنونها :

البداوة وظاهرتاها : الفقر الحسى والغنى النفسى ـ النظام القبلى والعصبيات ـ الحروب فى سبيل المادة والشرف ـ الشعر ينشأ حماسياً هجائياً ـ النقائض تنشأ من هذين الفنين ـ تاريخها ـ تدرج النقائض فى النحو وأمثلتها الأولى ـ صلتها بالأيام والحوادث الاجتماعية ٣٥ — ٥٢

الفصل الثانى : فى مقومات النقائض وعناصرها .

الأنساب والحاجة إليها والآراء فى قيمتها الجاهلية ـ الأنساب والإسلام ـ الأنساب والعصبيات ـ الأنساب والوضع ـ أيام العرب جاهلية وإسلامية ـ مصادر الأيام والفرق بينها ـ أسبابها ـ مواقف القبائل فيها ـ حد الجاهلية والإسلام ـ الأيام ووضع الشعر والقصص ـ الحياة الاجتماعية والنقائض . . . . ٥٣ — ٧٠

صفحة

الفصل الثالث : النقائض والأيام القحطانية .
قصص البائدة ـ أيام اليمن الأولى والنقائض ـ أيام الأوس والخزرج والنقائض ـ أيام القحطانية والعدنانية والنقائض ـ أهم الشواهد ٧١ — ٩٣
الفصل الرابع : النقائض والأيام العدنانية .
أيام ربيعة ونقائضها ـ ربيعة وغيرهم ـ أيام قيس والنقائض ـ أيام قيس وكنانة فى النقائض ـ بين قيس وتميم فى النقائض . ٩٤ - ١٠٥
الفصل الخامس : النقائض والحياة الاجتماعية .
أصول الحياة الاجتماعية ـ بين امرىء القيس وسبيع بن عوف ـ أمية الخزاعى وحسان ـ حسان وزيد بن طعمه ـ بين حسان وأبى سفيان بن الحارث ـ بين حسان وزوجته ـ تأبط شراً وحاجز الأزدى ـ بين البرج ابن الخلاس والحصين بن الحمام المرى ـ بين خفاف بن الشريد السلمى والعباس ابن مرداس ـ بين أبى ذؤيب الهذلى وخالد بن زهير ـ بين النابغة الذبيانى وغيره ـ بين عامر بن الطفيل وزيد بن عبد المدان ١٠٦ — ١٢١
الفصل السادس : فى خواص النقائض الجاهلية .
نشأت نثراً وحواراً اجتماعياً ـ وصارت رجزاً ـ نقض المعانى أولا دون التزام الجانب الموسيقى ـ ترقى النقائض بترقى مقوماتها ـ قامت فى سبيل القبيلة والإمارة ـ دون النقائض الأموية ـ خلوها من الفحش ـ تمثل عصرها . . . . ١٢٢ — ١٢٥

الباب الثانى

النقائض فى صدر الإسلام

الفصل الأول عصر النقائض الإسلامية الأولى .
الإسلام ورسالته ـ العرب أمة ودولة ـ الدعوة الإسلامية نهضة تصطدم

صفحة

فيها العواطف — مكة والمدينة والشاعرية القرشية — ظهور النقائض الإسلامية الأولى — النقائض الإسلامية تتغير معانيها ، وموضوعاتها ، وأساليبها وغاياتها — ولكنها تشبه الجاهلية من وجوه أخرى — القرآن والنقائض — النقائض إلى عصر معاوية ١٢٦ — ١٤١

الفصل الثانى : النقائض والغزوات .

غزوة بدر الكبرى ونقائضها — تدخل اليهود — غزوة أحد والنقائض — شعراء النقائض عصر البعثة — النقائض حول إجلاء بنى النضير — بدر الآخرة والنقائض — غزوة الخندق والنقائض أمر الحديبية والنقائض — خيبر والنقائض — فتح مكة والنقائض حنين والنقائض — الوفود والمناقضة . . . . ١٤٢ — ١٧٣

الفصل الثالث : فى خواص النقائض الإسلامية الأولى .

الإسلام موضوع النقائض ـ المعانى جاهلية وإسلامية ـ اضطراب الأساليب ـ مواقف الشعراء ـ قصر مدة النقائض ـ لا فحش فيها قلة نوعها الاجتماعى . . . . ١٧٤ — ١٧٦

الباب الثالث

النقائض فى العصر الأموى

الفصل الأول : عصر النقائض الأموية .

السياسة الأموية والنقائض ـ مواقف القبائل والشعراء ـ ملك وراثى ـ مواهب ملكية ـ ولاة وأنصار مخلصون ـ الحياة الاجتماعية والنقائض ـ الأقطار الإسلامية وطوابعها وصلاتها بالنقائض ـ العصبيات الكبرى والنقائض : العصبية والدين ـ اليمن وعدنان قيس واليمن فى النقائض ـ قيس وتغلب فى النقائض ـ تميم وغيرها والنقائض ـ العرب والموالى ـ الحياة الأدبية وعناصرها فى النقائض ١٧٧ — ٢١٢

الفصل الثانى : نشأة النقائض الأموية وفنونها .

فترة خمود ـ عوامل بعث : الاقتصاد ، والسياسة ، والعصبية ،

والمنافسة الأدبيـة ، والسرقات الشعرية ، وأمور خاصة ـ بدء النقائض ومدتها والأقوال فى ذلك ـ فنون النقائض الأموية ـ مادتها ٢١٣ — ٢٣٤

الفصل الثالث : شعراء النقائض الأموية .

الروايات فى عددهم ـ من اتصلوا بجرير فى الهجاء ـ كيف التحموا به ـ ستة عشر مناقضاً لجرير ـ نقائض خاصه وأخرى عامة ـ من شعراء النقائض : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والراعى ، والبعيث ، وابن لجأ ، والهزانى ، والبلتع وغيرهم . . . ٢٣٥ — ٢٥٦

الفصل الرابع : مقومات النقائض الأموية .

الأيام التى ذكرها الشعراء فى النقائض ـ أيام كل قبيلة ـ الأنساب ودخولها النقائض ـ الأحساب : مفاخر كل قبيلة ومثالبها ـ أشهر المعانى التى تناولها الفحول ـ حوادث جزئية تقوم النقائض ـ فن الشعر من مقومات النقائض ـ السياسة . . . . ٢٥٧ — ٢٨٨

الفصل الخامس : فى النقائض العامة .

بين هدبة بن خشرم وزيادة الرقاشى ـ ابن الدمينة وأميمة ـ بين قتادة وأبى كلدة الجشمى ـ أرطأة بن سهية وزميل ـ ابن ميادة والحكم بن معمر المحاربى ـ بين حارثة بن بدر وأنس بن زنيم ـ سلمان العجلى والأبيرد ـ المغيرة بن حبناء وأخوه صخر ـ بين الكميت وحكيم بن عياش ـ خالد بن علقمة الدارمى وسويد بن كراع العجلى . . . . ٢٨٩ — ٣٠١

الفصل السادس : نقائض جرير والفرزدق .

ناشرها ورواتها ـ ترتيبها التاريخى وعدم توافره تماماً ـ محاولات فى ذلك ـ عرض النصوص وأهم معالمها الموضوعية والفنية ـ جرير والفرزدق يتناقضان فى سبيل غيرهما ـ شرحها وفوائده ـ أهمها تحليل ، ودراسة ، الميميتين فى مصرع قتيبة بن مسلم تحليلا مفصلا إشارة إلى غيرهما ـ توجيهات . . . . . . ٣٠٢ — ٣٥٧

الفصل السابع : نقائض جرير والأخطل.

ناشرها ومؤلفها ـ محتوياتها إجمالا ـ ترتيبها ـ عرض نصوصها وأهم معالمها الموضوعية والفنية ـ نشأتها ـ تحليل ودراسة الرائيتين

صفحة

بالتفصيل ـ توجيه ـ موازنة بين الديوانين . . . . ٣٥٨ — ٤٠٤

الفصل الثامن : فن النقائض الأموية .

سمات إسلامية ـ إفحاش وإقذاع ـ واقعية مكشوفة ـ خصب الخيال
استقصاء ـ تكرار ـ اختلاط الفنون ـ الجزالة ـ المعانى وقيمتها
العواطف وصدقها ـ قوة الجدل ـ الأخذ والسرقات ـ الموازنة ـ
مقومات كل من جرير وصاحبيه فى النقائض ـ موازنة بينهم فى
هذا الفن ٤٤٤

الفصل التاسع . قيمة النقائض الأموية .

فوائدها اللغوية ـ مكانتها الأدبية ، والسياسية ، والاجتماعية ـ تصويرها
العصر الأموى ـ شروحها وما أفادت ـ مآخذ عليها . ٤٤٥ — ٤٦٥

الفصل العاشر : خاتمة .

إيجاز الماضى ـ لماذا انتهت النقائض قديماً ـ معرض للدارسين
نهاية . . . . ٤٦٦ — ٤٧٠

تمهيد

— ١ —

إذا سمع الناس كلمة (النقائض) تبادر إلى ذهنهم ، أول الأمر ، هذه القصائد الطوال التي تناشدها جرير والفرزدق أيام بني أمية ، وقد يذكرون معها ماتناشد جرير والأخطل كذلك ، إذ كانت كلها نوعاً من الجدل والمهاترة التي شغلت فحول القرن الأول ، وأمّ عصور الأدب العربي القديم ، كأنّ هذا الفن الشعري حديثُ النشأة لم يعرفه الشعر العربي إلا في منتصف القرن الأول ، وكأنّ فضلَ اختراعه راجع إلى هذه المدرسة الأموية ورجالها المشهورين والمغمورين .

والناس ، حين يفهمون ذلك ، معذورون ، لأن هذه (النقائض) الأموية امتازت بأمور جعلتها تحجب ماسبقها من نوعها ، وتُخَيِّل للناظر أنها أول صورة للمناقضة في تاريخ الشعر العربي ، ولعلها ، في رأينا ، آخر صورها القوية الهامة التي تؤرخ هذا الفن في طور نضجه واكتماله ، لا في عهد نشأته وابتدائه : فقد كانتْ كثيرةَ العددِ بعيدةَ الصيت ، شغلتْ كِبَارَ الشعراء وكثرتَهم ، ومعظمَ القبائل أو أعظمَها ، واستغلتها السياسة الأموية ، والعصبياتُ القبلية ، وأثارت ضروباً من النقدِ والموازنة ، وأحيت الماضي : أيامَه وتقاليدَه الجاهلية ، وأساءت إلى الحياة الاجتماعية والسياسية بقدر ما أحسنت إلى الحياة الأدبية ، وبلغت بالفن الشعري القديم ذروته ، وخلّفت لنا آثاراً ضخمة جديرة بالدرس العميق .

أما الحقّ التاريخي فيرجع بنشأة النقائض إلى طفولة هذا الشعر العربي في

جوانب هذه الصحارى والقفار ، فلم تكد تستقيم أوزانه وتُقرَّر بين الشعراء حتى صارت أداة لهـذا الجدل الشعرى الذى تتحد موسيقاه وموضوعاته وإن تقابلتْ معانيه ووجهاته ، وكانت المناقضة ، فيما أرى ، ظاهرةً نفسية طبيعية ، نشأت حتما عن ملكة الشعر وموهبته التى تزكو فى نفوس الشاعرين فتتجاوب أصداؤها على ألسنتهم أوزاناً وقوافى ، وأخيلة ومعانى ، وتنتقل هذه النغمة بطريق (العدوى) من نفس الأول إلى نفس الثانى ، فإذا بهذا صدى ذلك ، وإذا بالثانى يلتزم موسيقا الأول ، ويردُّ عليه معانيه بنفس الألحان والأوزان ، فينقض عليه قوله ، ويصير نظيرَه ، وتصبح كل قصيدة نقيضة للأخرى أى مخالفةً لها ، وإن كان النقض فى الأصل من صفات القصيدة الثانية التى نهضت بالرد على الأولى ونقض معانيها .

لذلك رأينا هذا الفن ينشأ فى حظيرة الشعر الجاهلى طفلا يحبو ، ثم تستقيم قدماه فينمو سريعاً حتى نراه شاباً قوياً ولا سيما فى ظلال السيوف وبين (الأيام) فلما جاء الإسلام ظفر به فناً مُوطَّأ الأكناف ، كثير الأبواب فاستغله فى سبيل دولته ، حتى إذا جاء الأمويون أشعلوه ناراً موقدة كانت ، فى نزعتها ، رجعة جاهلية عاصفة فى ظل الدولة الإسلامية .

— ٢ —

ويحسن أن نتقدم إلى التعريف بهذا الإصطلاح (النقائض) والإلمام بما يتصل به تمهيداً لتأريخ هـذا الفن ، والقول فى أطواره : الجاهلى ، والإسلامى ، والأموى ، إذا كان ذلك تقديماً محتوماً .

النقائض جمع نقيضة مأخوذة ، فى الأصـل ، من نقضَ البناء إذا هدمه ، والحبلَ إذا حلّه ، وضِدُّه الإبرام يكون للبناء ، والحبل ، والعهد ، وناقضه فى

الشيء مناقضة ونِقاضاً خالفه ، والمناقضة فى القول أن يُتكلم بما يتناقض معناه ، والمناقضة فى الشعر أن ينقض الشاعر الآخر ماقاله الأول حتى يجيء بغير ماقال ، والنقيضة الاسم يجمع على النقائض ، ولذلك قالوا : نقائض جرير والفرزدق (١) .

هذا المعنى اللغوى ، كما رأيت ، له طوران : أحدهما حسى يتمثل فى نقض البناء أو الحبل بعد عقده وإبرامه ، والثانى معنوى يبدو فى نقض العهود ، والمواثيق ، وفى نقض القول والإتيان بما يغايره ، وبهذا نصل إلى فن النقائض أو المناقضة بين الشعراء .

أما الصورة الاصطلاحية التى انتهى إليها هذا الفن منذ الجاهلية فالأصل فيها أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً ، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجياً أو مفتخراً ملتزماً البحر والقافية والروى الذى اختاره الأول ، ومعنى هذا أنه لابد من وحدة الموضوع فخراً أو هجاء أو سياسة أو رثاء أو نسيباً أو جملة من هذه الفنون المعروفة إذ كان الموضوع هو مجال المناقشة ومادّة النقائض ، ولا بد من وحدة البحر فهو الشكل الموسيقى الذى يجمع بين النقيضتين ويجذب إليه الشاعر الثانى بعد أن يختاره الأول . ولا بد من وَحدة الروى فذلك هو النهاية الموسيقية المتكررة التى تعد جزءاً من النظام الموسيقى العام للمناقضة . بقيت حركة الروى ، ولا بد من وحدتها أيضاً إتماماً لذلك التنسيق الوزنى ، وإن اختلفت فى بعض النقائض كما فى اللاميتين : الأولى للفرزدق ومطلعها :

إن الذى سمكَ السماء بنى لنا   بيتاً دعائمه أعز وأطول (٢)

---

(١) راجع لسان العرب والقاموس المحيط مادة نقض . (٢) النقائض ١٨٢ .

والثانية لجرير ومطلعها :

لِمَنِ الديارُ كأنها لم تُحلَلِ بينَ الكِناسِ و بينَ طلحِ الأعزَلِ (١)

الأولى ضمة والثانية كسرة : وهاتان أول ماجرى بين الشاعرين من المناقضة .

أما المعانى فالأصل العام فيها المقابلة والاختلاف لأن الشاعر الثانى همه أن يفسد على الأول معانيه فيردها عليه إن كانت هجاء ، ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه ، وإن كانت فخراً كذَّبه فيها ، أو فسرها لصالحه هو ، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه وهكذا مما يمر بك تفصيله فيما يلى .

جانب المعنى ، إذاً ، هو مَناطُ النقائض ومحورُها الذى عليه تدور ، يتخذ عناصره من الأحساب ، والأنساب ، والأيام ، والمآثر ، والمثالب ؛ يقول الشاعر الأول قصيدة يهجو فيها آخر أو يفخر عليه ، ويختار لها بحر البسيط مثلا ، وقافية الراء المضمومة ، فيضطر الثانى أن يرد عليه فخره وهجاءه ، وأن يلتزم البسيط وقافية الراء المضمومة ، ويكون موقفه من زميله موقف الخصم العنيدِ الذى يهجوه صريحاً ، ويسبّه ، ويكذّبه فيما يدعيه وينشر مخاريه ، ومخازى قومه ، وربما نال من شرفه وتناول حُرُماتِه ، وقد تكرر هذه المناقضة بأى بحر وقافية ، وقد يبدأ الثانى فيردُّ عليه الأول .

هذا الأخطل يقول فى قصيدته التى يمدح بها عبد الملك بن مروان هاجياً بنى كليب بن يربوع رهط جرير ، ومفضلا عليهم بنى دارم عشيرةِ الفرزدق خصم جرير الالد :

أما كُليب بنُ يربوع فليس لهم عندَ التفارُطِ إيرادٌ ولا صَدَرُ

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٦ .

مُخلَّفون ويقضى الناسُ أمرهمُ ... وهمْ بِغيبٍ وفى عمياءَ ماشعروا
مُلَطَّمون بأعقارِ الحياض فما ... ينفكّ من دارمىّ فيهمُ أثَرُ(١)

فيردّ عليه جرير بقوله من قصيدة :

أرجو لتغلبَ إذا غبّت أمورهمُ ... ألا يُبارَكَ فى الأمر الذى ائتمروا
خابت بنو تغلِب إذ ضلّ فارِطُهم ... حوضَ المكارِمِ ، إنّ المجدَ مُبتدرُ
الظاعنون على العمياءِ إن ظعنوا ... والسائلون بظهر الغيب ما الخبر(٢)

فالموضوع واحد هو الهجاء ، والبحر واحد هو البسيط ، والقافية راء مضمومة فى النقيضتين ، وأما المعانى فمن باب واحد هو الضعة والهوان ، إلا أن كُلاًّ من الشاعرين ألصقها برهط الآخر . يقول الأخطل . فى البيت الأول : إن كليبَ ابنَ يربوع لا مفاخرَ لهم يقفون بها بين الناس ؛ فيرد عليه جرير فى بيته الثانى بأن تغلب لاتعرف المكارم التى يستبق إليها الناس . ويقول الأخطل فى البيت الثانى عن قوم جرير إنهم لايدبرون شئون أنفسهم ، إذ كانت مسندة إلى الناس يقضون فيها دون أن يكون لأصحابها علم ، فيقول جرير فى بيته الثالث : إن بنى تغلب يسيرون على غير هدى ، ولا يعرفون من أمورهم شيئاً حتى يسألوا عنها الناس الذين يدبّرونها فى غيابهم لهوان شأنهم ، وفى بيت الأخطل الثالث ترى قوم جرير مُلَطَّمين عند مؤخر الحياض يضربهم آل دارم امتهاناً لهم وإذلالا ، وفى بيت جرير الأول يتنظر لتغلب ، وقد فسدت أمورهم ، ألا ينجحوا فى شىء .

وطريقة المناقضة هنا أن جريراً رد على الأخطل معانيه ، وانفرد الأخطل بتصوير مذلة كليب ، كما أن جريراً لم يأمل من بنى تغلب صلاحاً ، ومن هـذا

(١) الديوان ص ١٠٩ ... (٢) ديوان جرير ص ٢٩٥ طبعة الصاوى

المثال الجزئى تعلم أن ترتيب الأبيات فى النقيضة لا يلزم أن يكون على وفق ترتيب الأولى .

هذا الوضع الاصطلاحى قال به شعراء النقائض أنفسهم ، وذكره المسعودى حين قال : « وقد نقض دِعبل بن على الخزاعى هذه القصيدة على الكميت وغيرها وذكر مناقب اليمن وفضائلها . . »[1] وصرح به عِقال بن هاشم مناقضاً ابن ميّاده الرَّمّاح بنَ أبرد المرّى فيما كان بين اليمن ومضر من ملاحاة أيام الوليد ابن يزيد ، قال ابن ميادة :

فجَّرْنا ينابيعَ الكلامِ وبحرَهُ ... فأصبحَ فيه ذو الرِّوَايَة يَسْبَحُ
وما الشعرُ إلا شعرُ قيسٍ وخِندفٍ ... وقولُ سواهُم كُلفة وتملح

فقال عقال يجيبه :

ألا أبلغ الرَّمّاحَ (نقضَ) مَقالةٍ ... بها خَطلُ الرَّمّاح أو كان يَمزَحُ
لئن كان فى قيسٍ وخِندِفَ ألسُنٌ ... طوال وشعر سائر ليس يقدَحُ
لقد خرَّق الحىُّ اليمانون قبلَهم ... بحور الكلام تُشتَق وهى تَطفَحُ
وهمْ علَّموا مَن بعدهم فتعلَّموا ... وهم أعربوا هذا الكلامَ وأوضحوا
فللسابقين الفضلُ لا يُجحدونه ... وليس لمخلوق عليهم تبجُّحُ[2]

هذه الصورة الاصطلاحية للمناقضة تذكرنا بصورة أخرى شبيهة بها هى (المعارضة) من عارضه فى السير إذا سار حياله وحاذاه ، وعارضه بمثل ما صنع أى أتى بمثل ما أتى به ، وفعل مثلَ ما فعل ، وهذه المسألة عَروض هذه أى نظيرها ،

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ١٦٢ .

(٢) الأغانى ج ٢ ص ٣٠٩ طبعة دار الكتب المصرية والنقائض ص ٦٢٩ حيث يدعو الفرزدق جريراً إلى نقض قصيدته :

ومعارض الكلام ومعاريضه كلام يشبه بعضه بعضاً والمعارضة المباراة ، هذه خلاصة المعنى اللغوى[١] وهو حسى أولا فى السير والعمل ، ومعنوى فى القول ونحوه .

والمعارضة فى الشعر أن يقول شاعر قصيدة فى موضوع ما من أى بحر وقافية فيأتى شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفنى وصياغتها الممتازة ، فيقول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها ، وفى موضوعها أو مع انحراف عنه يسير أو كثير ، حريصاً على أن يتعلق بالأول فى درجته الفنيــة أو يفوقه فيها دون أن يعرض لهجائه أو سبه ، ودون أن يكون فخره صريحاً علانية ؛ فيأتى بمعان أو صور بإزاء الأولى تبلغها فى الجمال الفنى أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل ، أو جمال التمثيل ، أو فتح آفاق جديدة فى باب المعارضة ، وبذلك نجد فروقا بين الفنيين وإن لم تكن حاسمة تماماً ، فالمعارض يقف من صاحبه موقف المقلد المعجب ، أو المعترف ببراعته على كل حال ، ومناط المعارضة هو الجانب الفنى وحسن الأداء وليس فيها هذا السباب القبيح ، ولا يلزم أن يكون المتعارضان متعاصرين بخلاف المناقضة فى ذلك ، وإن اتفقا فى وحدة البحر والقافية ثم الموضوع غالباً ، وفى أنهما فنا المنافسة والمباراة بوجه عام .

وإذا صح ما يروى عن المباراة بين امرىء القيس وعلقمة أمام (أم جُنْدُب) فإن (المعارضة) ترجع إلى الجاهلية بين الفحول ، ونجد فيها مثالا لهذه المباراة الفنية التى لاحظت ثمرتها (أم جُنْدُب) وبها قدمت علقمة على شيخ الشعراء لأنه وصف فرسه بقوله :

فأقبلَ يَهوى ثانياً من عِنَانِه ... يمرّ كَمَرّ الرائحِ المتحلّبِ

---

(١) راجع لسان العرب مادة عرض :

وقال امرؤ القيس فى فرسه :

وللساق ألهوبٌ ، وللسَّوط دِرَّةٌ ... وللزجر منه وقعُ أهوجَ مِنْعَبِ

فقالت لامرىء القيس : فرس ابن عبدة أجود من فرسك ، قال : وبماذا ؟ قالت : سمعتك زجرت ، وضربت ، وحركت ، وقد أدرك فرس علقمة ثانياً من عنانه ، فغضب امرؤ القيس[1] ثم نجد أمثلة المعارضة فى أطوار التاريخ الأدبى إلى اليوم ، وكانت معرضاً للمنافسة والأخذ ، وترقى بعض الفنون الأدبية ، وكانت بين جميل بن معمر وعمر بن أبى ربيعة ، وبين البارودى والنابغة الذبيانى ، وبين شوقى وجماعة من السابقين أمثال أبى تمام ، والبحترى ، وابن زيدون ، والبوصيرى فهناك معارضة بين السينيتين للبحترى وشوقى ، والنونيتين له مع ابن زيدون والبائيتين له مع أبى تمام . وهناك (نهج البردة) لشوقى مع البوصيرى وهكذا مما يرجع إلى الإعجاب الفنى ومحاولة التفوق أو التعلق بالماضين .

وهذه معارضة القرآن الكريم عند من نصبوا فيها ، فلم تكن إلا محاولة إنشاء فصول بلاغية فى مستوى هذا الكتاب ، قوامها التجويد الفنى ، وتحرى مضاهاته فى أساليبه ، وإن سقطوا جميعاً دون الغاية بأمد بعيد .

وهناك المفاخرة والمنافرة : والأولى من الفخر وهو التمدح بالخصال وادعاء العظم والكبر والشرف ، وتفاخر القوم فخر بعضهم على بعض ، والأصل فى هذا الفن أن يفخر شاعر أو ناثر بذكر مآثره ومآثر قومه ، فيرد عليه آخر بمثل ذلك دون التزام البحر والقافية ، أو هجاء وتساب ، أو الالتجاء إلى حكم وإن كان ذلك يقوم فى المحافل كثيراً . والمفاخرة فن قديم كان له شأن جليل فى الحياة

---

(١) راجع القصة فى شعراء النصرانية جـ ١ ص ٩٢

الأدبية منذ الجاهلية . فكان بين العرب والفرس ، وبين عدنان وقحطان ، وبين الأوس والخزرج ، وبين القبائل العدنانية ، وقد دخلت المفاخرة فن النقائض على أنها عنصر من عناصره الأساسية بجانب الهجاء والنسيب والسياسة وغيرها(١) .

والمنافرة من النفر وهو التفرق ، والنفَر الرهط ، ونافرتُ الرجل منافرة إذا قاضيته ، والمنافرة المفاخرة والمحاكمة ، أو المحاكمة فى الحسب ، قال أبو عبيدة : المنافرة أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ثم يحكمان بينهما رجلا كفعل علقمة بن علاثة مع عامر بن الطفيل حين تنافرا إلى هرم بن قُطبة الفزارى(٢) وتمتاز عن المفاخرة ، إذاً ، بلزوم التحكيم فيها ، وكان كل من جرير والفرزدق يستأنس ، أثناء المناقضة ، بحكام قريش الذين يفصلون بينهما فيما يتلاحيان فيه من الأحساب والأنساب(٣) .

وهناك المعاظمة فى المصائب حين تدعى المرأة أنها أعظم العرب مصيبة كما حدث بين الخنساء وهنـد بنت عتبة ، إذ سوَّمت الخنساء هودجها فى الموسم وعاظمت العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية وقالت : أنا أعظم العرب مصيبة وعرفتْ لها العرب بعض ذلك ، فقالت هند : أنا أعظم من الخنساء مصيبة وسوَّمتْ هودجها براية وشهدت الموسم بعُكاظ وقالت : أقرنوا جملى بجمل الخنساء وعاظمتها بأبيها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة بن ربيعة ، وأخيها الوليد بن عُتبة الذين قتلوا فى (بدر) ثم قالت كل منهما شعراً تذكر به من فقدت ، فيه وحدة البحر والقافية(٤) .. فهذا نوع من المفاخرة أيضاً .

---

(١) راجع أمثلة المفاخرة فى بلوغ الأرب الآلوسى ج ١ ص ٢٧٨

(٢) لسان العرب مادة نفر : (٣) راجع الألوسى : بلوغ الأرب ج ١ ص ٢٨٧

(٤) الأغانى ج ٤ ص ٢١٠ دار الكتب .

من كل هذا نرى أن (المناقضة) يغلب عليها تقابل المعانى . وشيوع الهجاء الصريح . وذكر الوعيد . والفخر بالأنساب والأحساب . وتجاوز ذلك التحدى إلى القبائل والأحزاب بخلاف المعارضة .

— ٣ —

وتكون النقائض شعراً كما رأيت ، وقد تكون رجزاً ، وتسمى المراجزة أيضاً ، ولكن نوع المراجزة الذى نقصد إليه هنا هو ما توافرت له شروط المناقضة الموسيقية والموضوعية والمعنوية السالفة . وذلك نراه فيما قيل يوم (الدار) حين حمل المغيرة بن الأخنس الثقفى على الرهط الذين هجموا على دار عثمان بن عفان وهو يرتجز :

قد علمتْ جارية عُطْبولُ　　لها وِشاح ولهـا حُجولُ
أنى بنصلِ السيفِ خَنشليلُ

فحمل عليه عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعى وهو يقول :

إنْ تكُ بالسيف كما تقولُ　　فاثبُتْ لِقرنٍ ماجدٍ يَصولُ
بِمَشرفىٍّ حَدُّهُ مصقولُ

فضرب به عبدالله فقتله[1] . ادعى الأول الشجاعة والبراعة فى النضال ، فتحداه الآخر وأفسد عليه دعواه قولا ثم عملا .

وتكون المناقضة نثراً كذلك . وتتوافر فيها وحدة الموضوع . وتقابل المعانى ، تتضمن الفخر والهجاء ثم الوعيد أيضا ، وإذا صحّ ما روى من مفاوضة امرىء

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ق س ٢ ص ٣٠٠٥ طبعة أوربه .

القيس وبنى أسد بعد مقتل حُجر كان فيها مثال قديم للنقائض النثرية حين عرض عليه الأسديون الانتقام أو الدية ، أو النظرة ، فرد عليهم : أن لا كفء لحُجرٍ فى دم ، وأن من العار أن يعتاض بأبيه فداء . ولكنه انتظر[١] . فإذا تقدمنا إلى الإسلام ظفرنا بهذه النقائض النثرية بين على ومعاوية فيما تراسلاه حول الخلافة الإسلامية أو مَنْ أحق بالعرش الملكى بعد عثمان بن عفان[٢] وهى عدة رسائل قيمة أدلى فيها كلاهما بما يؤيد موقفه ويبطل حجج صاحبه ، كأن يقول علىٌّ لمعاوية إن يعتى لزمتك بعد ما بايعنى المهاجرون والأنصار ، فيرد عليه معاوية لو بايعك هؤلاء وأنت برىء من دم عثمان لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان . ويقول على إن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما ، فيقول معاوية : ليست حجتك علىَّ كحجتك على طلحة والزبير كانا بايعاك فلم أبايعك أنا ، وطال بينهما التلاحى حتى انتهى إلى الحرب .ومن أمثال ذلك مادار بين على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس من جهة وبين الخوارج الحرورية من جهة أخرى وكان احتجاج على وصاحبه قوياً خافتةٌ الخوارج[٣] .

ومن أهم هذا الضرب وأقواه ما تناقض به المنصور العباسى ومحمد بن عبد الله المهدى الذى خرج على المنصور بالمدينة ، فهى مناقضة دارت بين الطالبيين والعباسيين ، وهما شُعبتا البيت الهاشمى ، واختلطت فيها الآراء السياسية والدينية . يقول محمد بن عبد الله إن الخلافة حقهم ورثوه عن النبى لأن أباهم علياً وصى الرسول وأمهم فاطمة زوجه بنت النبى ، وأنه ابن خير الأخيار ، وخير الأشرار — يريد أبا طالب الذى مات ولم يسلم وقد روى أنه أقل أهل النار عذابا — وأن المنصور

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ١٠٣ دار الكتب . (٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٠٠ المطبعة الشرقية .
(٣) الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٢٠ ، ١٢٨ .

نقض العهد وخان الطالبين قتلا وسجنا، وأن العباسيين أخذوا حقهم بعدما استغلوا مكانتهم ثم نفوهم عنه .

فرد عليه المنصور هادما مفاخر الطالبيين مقيما على أنقاضها مفاخر العباسيين . قال : إن العباسيين أولاد العباس عم النبي . والعم أحق بالوراثة من البنت ، وأن بنى على ابن أبى طالب قد نزلوا عن حقهم فى الخلافة منذ باعه الحسن بن على معاوية عام الجماعة وأن بنى العباس هم الذى ثأروا لمظالم الشيعة العلوية من الأمويين ، وأن الطالبيين بثوراتهم يعدون جاحدين للنعمة ، إلى غير ذلك مما ذكراه وذكره معهم شعراء السياسة(١) .

وقد تجمع المناقضة بين فنّى الشعر والنثر معا كما كان بين خُفاف بن عُمير السلمى وعباس بن مِرداس ، فقد قال خفاف فى ملإ من بنى سُلَم : إن عباس بن مرداس يريد أن يبلغ فينا ما بلغ عباس بن أنَس ، ويأبى ذلك خِصال قعدن به ؛ اتقاؤه بخيله عند الموت ، واستهانته بسبايا العرب ، وقتله الأسرى . ومكالبة الصعاليك على الأسلاب ، ولقد طالت حياته حتى تمنينا موته ، فلما علم بذلك العباس قال :

خُفافُ ما تزالُ تجرُّ ذيلا ... إلى الأمر المفارق للرشادِ
إذا عاتَبتْك بنو سُلَيم ... تبيتُ لها بداهية نآدِ
وقد علم المعاشر من سُليم ... بأنى فيهمُ حسن الأيادى
فأوردْ ياخُفاف فقد بُليتم ... بنى عوف بحية بطن واد

ثم أصبح فأتى خفافاً وهو فى ملأ من بنى سليم فقال له : إنك لتعلم أنى أحمى

---

(١) راجع الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٢٩٣ وتاريخ الشعر السياسى لأحمد الشايب : الفصل الثانى من الباب الثالث .

المصافَ وأُطاق الأسير ، وأصون السبِيَّة . وأما زعمك أنى أتقى بخيلى الموت فهات من قومك رجلا اتقيت به . وأما استهانتى بسبايا العرب فإنى أحذو القوم فى نسائهم بفعالهم فى نسائنا . وأما قتلى الأسرى فإنى قتلت الزَّبيدى بخالك إذ عجزتَ عن ثأرك . وأما مكالبتى الصعاليك على الأسلاب فوالله ما أتيت على مسلوب قط إلا لُمْتُ سالبَـه ، وأما تمنيك موتى فإن مت فأغنِ غنائى . . إلى نحو ذلك ثم انصرف فقال خفاف أبياتاً منها :

ولم تقتلْ أسيرَكَ من زَبيد ... بخالى بل غدرتَ بمُستقادِ
فزَندُكَ فى سُـليم شر زَند ... وزادك فى سُـليم شر زادِ

وقد أدّت الملاحاة بينهما إلى القتال فالمناقضـة ، ونشط بينهما أهل الفساد حتى طال اللجاج شعراً ونثراً . كقول خفاف : —

يأيها المُهـدى لىَ الشتم ظالمـا ... ولستُ بأهل حين أذكر للشتمِ
أبى الشتمَ أنى سـيد وابن سادة ... مطاعينَ فى الهيجا مطاعيمَ للجرم
همُ منعوا الضَّرا أباك وطاعنـوا ... وذاك الذى يُرمى ذليلا ولا يرمى

فقال العباس :

يأيها المهـدى لى الشـتم ظالما ... تبَيَّنْ إذا راميتَ هَضْبَةَ مَنْ ترمى
أبى الذمَّ عرضى ، إن عرضىَ طاهر ... وأنىَّ أبىٌّ من أباةٍ ذوى غَشْم
وإنى من القـوم الذين دماؤهم ... شِفاء لطلَّاب التراتِ من الرغم (١)

على أن ما يتجادل به الـكتاب اليوم حول المواقف والأحزاب السياسـية ، والاجتماعية ، والأدبية ليس إلا نوعاً من النقائض النثرية ، يحاول به كل فريق إبطال آراء الآخر وإقامة آرائه مكانها .

---

(١) راجع القصة كاملة فى الأغانى ج ١٦ ص ١٤٠ بلاق :

وإذا رجعت إلى نماذج المفاخرة ، والمنافرة ، والمعاظمة التى أشرنا إليها فيما مضى رأيت منها قسما كبيراً يقوم على النثر فوق قيامه على الشعر .

بقيت المعارضة ، والأمر فيها يسير واضح ، فقد سلك الكتاب فيها مسلك الشعراء ، وكان منها رسائل ، ومقومات ، ظهرت بين الخوارزمى وبديع الزمان فى الرسائل ، وبين الحريرى والبديع ومن تابعهما فى المقامات ، وقد قام ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) يعارض بعض الكتاب السابقين بما أنشأ من رسائل وفصول معتزاً بآثاره ، معجباً بنفسه ، من ذلك ما عارض الصابى فى تقليد بنقابة الأشراف العلويين ببغداد ، فكتب ابن الأثير تقليداً بنقابة الأشراف العلويين بالموصل (١) وغيره كثير فى تضاعيف كتابه . ونرى هنا أيضاً أن المعارضة النثرية منصبة على الجانب الفنى ، والتجويد فيه ، دون التفات إلى جوانب التهاجى التى ترد فى المناقضة النثرية أيضاً ، وكانت المعارضة فى الرجز كذلك .

* * *

وإذا كان الفخر ، والهجاء ، والحماسة ، هى الفنون الرئيسية لفن (النقائض) الشعرى فقد تناول أيضاً الرثاء ، والنسيبَ ، والسياسةَ ، والمديحَ ، أو كانت هذه الفنون الفرعية من عوامل المناقضة وعناصرها منذ وجد هذا الضرب فى الجاهلية ، وعلينا أن نشير هنا إلى شىء من شواهد ذلك إتماماً لهذه النقطة الدراسية .

رأيت فيما مضى أمثلة الهجاء بين جرير والأخطل ، والفخر بين ابن ميَّادة وعِقال بن هاشم ، والحماسة متصلة بالفخر والهجاء وإن كانت أشد اتصالا بالأيام والحروب ، من ذلك ما قال الفرزدق فى قتل وكيع بن أبى سُود قتيبةَ بن مسلم الباهلى بخراسان :

---

(١) المثل السائر ص ١٢٢ بلاق ١٢٨٢ هـ

قدّى لسُيوفٍ مِن تميمٍ وفى بها ... ردائى وجلّت عن وُجوهِ الأهاتمِ
شفَينَ حزازاتِ النفوس ولم تدع ... علينا مقالا فى وفاء لِلَائمِ (١)

فيرد عليه جرير بقوله :

فَغيرُكَ أدّى للخليفة عهدَهُ ... وغيرُك جلّى عن وجوه الأهاتمِ
فإنْ وكيعاً حين خارت مجاشع ... كَفَى شَعْبَ صدع الفتنة المتفاقمِ
تُدَافِعُ عنكم كُلَّ يومِ عظيمةٍ ... وأنتَ قُراحِيٌّ بسِيفِ الكواظمِ (٢)

وكان القاتل من يربوع رهط جرير ، فكان أولى بالفخر به من الفرزدق ولكن الفرزدق تناول المسألة من أفق أعلى فذكر الفضل لتميم كلها . وكان موقفه موقف الزعيم على تميم كلها لاعلى مجاشع رهطه الأدنين ، وهذا الشاهد متصل بالسياسة العليا للدولة الأموية إذ كان قتيبة متهما بخلع طاعة سليمان بن عبد الملك .

وحدث أن تحابَّ يزيد بن الطثرية وَوَحْشِيّة الجرْمية وكان بينهما تزاور ، فثار لذلك (فُدَيك) الجرْمى زعيم أسرة وحشية ، ولكنها لم تبال ثورته واتصلت بيزيد ، فاتخذ زُبْيةً وأضرم فيها ناراً خفيفة سقطت فيها وحشية وهى سائرة للقاء صاحبها واحترقت رجلها وردها غلمان فدَيك إلى بيتها ، وتهاجى الرجلان لذلك فقال فديك :

شَفَى النفسَ من وَحْشِيّةَ اليومَ أنها ... تهادى وقد كانت سريعاً عَنيقُهَا
فإلا تدعْ خبطَ الموارِدِ فى الدجى ... تكنْ قَمِنا من غشية لاتُفيقُها
دواءُ طبيب كان يعلم أنه ... يداوى الجانِينَ الخَلِّى طريقُها

فأجابه يزيد :

ستبرأُ مِن بَعدِ الضَمانةِ رِجلها ... وتأتى الذى تهوَى مُخَلّى طريقها

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٢١ (٢) نفس المرجع ص ٩٩ :

عليّ هدايا البُدن إن ألاقها ... وإن لم يكنْ إلا فُديكٌ يسوقُها
يحضّنها مِنّى فُدَيك سفاهةً ... وقد ذهبتْ فيها الكياسُ وحوقها
تُذيقونها شيئاً من النارِ كلّ ... رأتْ مِن بنى كعب غُلاماً يرقُها[1]

فقد دارت المناقضة هنا على أصل اجتماعى ، هو ما كان بين هذين الحيين من صلات ، وكان النسيب أداته التى تحدى بها يزيد خصمه فُديكا ، وقبل هذين اعتمدت النقائض على النسيب بين حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم فيما قالا يوم (الرّبيع) من أيام الأوس والخزرج ، فقد شبّب حسان (بليلى) أخت قيس حيث يقول :

لقد هاج نفسك أشجانُها ... وعاودها اليومَ أديانُها
تذكرتُ ليلى وأنّى بها ... إذا قُطِّعت منكَ أقرانُها

القصيدة[2] فأجابه قيس مشبباً (بعَمرة) زوج حسان إذ يقول :

أجدّ بعَمرةَ غُنيانُها ... فتهجرَ أم شانُنا شانُها
وإن تُمسِ شطّت بها دارُها ... وباح لك اليوم هِجرانُها
فما روضة من رياض القَطا ... كأن المصابيحَ حَوْذانُها
بأحسنَ منها ، ولا مُزنَةٌ ... دَلوحٌ تكشّفُ أدجانُها

إلى آخر ما قال

وكانت السياسة أيضاً مادة للنقائض داخلة فيما دار بين شعراء الجاهلية والإسلام حول الأيام ، ومكانة القبيلة ، والإمارة ، ثم نظام الدوله وتكوين الأمة العربية وقد أفردنا للشعر السياسى دراسة خاصة فيها شواهد النقائض

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ١٢١ دار الكتب
(٢) الأغانى ج ٣ ص ١٢ ... (٣) ديوان قيس ص ٧

السياسية[١] ونذكر هنا ماقال كعب بن جُعيل تصير معاوية بن أبي سفيان فيما كان بين عليّ ومعاوية من خلاف على الحكومة الإسلامية :

أرى الشامَ تكرهُ مُلكَ العرا ... قِ ، وأهلُ العراقِ له كارهونا
وكلٌّ لصاحبــه مُبغضٌ ... يرى كلَّ ما كان من ذاك دينا
وقالوا : على إمام لنــا ... فقلنا : رضينا ابن هند رضينا

الأبيات ، فرد عليه النجاشي بقوله :

دَعنَّ معاوى مالن يكونا ... فقد حقّق الله ماتحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهـل العِرا ... ق وأهل الحجاز ، فما تصنعونا
فإن يكره القوم مُلكَ العرا ... قِ فقِدماً رضينا الذي تكرهونا[٢]

ورفض كلٌّ ما رأى الآخر من الولاء لصاحبه ، على أن نقائض الفحول الإسلاميين متصلة بالسياسة اتصالا قوياً .

ولما ماتت زوج جرير ، خالدة بنت سعد أم ابنه حَزْرة ، قال في رثائها :

لولا الحياء لهاجنى استعبارُ ... ولزُرت قبركِ والحبيبُ يُزارُ
نعمَ القرينُ وكنتِ علقَ مَضِنّةٍ ... وارَى بنعفِ (بُليّةَ) الأحجارُ
عَمرتْ مُكرّمةَ المساكِ وفارقتْ ... ما مسّها صَلَفٌ ولا إقتارُ[٣]

إلى آخر ما بكاها به ، فرد عليه الفرزدق يفسد معانيه من نقيضة :

كانت مُنافِقةَ الحياةِ وموتُها ... خِزىٌ علانيةٌ عليكَ وعارُ
فلئن بكيتَ على الأتان لقد بكى ... جزعاً غَداة فراقِها الأعيارُ
تبكى على امرأة وعندك مثلُها ... قعساء ليس لها عليك خِمارُ[٤]

---

(١) تاريخ الشعر السياسي للمؤلف .
(٢) الاخبار الطوال للدينوري ص ١٦٣ .
(٣) النقائض ص ٨ و ٨ .
(٤) المرجع السابق ص ٨٧٤

فكان فن الرثاء من معارض النقائض ووسائلها المقررة .

وكان الفرزدق يهجو قيس عيلان فى قصيدته التى قالها فى مصرع قُتيبة :

لقد شهدت قيسٌ فما كان نصرُها   قتيبة إلا عضَّها بالأباهِم

فإن تقعدوا تقعد لئامٌ أذلَّة   وإن عُدتمُ عدنا ببيض صَوارم

تحرّكُ قيسٌ فى رءوس لئيمةٍ   أنوقاً وآذاناً لئامَ المصالم[(١)]

فيرد عليه جرير مادحاً قيس عيلان معتزاً بها :

وما زال فى قيس فوارسُ مَصدَقٍ   حُماةٌ وحمّالون ثِقلَ المغارم

فإن شئتَ من قيس ذُرَى مُتَمنّعٍ   وإن شئتَ طَوداً خِندِفِيّ المَخارم

وقيسٌ هم الكهف الذى نستعِدُّه   لدفعِ الأعادى أو لحِلِ العظائم[(٢)]

وهكذا كانت فنون الشعر العربى وسائل المناقضة وأدواتها فخلفت لنا فناً من أهم فنون الشعر العربى .

— ٤ —

وتكون المناقضة بين شاعرين ، كما رأيت ، وقد يشترك فيها ثلاثة ، فهذا حسان بن ثابت يقول فى يوم بنى قُرَيْظة : —

تفاقدَ معشرٌ نصروا قريشاً   وليس لهم ببلدتهم نصيرُ

هم أوتوا الكتابَ فضيَّعوهُ   وهُمْ عُميٌ من التوراة بُورُ

فهان على سراةِ بنى لؤى   حريقٌ بالبُوَيرة مُستطيرُ[(٣)]

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقال : —

أدام الله ذلك من صنيع   وحرّق فى طرائقها السعيرُ

---

(١) نفسه ص ٣٧٤   (٢) نفسه ص ٤٠٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٨٤ طبعة الحلبى .

ستعلم أينا منهـــا بنزوٍ ... وتعلم أىّ أرضينا تضيرُ
فلو كان النخيل بهـا ركابا ... لقالوا : لا مقام لـكم فسيروا[١]

وأجابه أيضاً جبل بن جوّال الثعلبي فقال من أبيات : —

وأقفرت البُوَيرةُ من سلامٍ ... وسَعْيةَ وابن أخطب فهي بورُ
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا ... كما ثقلتْ بميطانَ الصخورُ
أقيموا يا سَراةَ الأوس فيها ... كأنـكمُ من المخزاة عُورُ[٢]

وكذلك ما تناقض به عبـد الله بن الزِّبعرى وحسان بن ثابت وكعب بن مالك يوم الخندق[٣] .

وقد تكون النقائض فى الملحمة الواحدة أكثر من اثنين مع المحافظة على أصول المناقضة المعروفة ، كما حدث بين عباس بن مرداس وخوّات بن جُبير فى جلاء بنى النَّضير وقد اشترك فى هذه الملحمة ثلاثة شعراء ، قال عباس بن مرداس السلمى يمدح بنى النضير :

لو أنّ أهـلَ الدارِ لم يتصدّعوا ... رأيتَ خلالَ الدار مَلْهًى ومَلعَبا
إذ جاء باغى الخير قلنَ فُجاءةً ... له بوجوه كالدنانير : مَرْحبا
وأهلاً فلا ممنوعَ خير طلبتَهُ ... ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنَّبا

فأجابه خوّاتُ بن جُبير أخو بنى عمرو بن عوف فقال من أبيات : —

تُبَـكِّى على قتلَى يهود وقد ترى ... من الشجو لو تبكى أحبَّ وأقربا
فهـلاَّ إلى قومٍ مُلوكٍ مَدحتَهم ... تَمنَّوا من العزِّ المؤثّل مَنصِبا
أولئك أحرى من يهودَ بِمدحةٍ ... تراهم وفيهـم عِزةُ المجدِ تُرتُبا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٥ (٢) نفس المرجع (٣) المرجع السابق ص ٢٦٨ — ٢٧٦

فأجابه عباس بن مرداس من أبيات :

هجوتَ صريحَ الكاهنين وفيكم ... لهم نِعَم كانت من الدهر تُرتَبا
أولئك أحرى لو بكيت عليهمُ ... وقومُك لو أدَّوا من الحق واجبا
من الشكر إن الشكر خيرٌ مَغَبَّةً ... وأوفق فعلا للذى كان أصوبا

فأجابه كعب بن مالك أبو عبد الله بن رواحة ، فقال من أبيات : —

لعمرى لقد حكَّت رحى الحرب بعدما ... أطارت لُؤَيًّا قبلُ شرقًا ومغربَا
بقيَّةَ آل الكاهنَين وعزَّها ... فعادَ ذليلا بعد ما كان أغلبَا
فبُعدا وسُحقًا للنضير ومثلها ... إن اعقبَ فتحٌ أو إن اللهُ أعقبا(١)

وقد حدثت المناقضة بين الحطيئة العبسى وضيفه روى صاحب الأغانى(٢) أن صخر بن أعيى الأسدى نزل بالحطيئة ، فسقاه شربة لبن ، فلما شربها قال من أبيات :

لما رأيتُ أن مَنْ يبتغى القِرَى ... وأن ابنَ أعيى لامحالةَ فاضِحِى
شددتُ حيازِيم ابنِ أعيى بشربة ... على ظمإ سدّت أصولَ الجوانِح

الأبيات . فأجابه صخر بنُ أعيى فقال : —

ألا قبَّحَ الله الحطيئة إنه ... على كل ضيفٍ ضافه هو سانِحُ
دُفِعتُ إليه وهو يخنق كلبَه ... ألا كلُّ كلب لاأبالكَ، نابِحُ
بكيتَ على مَذْقٍ خبيث قريتَه ... ألا كلُّ عَبْسِىٍّ على الزادِ شائحُ

كذلك كانت بين المرء وأخيه ، فقد قال ذو الرُّمَّةِ لأخيه هشام : —

أغرَّ هشاما من أخيه ابنِ أمه ... قوادمُ ضأنٍ أقبلت وربيعُ
وهل تخلُفُ الضأنُ الغِزارُ أخاالفتى ... إذا حَلّ أمرٌ فى الصدورِ فظيع

---

(١) تجد هذه الشواهد فى نفس المرجع ص ٢١١ — ٢١٣ (٢) ج ٢ ص ١٧٣ دار الكتب

فأجابه هشام : —

إذاً بانَ مالى من سوائك لم يكنْ ... إليك ، وربِّ العالمين رُجوعُ
فأنتَ الفتى ما اهتزَّ فى الزَّهرِ الندى ... وأنتَ إذا اشتدَّ الزمانُ قنوع (١)

وكانت بين المرء ونفسه ، روى أبو الفرج فى أغانيه أن عُيينة بن مرداس التميمى قدم على ابن عامر بن كريز ، وكان جواداً ، فلما استؤذن له عليه أرسل إليه إنك ، والله ، ما تسأل بحسب ولا دين ولا منزلة ، وما أرى لرجل من قريش أن يعطيك شيئاً ، وأمر به فلُكز وأهين فقال : —

وكأن تخطَّت ناقتى وزميلُها ... إلى ابن كُريز من نحوس وأسعُدِ
وأغبر مَسحولِ التراب ترى له ... خباً طرّدته الريح من كل مَطْرَدِ
لعمركَ إنى عند باب ابن عامر ... لكالظبى ، بعد الرَّميةِ المتردّد
فلم أر يوما مثله إن تكشّفت ... ضبابته عنى ولما أُقيَّدِ

فبلغ قولُه ابن عامر فخاف لسانه وما يأتى به بعد هذا ورجع له وأحسن القوم رفده وقالوا هذا شاعر فارس وشيخ من شيوخ قومه والقليل يرضيه فقال ردوه ، فرُدَّ ، فقال له : إيه يا عُيَينة ، اردد علىّ ما قلت ، فقال : —

أتعرف رسم الدار من أم معبد ... نعم ، فرماك الشوق قبل التجلُّدِ
فيالكَ من شوقٍ ويالكِ عَبرةً ... سوابقها مثلُ الجمان المبدَّدِ
وكأن تخطت ناقتى وزميلها ... إلى ابن كريز من نحوس وأسعد
فتى يشترى حُسنَ الثناء بماله ... ويعلم أن المرء غيرُ مُخلّدِ
إذا ما مُلمّاتُ الأمور اعتلينه ... تجلى الدُّجى عن كوكب متوقد

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١١١ بلاق

فتبسم ابن عامر ، وقال : لعمري ما هكذا قلت ، ولكنه قول مستأنف ، وأعطاه حتى رضى .

وصفه أولا بالبخل و إهمال قاصديه و إذلالهم ، ثم عاد فوصفه بالكرم ومضاء العزيمة ناقضاً بقوله الثانى ما قال أولا .

ونحو ذلك ما حدث حين كان الحسن بن زيد قد عوّد داود بن سلم أن يصله فلما مدح داود جعفر بن سليمان — وكان بينه و بين الحسن تباعد شديد — أغضب ذلك الحسن فقدم من حج أو عمرة فدخل عليه داود مسلماً فقال له الحسن : أنت القائل فى جعفر : —

وكنا حديثاً قبل تأمير جعفر   وكان المنى فى جعفر أن يؤمَّرا

الأبيات ، فقال داود جعلنى الله فداءكم ، فكنتم خير اختياره ، وأنا الذى أقول : —

لعمرى لئن عاقبتَ أو جُدت منعما   بعفو عن الجانى و إن كان مُعذَرا .الخ

فعاد الحسن إلى ما كان عليه ، ولم يزل يصله و يحسن إليه إلى أن مات[1] .

وكذلك ما قال عبد الرحمن بن الحكم لما ادعى معاوية زياداً حتى غضب عليه معاوية وحلف ألا يرضى عنه حتى يرضى عنه زياد ، فقال عبد الرحمن شعراً ينقض به ما قال أولا فرضى عنه زياد ثم معاوية[2] .

وكانت المناقضة بين الحىّ والميت . كما حدث « يوم سَحبل » بين جعفر ابن عُلبة الحارثى و بين (معاذ) العقيلى ، فقد كان جعفر قال : —

ألا ، لا أبالى بعد يوم بسَحبَلٍ   إذا لم أُعذَّبْ أن يجى حِماميا

---

(١) مهذب الأغانى ج ٦ ص ١٨٩ (٢) نفسه ج ٧ ٤٠

القصيدة ، فلما قُتِل أجابه معاذ بأبيات أولها : ـ

أبا جَعفرٍ سَلِّمْ بنجرانَ واحتَسِب أبا عارمٍ والمُسْمِناتِ العواليا

وسيأتى ذكر ذلك فى الباب الأول .

وكانت بين المرأة وحبيبها ؛ فقد هَوِى ابن الدُمَينةِ امرأة من قومه يقال لها أُمَيمة فهام بها مدة . فلما وصلته تَجنّى عليها ، وجعل ينقطع عنها ، ثم زارها ذات يوم فتعاتبا طويلا ، ثم أقبلت عليه فقالت له : ـ

وأنتَ الذى أخلفتَنى ما وعدتَنى وأشمتَّ بى مَن كان فيكَ يلومُ

وأبرزْتنى للناس ثم تركتَنى لهم غَرَضا أُرمَى وأنتَ سليمُ

فلو أن قولا يَكلِمُ الجسمَ قد بدا بجِسمىَ من قولِ الوُشاةِ كُلومُ

فأجابها ابن الدُّمَينة فقال :

وأنتِ التى قطَّعتِ قلبى حرارةً ومزَّقتِ قَرحَ القلبِ فهو كَليمُ

وأنتِ التى كلَّفتِنى دَلَجَ السُرى وجُونُ القطَا بالجَلهتَينِ جُثومُ

وأنتِ التى أحفظتِ قومى فكلّهم بعيدُ الرِضا دامى الصدور كظوم(١)

وبين المرأة وخصمها فى يوم المروت ، لتميم على عامر قال يزيد بن عمرو ابن الصَّعِيق : ـ

أورادَةً علىَّ بنو رِياحٍ بعيرهمُ وقد قتلوا بَحيرَا

فقالت العوراء أخت بنى رياح تَرد عليه من أبيات : ـ

قعيدَكَ يا يزيدُ أبا قُبَيْسٍ أتُنذِرُ كى تلاقينَا النذورا

وتوضِعُ تخبرُ الأقوام أنا وُجِدنا فى ضِراس الحربِ خُورا

ألم تعلم ، قعيدَك ، يابن عمرو بأنا نعمُ الشيخَ الفَخورا(٢)

(١) نفس المرجع جـ ١٥ ص١٥٤ بولاق

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٢

و بين امرأتين ؛ هذه هند بنت عتبة زوج أبى سفيان تقول يوم أحد :—

نحن جزيناكم بيوم بدرِ والحربُ بعدَ الحرب ذاتُ سُعْرِ
ما كان لى عن عُتبةٍ من صَبرِ ولا أخى وعمّه وبَكرى
شفيتُ نفسى وقضيتُ نذرى شفيتَ وَحشىُّ غليلَ صدرى
فشكرُ وحشىٍّ علىَّ عمرى حتى تَرُمَّ أعظمى فى قبرى

فتجيبها أروى بنت الحارث بن عبد المطلب :—

يا بنتَ جبّارٍ كثيرِ الكُفْرِ خُزيتِ فى بدر وغير بدرِ
صبّحكِ اللهُ قُبَيْلَ الفجْرِ بالهاشميينَ الطوال الزُهرِ
بكل قطّاع حُسامٍ يفرى حمزةُ ليثى وعلىّ صقرى
إذ رام شَيْبٌ وأبوكِ غدرى فخضَبا منه ضَواحِيَ النحرِ (١)

وأخيراً نجد المناقضة بين طائفتين من الشعراء أو مدرستين من مدارسه ، فقد طلب الحطيئة من كعب بن زهير — وكان الحطيئة راوية زهير وآله — أن يقول شعراً يذكره فيه معه لأن الناس أروى لشعر آل زهير وإليه أسرع ، فقال كعب:

فمن للقوافى شانَها مَن يحوكها إذا ما ثوى كعبٌ وفوّزَ جَرْوَلُ
كفيتُك ، لا تلقى من الناس واحداً تنخّلَ منها مثلَ ما نتنخّلُ
نقول فلا نعيا بشىء نقوله ومن قائليها مَن يسئُ ويُجملُ
نثقّفها حتى تلينَ مُتونُها فيقصر عنها كلُّ ما يتمثّلُ

فاعترضه مُزَرّد أخو الشمّاخ ، فقال يذكر رهطه من الشعراء : —

وَباستِكَ إذ خلّفتَنى خلفَ شاعرٍ من الناسِ لم أُكفِىء ولم أتنحّلِ

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٩٧ حلبى .

فإن تخشبا أخشب وإن تتنحلا — وإن كنت أفتى منكما أتنخل
فلست كحسان الحسام ابن ثابت — ولست كشماخ ولا كالمخبل[1]

وقد أتى الكميت بعد ذلك بمدة فرد على كعب بن زهير[2].

وكما حدثت المناقضة بشعر أصيل من قول المتناقضين ، حدثت أيضاً بالتمثل بشعر الشعراء الآخرين ، فقد نظر الحجاج إلى يزيد بن المهلب يخطر في مشيته فقال : لعن الله المغيرة بن حبناء حيث يقول : —

جميل المحيا بختري إذا مشى — وفي الدرع ضخم المنكبين شناق

فالتفت إليه يزيد فقال : إنه يقول فيها : —

شديد القوى من أهل بيت إذا وهى — من الدين فتق حملوا فأطاقوا
مراجيح في اللأواء إن نزلت بهم — ميامين قد قادوا الجيوش وساقوا[3]

وفي الأغاني[4] خرج يزيد بن عمر بن هبيرة (الفزاري) يسير بالكوفة فانتهى إلى مسجد بني غاضرة وقد أقيمت الصلاة فنزل يصلي واجتمع الناس لمكانه في الطريق ، وأشرف النساء من السطوح ، فلما قضى صلاته قال : لمن هذا المسجد ؟ قالوا: لبني غاضرة ، فتمثل قول الشاعر :

ما إن تركن من الغواضر معصراً — إلا قصمن بساقها خلخالا

فقالت له امرأة من المشرفات :

ولقد عطفن على فزارة عطفة — كر المنيح وجلن ثم مجالا

فقال يزيد : من هذه ؟ فقالوا : بنت الحكم بن عبدل ، فقال : هل تلد الحية إلا حية ؟ وقام خجلا .

---

(١) الأغاني جـ ٢ ص ١٦٥ دار الكتب . (٢) الشعر والشعراء ص ٧٠ أوربة
(٣) الأغاني جـ ١١ ص ١٧٠ بولاق (٤) ترجمة الحكم ابن عبدل جـ ٢ ص ١٥٦ بولاق

فالبيتان للأخطل من نقيضه له مع جرير[١] ، وقد وردا فيها متجاورين ، و بنو غاضرة بطن من أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس من مضر ، وفزارة بطن من ذبيان ابن بغيض من قيس عيلان ، وذكر الأخطل ما كان للهذيل التغلبي من أثر سيء فيهما ،

فلما تمثل يزيد بن هبيرة الفزاري بالبيت الأول كان منه نبزاً لغاضرة ، لذلك قابلته بنت الحكم بن عبدل الأسدي بنبز آخر لفزارة ، والبيتان ليسا لهما كما رأيت .

كذلك فى المثال الأول نجد الحجاج يرمى يزيد بن المهلب بالعجب والغرور ، فرد عليه يزيد بإثبات فضائل لنفسه من شجاعة وهمة ونجدة وصبر وسناء ، كأنه كذبه أو أثبت أحقيته فى الإعجاب بنفسه ، والشعر لابن حبناء ليس لهما فيه شيء .

وقد لاحظنا فى المناقضة ، ولا سيما ما كان منها بين فحول الأمويين ، أن البادىء يكون ، غالباً ، أطول نفساً ، وأقوى أسلوباً ، وأقوم معاني ، بخلاف الثانى فيكون أقصر قصيداً ، وأضعف صياغة ، وأهون معانى ، ولعل ذلك راجع إلى أن الشاعر الأول حر فى اختيار الموضوع ، والمعانى ، والوزن ، والقافية ، ويكون مليئاً بغرضه ، متأثراً ببواعثه فيختار ما يجعل قصيدته رائعة ، حتى إذا جاء الثانى وجد نفسه مقيداً بموضوع ربما لا يجيده ، وقد سبقه صاحبه إلى عفو المعانى وأحسنها ، وفرض عليه بحراً وقافية ، ووقفه أمام أمر واقع لم يستعد له فيخوضه مكرهاً أو محرجاً فيقصر عن صاحبه ، تجد ذلك فى الرائيتين للأخطل وجرير اللتين أوردنا شاهداً منهما قبلا فكان الأخطل مبرّزاً : قصيدته طويلة ، حسنة التقسيم ، كثيرة الفنون ، تناولت السياسة الأموية ومدح الخليفة وهجاء قيس وكليب بن يربوع فى حين أن جريراً وقف عند النسيب والهجاء والفخر مع قصر النفس

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٧٩ .

وضعف الأسلوب ، وكذلك كان جرير مع الفرزدق فى الميميتين اللتين قيلتا فى مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى ، ولكن جريراً لما بدأ المناقضة فى البائية التى هجا بها الراعى وقومه كان مجلياً مظفراً لم يبلغ الفرزدق فيها مبلغه فى طول النفس وروعة الأسلوب[1]

— ٥ —

ولكن كيف كانت المناقضة بين المعانى ؟

سلك شعراء النقائض ، فى نقض المعانى ، طرقاً شتى ترجع إلى أصل عام واحد هو أن يعنى الشاعر الثانى بإفساد ما يقرره الأول ، فيكذب ما يدعى ، أو يضع إزاءه ما يقابله ، أو يفسره لصالحه ويقلل أهميته ، ونشير هنا إلى بعض الطرق التى اعتمدها المتناقضون فى هذه الملاحم الشعرية :

١ — من ذلك القلب ، يقول الشاعر الأول هاجياً فيرد عليه الثانى قالباً عليه معانيه ذاتها مُدّعياً أنها من صفات الأول أو رهطه كما رأيت ذلك ، فيما مر ، بين الأخطل وجرير ، وكما حدث بين غسّان بن ذُهيل وجرير ، إذ قال الأول :

لَعمرى لئن كانت بَجيلةُ زانَها ... جَريرٌ ، لقد أخزَى كُليباً جَريرُها
رَميتَ نِضالا عن كُلَيب فقصَّرت ... مَراميكَ حتى عاد صِفراً جفيرُها
ولا يذبحون الشاة إلا بِمَيسرٍ ... طويلٌ تناجيها صِغارٌ قدورُها

فضل عليه جريراً البَجلى ، ورماه بالعجز عن الدفاع عن قومه ، وبأن قومه بُخلاء ، فأجابه جرير فقال من أبيات :

---

(١) البائية لجرير ص ٤٣٢ من نقائض جرير والفرزدق .

ألا ليتَ شِعرى عن (سَليطِ) ألم تجِدْ … سَليط سِوى غسانَ جارا يُجيرُها
فقد ضمّنوا الأحسابَ صاحبَ سَوءةٍ … يُناجي بها نفساً خبيثاً ضميرُها(١)

يرى أن غسان (وهو من سَليط) أعجز من أن يدافع عن قومه ، وأن أحسابهم ضائعة مادام غسان هو المناضل عنها لخبث ضميره وهوان نفسه ، وبذلك رد إليه ما قال ، ورماه بنفس ما ادعى .

٢ — ومنها المقابلة أو الموازاة ، وهذه أن يضع الثانى من لمفاخر أو المثالب ضروباً تقابل ما وضع الأول وتكون مناظرة لها ، فلما قال الأخطل لجرير :

إخسأ إليكَ كُليبُ إن مُجاشِعاً … وأبا الفوارسِ نَهشلاً أخوانِ
وإذا وردتَ الماءَ كان لدارِمٍ … جُمّاتُه وسُهولةُ الأعطانِ
وإذا قذفتَ أباكَ فى ميزانهم … رجحوا وشال أبوكَ فى الميزانِ

يفضل نهشلا ومجاشعاً (من دارم قوم الفرزدق) على بنى كليب رهط جرير ويقرّب بينهما فى وجهه ، ويرمى قوم جرير بالتخلف عن دارم ، وأن هؤلاء أمكن منهم فى المجد والمكانة ، أتى جرير فكوّن صورة كهذه ورمى بها الأخطل ، بأن فضّل بنى شيبان من بكر على تغلب ـ رهط الأخطل ـ وهما أبناء عمومة فوق ما غمز الأخطل بالرشوة التى رشاه بها محمد بن عُمير بن عطارد وكانت زقا من خمر وحُلة ليفضل الفرزدق على جرير ، قال جرير :

ياذا العباءة إن (بشراً) قد قضى … ألا تجوز حكومة النشوانِ
فدَعوا الحكومةَ لستُمُ من أهلها … إن الحكومة فى بنى شيبانِ
قتلوا كُليبَكم بِلقحةِ جارهم … يا خُزرَ تغلبَ لستُمُ بهجانِ(٢)

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٥ دار الكتب
(٢) نفس المرجع ص ١٧ .

فبكر خير من تغلب ، وهم الذين قتلوا كليب بن ربيعة التغلبي بناقة صرعها، وكان من ذلك حرب البسوس المشهورة .

ومن شواهد هذا الضرب ـ المقابلة ـ أن الأخطل افتخر بيوم (الحشاك) لتغلب على قيس عيلان وفيه قتل عُمير بن الحُباب السُّلمى ، فقال :

أمستْ على جانب الحشّاك جيفته ورأسه دونه اليحموم والصُّوَرُ
يسأله الصبرُ من غسّان إذ حضروا كيف قراكَ الغلمة الجَشَر[1]

فذكر جرير ، بإزاء ذلك ، يومَ البِشر الذى نكّل فيه القيسيون بتغلب نكالا شديداً ، فقال :

إنى رأيتكم والحق مَغضَبةٌ تخزون أن يُذكرَ الجحّاف أو زفر
فما منعتمْ غداةَ (البِشر) نسوتكم ولا صَبرتم لقيس مثلَ ما صبروا
أسلمتم كل مُجتابٍ عباءته وكلَّ مخضَرَّةِ القُرْبين تُبتَقرُ[2]

٣ — ومن ضروب المناقضة التوجيه وذلك أن تحدث الحادثة ويتناولها الشاعران وكل يفسرها تفسيراً يؤيد موقفه فى الفخر أو الهجاء ، من ذلك موقف جرير مع قيس عيلان فقد فسره الفرزدق بأنه ارتزاق وبيع للأهل بمال الرشوة وقال فى ذلك يخاطب جريراً من نقيضة :

أدِرسانَ قيسٍ ، لا أبالك ، تشترى بأعراض قوم هُمْ بُناةُ المكارمِ
فما أنت مِن قيسٍ فتنبحَ دونَها ولا من تميم فى الرءوس الأعاظِمِ[3]

فرد عليه جرير بأن ذلك الموقف طبعى إذ كانت قيس أحق الناس بالثناء دون تغلب ودارم ، فقال :

---

(١) ديوان الأخطل ص ١٠٦ . (٢) ديوان جرير ص ٢٦٠

(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٧٩ .

وإنى وقيساً يابنَ قَيْنِ مُجاشع　　كريمٌ أُصفِّى مِدحتى للأكارم
وقيس هم الكهف الذى نَستَعِدُّهُ　　لدفع الأعادى أو لحمل العظائم [1]

وكذلك مسألة السيف ، فقد حج سليمان بن عبد الملك ، ولما كان بالمدينة تلقوه بأسرى الروم فجعل يدفعهم إلى الناس يقتلونهم حتى دفع إلى جرير رجلا منهم فقتله ودفع إلى الفرزدق آخر فضرب به فلم يضع شيئا فضحك منه القوم ، وأخذ الفرزدق يعتذر بنبوِّ سيف ورقاء بن زهير عن رأس خالد بن جعفر الكلابى [2] وأخذ جرير يعيِّر الفرزدق بذلك ملحة ساخراً ، فقال الفرزدق موجِّها عجزه وسقوطه فى هذا الامتحان : —

فلا نقتل الأسرى ولكنْ نفكُّهم　　إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارم
فهل ضربة الرومى جاعلةٌ لكم　　أبا عن كُليبٍ أو أباً مثلَ دارم
كذاكَ سيوف الهند تنبو ظُباتُها　　ويقطعْنَ أحياناً مَناطَ التمائم [3]

يخرِّج الفرزدقُ هذا الحادث بأنهم قوم لم يعتادوا قتل الأسرى حتى يبرعوا فى ضربهم ، ولكنهم يفكونهم ويحملون فداءهم ، على أن السيوف قد تنبو عن المقاتل ، ثم قال لجرير إن فوزك لم يكسبك حسباً أو يرفع من شأنك .

أما جرير فقد جلّى فى هذا الحادث ، وقال لصاحبه : كيف ترجع على قيس فى خذلانك مع أن الأصل فى ذلك عدم حذقكم ممارسة الطعان فى عهد آبائكم ، وحسبكم أن تفخروا بعقر النوق يوم (صوْءَر) : —

أَكلَّفتَ قيساً أن نبا سيفُ غالبٍ　　وشاعت له أحدوثةٌ فى المواسم
بسيف أبى رَغوانَ سيفِ مُجاشعٍ　　ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن ظالم

(١) المرجع السابق ص ٤٢٤　　(٢) نفس المرجع ص ٣٨٤ .
(٣) نفسه ص ٣٨٣

ضربتَ به عند الإمام فأرعشتْ يداك ، وقالوا : مُحدَثٌ غير صارمِ
ضربتَ به عُرقوب نابٍ بِصوءرٍ ولا تضربون البيضَ تحتَ الغماغمِ (١)

٤ — ومن ذلك التكذيب أو تنازع المآثر ، كل شاعر يدَّعى لنفسه أو لقومه مأثرة بعينها ويدفع عنها زميله ، ذلك الفرزدق يفتخر بما قتل وكيع بن أبى سود اليربوعى قتيبة ابن مسلم الباهلى بخراسان أولَ خلافة سليمان بن عبد الملك ويتكلم فى ذلك باسم تميم التى يزعمها فيقول : —

فِدًى لسيوف من تميم وفى بها رداءى وجلَّت عن وجوه الأهاتم
شفَين حزازاتِ النفوس ولم تدَع علينا مَقالاً فى وفاء للائم
أبأنا بهم قتلى وما فى دمائهم وفاء وهن الشافياتُ الحوائم
جزَى الله قومى إذ أراد خِفارتى قتيبةُ سَعىَ الأفضلين الأكارم (٢)

فيأتى جرير فَيَنفى الفرزدق عن هذه المأثرة لأن القاتل من رهط جرير دون رهط الفرزدق وإن كانا تميميين معا ، قال جرير : —

فغيرُك أدى للخليفة عهدَه وغيرُك جلى عن وُجوه الأهاتمِ
فإن وكيعاً حين خارت مُجاشع كفى شعبَ صدعِ الفتنة المتفاقِم
لقد كنتَ فيها يا فرزدق تابعا وريشُ الذُنابى تابع للقوادم
أجُبناً وفخراً يابنى زَبْدِ إستها ونحن نَشُبُّ الحربَ شِيبَ المقادم (٣)

ولما قال جرير فى هجاء الراعى : — :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلَّهمُ غِضابا

رد عليه العباس بن يزيد الكندى فقال : —

---

(١) النقائض ص ١٣ ؛ وراجع ص ٢٣ حيث يدعى البعيث والفرزدق يوم ذى طلوح ظفر ادعاه جرير يوم ذى قار أمام الأخطل .
(٢) نفس المرجع ص ٣٧١ .
(٣) نفسه ص ٣٦٩ .

ألا رغِمتْ أنوفُ بنى تميمٍ ... فُساةِ التمرِ إن كانوا غِضابا
لقد غضِبت عليك بنو تميمٍ ... فما نكأتْ بغضبتها ذُبابا
لو اطَّلع الغرابُ على تميمٍ ... وما فيها من السوءاتِ شابا[1]

ومن شواهد النقض بالتكذيب وإثبات العكس ما اصطنع الفرزدق من وقار وتعفف فى نسيبه مطلع قصيدته الميمية السالفة قبل أن يتحدث عن مصرع قتيبة ، فأتى جرير وأنكر دعواه وهدمها وأثبت ما أثم الفرزدق وفجوره .

٥ — وهناك الوعيد والشماتة ، فقد كان أمية بن خلف الخزاعى هجا حسان بقوله :

ألا مَن مُبلغ حسانَ عَنِّى ... مُغلغَةً تدِبُّ إلى عُكاظِ
أليس أبوك فينا كان قينا ... لدَى القيناتِ فَسْلاً فى الحِفاظِ
يمانياً يظلُّ يشد كِيراً ... وينفخ دائبا لهبَ الشُّواظِ

فأجابه حسان من أبيات : —

أتانى عن أميَّةَ زُورُ قولٍ ... وما هو بالمغيبِ بذى حِفاظِ
سأنشرُ إن بقيتُ لكم كلاماً ... يُنَشَّرُ فى المجامع من عُكاظِ
قوافىَ كالسلامِ إذا استمرت ... مِن الصُّمِّ المعَجْرَفَةِ الغِلاظِ

فلم يزد حسان على إنذاره بأنه سيهجوه هجاء مراً شايعاً مؤلماً[2] .

وقد رأيت ، فيما مر ، شماتة هند بنت عتبة بمصرع حمزة يوم أُحد ، وهذا حسان بن ثابت فى (بدر الآخرة) كان شامتاً بأبى سفيان وقريش وذلك حيث يقول حسان :

---

(١) ديوان حسان ٢٤١ . (٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٦ طبعة الحلبى .

دَعُوا فَلَجاتِ الشامِ قد حالَ دُونَها ... جِلادٌ كأفواهِ المخاضِ الأوارِكِ
بأيدِى رجالٍ هاجروا نحوَ ربِّهم ... وأنصارِه حقا وأيدى الملائكِ

ويقول أبو سفيان : —

خرجنا وما تنجو اليعافيرُ بيننا ... ولو وألتْ منا بِشَدٍّ مُدارِكِ
إذا ما انبعثنا مِن مُناخٍ حسبتَهُ ... مُدَمَّنَ أهلِ الموسِمِ المتعارِكِ(١)

٦ — وقد يسلم الشاعر للآخـر معنى فينصرف عنه دون نقض طائعاً أو مكرها ، إذ لا يستطيع الخوض فيه لداع عَصَبى أو سياسى أو دينى ، أو نحوها ، وذلك كتعيير جرير الأخطل بدفع الجزى أو نحو قوله . —

إنَّ الذى حرم المكارمَ تغلباً ... جعل النبوة والخِلافةَ فينا
هل تملكون مِن المشاعرِ مَشعرا ... أو تشهدونَ معَ الأذانِ أذيناَ
مُضَرٌ أبى وأبو الملوكِ فهل لكم ... ياخُزر تغلبَ مِن أبٍ كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لوشئت ساقكمُ إلىَّ قطينا(٢)

إذ لم يكن فى وسع الأخطل أن ينقض مثل هذه المعانى الدينية والسياسية التى تتصل بالخلافة وشعائر الإسلام ، ولا سيما أن الأخطل كان يعيش هو وقومه فى حماية الدولة الإسلامية .

ومن أمثـــلة ذلك ما كان يمدح الأخطل والفرزدق خلفاء بنى أمية أثناء النقائض ، فيجد جرير نفسه محرجاً فى كثير من هـذه المواقف بين قيس والبيت المالك ، فيترك المديح ويكسر جهده على المناقضة لاغير .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص ٢٢١ طبعة الحلبى .
(٢) ديوان جرير ص ٥٢٨ .

تلك أبرز طرق المناقضة بين الشعراء أشرنا إليها ، وليس من صالح البحث أن نستقصى تفاصيل ذلك وجزئياته ، فهو أمر متروك للدراسة الخاصة وقراءة النصوص .

أما أسباب النقائض ودواعيها فالأمر فى ذلك متروك لما يأتى من الفصول ، وستجد أن منها أسبابا عامة كالعصبيات وأخرى خاصة تتصل بالسياسة ، أو المنفعة الفردية ، أو البراعة الشعرية أو نحوها .

وسنرى أن هذه النقائض كانت ذات أطوار ثلاث لكل طور طابعه الموضوعى والفنى ، فكانت جاهلية ، وإسلامية ، وأموية .

الباب الأول

النقائض فى الجاهلية

الفصل الأول

نشأة النقائض وفنونها

— ١ —

كانت طبيعة الحياة الجاهلية أبعد الأسباب فى نشأة المناقضة بين شعراء العربية قبل الإسلام، وكانت العامل الأول فى استحالتها من طور السذاجة والطفولة إلى صورتها الكامله التى ظهر عليها الإسلام فاتخذها شعراؤه أداة جدلية فى ذلك الصراع الأدبى بين التقاليد الجاهلية والأصول الإسلامية .

وأخص ميزات هذه الحياة القديمة هى البداوة الفقيرة الغالبة على معظم الجزيرة العربية ، وقد كانت بداوة صحراوية قاحلة جافة يندر فيها الخصب الداعى إلى الهدوء والاستقرار ، وتنعدم فيها المواد الأخرى التى تقوّم الحياة وتضطر السكان إلى الخضوع لنظم عامة ، وسلطان نافذ يحدُّ من حريتهم الفردية والاجتماعية فى سبيل القوت الموفور ، والأمن الشامل ، والنظام المقرر ، وكان من ذلك أن ضعف اتصال العرب بالأرض ، وتشبثهم الدائم بإقليم خاص ، وصارت دنياهم متحركة غير قارة ، وحياتهم مضطربة غير منسقة .

هذه البداوة الفقيرة أدّت إلى ظاهرتين طبيعيتين :

إحداهما هذا الفقر الحسي والعلمي، فما ظنك بحياة تخضع فى كيانها المادى لعامل المصادفة والانتظار السلبي لاتقوم على مصادر منظمة ولا كدح ميقون الآثار، يرقب الأعراب مساقط الغيث فيهرعون إليها أينما كانت لعلهم ظافرون منها بمراع وقتية للإبل والشاه التى يكتسون من أصوافها وأوبارها ، ويطعمون بألبانها ولحومها ثم يركبونها عرض البادية فى سبيل مرعى آخر يعتركون حوله . وأما إذا أخلف المطر أو قل الغيث فالجدب المهلك ، والبلاء الشامل ، وأكل الحشرات ، وشرب الماء الآسن ، والبؤس الشديد .... مثل هذه الحياة الشحيحة المضطربة لاينتظر فيها سكون أو تفكير علمى أو إقامة معاهد دراسية أو نحو ذلك ، فكان جانبها العلمى فقيراً مجدباً ، وقصارى ماعند الأعراب معارف تجريبية ، وأساطير وخرافات . . . فلما تقدمت بداوتها نشأ فيها الشعر وكان ميزتهم الأدبية البارزة .

والثانية هذا الغنى النفسى ، والتشبث بالحرية إلى أبعد الآماد ، والنفور من الذلة والخضوع لقوانين حكومية ، وكيف يحتمل البدوى ذلك وهو لايظفر بعيش يعوض عليه مايخسر من حرية ؟ أيرضى بالجمع بين فقرين : مادي ونفسى ، دون عزاء آخر يرضيه ويطمئن إليه فى هذه الدنيا المجدبة القاسية ؟ إنما تجوز القوانين على الشعب القار الذى ينعم بعيش خصب ، وبيئة غنية ، وأمن وطيد ، يتكالب عليه أفراده فيحتاجون إلى قوانين تنظم حياتهم ، وتكبح شياطينهم ، وهم بها راضون ، لكن الفتى العربى حين حُرم الحياة المادية القانعة نشأت فى نفسه حساسية ثائرة ، ونزعة غلابة جعلته ينفر من ذل آخر يجانب قوة الطبيعية فتحلل من مظاهر الخضوع ، وتعلق بالحرية تعلقاً جعله يؤثرها مع فقرها على الغنى الذليل .

ذلك الاضطراب المادى ، وعدم قيام الحكومة العامة التى تفرض النظام ، وتحقق العدالة الداخلية ، والأمن الخارجى ، وتحمى الأفراد والعشائر جعل العربى يبحث عن نظام آخر جزئى يحمى حياته ويحفظ لنفسه عزتها وكبرياءها ؛ فماذا فعل ؟ أنشأ حكومة صغيرة تقوم له فى هذه البادية الرهيبة مقام الحكومة العامة ؛ فكانت القبيلة أو النظام القبلى . . . والقبيلة هى دولة الأعرابى ، وموئله ، ووحدته الاجتماعية ، توافرت فيها المسئولية المشتركة بين أفرادها جميعاً ، فكل فرد صورتها المصغرة وممثلها أمام القبائل الأخرى وفى الأسواق والنوادى وفى الشعر والنثر ، وهى مسئولة عن جرائر الأفراد وحمايتهم ، وبذلك تكون عقد اجتماعى يضم أعضاءها ويؤلف منهم عصبة واحدة لئلا تأكلها ذؤبان الأعراب ولصوص الصحراء[1] .

الفقر ، والحرية ، وهذه المسئولية المشتركة بين أفراد القبيلة . . نشأ عنها عدم احتمال الضيم والثورة لأقل الأسباب ، والعمل على إشاعة رهبة القبيلة بين القبائل ، والتعلق بأسباب العيش المادى مهما يلق الإنسان فى ذلك من مشاق وعناء ، لذلك كانت الحياة الجاهلية حياة حمراء ، وعراكا دائباً فى نواحى هذه الجزيرة بين القبائل فرادى وجماعات ، وكانت الوشائج والصلات القبلية كالحدود القومية للشعوب الحديثة ، ولتقويم هذه الصلات القبلية قامت مسألة الأنساب لمعرفة أصول القبائل وفروعها وتكوين عصبياتها ، ومهما تكن قيمة الأنساب العلمية فقد صارت من مقومات الحياة الجاهلية وأصلا من أصولها الاجتماعية والأدبية .

كان العرب يقتتلون على المياه ، والآبار ، والمراعى ، وكل مظاهر الخصب ، وعلى حماية اللطائم ، وما يجبى من القوافل ، وطرق التجارة فى الجزيرة ، وفى سبيل

(١) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٢٥ الطبعة الأولى .

الكرامة ، وعزة النفس ، وحماية الجار والعرض ، وفى الثأر والنجدة للصديق أو الحليف أو القريب ، ولأجل الرياسة وزعامة القبائل وفى سبيل النفوذ الخارجى كما كان بين المناذرة والغساسنة فى ظل الفرس والروم وأخيراً فى سبيل الفقراء والحنق على الأغنياء كما حدث من الصعاليك والغربان .

على هذه الأسس قامت حروب العرب الداخلية الكثيرة التى لم تنقطع ،وأما حروبها الخارجية فكانت قليلة ، وكانت فى وجه الفرس غالباً وفى وجه الحبشة والروم قليلا ، ولم يكد يجتمع العرب لحرب خارجية فى صورة أمة واحدة .

كانت الحرب ، إذاً ،ضرورة للحصول على العيش وتحقيق الحرية والكرامة ثم صارت ، مع الأيام ، غاية يفخر بها الشيوخ والفتيان ويتخذها بعضهم حرفة ومفخرة ، ويعدونها المشغلة الأساسية لحياة الرجل فيعدونه لها ، ويعدونها امتحان رجولته وبأسه ووسيلة الظفر بإعجاب الرجال والنساء .

هذه الحروب أو الأيام —وهو الاسم الاصطلاحى الذى يطلقه عليها المؤرخون والقُصاص — كانت تستلزم الشعر حتما ، وكانت أشبه شىء بالثورات السياسية التى تستدعى نهضة أدبية تؤرث نارها وتسجل آثارها ، وتدعو إليها فكانت هذه الفنون الشعرية المتصلة بأيام العرب من حماسة ، وفخر ، وهجاء ، ورثاء ، وإذا لاحظنا أن الحماسة من باب الفخر أو هى منه بسبب قوى ، وأن الرثاء إنما كان تصويراً لشعور الحزن ومعرضاً للفخر والوعيد ، انتهينا إلى هذين الفنين : الفخر والهجاء ؛ فكانا أهم فنون الشعر الحربى أو الشعر السياسى القديم . ومن الملاحظ أن نشأة الشعر القديم أو نهضته إنما كانت مصاحبة للحروب ، وفى ظلال السيوف ، وكان فن الحماسة من أقدم فنون الشعر . والعربى منه بخاصة .

— ٢ —

ولكن كيف اتصلت هذه الفنون الشعرية بالنقائض ؟

من الطبيعى أن ينشأ فن الحماسة دعوةً إلى القتال فى سبيل العيش أو الكرامة من جانب كل قبيلة ، وأن يتبع النصر أو الهزيمة فخر أو وعيد وتهديد بالانتقام أو حفز للأخذ بالثأر أو تسجيل للانتصار ، وذلك يستتبع هجاء العدو ، ونشر مخازيه ، وذكرَ جُبْنِه وفراره أو خضوعه وأسره ثم يكون بكاء القتلى والعزم على الثأر لهم وبذلك تتجاوب أرجاء الجزيرة بهذا الشعر الحربى الذى كان وقوداً لهذه النار .

كان الشعر حرباً أدبية تساير هذه الحروب المادية ، وكما كانت أدوات الحرب المادية متشابهة متناقضة ، فكذلك كانت فنون هذا الشعر متشابهة متناقضة ، يلقى بعضها نظيرَه متحدياً عنيداً يثبت له أو يهزمه ؛ فالفخر يلقاه فخر ، والهجاء ينقضه هجاء ، والحماسة تصطدم بنظيرتها ، وهكذا تتلاقى الفنون وتعترك المعانى فى سبيل القبائل وفى ظلال الأيام .

أما عن المصدر النفسى أو الفنى لتولد النقائض من هذه الفنون فالأمر ، عندى لا يعدو أن يكون عَدْوى نفسية ومسايرة ، وقبولا للتحدى ؛ فالمشاهَد بين الأحياء أن يصيح الفرد فى وجه آخر عاتباً ، أو ساباً ، أو مهدداً أو هازئاً فيرد عليه الآخر بنحو صياحه عاتباً أو ساباً أو مهدداً أو ساخراً ملتزماً معانيه وأسلوبه ، يضع بإزائه نظيره ، ويفسد عليه معانيه ، وقد يستدعى الموقف عراكا وهلاكا . كذلك يبدأ الشاعر بالفخر أو الهجاء ، رافعاً عقيرته فينبرى له نِدُّه من قَبيل آخر ، مثلا ، ليرد عليه من نفس بحره وقافيته ليحقق بذلك الموسيقا الصوتية ، وليرد عليه صيحته المدوِّية ، ويتحداه بنفس أسلوبه ؛ فإذا تناول معانيَهُ ردّها عليه فاسدة لأنها كذب

وافتراء ، أو لأن له عندها نظائرها ، أو لأن تفسيرها غير ما قال الأول أو لغير ذلك من طرق المناقضة ، وبذلك يشترك الشاعران فى جو واحد من أجواء الخصومة الشعرية . يغمرهما معاً حتى يشتفيا ، ثم هما متربصان إلى مثل ذلك الموقف إن اقتضته الحال ، وكثيرا ما تقتضيه الحال .

ولما كان الفخر والهجاء فى مقدمة الفنون التى قامت عليها المناقضة أو هما بناها الأساسيان ، ناسب أن نقول فى كل منهما كلمة إيضاحية تبين حقيقته حقيقته وخواصه .

وقد سبق أن الفخر هو التمدح بالخصال ، وعدّ القديم ، وادعاء العظم والكبر والشرف ، وتفاخر القوم فخر بعضهم على بعض . والفخور المتكبر (١) .

وهذا معناه أن الفخر يصدر عن نفس متعالية متعاظمة ، ويتخذ معانيه من جانب المفتخر نفسه أو قومه بخلاف الهجاء فإنه يصدر عن نفس ساخطة أو مزدرية ساخرة ، ويتخذ مادته من جانب المهجو نفسه أو قومه ، فهما فنان متقابلان وإن اختلطا معاً فى القصائد وتلازما لأن الذى يتعالى على غيره إنما يحقره صريحاً أو استلزاماً .

وقد قام الفخر على الفضائل الاجتماعية التى أقرتها الحياة العربية القديمة كالكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، وكثرة العدد ، والسيادة ، والظفر فى الحروب ، والمروءة ، وشرف الأنساب والأحساب كما كان الهجاء يضدها .

كان الفخر ، كما قلنا ، ظاهرة طبيعية بين الشعراء الجاهليين اقتضتها حياة القبائل المتحاربة والأفراد المتنافسين ، بل هو ظاهرة اجتماعية عامة ، يحاول بها كل

---

(١) راجع لسان العرب مادة فخر والعمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ١٠٤ .

أن يثبت امتيازه وتفوقه على غيره إشباعاً لشهوة العزة وإرضاء لحب التسامي والشرف؛ عرفه الشعر الجاهلي من أقدم عهوده، وعرف به جماعة من فحول شعرائه كطرفة، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة العبسي، ولبيد بن ربيعة، وحسان بن ثابت، وقيس بن الخطيم، وشاع في شعر (الأيام) وكان سجل المعارك كما كان قبلياً وفردياً، ولعل الغالب عليه كان الفخر بالقبائل استجابة للنظام القبلي في حياة البادية، وسنداً لفن المناقضة العامة.

فلما جاء الإسلام بقي هذا الشكل وأضيف إليه الفخر بالدين، والسلطان، والجهاد في سبيلهما، والنهوض بالملك وأعبائه حتى إذا تقدم القرن الأول وحيت العصبيات القبلية في ظل الأمويين عادت الصورة الجاهلية قوية وشاعت على ألسنة الفحول الإسلاميين حتى بلغت الذروة، فتراهم يعدون أفخر بيت قول الفرزدق:

ترى الناسَ ما سِرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

أو قول جرير: —

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبتَ الناسَ كلهم غِضابا

أو قول ابن ميَّادة: —

ولو أن قيساً قيسَ عيلانَ أقسمت ... على الشمس لم يطلع عليكَ حجابُها

وأفخر بيت صنعه مُحدَث عندهم قول بشار: —

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجابَ الشمس أو أمطرت دما

إذا ما أعرْنا سيداً من قبيلة ... ذُرا مِنبر صلّى علينا وسلما

وقد أدرج أبو تمام أمثلة الفخر في باب الحماسة وهو الباب الأول من مختاراته المعروفة (بديوان الحماسة) باعتبار أن معنى الحماسة الشدة والشجاعة، وأن الفخر فن القوة، وتصوير الشجاعة وآثارها في الحروب والمواقف الخطيرة، وعلى كل فقد

كان الفخر أحد ركنى النقائض فى تاريخها منذ نشأته الجاهلية إلى أن مات فحولها الإسلاميون .

أما الهجاء فهو الشتم بالشعر كما يقول ابن منظور وهو خلاف المدح . والمهاجاة بين الشاعرين يتهاجيان ، وهم يتهاجون : يهجو بعضهم بعضاً [١] والهجاء ظاهرة السخط أو السخرية كما علمت ، يتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه . فالمفتخر يلتفت إلى نفسه ليشتق منها مادته والهاجى ينظر إلى خصمه لينشر مساويه مقرراً أو ساخراً .

ويفضل النقاد السابقون ما كان من الهجاء عفاً خالياً من الفحش بحيث تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها نحو قول أوس : —

إذا ناقةٌ شُدَّت برحلٍ ونُمرقٍ ... إلى حيِّكم بعدى ، فضلَّ ضلالُها

واختار أبو العباس قول جرير : —

لو أن تغلبَ جمَّعت أحسابَها ... يومَ التفاخرُ لم تزن مِثقالا

وأشده ما كان إقذاعا وهو ما فيه تفضيل قوم على قوم كقول جرير : —

فغُضَّ الطرفَ إنكَ مِن نُميرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ومن كلام صاحب الوسطة : « فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزّل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه : وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، ليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن » [٢] . لذلك أعجب النُقاد بقول زهير فى تشككه ، وتهزله ، وتجاهله فيما يعلم :

---

(١) لسان العرب مادة هجا . وراجع والعمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٣٨

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٣٩ والوساطة ص ٢٩ .

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مخبآت فحق لكل محصنة هداء

وعدوه من أشد الهجاء وأمضه ، وكذلك لم يرض النابغة الذبيانى عن إفحاش قومه فى هجاء عامر بن الطفيل بعد وقعة (حَسْى) لشرف عامر ولكنه هجاه متهكماً به فآلمه ، وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود وترك الفحش فيه أصوب إلا جريراً قال لبنيه : « إذا مدحتهم فلا تطيلوا المادحة ، وإذا هجوتم فخالفوا » ، وقال أيضاً : « إذا هجوت فأضحك » . وسلك طريقته فى الهجاء سواء على بن العباس الرومى فإنه كان يطيل ويفحش . يقول ابن رشيق : « وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن فى التعريض ، وشدة تعلق النفس به . والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً وقبلته يقيناً فى أول وهلة ، فكان كل يوم فى نقصان لنسيان أو ملل يعرض ، هذا هو المذهب الصحيح على أن يكون المهجو ذا قدر فى نفسه وحسبه ، فأما إن كان لا يوقظه التلويح ولا يؤلمه إلا التصريح فذلك »[1] .

ويوازن الغربيون بين الشعر الهجائى Satiric Poetry وبين الشعر التعليمى Didactic Peotry ويرون أن الأول نص على الرذائل والأخطاء الاجتماعية والثانى إشادة بالفضائل وحث على التمسك بها . فغايتهما واحدة هى توجيه الناس إلى الخير والكمال[2] ، وذلك غير الشتم والسباب .

نشأ الهجاء مع الفخر قديما ، وقامت معانيه على الرذائل الفردية والاجتماعية

---

(١) نفس المرجع ص ١٤٠

(٢) راجع
Stepnens. introduction to the study of English Literature p 83

كالبخل ، والجبن ، والفرار ، وَضَعةِ الأحساب والأنساب ، وغلب عليه فى الجاهلية القصد والاعتدال والبراءة من الفحش والإقذاع .

ولما جاء الإسلام ونشط الهجاء فى سبيل دعوته كان منه نوعان أول الأمر أحدهما جاهلى قديم يتصل بالأحساب ، والأنساب ، والأيام يمثله حسان بن ثابت وكعب بن مالك لإغاظة قريش قبل أن تسلم إذ كان أفقهم جاهليا فلما أسلموا لم يروا فيه خطراً لأنه يناقض روح الإسلام الذى اعتنقوه ، فلا بأس عليهم من هجاء جاهلى قديم ، والثانى مذهب إسلامى يمثله عبد الله بن رواحة ، وكان يهجوهم بالكفر والإعراض عن سبيل الهداية فما كانوا يبالونه إذ كان ذكراً لما هم عليه وراضون به ، فلما أسلموا وجدوا ماضياً سيئاً مسجلا عليهم فأنفوا منه ، وربما أضاعوا شعره .

ومع ذلك فقد بقى النوع الجاهلى يمثله الحطيئة أصدق تمثيل حتى كان العصر الأموى فدخل فيه الفحش والإقذاع إلى مدى بعيد ونال من الأعراض والحرمات ، وصوّر القبائح صوراً شنيعة ، وقد جلّى فى ذلك جرير والفرزدق والأخطل فى النقائض ، وبلغوا بالهجاء مبلغاً أساء إلى الأخلاق وأزرى بالكرامات .

وهناك فنون أخرى لابست النقائض ودخلت فيها كالنسيب ، والرثاء ، والوصف والسياسة ترد أثناء الدراسة ، وسنرى أنها كانت متأثرة بهذين الفنين وخاضعة لتيارها ، فلنرقبها فى طريقنا .

— ٣ —

على أنه ليس من طبيعة الأشياء أن تطلع علينا النقائض ، أول ما تطلع ، كاملة الصورة ، تامة التقاليد والعناصر ، متوافرة الشرائط والطرائق كما رأيناها

أخيراً عندجرير وصاحبيه ؛ فلا بد أن تدرج طفلة ثم تيفع وتشبَّ إلى أن تستوى ناضجة متجاوبة الموسيقا متقابلة المعانى ، ولو توافرت لنا نصوصها مرتبة ترتيباً تاريخياً ، محققة تحقيقاً ، علمياً إذاً ، لاستطعنا أن نؤرخ حياتها الأولى ، ونتبين كيف تعثرت فى بعض التقاليد والفنون حتى أخذت صورتها الأولى فى العصر الجاهلى ، ومع ذلك فلنتخذ من هذه النصوص المبعثرة ما يقرب لنا تدرّج هذا الفن من درجة الحوار الأولى الساذج إلى طور المناقضة الفنية المعروفة ؛ فإذا صح ما روى لنا من نصوصها القديمة ، كانت النقائض نثراً أوّل أمرها وكانت رجزاً أيضاً ، ثم كانت تنشأ على أساس الانتصار فى الحروب أو الخلاف فى المواقف الاجتماعية مدعومة بالبراهين أو معتمدة على الفخر والهجاء معاً أو منفردين . وكانت تعنى بالمقابلة بين المعانى دون التزام سائر التقاليد أو بعضها ، فكانت أشبه برد وإنكار . . . وبقيت كذلك مدة ما ، حتى كانت نهضة الشعر وظهور فحوله فتمت على أيديهم تقاليدها وإن بقيت صورة (الرد) تتراءى خلال النقائض الكاملة المشهورة .

ومن أول ما يلقانا من هذه النصوص ما ورد فى أقاصيص طَسم وجديس أن امرأة من جديس شكت إلى ملكهم (عمليق) أن زوجها طلقها ويريد أخذ ابنها منها فقالت المرأة : « أيها الملك ، حملتُه تسعاً ، ووضعته دَفعاً ، وأرضعته شفعاً ، فلما تمت أوصاله ، وحان فِصاله ، أراد أخذه منى كرهاً ، ليتركنى مَرِهاً » — أى ذاهبة العقل — فقال الزوج : « أيها الملك ، أعطيتُها المال كاملا ، ولم أصب منها طائلا ، إلا وليداً خاملا ، فافعل ما كنت فاعلا »[1] .

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٤٨ بولاق

فأنت ترى أن المرأة تحتج بما لقيت فى سبيل وليدها من جهود وآلام حتى تمت أوصاله ، ولكن الرجل ينقض حجتها بما دفع من ثمن ذلك ليظفر بوليده

وهى مناقضة نثرية يغلب عليها الصنعة والوضع وإن كانت تمثل عسف هذا السلطان البائد لأن الملك أمر بالغلام ، فيما أمر . أن يُسترقّ فى مماليكه ، فغضبت المرأة وهجت الملك فأمر هذا ألا تزف امرأة من جديس إلى زوجها حتى تدخل عليه ، ومكث على تلك السنة مدة إلى أن ثارت امرأة من جديس تدعى (عفيرة) واستحثت قومها على الملك فغضبوا عليه بزعامة أخيها الأسود بن عفار ، فعرض على الملإ من قومه أن يدعوا الملك ورهطه إلى طعام فإذا حضروا قتلوهم ، فلما بلغ ذلكَ عفيرة قالت :

لاتغدِرُنَّ فإن الغــدر منقصةٌ ... وكل أمرٍ له عِبٌّ وإن صَغُرا
إنى أخاف عليكم مثل تيكَ غداً ... وفى الأمور تباعيد لمن نظرا
حُشُّوا سعيراً لهم منا مُناهضةً ... فكلكم باسلٌ أرجو له الظفرا
سِيَّانِ باغٍ علينا غيرَ مُتَّئِدٍ ... يغشى الظلامةَ لا يُبقِى ومن غدرا
فناهضوا القومَ صبراً فى ديارهمُ ... على الكريهة حتى تخطموا القصَرا

فردّ عليها أخوها الأسود بقوله . —

إنى لَعمرِكِ لا أبدى مُناهضــةً ... للقومِ أخشى صُروفَ الحَيْنِ إن ظَفِرا
ففى التحمُّلِ للأقوامِ مُدركَةٌ ... وفى الأمور تباعيــد لمن نظرا
كُفِّى لَديكِ ولا تنهى لعــاقِبَةٍ ... أخاكِ فيما يرى فى الرأى إن حَضَرا
إنى زعيم لِطسم حــين يحضرنا ... إلى الطعام ، وذاك الرأى إن قُدِرَا
فليس ينفــع ذا رأى يدبّرهُ ... زجر الزواجر والأيمانُ إن زُجِرا

وعصاها وأطاعه قومه ، وقتلوا الملك فى خبر طويل[١] .

فاعجَبْ لهذه المناقضة الشعرية التامة الأركان : وحدة الموضوع ، والبحر ، والروى ، وحركته ، مع تقابل المعانى تحقيقاً لهـذه الصورة الجدلية ، والراجح أن هذا من وضع القصاص ، ومما يكشف الأمر هذا التقليد الواضح ، فـكما كان جرير يأخذ من شعر الأخطل أو الفرزدق الشطر أو البيت أثناء المناقضة ، نجد الواضع هنا يفعل ذلك ويورد فى شعر (الأسود) هـذا الشطر الوارد فى شعر (عفيرة) « وفى الأمور تباعيد لمن نظرا » .

وربما كان أدنى من ذلك إلى الصواب ، وإن لم يكن بريئاً من الوضع أيضاً ما دار بين مَعديكَرِب بن الحارث بن عَمرو بن حُجر الـكندى وبين أبى حَنَشٍ يوم الـكُلاب الأول ؛ فقد كان بين سَـلَمَة بن الحارث وأخيه شرَحبيل ، وفيه يأتى (أبو حَنَش) عُصَم بن النعمان من بنى جشم بن بكر برأس شرحبيل ويضعه أمام سَلَمَة ، فقال سلمة وقد أسف لمصرع أخيه ورأى منه ذلك أبو حنش فهرب بعدما كان ينتظر الجائزة ، وقيل إن الشعر لمعديكرب أخيهما : —

ألا أبلغ أبا حَنَشٍ رسـولا ... فما لك لا تجىء إلى الثواب ؟

تعـلّم أن خير الناس طُرًّا ... قتيلٌ بينَ أحجار الـكُلابِ

تداعت حوله جُشَم بنُ بكر ... وأسـلمه جعاسيسُ الرِّبابِ

قتيلٌ ما قتيلك يابنَ سَـلمى ... تَضُرُّ به صديقَكَ أو تحـابى

فأجابه أبو حنش فقال :

أحاذرُ أن أجيئَكَ ثم تحبو ... حِباء أبيك يوم صُنَيعاتِ[٢]

(١) شرح ديوان الأعشى طبع أوربا ص ٧٤ — ٨٢ . (٢) يوم صنيعات : قيل كان الحارث الـكندى ابن مسترضع بين حيين من العرب تميم وبكر ، فمات يقال لدغته حية ، فقتل به خمسين من بكر

وكانت غَدرةٌ شنعاء سارت   تقلّدها أبوك إلى المماتِ
تتابعَ سبعةٌ كانوا لأمٍّ   كأجرام النَّعام الحائراتِ (١)

فالموضوع واحد ، وكذلك البحر ، ولكن القافية مختلفة بينهما ، وكان الثانى ردًّا على الأول وشكا فيما يدعيه سلمة من إثابة أبى حنش على قتله خصمه كما وعد. نحو هذه الصورة الناقصة وحدة القافية يصح أن تكون خطوة فى طريق تدرج النقائض إلى النضج والكمال لو نُقِى عنها الوضع .

ومن هذا الضرب ما دار بين امرىء القيس وعبيد بن الأبرص الأسَدى حول مقتل حُجر فيما يُحكَى . فقد كان قطعاً مضطربة فيها حوار وجدل قل فيه اكتمال المناقضة وتمام صورتها المقررة . فمن المشهور أن امرأ القيس لما قتلت بنو أسد أباه حُجراً قال متوعداً :

والله لا يذهب شيخى باطلا   حتى أبير مالكا وكاهلا
القاتلينَ الملكَ الحُلاحِلا   خيرَ مَعدٍّ حسباً ونائلا
يالهفَ هندٍ إذ خطئن كاهلا   نحنُ جلبنا القرَّحَ القوافلا
يَحمِلْنَنَا والأسَلَ النواهلا   مستثفرات بالحصى جوافلا
يستثفر الأواخرُ الأوائلا   فصرْتُ فيهم غانماً وقاتلا

هذا الرجز كان من أسبق ما قال شيخ الشعراء فى مهلك أبيه الملك ، وكان فاتحة للحوار بينه و بين شاعر الأسديين ، وربما كانت الأبيات الآتية ردّ عبيد على امرىء القيس ، يسخر به ويكذبه فيما يدعى من حماسة وظفر ، يقول عَبيد :

يا ذا المخوّفنا بقتـ   ـلِ أبيه إذلالا وحَينا
أزعمتَ أنك قد قتلـ   ـتَ سراتِنا كذباً ومَينا

---

(١) ابن الأثير جـ ١ ص ٢٣١ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٣٥٣

هـــــلاَّ على حُجرِ بن أمِّ　　قطَامِ تبكى لا علينـــا

فهو ، إن صح ، ردّ أوّليّ ساذج لم يتقيد بأصول المناقضة ، ولما تعقب امرؤ القيس بنى أسد ففاتوه ولقى كنانة ووضع فيهم السلاح خطأ قال : —

ألا يالهفَ هِنــدٍ إثر قوم　　هم كانوا الشفاء فلم يُصابوا

وقاهم جدُّهم ببنى أبيهم　　وبالأشقَينَ ما كان العقابُ

وأفلتهنّ عِلباءٌ جريضا　　ولو أدركْنَه صَفِرَ الوِطاب[١]

ويظهر أن هذه الأبيات بلغت عبيداً فقال ينقضها على امرىء القيس : —

أتوعدُ أسرتى وتركت حُجرا　　يُريغ سوادَ عينيه الغُرابُ

أبَى دِينَ الملوكِ فهـم لَقاحٌ　　إذا ندبوا إلى حرب أجابوا

فلو أدركتَ عِلباءَ بنَ قيس　　قنِعتَ من الغنيمة بالإيابِ

يعيّره مصرعَ أبيه ، ويهدده بقومه ، ويرميه بقصور همته دون الانتقام من بنى أسد ، وعلى الرغم من ادعاء امرىء القيس أنه ظفر بثأره[٢] فإن القصة تدل على خلاف ذلك بدليل انصراف أنصاره عنه مع قلتهم ، وبلاء بنى أسد فى سبيل حريتهم، وسخرية عبيد به[٣] ومطاردة المناذرة له والتجائه إلى السموءل فالغساسنة فالروم ثم مصرعه آخر الأمر .

هـذه الشواهد وغيرها مما ورد فى ديوانى امرىء القيس وعبيد متصلة بيوم حجر تدل على أن هذا الحوار لم يتخذ صورة المناقضة دائماً ، وإنما تردّد بين الرد والحوار أيضاً ، مما يمثل طفولة هذا الفن بين هذين الشاعرين .

---

(١) هند أخت امرىء القيس ، علباء بن الحارث الأسدى قاتل حجر . جريض غاص بريقه صفر الوطاب : خلا بدنه من روحه — الديوان ص ١٥ ط السندوبى

(٢) الديوان ص ١٥١ .　　(٣) ديوان عبيد طبع أوربة ص ٥٢ .

وفى تضاعيف هذا الجدل الشعرى فى سبيل الأيام، والحوادث، والمقامات، نجد صوراً لا تبلغ درجة المناقضة وإن لم تبعد عنها كثيراً ولا سيما فى جانب المعانى.

من ذلك ما كان يوم الكلاب الثانى حين قال راجزٌ من بنى مَذحج : —

فى كلّ عامٍ نَعَمٌ ننتابُهْ على الكلابِ غَيَّبٌ أصحابُهْ

فسمعه غلام من سعد أعدائهم فأجابه : —

فى كل عامٍ نعـــمٌ تحوونه يُلحقه قومٌ وينتجونَهْ
أربابُه نَوْكَى فلا يحمونَه ولا يلاقون طِعاناً دونَهْ
أنعمَ الأبناء تحسبونَه هيهات هيهات لما توعدونَهْ(١)

هذه مراجزة تقوم على المناقضة المعنوية وإن لم يلتزم فيها وحدة القافية. ومن ذلك ما كان بين عامر بن الطفيل وزيد الخيل؛ فقد خرج رجل من طيء اسمه دؤاب إلى صهر له فى هوازن فأصيب، فلما علم زيد أغار على عامر، وعاد يقول لا يبوء به إلا عامر بن مالك ملاعب الأسنة؛ فأما ابن الطفيل فلا يبوء به، وقال زيد : —

لا أرى أنْ بالقتيل قتيلا عامرياً يفى بقتلِ دُؤاب
ليس مَن لاعب الأسنة فى النقـ ـع وسُمى مـــلاعباً بإراب
عامر ليس عامرَ بنَ طُفَيـل لـكن العمرُ رأس حىّ كلاب
ذاك إن ألقـه أنال به الوتـ ـرَ وقرّت به عيون الصحاب

فغضب عامر بن الطفيل وقال يُجيب زيد الخيل : —

قل لزيد قد كنت تؤثر بالحلـ ـم إذا سُفِّهت حلومُ الرجالِ
ليس هذا القتيلُ من سلف الحـ ـىّ كُلاع ويَحصُب وكُلال

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ص ١٢٧ والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٤.

أو بنى آكل المرار ولا صيـ ـدِ بنى جفنة الملوك الطوال

إن فى قتــل عامر بن طفيل لبَواءً لطيء الأجيل (١)

ينقض عامر معانى زيد فيهون من شأن القتيل ، ويضع نفسه بإزاء طيء كلها ، مع وحدة البحر دون القافية .

ولما قتل الحارث بن ظالم المرى جعفرَ بن كلاب العامرى خفى بحاجب بن زُرارة التميمى ، فلما طلبته بنوعامر نحّاه عنه حاجب ، فغضب الحارث وقال : —

لعمرى لقد جاورتُ فى حيِّ وائلٍ ومن وائلٍ جاورتُ فى حيِّ تَغلِبِ

فأصبحتُ فى حيِّ الأراقم لم يقل لى القوم : ياحارَ بنَ ظالم ؛ اذهبِ

وقد كان ظنىَّ إذ عقلتُ إليكم بنى عُدُس ظنى بأصحاب يثربِ

غــداةَ أتاهم تُبَّع فى جنوده فلم يُسلِموا المرءَين من حى يَحْصُبِ

فإن تك فى عُليا هوازنَ شوكةٌ فأعجبْ بها من حاجبٍ ثم أعجِبِ

فغضب حاجب وقال : —

لعمرُ أبيكَ الخير ، ياحارِ ، إننى لأمنعُ جاراً من كُليبِ بن وائل

وقد عــلم الحىُّ المعدىُّ أننا على ذاك ، كُنا فى الخطوب الأوائل

وإنا إذا ماجاء جانى ظُلامة ليسـنا له نوبى : وفاء ونائل

وإن تميما لم تحارب قبيــلة من الناس إلا أولعتْ بالكواهل

ولو حار بَدْنا عامرُ ابنَ ظــالمٍ لعضَّت علينـا عامرٌ بالأنامــل

ولاستيقنتْ عُليا هوزانَ أننا ستُوطئُها فى دارها بالقنـابل

ولـكننى لا أبعث الحربَ ظالما ولو هِجتُها لم آلفَ شحمةَ آكل (٢)

أخذ الحارث على حاجب بن زرارة أنه لم يمنعه منعة تغلب ، وأنه خيّب فيه

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٥٣ بولاق .

(٢) الإغانى جـ ١٠ ص ٢٠ بولاق .

ظنه ، وأن هوازن ، من قيس عيلان ، أعز من تميم ، فرد عليه حاجب بأنه أعز من كليب بن وائل سيد تغلب الأول ، وأن تميما معروف بالبأس والوفاء والنجدة ، وأن بنى عامر أو هوازن ، من قيس عيلان ، لا يثبتون لتميم ، ولكن حاجب بن زرارة لم يشأ ، بحمايته وهوجان ، أن يبعث حرباً ظالمة ، فى حين أنه فى الحروب مظفر مقدام .

فالموضوع واحد وكذلك البحر دون القافية مع تناقض المعانى كما رأيت ، ومثل هذا لا يعوزه من شروط النقائض إلا وحدة القافية .

ومع تقدم هذا الفن الجدلى أخذ يستكمل صورته الأخيرة بين الجاهليين حتى رأينا منه نحو هذه الصورة الكاملة التى صارت تقليداً فيما يعده التاريخ الأدبى طور النقائض الأولى ، كما مرت أمثلة فى التمهيد .

ونشير هنا إلى قصيدة قيس بن الخطيم الأوسى فى حرب بعاث وحاطب :—

أتعرف رسماً كاطراد المذاهبِ ... لأسماءَ وحشاً غير موقف راكبِ

ونقيضتها لعبد الله بن رواحة :—

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانبِ ... نعم، فرشاشُ الدمع فى الصدر غالبى[1]

وغيرهما كثير يرد عليك فى الفصول التالية .

وخلاصة هذا الفصل أن النقائض فن جاهلى قديم نشأ مع النهضة الشعرية طفلا ساذجاً ناقص الأركان ثم أخذ يستكمل ، على الأيام ، أركانه ، وعناصره ، معتمداً ، أكثر ما اعتمد ، على فنى الفخر والهجاء ، حتى تمت له أوضاعه وشرائطه وسنرى فيما يلى كيف عملت فيه مقوماته ودواعيه مدة الحياة الجاهلية .

---

(١) راجع ديوان قيس بن الخطيم ، طبع أوربة ١٠ و ٣٦ .

الفصل الثانى

فى مُقوّمات النقائض وعناصرها

— ١ —

نحاول هنا الإلمام بهذه العناصر العامة التى كانت مردّ النقائض وأصولها الأولى ، ثم كانت مادتها ومقوّمها الذى اتكأت عليه فى حياتها وأطوارها جميعاً ، ولا سيما فى الطور الجاهلى القديم . وقد بينا فى الفصل الماضى كيف كانت الحياة العربية قبل الاسلام السبب الأصيل لنشأة هذا الفن وتحديد فنونه الرئيسية ، ونذكر هنا أن هذه الحياة البدوية نفسها وما استدعت من تقاليد اجتماعية ، وأصول أخلاقية ، هى التى قدّمت للمناقضة حوافزها الدافعة إليها ، وظلالها التى عاشت فى رعايتها .

وإذا كنا قد رأينا أن (الأيام) كانت مجال النقائض ومعرضها الحربى فإن هذه (الأيام) لم تقم عفواً بل وقفت تحت ألويتها جماعات متعاركة متهالكة ، ألّف بين كل فريق منها وشائج القرابة وما إليها فكانت هى القبائل والعشائر والبطون ونحوها ، وذلك يستدعى منا القول فى الأنساب ، على أن (الأيام) لم تنفرد بمدّ الشعر القديم بالنقائض ، وإنما شاركها فى ذلك حوادث اجتماعية أخرى متصلة بالعرف الجارى بين الأفراد والعشائر أو بالأصول الخلقية المقررة ، ومنها ما كان سلمياً أو مؤديا إلى مغاورات أو قتال جزئى بين الأسر أو بعض بنيها ، ثم جاء القصص بعد ذلك وروى هذه الأحداث ، والأيام ، والأنساب ، مبالغاً محرفاً

فيها لدواع عصبية شتى ، فكان لزاماً علينا أن نشير إلى هذه المقوّمات التي سندت النقائض وكانت متّكأ رجالها من الشعراء .

وأول ذلك الأنساب (١) والنسب القرابة مطلقاً وإن غلبت عند الأعراب على القرابة من جهة الآباء . والعناية بالأنساب : أصولها وسلاسلها ، ظاهرة بدوية قديمة تحرص عليها الجماعات الأولى لتكوين العصبيات القبلية أو الجنسية احتفاظاً بالقربى ، وتوفيراً للوحدة والمعاونة ، وعرفاناً لمواطن الثارات ، ونفياً للغريب ، وتنظيماً لمسائل الإرث والزواج ، ودفعاً لعدوان المنافس والمغالب لتعيش القبيلة عزيزة الجانب ، آمنة مذلة الجيران والعادين ، متعاطفة الآباء والأبناء ، وهي بعد ذلك تعرف مفاخرها ، وأيامها ، فيسجلها شعراؤها ويناقضون بها خصومهم من شعراء القبائل الأخرى ، وربما امتاز العرب من الفرس بحفظ أنسابهم والعناية بها ، ولعلهم تأثروا باليونان واليهود في ذلك أو أشبهوهم على أقل تقدير .

ذلك هو الوضع الطبعي العام لقيمة الأنساب وضرورتها عند البادين ، أما عن مقدار حظها من الصواب أو الحق العلمي فالقول فيه كثير ، ومن الخير أن نتجاوز في نظرتنا التاريخية طور الطوتمية والأمومة ونحوهما ، فإن البحث فيه يطول ولا يجدي من الناحية العملية المتصلة بالأيام والنقائض على أنه لا يزال مجال الحدس والتخمين (٢) فإذا فعلنا ذلك ووقفنا عند الجاهلية الأخيرة وما روى عنها من سلاسل النسب وأصولها رأينا من ينكرها إنكاراً تاماً ويعدها وهماً باطلا اخترع بعد

---

(١) راجع في الأنساب كتب : الأنساب للسمعاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ونسب عدنان وقحطان للمبرد ، والمعارف لابن قتيبة ، ونهاية الأرب للنويري ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، وسبائك الذهب للبغدادي ، والأحكام السلطانية للماوردي وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ونسب قريش لمصعب الزبيري .

(٢) راجع في ذلك أنساب العرب القدماء لجورجي زيدان والأساطير العربية قبل الإسلام لمحمد عبد المعيد خان .

الإسلام لعوامل دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية[1] وقد يسعف هذا الفريق براهين شتى ؛ فليس يسيرا أن يوجد فى البادية علم الأنساب القائم على دراسة الصلات الدموية ، وإحصاء المواليد . وردها إلى الآباء والأمهات ، وحفظ ذلك ميراثا للأجيال المتعاقبة ، إنما ذلك من ثمار الحضارة المستقرة والنشاط العلمى الدقيق ، أما الاعتماد على الروايات : وحفظ الذاكرة . ورجم النسابين فلا يمكن الثقة به ولا سيما إذا عرض له النسيان ، والمبالغة ، وعمل الأهواء والعصبيات ، وتأخر عصر التدوين . وهناك مع ما سبق كثرة تنقل القبائل ، وافتراقها ، والتداخل بينها ، ومن ينضم إليها بطريق الحلف والاستلحاق والولاء والاسترقاق كما حالفت جديلة كلباً ودخلت فيها لما ضعفت أمام الغوث عقب يوم اليحاميم[2]. والذين ينكرون الأنساب إنكاراً علمياً تاريخياً يردون أصولها البعيدة وسلاسلها المحكمة إلى اليهود وما ورد فى التوراة من أنساب فلما قويت الصلة بينهم وبين العرب منذ الجاهلية ودخل فريق منهم فى الاسلام بعد ذلك ، وأراد العرب الاعتزاز بالأنساب وإحياء العصبيات قلدوا ما فى التوراة من سلاسل محكمة ونسجوا أنسابهم على مثالها فجاءت محكمة مفصلة دقيقة كأنها علم أصيل . ومن أسبق الدوافع إلى ذلك نظام العطاء الذى وضعه عمر بن الخطاب وجعل أساسه الأول القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبدأ بآل الرسول ، وقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم ، وقدم مضر على ربيعة لذلك ، وقريشاً على غيرهم وكان بنو هاشم مركز الدائرة ، ثم ما جدَّ بعد ذلك من إحياء العصبيات القبلية ،

---

(١) راجع نيكلسن : التاريخ الأدبى للعرب ، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ١٠ وذكرى أبى العلاء لطه حسين ص ١٣٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ — ١٤٥ مطبعة التقدم وتاريخ التمدن الاسلامى ج ٤ ص ١٧ — ٢٧ وابن الأثير ج ٦ ص ٤٧٦ طبع أوربة .

والجنسية ، والدينية مما يأتى بيانه ، فذلك قولهم فى إنكار الأنساب الجاهلية وما يتصل بها .

وهناك من يؤمن بقدر من هذه الأنساب عام إجمالى دون هذه البطون والفصائل الكثيرة المتشعبة ؛ فابن خلدون يرى أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين فى القفر من العرب ومن فى معناهم لما اختصوا به من شظف العيش فلا ينزع إليهم أحد من الأمم يساهمهم فى حالهم أو يأنس بهم « فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة ، واعتبر ذلك فى مضر : من قريش ، وكنانة ، وثقيف ، وبنى أسد ، وهذيل ، ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ، وبعدوا عن أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب ، وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفى معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيء وقضاعة وإياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم ، ففى كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ماتعرف وربما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب فى بيوتهم وشعوبهم وإنما هذا للعرب فقط »[١] . فابن خلدون يتكلم عن هذه الفترة الزمنية التى تناولها ، ويفرق ، أولا ، بين العرب والعجم فى العناية بالأنساب ، ويميز ، ثانياً ، وبين المعنين فى القفر والمقيمين فى الخصب من حيث سلامة الأنساب وصراحتها ، وهو بذلك يؤمن بقسط من النسب بين البادين . ويتقدم بعض الباحثين فيرى أن

---

(١) المقدمة ص ١٤٤

الأنساب كانت مجموعات كبرى كعرب الشمال وعرب الجنوب ، ومضر وربيعة ، وأن الروابط بين أفرادها لم تكن أبوة دموية عامة جامعة دائماً ، وإنما كانت محالفات ربطت بين جماعات عربية ، سميت فيما بعد باسم المكان الذى عاشت فيه أو باسم الزعيم الذى انطوت تحت لوائه دون أن ترجع هذه القبيلة كلها إلى أب واحد وأم واحدة (٢) . ومعنى هذا أننا نؤمن ببعض الأصول والفروع الكبرى ، أو التى وثقتها الروايات الصحيحة ، وعرفها العلماء المسلمون ، وأقاموا عليها أحكاماً شرعية أصيلة .

وهناك هذا الرأى العملى الذى يعنى رجال التاريخ الأدبى والسياسى وهو يسلم بأصول الأنساب وفروعها دون أن يقف طويلا عند هذه النظريات العلمية والحقائق التاريخية ، ويبرر إيمانه بأن الحياة الأدبية ، والسياسية ، والاجتماعية إنما جرت على اعتبار هذه الأنساب أموراً مقررة وكانت آثارها ، وحركاتها ، ثمرة لهذه السلاسل التى تمثل ما بين القبائل من وشائج القرابة أو بعيد الصلات ، فأنشىء الشعر ، وقامت الأيام ، وعقدت المحالفات ، وكانت المفاخرات والمنافرات على أساس هذه الأنساب ، سواء ذلك فى الجاهلية والإسلام وفى أنحاء البلاد الاسلامية كلها .

ولا نستطيع تفسير المواقف القبلية وعصبياتها ، أو الآثار الأدبية واتجاهاتها دون الاعتراف بما قالت به العرب ، وأقامت عليه نشاطها ، وأنشأت فى ظله شعرها ونثرها ، وأذاعت مفاخرها ، وكونت أحزابها ، حتى قال الأستاذ Nicholson : « يجب أن تقوم دراستنا على إيراد ما كان يعتقده العرب فذاك أولى من العناء فى نقد ما كانوا يعتقدون »(١) .

---

(١) Lit. Hist. of Arabs' p. XX نيكلسن

(٢) راجع مقدمة مرجليوث لكتاب الأنساب للسمعانى .

ذلك ما كان متصلا بالجاهلية ، وقد قامت الأيام ، ثم النقائض ، والحوادث على أساس ما اعتقده العرب أو أقروه ، فكانت أيام قحطان وعدنان ، وفي داخل كل منهما ، ونهض الشعر يسجل هذه الأيام ويتناقض حولها ويتخذ معانيه من ملابساتها حتى صارت الأنساب الجاهلية ، في باب التاريخ الأدبي ، حقائق أدبيةً مقررة وإن أنكرها علم الأنساب .

ولما جاء الإسلام ، عنيت الشريعة بالأنساب لنظام الزواج ، والميراث ، والوقف والرق وما إلى ذلك مما هو متصل بالشعائر الدينية المقدسة(١) ثم اتخذها عمر أساساً للعطاء(٢) ، وعنى الناس بأنسابهم من ذلك حتى جاء الأشراف وكونوا نقابتهم وجعلوا من أغراضها حفظ أنساب الأشراف والقيام على شئونهم والاحتفاظ بمكانتهم الدينية والاجتماعية وبذلك صار علم الأنساب محكم الأصول منظم الفروع إلى حد كبير(٣) .

ولكن جانب العصبيات لم ينس الأنساب في ظل الإسلام فاستغلها المهاجرون والأنصار ، واستغلتها القبائل في حروب الردة ؛ وحذر عمر اللعب بها في الحياة الإسلامية، ولكنها منذ عهد عثمان قوى شأنها حتى ذهبت بالخلافة الأولى، وتنوعت نزعاتها وصارت كوارث سياسية واجتماعية .

ولما نهض الأمويون اعتمدوا على العصبيات العربية المختلفة وكانت الأنساب أساس ذلك بين اليمن وعدنان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين قيس وتميم ، وبين العرب والموالي، وبين الأموية والهاشمية، وعلى ذلك قام الشعراء يؤرثون العداوات، ويلهبون

---

(١) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي ، الباب الأول .

(٢) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٥٣ ، الطبعة الأولى .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٦٤ — ٧١ وأنساب الأشراف للبلاذري .

نارها بالفخر والهجاء ، وكان عصر النقائض النشيط الهام هو عصر الأمويين .

على أن هذه الأنساب لم تخل من الوضع والاضطراب فى العهد الإسلامى ؛ فقد رأينا الحطيئة يتردد بنسبة بين قبائل العرب و ينتمى إلى كل واحدة منها إذا غضب على الآخرين ، فعل ذلك مع بنى عبس و بنى ذُهل ، وقال الأصمعى : « كان الحطيئة يضرب بنسبة إلى بكر بن وائل » وسأل أمه عن أبيه فخلطت عليه حتى عاش مغموز النسب[١] وكان الرجل يرى نسبه رقيقاً فينتسب إلى رجل لم يعقب ، كمن انتسب إلى أبى ذر ولم يعقب أو حسان بن ثابت وقد انقرض نسله ؛ وكرجل دخل على المأمون فأعجبه كلامه ، فسأله عن نسبه ، فانتسب إلى عدى بن حاتم الطائى لصلبه فعرف المأمون كذبه[٢] ونشط الفرس بعد ذلك فى إلحاق أنسابهم بالعرب ووجدوا من النسابين عوناً لهم على اختلاق الأنساب كهشام بن الكلبى؛ فقد سأله خالد بن عبد الله القسرى عن جدته أم كُرَيز — وقد كانت بغياً لبنى أسد تدعى زينب — فقال له : هى زينب بنت عرعرة بن خذيمة بن نصر بن قعين فسر خالد بذلك ووصله[٣] وقد طلب إليه أبو نواس أن يلحقه بمذحج وكشف بقوله عن هذه السنة التى استنها النسابون من خلق الأنساب فخاطب الكلبى بقوله :

أبا مُنذرٍ مابالُ أنسابِ مذحج ... مُعلّقةً دونى وأنتَ صديق

فإن تعزُنى يأتكَ ثنائى ومدحتى ... و إن تأب لا يُسدد على طريق

وقال أبو نواس فى الهيثم بن عدى :

الحمد للهِ هذا أعجب العجبِ ... الهيثمُ بنُ عَدِيٍّ صار فى العرب

وقال بشار :

---

(١) الأغانى جـ٢ ص١٥٢

(٢) المعارف لابن قتيبة ص٢

(٣) الأغانى جـ١٩ ص٥٨ بولاق

إرفق بِنِسبة عمرو حين تنسبهُ ... فإنه عــربىٌّ من قوارير
مازال فى كِير حَــدّاد يُرَدِّدُهُ ... حتى بدا عَرَبياً مُظلمَ النور (١)

وروى صاحب الأغانى أن بعضهم تقدم إلى ابن الكلبى فى أن يخبر الناس عن دِعبلٍ الشاعر أنه ليس من خزاعة ، فقال له : « يا فاعل ، مثل دعبل تنفيه خزاعة ؟ والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدّعيه ، دعبــل ، والله يا أخى ، خزاعة كلها »(٢) وهكذا تعرضت بعض الأنساب للعبث والسخرية .

وكان النسب منذ الجاهلية من المغامز التى يهاجم بها الشعراء خصومهم حين يتركون أصولهم إلى غيرهم ، فقد قيل إن عاملة بن سبأ ولدت قبائل اليمن وهم قليل وزعم نساب مضر أنهم من ولد قاسط بن وائل قال الأعشى :

أعامل حتَّى متى تذهبــــــينَ ... إلى غيرِ والدكِ الأكرمِ
ووالدُكم قاسِـط فارجعوا ... إلى النسبِ الأتلدِ الأقدم (٣)

وفى الإسلام كانت المهاجاة والمناقضة تتخذ من النسب مادة بتحقيره أو التشكيك فيه ، أو نفى الشاعر عن قومه ، أو اعتباره فى رتبة وضيعة ، كذلك كان الفخر بالأنساب ومكانة الشاعر من قومه فيها أو قرابته إلى مثل قريش ، وضَبَّة ، وقيس وبيت الخلافة فى مُضر وهكذا .

ذلك جانب مما يتصل بموضوعنا ، والجانب الآخر أن النقائض بين الشعراء قامت كثيراً على الأساس القبلى ؛ فكان لزاماً أن نُلِمّ بأنساب القبائل من هذا الوجه ولا سيما أنها كانت أساساً للأيام التى قيل فى سبيلها كثير من النقائض .

---

(١) ذكرى أبى العلاء لطه حسين ص١٣٦ والأصنام ص١٧
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص٤٧ بولاق .
(٣) المعارف لابن قتيبة ص٤٦ .

— ٢ —

وأيام العرب وقائعها ، وسميت بذلك لأن الحروب كانت نهاراً ، واليوم عندهم هو النهار ، من طلوع الشمس إلى غروبها[١] وقد أشرنا قبلا إلى مكانة الأيام في الحياة الجاهلية وما أعقبت من أشعار ومناقضات[٢] ولكنا نخصها هنا بشيء من العناية .

الأيام جاهلية وإسلامية وأموية جرياً على تقسيمنا عصور النقائض وقد ذكر الميداني في مجمع الأمثال مائة واثنين وثلاثين يوماً جاهلياً ثم قال : « وهذا الفن لا يتقصاه الإحصاء فاقتصرت على ما ذكرت » . وأعقب ذلك بذكر ثمانين يوماً إسلامياً انتهت به إلى أيام المعتصم العباسي ، آخرها يوم (فَخّ) للعباسيين على الطالبيين ، ويقتصر الميداني على ضبط الأسماء وبيان مسمياتها من جبل ، أو ماء ، أو بئر ، وذكر الغالب والمغلوب ، وإتباع ذلك أحياناً ببيت أو بيتين من الشعر قيلا في اليوم لشاعر جاهلي أو إسلامي ، دون أن يسرد تاريخ الأيام .

ويظهر أن المصدر الأول لرواية أيام العرب هو كتاب مفصل لأبي عبيدة جمع فيه ألفاً ومائتي يوم ، وقيل إن له كتاباً آخر موجزاً تحدث فيه عن سبعة وخمسين يوماً وعن هذا الكتاب الأول أخذ سائر المؤلفين في الأيام[٣] .

وقد أورد أبو عبيدة نفسه (توفي سنة ٢١٠ هـ ٨٢٥ م) في شرح نقائض جرير والفرزدق جملة من هذه الأيام بحسب ورودها في المناقضة بين هذين الشاعرين وقد بلغت ثمانية وثلاثين يوماً رئيسياً رتبها في الفهرس ترتيباً هجائياً

---

(١) لسان العرب مادة يوم .

(٢) راجع في أيام العرب : شرح نقائض جرير والفرزدق ، وتاريخ ابن الأثير ج١ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ، ونهاية الأرب للنويري من ٥ قسم ٤ ونقائض جرير ، والأخطل لأبي تمام ، والأغاني ، وشرح المفضليات لابن الأنباري ، وشرح الحماسة للتبريزي ؛ ومعجم البلدان ، والعمدة لابن رشيق ج ٢ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية عدد ٣ مجلد ٣ من الترجمة العربية ص ١٨٢ .

ناشر النقائض الأستاذ « أنتونى أشلى بيفان » ذلك خلاف المغاورات الواردة أثناء الشرح ، ومعنى هذا أن شرح النقائض لم يستوعب أيام العرب و إن امتاز بتفصيل ما ذكر فيها ، ولم ترتب فيه ترتيباً تاريخياً ولا قبلياً . ونحو ذلك ما ورد فى نقائض جرير والأخطل لأبى تمام ، وكان أبو عبيدة مرجعها الأصيل .

أما أحمد بن عبد ربه ، فى كتابه العقد الفريد(١) فقد أورد الأيام الجاهلية مُصنّفة بحسب القبائل ، فذكر حروب قيس ، وحرب داحس والغبراء ، وحروب قيس وكنانة ، وأيام بكر وتميم ، وحرب البسوس ، وأيام الفجار ، مع ذكر جملة صالحة من الشعر والنثر المتصلين بهذه الأيام ، و بعض المشهورين من رجالاتها . وهذه الطريقة تنفع مؤرخ القبائل العربية ومكانتها فى الناحية الحربية ، ولكنها تفقد الترتيب التاريخى ، فكثيراً ما يتقدم ذكر بعض الأيام على بعض . ولما بدأ الكلام بحروب قيس و بيوم (مَنعِج) لِغَنِيّ على عبس قال : « قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يوم مَنعج يقال له يوم الردهة » فمرجعه أبو عبيدة أيضاً . وهذا النظام انتفع به بعض العصريين لما كتبوا فى أيام العرب كجورجى زيدان ومحمد جاد المولى وصاحبيه .

ولكن ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ أورد أيام العرب فى الجاهلية(٢) محاولا ترتيبها ترتيباً تاريخيا فتم له بعض ما حاول ، معتمداً على ما ورى عن أبى عبيدة ، متحرياً الإيجاز ولا سيما حين يعرض النصوص الشعرية المتصلة بالأيام إما لشكه فى صحتها و إما لشدة عنايته بالجانب التاريخى ، وكتابه يعد من المصادر الهامة لهذه الدراسة المتصلة بالأيام .

---

(١) جـ ٣ ص ٤٣ المطبعة الشرقية ١٣١٦ هـ .

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٣٦٧ — ٥١٧ طبع أوربة

وسائر المراجع اعتمدت على ما ذكرنا هنا إذ كانت هـــذه أوفى المراجع فى هذا الباب .

أما عن أسباب هذه الأيام فقد أشرنا قبلا إلى أنها ترجع إلى عاملين : مادى وأدبى ، وإن كان مردهما الأصيل هو سعة السلطان وكسب الاحترام وعزة الجانب أو توفير الحياة المرضية للقبيل ، ومع ذلك فلنذكر هنا بعض الأسباب المباشره لبعض الأيام توضيحاً لهذا الأصل العام .

من ذلك الطمعُ والرغبةُ فى النهب والسبى كيوم (البَرَدان) حين انتهز زياد بن الهبولة أمير الشام انشغال كِندة وربيعة فى الإغارة على البحرين ، فغزا بلادهم وأخذ الحريمَ والأموالَ ، ولكن حُجرا الكندى أوقع به انتقاماً منه ، وهذا سبب مادى ناشىء عن عدم قيام نظام محترم لصلات القبائل فيما بينها .

ومنها الغضب للكرامة والشرف ، كيوم (سَحْبَل) لما شنّع بنو عُقيل بجعفر ابن عُلبة لما عرض لنسائهم وكان من ذلك أحداث وثارات ، وكيوم (طِخفة) لما حاول المنذر بن ماء السماء نقل الردافة من بنى يربوع إلى مُجاشع ولكن اليَربوعيين انتصروا واحتفظوا بالرِدافة فيهم .

ويكون مردها الوشايات والعوامل السياسية كما حدث بين شُرحبيل وسلمة ابنى الحارث الكندى ، فكان من ذلك يوم (الكُلاب) الأول ، وقد قوّى الشر بينهما المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة اشتفاء من والدهما الحارث فقد كان من عوامل إقصائه عن عرش الحيرة قبل ذلك .

وربما كان السبب الملاحاة والمِراء الذى يوغر الصدور ويثير الحفائظ . وذلك يوم (ذى طُلوح) الذى كان ثمرة الملاحاة بين أبجر بن جابر العِجلى وبين زوج أخته عُميرة بن طارق اليربوعى ، ومثله يوم (المرُّوت) الناشىء عن المفاخرة ونبش

الماضى بين قعنب بن الحارث اليربوعى وبجير العامرى بعكاظ وفيه انتصرت تميم على عامر .

وكانت حماية الجار من أسباب (الأيام) كحرب (سُمَير) نشأت عن غضب مالك بن العجلان لكعب الثعلبى الذبيانى جاره فى المدينة ، وإن كان الأصل الأصيل هو الملاحاة والمفاخرة .

والثأر والانتقام كيوم (مُبايض) حين ثأرت شيبان من تميم لنفسها وكذلك يوم (مَنعج) وفيه ثأرت عبس لنفسها من غنى . وكان الغدر والعنف دافعاً إلى حروب داحس والغبراء .

ومن الدوافع رفع الضيم والتشبث بالحرية كيوم (خَزاز) لمعد على مَذحِج ، ويوم (حُجر) لبنى أسَدٍ على كِندة ، وحرب (البسوس) بين بكر وتغلب [1] .

ويلاحظ على سَيْر هذه (الأيام) أن الهزيمة كثيراً ما تحل بالعادى الظالم ، وقد يكون شىء من ذلك نتيجة للقصص الذى يساق للعظة والاعتبار ، وشىء منه طبعى إذ يكون المدافع الثائر لنفسه أقوى لاحتمائه بموطنه ، وأحسَّ لدفع العدوان وحماية الشرف ، وآبى للضيم والهوان ، وذلك كأيام : طسم وجديس والزباء وذى قار ، والصفقة ، والبَردان ، وحليمة ، وعين أُباغ ، وبُعاث ، وزَرود ، وذى طلوح وجَدود ، وظهر الدهناء ، والإياد ، والشباك ، واللوى ، والنقراوات ، وذى نجب وغيرها كثيرة .

وتكون الغلبة للعادى المهاجم للحق التاريخى أو لحبك القصص ، كحرب حاطب ، ويوم سحبل ، ويوم ثيتل ، ويوم الوقيط ، وجبلة ، ورحرحان .

ويلاحظ أنه فى يوم أوارة الثانى كان أوله انتصار للغادر الظالم وآخره جزاء

(١) راجع كتاب الأيام التى أشرنا إليها سابقا لتعرف أخبار ما أوردناه هنا للاستشهاد .

الواشي . وفي يوم (فيف الريح) تساوت عامر ومذحج تقريباً ، والعجيب أن هذا اليوم كان محاولة من بني عامر أن يأخذوا ثأرهم من بني الحارث بن كعب ومعهم مذحج ، فهل كانت النتيجة طبيعية إذا كان تساويهما يقابل تساوى الموقفين مادام ثأرا لدماء قديمة ؟!

أما عن مواقف القبائل في هذه الأيام فيلاحظ عدة أمور :

أولها : أنه في أيام العرب والفرس — كالصفقة وذي قار — كانت هناك قبائل عربية في جانب الفرس مما يدل على أن هذه القبائل تظفر بمزايا مادية من الفرس إذا كانوا غالبين ومن العرب إذا كانوا مغلوبين كتخولهم سواد العراق وأخذهم العطايا والهبات ، كما يدل على أن الحرب بين الفرس والعرب لم تقع على أساس جنسي أو قومي ، ففي يوم الصفقة كان هوذة الحنفي والي اليمامة مع كسرى على تميم ، وفي يوم ذي قار كان في صف كسرى النعمان بن زرعة زعيم تغلب والنمر ، وخالد بن يزيد البهراني زعيم قضاعة وإياد ، وإياس بن قبيصة رأس العرب . . كل أولئك ضد بكر بن وائل .

وثانيهما : أن أيام قحطان فيما بينها تدخلت فيها العدنانية ، ففي يوم (البردان) كانت كِندة وربيعة في صف حُجر ، وفي يوم (الكُلاب الأول) كانت قبائل معد بن عدنان قسمة بين أمراء كندة المتحاربين ، وفي (عين أباغ) كانت معد مع المنذر ، وفي يوم (حليمة) كانت أسرى من تميم معه فيهم شاس أخو علقمة ابن عبدة .

وثالثها : أن أيام القحطانية والعدنانية كانت أحياناً بين ملوك قحطان وقبائل عدنان لأن الآخرين كانوا يثورون على حكامهم اليمنيين إباء للضيم والهوان ، وكانت أحياناً بين القبائل كأيام : الكلاب الثاني ، وفيف الريح ، وظهر الدهناء .

ورابعها : أن سائر الأيام تنضم فيها بعض القبائل إلى قبائل بعيدة فى النسب على القريبة لحلف أو طمع ، وكنت ترى امتناع الرءوس عن مطاوعة أفراد وقبائل أخرى على العدوان قطيء رفضت أن تدخل النعمان جبلها خوف كسرى ، والحارث بن ظالم المرى لم يظفر بحماية حاجب بن زرارة من بنى جعفر مخافة الظلم وهناك رجال صلح معروفون كحرب بن أمية وعبيد الله بن جدعان أيام الفجار ، وهرم بن سنان والحارث بن عوف فى داحس والغبراء .

أما عن الأيام نفسها ، فكانت ذات أوضاع شتى :

أولها : ما كان بين العرب والفرس كيومى : الصفقة لكسرى على تميم ، وذى قار لبكر على العجم ، و يدل قصصها على جاه الفرس وضربهم العرب بعضهم ببعض وكيد زعماء العرب لبنى جنسهم فى بلاط الأكاسرة ، ورهبة فى نفوس العرب للفرس .

وثانيها : أيام القحطانيين فيما بينهم كحرب الأوس والخزرج وأيام البردان والكلاب الأول ، وعين أباغ ، وحليمة ، واليحاميم ، وكانت معرضا لأطماع الأمراء وعتوهم ، ولمظالم الأقربين وإحنهم ، وتعارك العرب فى سبيل غيرهم من الفرس والروم .

وثالثها : ما كان بين العدنانيين ، وكانت العدنانية تشهد هذه الأيام متفرقة ، وقيل إنها لم تجمع كلها فى الجاهلية إلا ثلاثة أيام فقط : هى يوم البيداء بين تهامة واليمن ، ويوم السلان بين اليمامة واليمن ، ويوم خزاز بين معد واليمن (١) وعدا ذلك أيام طخفة وأوارة ، وحجر ، والكلاب الثانى ، وفيف الريح وظهر الدهناء وعليها سمات الثورة ، والطموح إلى الحرية والاستقلال ، والنقمة على عسف الملوك .

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٦٦ وابن الأثير ج ١ ص ٤ ص ٣٨٤ وأمثال الميدانى ج ٢ ص ٣٢٦ والعرب قبل الإسلام ص ٢٢٤

رابعها : أيام العدنانية فيما بينها ، وهذه كانت النظام السائد الكثير الفروع والمشاهد ، كانت فى ربيعة كحرب البسوس بين بكر وتغلب . وكانت بين ربيعة وتميم كأيام الوقيط ، وذى طلوح ، والإياد ، وعاقل والوقبى ، وكانت فى قيس كأيام : مَنعِج ، وداحِس والغَبراء والرقم ، واللوى ، وهَراميت ، وبين قيس وكنانة كالكديد ، وبَرْزَة ، والفِجار ، وبين قيس وتميم ، كأيام رَحرَحان ، وشعب جبلة ، وذى نجب ، والصَّرائم والمرُّوت ، وبين ضبَّة وغيرهم كالنسار ، والشقيقة ، وبُزاخة ، ودارة مأسِل ، والنقيعة وغير ذلك .

ولكن ما الفاصل بين الجاهلية والإسلام فى هذه الأيام ؟

لا يمكن جعل ميلاد الرسول عليه السلام حداً فاصلا بين العهدين لأن ميلاده كان أثناء الجاهلية ولم يغير شيئاً من النظم والتقاليد القائمة فبقيت سائرة فى طريقها الرتيب حتى زمن البعثة ، على أن الرسول عليه السلام اشترك فى بعض أيام العرب قبل الإسلام حينما كان يناول أعمامه النبل يوم عكاظ من حروب الفِجار الثانى .

ولا يمكن عدُّ البعثة المحمدية ذلك الحدّ ، لأن الرسول بقى فى مكة يدعو قومه وهم عنه معرضون وقلَّ مَن آمن به ، وكانت الكثرة العربية فى غيّها تعيش فى الصحراء عيشتها الجاهلية السفيهة لم تغير شيئاً من سلوكها ، ولم تقف أيامها فيما بينها .

كذلك لا يمكن جعلُ الهجرة حداً حاسماً بين الأيام الجاهلية والإسلامية ، فبعد الهجرة بدأت الأيام الإسلامية حقاً كأيام بدر ، وأحد ، والخندق وغيرها ، ولكن بجانب هذه كانت الأيام الجاهلية قائمة فى أرجاء الجزيرة العربية خاضعة فى أسبابها ، وغاياتها ، ونظمها للروح الجاهلى القديم ، فمن أيام العرب بعد الهجرة يوم ذى قار بين الفرس وبنى بكر ، ويوم الشيِّطين لبكر على تميم ، ويوم فَيف الريح لمذحج على عامر .

ذلك من وجه ، ومن وجه آخر نجد أياماً متأخرة عن صدر الإسلام أى فى عهد الأمويين ، وكانت أياماً جاهلية فى روحها وأحداثها ، وإن اتصلت أسبابها بالحياة الإسلامية السياسية والدينية، كحروب قيس وتغلب، ولا يمكن عدها إلا أياماً إسلامية لذلك.

والرأى ، عندى ، أن كلّ يوم كان بعيداً عن تأثير الإسلام وتياراته ، ولو بعد ظهوره ، فهو جاهلى كأيام : الوَقَبَى ، ودَرَامِيت ، والشُّيَطين ، وذى قار ، وكل يوم متأثر بروح الإسلام وحياته ونظمه فهو إسلامى مهما يكن شبيهاً كيوم البِشر ، ويوم الحشاك ونحوهما .

وتختلف الروايات فى قصّ (الأيام) سواء فى الأسباب والنتائج والملابسات الجزئية ؛ من ذلك الخلاف فيمن قطع السلسلة يوم (المشَقَّر) : أهو خيبرى بن عُبادة أم عُبيد بن وَهب من تميم ؟ وفى يوم (ذى قار) : من أجار النعمان ، أهو هانىء بنُ مسعود أم هانىء بن قبيصة ؟ وكيف قتل النعمان ، أبالطاعون أم تحت أرجل الفِيلة ؟ وصاحب الغَرِيَّين مَن هو ؟ النعمان بن المنذر على قبرَى نديمَيه أم الحارث الأعرج على قبرى ابنيه ؟ وماسبب يوم (خَزاز) أهو عدوان سمة الكندى على نزار أم أسرى مضر عند أحد ملوك اليمن ؟ ومثل هذا الاختلاف طبعى لعدم تقييد هذه الأخبار قديماً ، ولتأخر عهد التدوين ، ولتأثير العصبيات فى ذلك .

على أننا نجد سمات الفن القصصى شائعة فيما روى حول (الأيام) فحرب البسوس قصة حماسية والتعقيد واضح فى أيام داحس والغبراء . وأما قصة طسم وجديس فتمثِّل الصراع بين الجبروت الملكى والثورة فى سبيل العرض والكرامة وتبع ذلك أنك تجد فى غضون هذا القصص شعراً موضوعاً ، ورجزاً وشعراً أصيلا يلقاك شىء منه فى الفصل التالى . ومن أدلة الوضع ما قال أبو عبيدة : « حدثنى المنتجع بن نبهان قال : وقف رؤبة بن العجاج على التيم بمسجد الحرورية ، فقال :

يا معشر تيم ، إنى سمرت عند الأمير تلك الليلة ، فتذا كرنا يوم الكلاب الثانى — فقال : يا معشر تيم إن الكلاب ليس كما ذكرتم فأعفونا من قصيدتى صاحبينا يعنى عبدَ يغوث ووعلةَ الجرمى ومن قصيدة ابن المكعبر صاحبكم وهاتوا غير ذلك فأنتم أكثر الناس كلاما وهجاء ، قال رؤبة : فأنشدناه فى ذلك اليوم شعراً كثيراً فجعل يقول هذه إسلامية كلها »(١) .

وقد مثل القصص كثيراً من شمائل العرب ومزاياهم ، ففيه تدابير الحرب ضد الفرس ، والعصبية للجنس أحياناً ، والتجسس والاحتيال انفع القبيل وعصبية المرأة لأهلها والانتحار خوف المثلة والالتجاء إلى الأصنام والكهان ، كما تجد فى حروب الفجار ميلا إلى المصالحة وخلقاً كريماً وميلا إلى العدالة واحتراماً لمكة وقريش ، وقصر الحروب وسهولة الشعر .

وإذا كانت الأيام تحتاج إلى دراسة خاصة دقيقة فحسبنا هنا هذا الإيجاز لنشير إلى أن أكثر النقائض الجاهلية إنما قيلت فى ظل هذه الأيام وتحت ألويتها كما يمر بك فى الصفحات التالية .

— ٣ —

وهناك معرض آخر للنقائض أومقوّم من مقوّماتها وأصل من أصولها العامة، ذلك هو الحياة الاجتماعية الجاهلية وما جرت عليه من أوضاع ، ففى سبيل هذه الأوضاع العرفية والعادات المرعية أنشى قسم من النقائض لأن هذه الأصول لم تراع فخرج عليها الناس أوقصروا فيما تستدعى من سلوك فقام الشعر يثور لها أوعليها وبذلك كان الحوار والملاحاة ؛ كانت العرب تحب الحروب وتعدها مجال الفروسية ، وامتحان المواهب السامية ، فكان الفرار منها جبنا وعاراً ، وكانوا يحبون الحرية

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٧٢ المطبعة الشرقية .

وينفرون من الضيم مهما يلق الفرد فى ذلك من نفى وتشريد ، وكانت المرأة ملمس العفة ومغمز الكرامة والشرف فدخلت النقائض فى فن النسيب ، وكان وأد البنات موضوع جدال بين العرب والفرس فيما بعد ، كما كان منعه مفخرة من مفاخر آباء الفرزدق أوجده صعصعة خاصة ، كذلك كانت السيادة والنجدة والكرم والغنى من أسباب المجد الذى يفخر به الشاعر ويهجو خصمه بفقده ، وكان العربى الأصيل يتسامى على الدخيل والرقيق ، ويعد نفسه أرفع منه مكانة وأمجد أصلا ، كذلك كان تجويد الشعر من موضوعات النقائض فخرت به مدرسة الحطيئة وكعب بن زهير فاعترضتها مدرسة مُزَرِّد أخو الشمَّاخ ، كذلك كان الحلم والوفاء والحزم من الفضـــائل التى يتجاذبها المتناقضون ، وكان اتصال الشعراء لرؤساء بالأكاسرة أوالمناذرة والغساسنة من الميزات التى يتعاظم بها الشاعر ورهطه ، ذلك غير امتياز بعض القبائل بمكانة كقريش ، وقيس عَيلان ، ومضر عامة .

هـذه التقاليد الاجتماعية كانت مقياس الاعتدال والإنصاف وصحة السلوك واحترام القبيل فكان الشاعر يدعى لنفسه ولقومه التمسك بها ويرمى خصمه بالإعراض عنها وإغفال أمرها ، وقد رأينا أن شاعراً ، هو قُريط بن أُنيف ، يهجو قومه بأنهم أخيار يخشون الله ويقابلون الشر بالخير ويتمنى لو كانوا عادين ظالمين ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً تبعاً لتقاليد الجاهليين .

معنى ذلك أن النقائض الجاهلية عاشت فى ظل الأيام أولا ، والتقاليد الاجتماعية ثانياً ، وذلك ما نعرضه فى الفصول الآتية :

الفصل الثالث

النقائض والأيام القحطانية

— ١ —

إذا جاوزنا ذلك القصص الأسطوري المتصل بالعرب البائدة والذى ذكرناه فى الفصل الأول متصلا بطسم وجديس ، فإننا نصل إلى العرب القحطانية ما دمنا خاضعين فى هـذه الدراسة لسلسلة الأنساب كما رواها النسابون ووصلوها بالتاريخ الأدبي ، والسياسى ، والاجتماعى ، وإذا كانت الأيام ، كما قدمنا ، أهم معرض المناقضة بين الشعراء آثرنا أن نقدّمها فى الذكر وما اتصل بها من هـذا الفن ؛ وآثرنا أن نقدّم منها ما كان متصلا بالقحطانية سـواء أكانت أياماً داخلية بين قبائل قحطان أم أياماً خارجية بينها وبين قبائل عدنان ، إذ كان الجانب القحطانى فيها هو السائد الغالب إما بكثرة عدده وآثاره الشعرية ، وإما بكون السلطان القحطانى متغلباً ذا أثر قوى فى سـير حوادثها وجليل آثارها ونتائجها . وسنقتصر هنا على الأيام التي وردت فى أخبارها نصوص المناقضة بين الشعراء .

وقد أشرنا فى الفصـل الأول إلى ما كان من حوار بين سلمة بن الحارث الكندى وبين أبى حنش التغلبى حول قتل شرحبيل بن الحارث الكندى يوم الكلاب الأول ، وإلى ما دار من المناقضة بين امرىء القيس وعبيـــد بن الأبرص الأسدى حول مقتل حجر الكندى والد امرىء القيس فلا نعيد ذكره هنا وإنما نشير إلى ما روى أنه جرى بين امرىء القيس وشهاب وعاصم اليربوعيين ، قال امرؤ القيس فيهما : —

هـل قد أتاكَ الخبرُ مَالِ … أبلغ شهاباً ، بل فأبلغ عاصما
حَي وسبايا كالسعالِي … أنَّا تركنا منكمُ قتلى وجَرْ
ثِ بجـــوع وهُزالِ … يمشين فى أرحلنـا مُعترفا

فرد عليه شهاب بقوله : —

حتى استفدنا الحيَّ من أهلٍ ومالِ … لِمَ تسبنا خيلُـكم فيما مضى
تستقبل القومَ بوجه كالجِمالِ … ذاك ، وكم كندية سوداء قد
نُطعمُها قِدًّا ومحروثَ الخِمالِ … فأيقظتنا بأكلٍ فينا عفرا
كأنها قد نُطقتْ مِن حَزمِ آلِ … أيامَ صبحنا كمُ مَلمومةً
إذا توانى الخيلُ بالقومِ الثقالِ (١) … مِن كل قَبّاء بعدوِ الوَكَرَى

فإذا صح هذا الشعر ألقى ضوءا على نص آخر هجا فيه امرؤ القيس البراجم من بنى تميم ، ويربوعا ، ودارما ، لأنهم تخاذلوا فى الدفاع عن شرحبيل عم امرىء القيس حتى قتل يوم الكُلاب الأول بيد أبى حَنَش التغلبى ، وأوله : —

وجدَّع يَربوعا وعفّر دارِما (٢) … الا قبّح اللهُ البراجِمَ كُلَّها

وقد جمعت المناقضة بين فنى الفخر والهجاء ، ووحدة البحر والقافية ، وتقابل المعانى فقد أنكر الثانى على الأول فخره ، وقابل هجاءه بنظيره . وكان الكلاب الأول لسلمة بن الحارث على أخيه شرحبيل (٣) ولشعراء الجاهلية والاسلام شعر كثير فيه ، منهم السفاح التغلبى ، والاحّام التغلبى ، وجابر بن حُنَىّ ، وفيه يقول الأخطل لجرير : —

قتلا الملوكَ وفككا الأغلالا … أبنى كُلَيب إن عمَّىَّ اللذا

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٠٦ ط السندوبى .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ عن البراجم .
(٣) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٤٥٢ — ١٦١ .

وأخوهما السَّفَّاح ظمّأ خيلَه حتى وردْنَ جِبَى الكُلاب نِهالا[1]

وأما يوم الكلاب الثانى فكان تميم على مذحج وأحلافها[2] وفيه كانت المناقضة الرجزية السابقة وشعر موضوع كثير[3] .

ونتقدم فنجد من شعراء طيء زيدَ الخيل النبهانى الشاعر الفارس المغوار المخضرم غزا فى الجاهلية بنى عامر وفيهم غَنِيّ وأحواتُهم الطُّفاوة فهزمهم واستحرّ القتل بغَنِى وفيهم يومئذ شعراء وفرسان فملأت طيء أيديهم من الغنائم وأسر زيد يومئذ الحطيئة فجز ناصيته وأطلقه ، وقال زيد فى وقعته ببنى عامر قصيدته التى يقول فيها : —

وخَيبةِ من يُخيب على غَنِيّ وباهلةَ بن أعصُر والكلابِ

ثم إن غنياً تجمعت بعد ذلك مع لِفّ من بنى عامر فغزوا طيئاً فى أرضهم فغنموا وقتلوا وأدركوا ثأرهم منهم ، وعلى ذلك أجاب طُفَيل الغنوى زيداً فقال : —

سَمونا بالجيادِ إلى أعادٍ مُغاورةً بجِدٍّ واعتصابِ

نؤمُّهم على رُعب وشحطٍ بِقَود يطّلِعن من النقابِ

وهى طويلة منها : —

أخذنا بالمخطّم مَن أتاهم من السُّودِ المزنَّمةِ الرّغابِ

وقتّلنا سَراتهم جهارا وجئنا بالسبايا والنِهابِ

سبايا طيء أبرزْنَ قسرا وأبدلْنَ القصورَ من الشِعابِ

سبايا طيء مِن كل حَيّ بمن فى الفرع منها والنِصابِ

---

(١) عماه كليب ومهلهل أو عمرو بن كلثوم وأبو حنش راجع نقائض جرير والأخطل ص ٧٣

(٢) النقائض ص ١٧٣ والعقد الفريد ج ٣ ص ٧٠ .

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٧٠

وما كانت بناتُهم سَبِيًّا ولا رَغَبًا يُعدُّ مِن الرِّغابِ
ولا كانتْ دماؤهمْ وفاء لنا فيما يُعدُّ مِن العِقابِ [1]

وقد مضى فى الفصل الأول ما كان من ملاحاة بين زيد الخيل وعامر بن الطفيل فى مقتل (دؤاب) الطائى ، وكانت مناقضةً لولا اختلاف القافية .

وحدث مرة أن أغارت هوازِن (من قيس عيلان) على خُزاعة (من كهلان) وهم بالمحصَّب مِن مِنًى ، فأوقعوا ببطن منهم يقال لهم بنو العنقاء ، و بِقوم من بنى ضَياطر فقتلوا منهم عبداً ، وعوفاً ، وأقرمَ ، وغُبشان ، فقال الأحبّ العدوانى من قيس مفتخراً بذلك : —

غداةَ التقينا بالمحصَّبِ من مِنًى فلاقتْ بنو العنقاء إحدى العظائمِ
تركنا بها عوفاً وعبداً وأقرما وغُبشانَ سُؤراً للنسور القشاعِمِ

فأجابه قيس بن منقذ الشلولى : —

فخرتَ بيومٍ لم يكن لك فخرهُ أحاديث طسم ، إنما أنت حالِمُ
تُفاخر قوماً أطردتكَ رماحهم أكعبَ بنَ عمرو،هل يُجابُ البهائم؟
فلو شهدتْ أمَّ الصبِيَّيْنِ حملَنا وركضَهمُ لابيَضَّ منها المقادم
غَداةَ تولَّيْتم وأدبر جمعُكم وأبنَا بِأسراكم كأنَّا ضراغِمُ [1]

فقيس ينكر على صاحبه انتصاره ، وفخره ، ويثبت عكسهما له ولقومه ، مع وحدة البحر ، والروى ، وإن اختلفت حركة الروى .

— ٢ —

ولعل أهمَّ نقائض القحطانية مادارت حول أيام الأوس والخزرج إذ كانت أيامهم من أشهر حروب الجاهلية ولا سيا أنها اقترنت بذكر جماعة من كبار

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٤ بولاق

الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، من العرب واليهود .

والأوس والخزرج قبيلتان من أزد كهلان اليمانية ، رحلتا من الجنوب ، بعد سيل العرم واستقرتا أول الأمر عند يثرب ، وكانت هذه مقر اليهود — من بني قُرَيظة ، والنَضِيرة ، وبني قينُقاع ، وبني ماسلة ، وزَعُورا وغيرهم — وقد بنوا لهم حصونا يجتمعون فيها إذا خافوا ، فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون إلا أن الغلبة والحكم لليهود الذين نزحوا إلى يثرب هاربين من الشام أمام الروم ، وكان نزول الأوس والخزرج بِصِرار — ماء على ثلاثة أميال من يثرب — نزلوا في جهد وضيق في المعاش ليسوا بأصحاب إبل ولا شاة ، لأن المدينة ليست بلاد نَعَم ، وليسوا بأصحاب نخل ولا زرع ، وليس للرجل منهم إلا الأعذاق اليسيرة يستخرجها من الأرض الموات ، والأموالُ لليهود[1] . وهنا يحكي ابن الأثير قصة لملك اليهود (الفِطْيَون) وأنه كان يسلك مع اليهود — وقيل بالأوس والخزرج أيضاً — ما كان يسلك ملك طسم بنساء جديس حتى أتى دور أخت مالك بن العجلان ، فأثارت أخاها مالكا فقتل (الفِطيَون) وفرّ إلى الشام يستنجد الغساسنة ، ولكن الأغاني في روايته يصل مباشرة إلى وفود مالك هذا إلى أبي جُبيلة الغساني الذي يسأله عن قومه فيصف له نكد عيشهم فيأتي أبو جُبيلة إلى المدينة ويقتل زعماء اليهود ويمكّن للأوس والخزرج في المدينة ، ويعيش هؤلاء معاً في سلم وأمن إلى أن كانت حرب (سُمَير) أولى حروبهم وفاتحة البأس بينهم حتى جاء الإسلام فختم ذلك النضال وأحل محله الوئام والسلام .

وقبل المضي في ذكر أيام الأوس والخزرج نشير إلى جماعة من شعراء اليهود لما كان لبعضهم صلة بشعراء النقائض أو مشاركة فيها وفي أيامها ، منهم أوس بن

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٩١ ، ومهذب الأغاني ج ١ ص ١٠٧

دُنَيّ القَرظى ، والسموءل بن عاديا ، وأبو الزِناد ، وكعب بن الأشرف من بنى النَضير وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره فى حروب الأوس والخزرج ، والربيع ابن أبى الحقيق من قريظة وكان أحد الرؤساء يوم (بُعاث) حليفاً للخزرج هو وقومه[1] .

ونذكر هنا من أيام الأوس والخزرج ما كان معرضاً للدقة متحرين الإيجاز قدر المستطاع[2] .

وأول هذه الأيام يوم (سُمَير) للأوس على الخزرج ، وسببه أن سميرا الأوسى قتل ضيفاً من بنى ذبيان يدعى كعباً الثعلبى كان نزيلا على مالك بن العجلان الخزرجى فى خبر طويل فتحارب الحيان ، وقبل الحرب أبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصر مالكا فقال يذكر ذلك ويشير إلى حدب بنى عمرو بن عوف على سمير ، ويحرض بنى النجار على نصرته من أبيات : —

إن سميراً ، أرى عشيرتَه قد حَدَبوا دونه وقد أنِفوا
إن يكن الظن صادقاً ببنى النجّارِ لا يطعموا الذى عُلِفوا[3]
لا يُسلمونا لمعشر أبداً ما دام مِنّا ببطنها شَرَف

وقال دِرهم بن زَيد أخو سُمير فى ذلك : —

يا قومُ لا تقتُلوا سُميراً فإنّ القتلَ فيه البَوارُ والأسفُ
إنْ تقتلوهُ تَرِنَّ نِسوتُكم على كريم ويَفزعُ السَلَفُ[4]
إنى لعمرُ الذى يَحجُّ له الناسُ ومن دُونِ بيته سَرِفُ

---

(١) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٨٦ والأغانى وابن سلام

(٢) راجع فى هذه الأيام ابن الأثير جـ ١ ص ٤٦١ وما بعدها والأغانى جـ ٣ ص ١٨ ، دار الكتب ، والعرب قبل الإسلام ص ٢٥٠ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٦٢

(٣) أى لايقبلون الضيم اذا امتحنوا به . (٤) ترن : يرفعن أصواتهن بالبكاء .

يمينُ برٍّ باللهِ مجتهدٍ ... يحلفُ إن كان ينفع الحلِفُ
لا ترفعُ العبدَ فوقَ سُنَّتِهِ ... مادام منا ببطنها شَرَفُ
إنك لاقٍ غداً غُواةَ بنى ... عمى فانظرْ ما أنت مُزدِهفٌ(١)
فأبدِ سيماكَ يعرفون كما ... يُبدون سيماهُم فتعترِفُ(٢)

وقال درهمٌ فى ذلك أيضاً : —

يا مالِ لا تبغيَنْ ظُلامتنا ... يامالِ ، إنّا لَمعشرٌ أُنُفُ
يا مالِ والحقُّ إن قنِعتَ به ... فيه وفينا لأمرنا نَصَفُ
إن بُجيرا عبدٌ فخذ ثمناً ... فالحق يُوفَى به ويُعترَفُ
ثم اعلمَنْ إن أردت ضَيم بنى ... زيدٍ ، فإنى ومَن له الحلِفُ
لأصبحَنْ دارَكم بذى لَجبٍ ... جَونٍ له مِن أمامِه عزَفُ(٣)
البَيضُ حِصنٌ لهم إذا فزِعوا ... وسابغاتٌ كأنها النطَفُ
والبِيضُ قد ثُلمت مضاربُها ... بها نفوسُ الكُماةِ تختطَفُ
كأنها فى الأكف إذ لمعَتْ ... وميضُ برقٍ يبدو وينكسِفُ

فأبيات مالكِ بن العجلان تتضمن غِبطةَ سُميرعلى نصر قومه له ، ورجاء بَنِى النجار أن ينصروه هو ، وخِلاف بنى الحارث بن الخزرج عليه ، واتهام كل من بنى جَحجَبَي و بنى زيد الآخر بقتل حليف مالك الذى أبى أن يقبل فيه دية الحليف ، وهى نصفُ دية الأصيل ، ثم شجاعة هذين الرهطين من الأوس .

وقد ردّ عليه درهم أولا ، بأن قتل سُمير بحليف مالك يعقب شراً كثيراً ،

(١) مزدهف : مقدم عليه من الشر .
(٢) كان مالك بن العجلان إذا شهد الحرب بغير لباسه وتنكر لئلا يعرف فيقصد
(٣) عزف : صوت .

ويقسم أنه لا يضع الحليف فى مكانة الأصيل ، ويهدده بما يلقى من الأوس ، فلم يلتقيا إلا فى مسألة الدية ، وكان رد درهم أقوى لاشتماله على التهديد والوعيد .

ثم ردّ عليه ثانياً بنصحه ومحاولة إرجاعه إلى الهدى والرشاد ، وبتهديده بحرب طاحنة إن لم يلزم جادّة الصواب ، وكان درهم يرد على سلوك مالك وآرائه الواردة فى سياق القصص النثرى أكثر من ردّه على شعره .

وكأن هذه الملاحاة الشعرية لما بقيت مرويّة أثارت فى نفسى شاعرين تأخرت بهما الأيام فلم يدركا هذا اليوم ، حماسةً فتناقضا حوله من الوزن والقافية نفسهما، هما قيس بن الخطيم الأوسى وحسان بن ثابت الخزرجى ، فقال قيس بن الخطيم قصيدته المشهورة :

ردّ الخليطُ الجمالَ فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا

وهى طويلة يقول فيها بعد النسيب مما يتصل بهذا اليوم : —

أبلغْ بنى جَحْجَبَى وإخوتَهم زَيداً بأنّا وراءهم أُنُفُ
وأننا دُون ما يسومهم الـ أعداء مِن ضَيمِ خُطةٍ نُكُفُ
نَفْلى بحدّ الصفيح هامَهمُ وفَلْيُنا هامَهم بها جَنَفُ
إنّ بنى عَمّنا طغَوا وبغَوا ولَجّ منهمْ فى قومهم سَرَفُ [١]

فرد عليه حسان بن ثابت بقصيدته التى مطلعها : —

ما بالَ عَينى دُموعها تَكِفُ من ذِكر خَودٍ شَطّت بها قذَفُ

وبعد نسيب وفخر قصيرين يقول فيما يتصل بالموضوع من أبيات : —

تَبلّغ عَنى النبيتَ قافيـــةٌ تُذلهمْ ، إنّهم لنا حَلفوا [٢]
بالله جُهــــداً لنقتلَنـكُمُ قتلا عنيفاً والخيلُ تنكشفُ
أو تَدْعُ فى الأوس دَعوة هرَباً وقـد بدا فى الكتيبة النَصَفُ

(١) الديوان ص ١٦ طبع أوربة والأغانى ج٣ ص ٢٢ دار الكتب مع اختلاف فى الروايتين .
(٢) النبيت بطن من الأوس .

كُنتم عَبيداً لنا نُخَوِّلُكم   مَن جاءنا والعبيدُ تُضطَعف[1]
كيفَ تَعاطَونَ مَجدَنا سفهاً   وأنتم دِعوةٌ لنا وَكَفُ[2]
هَلاّ غضبتم لأعبدٍ قُتِلوا   يومَ (بُعاثٍ) أظلّهم ظَلَفُ[3]
نقتلهم والسيوف تأخذهم   أخذاً عنيفاً وأنتمُ كُشُفُ[4]
إنّ سُميراً عبدٌ طغى سَفَهاً   ساعدَهُ أعبُدٌ لهم نَطَفُ[5]

معانى قيس قائمة على الحماسة ، والوعيد ، والهجاء بالبغى ، والطغيان ، والإسراف فى التجنى ومجاوزة الحد ، فرد عليه حسان ساخراً من وعيده ، مفتخراً بقومه ، هاجياً خصومه بأنهم دونهم فى الشرف ، ذاكراً من قتلوا منهم يوم (بُعاث) رامياً سميراً وقومه بالطغيان والسفاهة والطيش ، فسلك فى نقضه مسالك القلب ، والموازنة ، وزاد الهجاء بأن خصومه خوَل خدام فتحققت المناقضة وإن كان سببها قديماً . ومَن يدرى فلعل المناقضة الأولى من وَحْى الثانية ومن آثارها فوضعت وضعا .

ويلاحظ أن موقف الخزرج كان ضعيفاً فى الماضى ، عملياً بالهزيمة فى هذا اليوم ، وأدبيا بشعر مالك بن العجلان ، ولكنه اكتسب قوة أدبية أخيراً لما تناوله حسان ، على أن المناقضة هنا لم تخل من شعور القربى والأسف على تخطيها .

ومن أيامهم حرب كعب بن عمرو ، للخزرج على الأوس ، وذاك أن كعب بن عمرو المازنى الخزرجى تزوج امرأة من بنى سالم من الخزرج ، وكان يختلف إليها ، فقصد له رهط من بنى جَحْجَبى من الأوس بمرصدٍ فضربوه حتى قتلوه

(١) نخولكم نجعلكم خدما . تضطعف من الضعف .
(٢) دعوة منهم نسبه والوكف العيب والنقص . (٣) ظلف : شدة .
(٤) كشف : منهزمون . (٥) نطف : قرط . راجع ديوان حسان ص ١٨٣ طبعة البرقوقى .

أو كادوا ، فلما بلغ ذلك أخاه عاصمَ بن عمرو خرج ، وخرج معه بنوا النجار ، وآذنَ بنى جحجبى بحرب فتلاقوا بالرُحابة ، حصن بالمدينة ، واقتتلوا قتالا شديداً وانهزمت بنو جحجبى ، وكان معهم أحيحة بن الجُلاح الأوسى : فطلبه عاصم فأدركه وقد دخل حصنه فرماه بسهم فوقع فى باب الحصن ورجع عاصم وأصحابه ومكثوا أياماً ، ثم إن عاصما طلب أحيحة ليلا ليقتله فى داره ، و بلغ أحيحة ذلك فقال : —

نُبئتُ أنك جئتَ تسـ ـرى بين دارى والقُبابَهْ
فلقد وجدت بجانب الضَّحْـ ـيان شباناً مُهابه
فتيانَ حرب فى الحديـ ـد وشامرين كأسْدِ غابهْ
هُمْ نكّبوك عن الطريـ ـقِ فبت تركبُ كل لابه
أعُصيمُ لا تجزع فإن الحـ ـربَ ليست بالدُعابه
فأنا الذى الذى صبَّحتكم بالقومِ إذ دخلوا الرُحابه
وقتلتُ كعباً قبلها وعلوتُ بالسيفِ الذُؤابه

و بلغ عاصما قوله فأجابه : —

أبلغ أُحيحةَ إن عرضْـ ـتَ بدارِهِ عَنِّى جَوابه
وأنا الذى أعجلتُهُ عن مقعد ألهى كِلابَه
ورميتُه سَهماً فأخـ ـطأه وأغلق ثَمَّ بابه(١)

تناول الرد معنى هجوم عاصم على خصمه بالسهم و إخطائه ، فعلله أحيحة بخوف عاصم شبابَ الأوس وفسره عاصم بفرار أحيحة واحتمائه بحصنه ، ولم أجد

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٤٩٠ طبع اوربة .

للآن سائر قطعة عاصم التى تتصل بالحرب . ودارت المناقضة هنا بطريقة التوجيه ، فكل فسر الحادث بوجه يلائم موقفه .

ثم حرب السَّرارة ، يوم عضَّ الحيَّين جميعاً شرُّه ، وذلك أن رجلا من بنى الحارث بن الخزرج لقى رجلا من الأوس خارجاً من بئر أريس — بئر معروفة قريبة من مسجد قُباء عند المدينة — من عند ظئر له[1] ومع الخزرجى نبل له فرماه الخزرجى فقتله ، فلما بلغ قومه قتلُ صاحبهم خرجوا إلى الذى قتل صاحبهم ليلا فقتلوه بياتاً[2] وكان لايقتل رجل فى داره ولا فى نخله ، فرأت الخزرج مقتل صاحبهم ، فقالوا : والله ماقتل صاحبنا إلا الأوس ، فخرجوا ، وخرجت الأوس فالتقوا بالسرارة[3] فاقتتلوا بها أربعاً حتى نال كل فريق من صاحبه فقال قيس ابن الخطيم فى ذلك : —

تَروحُ مِن الحسناء أم أنت مُغتدى ... وكيف انطلاقُ عاشقٍ لم يُزَوَّدِ

ومنها بعد النسيب :

ألا إن بَين الشَّرعَبىّ وراتجٍ ... ضراباً كتخدام السَّيال المعضَّدِ
لها حائطان ، الموتُ أسفلَ منهما ... وجمعٌ متى يصرُخ بيثربَ يُصعِدِ
تَرى اللابةَ السوداء يحمرُّ لونها ... ويَغبرُّ منها كلُّ رَبع وفدفدِ

ويستمر مفتخراً بخلقه ملماً بشىء من الحكم وينهى قصيدته بقوله : —

فمن مُبلغٌ عنى شريدَ بنَ جابرٍ ... رسولا إذا ما جاءه وابنَ مرثدِ
فأقسمتُ لا أُعطى يزيد رَهينةً ... سوى السيف حتى لاتنوء له يدى
فلا يُبعدَنكَ الله عبدُ بنَ نافذٍ ... ومن يعله رُكن من التُرب يبعدِ

---

(١) الظئر المرضعة ولد غيرها . (٢) قتله بياتا : أى بالليل بغتة .
(٣) وسط الوادى .

فرد عليه حسان بن ثابت بقوله :

لعمرُ أبيك الخيرِ ياشَعثُ ما نبا … عليَّ لسانى فى الخطوبِ ولا يَدى

لسانى وسيفى صـارمان كلاهما … ويبلغ مالا يبلغ السـيفُ مِذوَدى

ويسير مفتخراً بشيمه وفضائله ومَراة قومه حتى يقول : ـ

فلا تعجلَن ياقيسَ واربَع فانما … قُصاراكَ أن تُلقَى بكل مُهَنَّدِ

حسـامٍ وأرماحٍ بأيدى أعزةٍ … متى تَرَهمْ يا بنَ الخطيمِ تبلَّدِ

ليوثٌ لها الأشبالُ تحمى عرينَها … مَداعيسُ بالخَطِّىِّ فى كل مَشهَدِ

فقدذاقت الأوسُ القتالَ وطُرِّدت … وأنت لدى الكُنَّاتِ فى كل مَطرِدِ

فناغ لدى الأبياتِ حُورا نواعماً … وكحِّل مآقيكَ الحسانَ بإثمِدِ

نفتكم عن العليـــا، أمٌ لئيمة … وزند متى تُقدَح به النار يَصلِدِ (١)

نسيب قيس لم يقابله نظيره عند حسان ، وكلاهما فخر بنفسه على طريقة المقابلة ، وقد قالا فى الحكمة على طريق المبارة والتحدى ، وأنهى قيس قصيدته بالوعيد ، وحسان أنهاها بتهديد قيس ، وهجاء قومه الأوس ، ورمى قيس باللؤم ، والضعة ، وخصال النساء . وظاهر أن المناقضة هنا كانت لينة لولا عُنف حسان فى نقيضته عنفاً نسبياً بما هدد وهجا صريحاً ، وعلى كل فلا تزال النقائض بين الأوس والخزرج بريئة من الفُحش والإسفاف .

وكان يوم فارع بسبب غلام قُضاعى أصابه رجل من بنى النجار ، وكان عم الغلام جاراً لمعاذ بن النعمان الأوسى ، فأرسل معاذ إلى بنى النجار أن ادفعوا إلىَّ دية جارى أو ابعثوا إلىَّ بقاتله أرى فيه رأيى ، فأبوا أن يفعلوا ، فقال رجل من

---

(١) راجع ديوان حسان ص ١٢١ — ١٢٣ وديوان قيس بن الخطيم ص ٣٠ — ٣٢ والكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤٩٧ والمصدر الأخير بعكس الترتيب .

بنى عبد الأشهل : والله إن لم تفعلوا لا تقتل به إلا عامر بن الإطنابة ، وعامر من أشراف الخزرج ، فبلغ ذلك عامراً فقال من أبيات : —

ألا مَن مُبلغٌ الأكفاء عنى ... وقد تُهدَى النصيحةُ للنَصيح
فإنكمُ وما تُرجون شطرى ... من القول المُزَجىّ والصريح
سيندَم بعضكم عجلا عليه ... وما أثرُ اللسان إلى الجروح
أبت لى عِزتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمدَ بالثمن الربيح . . الخ

فقال الربيع بن أبى الُحقيق اليهودى فى عِراض قول عامر بن الإطنابة : —

ألا مَن مبلغ الأكفاء عنى ... فلا ظلمٌ لدىّ ولا افتراء
فلستُ بغايظ الأكفاء ظلماً ... وعنـــدى الملامات اجتراء
فلم أر مِثلَ مَن يدنو لخسفٍ ... له فى الأرض سَير واستواء
وما بعضُ الإقامة فى ديار ... يُهان بهـا الفتى إلا عناء

ويستمر فى حكمه إلى آخر القصيدة(١) .

فمع وحدة السبب ، والبحر ، واختلاف القافية ، يظهر أن المناقضة هنا كانت نوعاً من تصوير الحماسة ، وعزة النفس عندالشاعرين دون أن يلتحما التحاماًصريحاً أو يتسابا ، هذا إلىمشاركةاليهود فىهذا الفن . ثمالتقى الحيان عندفارع ، وهو أطم حسان بن ثابت ، واشتدت بينهما الحرب حتى حمل دية الغلام عامر بن الإطنابة .

ثم حرب حاطب للخزرج على الأوس بينها وبين يوم سُمير نحو مائة سنة ، ويقول ابن الأثير : إن حرب حاطب آخر وقعة بينهم إلا يومَ (بُعاث) حتىجاء الإســلام ، وبعد حاطب أيام فرعية له ، وحاطب هو ابن قيس من بنى أمية بن زيد بن مالك الأوسى كان له نزيل ذُبيانى فغدا يوماً إلى سوق بنى قَينُقاع فرآه

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٥٠١ .

يزيد بن الحارث المعروف بابن فسحم الخزرجي فحمل رجلا يهودياً فكسعه فقتله حاطب فجرى ابن فُسْحُم خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله فلقى رجلا من بني معاوية فقتله، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج فكان الظفر يومئذ للخزرج.

وكانت مناقضة بين قيس بن الخطيم وعبد الله بن رَوَاحة حول هذا اليوم ويوم (بُعاث) معاً[٢] فقد قال قيس قصيدته المشهورة :

أتعرفُ رسماً كاطّراد المذاهب ... لعمرةَ وحشاً غيرَ موقفِ راكبِ
ديارُ التي كادت ونحنُ على مِنًى ... تَحُـلّ بنا لولا نجاء الركائبِ

وبعد النسيب ينتقل إلى الحماسة المتصلة بالموضوع فيقول :

دعوتُ بني عَوفٍ لحقن دمائهم ... فلما أبَوا سامحتُ في حرب حاطب
وكنتُ امرأً لا أبعثُ الحرب ظالما ... فلما أبَوا أشـعلتُها كلَّ جانب

ويُشير إلى من انضم إليهم من اليهود فيقول :

أتت عُصَب ملكاهنَين ومالكٍ ... وثعلبةَ الأثرينَ رَهطِ ابن غالبِ[١]
رِجالٌ متى يُدعَوا إلى الموت يُرقلوا ... إليه كإرقال الجِمال المصاعبِ[٣]

ثم ينتقل إلى يوم (بُعاث) فيقول :

ويوم (بُعَاث) أسـلمتنا سيوفنا ... إلى نسبٍ في جِذم غسان ثاقبِ
يُعَرّينَ بيضاً حين نلقى عدونا ... ويُغمدنَ حُمراً ناحلات المضاربِ

ويذكر بني عوف وما حلّ بهم حتى يقول :

فهلاّ لدى الحرب العوانِ صبرتمُ ... لِوَقعتِنا والبأسُ صعبُ المراكبِ
ظأرناكُمُ بالبيـض حتى لأنتمُ ... أذلُّ من السُقبانِ بين الحلائب

(١) راجع ديوان قيس ص ١٠ و٣٦.

(٢) الكاهنان من قريظة أو من النضير أيضا.

(٣) أرقل البعير نفض رأسه وارتفع عن الزميل والمصعب الذي لم يمسه حبل ولم يذلل.

فأبْنا إلى أبنائنا ونسائنا   وما مَن تركنا فى (بُعاث) بآئب

فأجابه عبدُ الله بن رواحة الحارثى الخزرجى :

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانبِ   نعم، فرشاشُ الدمع فى الصدر غالِبى

وبعد النسيب ينتقل إلى الفخر بقومه والحماسة فيقول :

إذا عُيِّرتْ أحسابُ قوم وجدتَنا   ذوى نائل فيها كِرامَ المضاربِ

نحامى على أحسابنا بتلادنا   لمفتقر أو سائل الحق راغبِ

وأعمى هدته للسبيل حُلومُنا   وخصمٍ أقمنا بعدَ ما لجَّ شاغِبِ

ومعتركٍ ضنك ترى الموتَ وسطَه   مَشينا له مشىَ الجِمال المصاعب

ثم ينهى قصيدته بقوله يخاطب قيساً وقومه : —

فَخرْتم بجمع زاركم فى دياركم   تغلغلَ حتى دُوفعوا بالرواجب

أباح حصوناً ثم صعّد يبتغى   مطية حىّ فى قُريظة هاربِ

فإذا تركنا النسيب ، وجدنا حماسة بحماسة وهى مناقضة عامة دون التحام وسباب ، حتى إذا وصلنا إلى آخر قصيدة ابن رواحة رأيناه يفخر بانتصار قومه على الأوس واليهود على الرغم من اصطناع قيس الحزم والنصح فى شعره وادعائه الظفر ، فالمناقضة قائمة على القلب والموازنة .

وإذا كان يوم الرَّبيع من أعقاب (حاطب) كان يوماً شديداً اقتتل فيه الحيان حتى كاد يُفنى بعضهم بعضاً فانهزمت الأوس وتبعتها الخزرج إلى الدور وأبَتْ أن تصالحهم ثم كفَّت عنهم على ما بينهم من العداوة ، وفى هذا اليوم يقول حسان بن ثابت مشبّباً بليلى بنت الخطيم فى مطلع قصيدته : —

لقد هاج نفسَك أشجانُها   وعاودها اليومَ أديانُها

تذكرتَ ليلى وأنّى بها   إذا قُطعت منك أقرانُها

وبعد النسيب يقول مفتخراً على الأوس : —

ويثربُ تعــلم أنّا بها إذا التبس الأمر ميزانُها
ويثربُ تعــلم أنّا بها إذا قحط القطرُ نوآنُها
ويثرب تعــلم أنّا بها إذا خافت الأوسَ ، جيرانُها
ويثرب تعــلم أن النبيـ ـتَ عند الهزاهز ذُلانُها(١)
متى ترنا الأوس فى بيضنا نهزُّ القنا تخبُ نيرانُها
وتُعطِ القيادَ على رغمها وينزلُ من الهام عِصيانُها

فأجابه قيس بن الخطيم مشبّباً بعمرة زوج حسان بن ثابت : —

أجــدَّ بعَمرةَ غنيانُها فتهجرَ أم شأنُنا شأنُها
وإن تُمسِ شطت بها دارُها وباح لك اليوم هِجرانُها

ثم ينتقل إلى الفخر على الخزرج فيقول مناقضاً حسان بن ثابت : —

ونحنُ الفــوارس يوم الرّبيــع قد علموا كيف فرسانُها
جنبنا الجِرابَ وراء الصر يخ حتى تقصف مرّانُها
ولاقى الشقاء لدى حربنا دُجَىُّ وعوف وإخوانُها
ولولا كراهةُ سفك الدماء لعــادَ ليثربَ أديانُها(٢)
ويثربُ تعــلم أن النبيــتَ راسٍ بيثربَ ميزانُها
حسانُ الوجوه حِداد السيو فِ يبتدرُ المجدَ شبانُها
وبالشوطِ من يثربٍ أعبدٌ ستهلكُ فى الخمر أثمانُها
يهونُ على الأوس أثمانُهم إذا راح يخطِر نشوانُها
أتتهمْ عَرانينُ مِن مالكٍ سِراعٌ إلى الروع فتيانُها

---

(١) النبيت هو عمرو بن مالك بن الأوس . ذلانها : أذلاؤها . الهزاهز : الشدائد
(٢) الأديان العادة .

وقـــد علموا أن ما فلّهم حديدُ النبيتِ وأعيانها[1]

وأول ما نجدَ فى هذه المناقضة دخول النسيب فى عناصر النقائض كما رأيت ، ثم نجـد حسان يفخر على الأوس ويهجوها بالخضوع والذلة ، فيفخر عليه قيس بالظفر والحزم والشجاعة ، فكانت المناقضة من باب الموازنة والقلب دون سباب .

وأما يوم البقيع (بقيع الغرقد) فكان للأوس على الخزرج وفيه يقول عبيد بن ناقد الأوسىّ من قصيدة :

لـما رأيتُ بنى عوف وجمعهم جاءوا وجمعَ بنى النجار قد حفلوا
دعوتُ قومى وسهّلتُ الطريق لهم إلى المـكانِ الذى أصحابه حللوا
جادت بأنفُسِها من مالك عُصبٌ يوم اللقـاء فلا خافوا ولا فشـلوا
وعاوروكم كئوس الموت إذ برزوا شـطر النهارِ وحتى أدبر الأُصُـلُ

فأجابه عبد الله بن رواحة الحارثى الخزرجى :

لمـا رأيتُ بنى عوف وإخوتَهـم كعبا وجمـعَ بنى النجار قد حفلوا
قوما أباحوا حماهم بالسـيوف ولم يفعلْ بكم أحدٌ مثـلَ الذى فعلوا

قيل وكان رئيس القوم يومئـذ أبو قيس بن الأسلت فقام فى حربهم وهجر الراحة فشحب وتغير ، وجاء يوماً إلى امرأته فأنكرته حتى عرفته بكلامه ، فقالت له : لقد أنـكرتك حتى تكلمت ، فقال قصيدته المشهورة :

قالت ــ ولم تقصد لقيل الخنا ــ مَهلاً فقـد أبلغتَ أسماعى[2]

ويوم مُضرِّس ومُعبِّس وهما حائطان كانا لدُحَينـة إلى آطام بنى عـدى بن

---

(١) راجع ديوان حسان ص ٤١٦ وديوان قيس ص ٧ وابن الأثير ج ١ ص ٤٩٩ و ٥٠٤ والأغانى ج ٣ ص ١٢ دار الكتب .

(٢) راجع ابن الأثير ج ١ ص ٥٠٥ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٨٢ والأغانى ج ١٥ ص ١٦١ بولاق .

النجّار ، وكان يوما للخزرج على الأوس قال فيه قيس بن الخطيم قصيدته :

ألمّ خيالُ ليلى أمِّ عمرو ولم يُلمِمْ بنا إلاّ لأمرِ
ألا أبلغ بنى ظَفَرٍ رسولا فلم تذلِل بيثربَ غيرَ شهرِ

القصيدة ، فرد عليه عبد الله بن رَواحة بقوله :

كذبتَ لقد أقمتَ بها ذليلا تُقيم على الهوان بها وتَسرى (١)

وفى ابن الأثير أن حسان قال يفخر بما أصاب قومه من الأوس ذلك اليوم — وفى ديوان حسان أن هذا الشعر قيل فى هجاء ابن الأسلت — :

ألا أبلغْ أبا قيس رسولا إذا ألقى لها سمعاً تُبينُ
نسيتَ الجسرَ يوم أبي عَقيلٍ وعندك من وقائعنا يقين

وأبو عقيل الأسلت رئيس الأوس قتل فى ذلك اليوم الذى يسمى أيضاً يوم الجسر .

وعلى كلٍّ فالقصيدة قيلت بعد يوم بعاث وهو متأخر عن يومنا هذا .

وفى ديوان قيس بن الخطيم (٢) مناقضة بينه و بين أنس بن العلاء أخى بنى الحارث بن الخزرج ، و يظهر أنها قيلت يوم حاطب ، وآية ذلك أن لفظ (الرَّدْم) ورد فى شعر قيس ، وهو جسر رَدم بنى الحارث بن الخزرج حيث التقى الحيان يوم حاطب كما يقول ابن الأثير ، فقال قيس .

ألا أبلغا ذا الخزرجِيّ رِسالةً رسالةَ حَقٍّ لست فيها مُفنَّدَا
فإنا تركناكم لدى الرَّدْمِ غدْوَةً فريقين مقتولا به ومُطرَّدا
صبحناكمُ ، منّا به كلُّ فارس كريمِ النثا يحمى الذمارَ ليُحمدَا
أتذكر أمراً لم تنلهُ وإنما تناولَ سَجلَ الحرب من كان أنجدا

---

(١) ديوان قيس ص ٣٢ وابن الأثير ٣٠٧ . (٢) ص ٤١ .

فذُقْ غِبَّ ما قدَّمتَ إنى أنا الذى صبحتكمُ فيه السِّهامَ بِبرجُدا
ونحن حُماةُ الحربِ ليست تضرنا نسوقُ خميساً كالقطا مُتبدِّدا

فأجابه أنس :

ألَمَّ خيالٌ مِن أُميمةَ مَوْهِنَاَ فلم أغتمضْ ليلَ التمام تَهجُّدا
وكان يراها القلبُ جيداء ترتعى سوائل يُمْنٍ فالحياء فارثدا
ونحنُ حُماةٌ للعشيرة أينما نكن لا يُبالوا أنْ يغيبوا ونشهدا
نُحامى على جِذْمِ الأعزّ بمالِنا ونبذُلُ حُرَّاتِ النفوسِ لِنُحمدا
صبحناهُم عند القِتال بغارةٍ فأصبح قيسٌ بعدها مُتلدِّدا
يَعَضُّ على أطرافه كُلَّمَا بدا لنا فارس يبغى القِتَالَ تَنَجُّدا

كلا الشاعرين يفخر بقومه ، ويهجو صاحبه شامتاً ، وإن امتازت قطعة أنس بالنسيب وادعى كل أن النصر لقومه .

— ٣ —

وإذا كانت هذه الدراسة قد اقتضت الإشارة إلى بعض أيام القحطانية والعدنانية فيما مضى ، فلنتقدم الآن إلى الإشارة إلى سائر ما ورد فيها شواهد لفن المناقضة .

من ذلك يوم (سَحبل) لبنى الحارث بن كعب من كهلان على بنى عُقيل ابن كعب من قيس عيلان ، وهذا اليوم وإن حدث فى الإسلام إلا أن روحه جاهلى ، لذلك عده الميدانى بين أيام الجاهلية ، وخلاصة القول فيه ، أن جعفر بن عُلبة الحارثى كان يزور نساء بنى عقيل بن كعب فآذاه العقيليون ثم خلوا سبيله ، ولكنه مثّل بأربعة عشر فارساً من بنى عقيل بوادى سَحبل وقتلهم ، واستعدَتْ بنو عقيل عليه السرىّ بن عبد الله الهاشمى عامل مكةَ لأبى جعفر المنصور فحبس

جعفر بن علبة ثم قتله ، وقيل فى ذلك شعر منه ماقاله أبوه عُلبة لامرأته أم جعفر قبل أن يقتل ابنها :

لَعمركِ إن الليل يا أمّ جعفر علىّ ، وإن عللتنى ، لَطويلُ
أحاذرُ أخباراً من القوم قد دنت ورجعةَ أنقاضٍ لهن دَليلُ

فأجابته امرأته فقالت تسفّه خُطته وتقصيره فى حق ابنه :

أبا جَعفر سلّمت للقوم جَعفرا فمُت كمداً أو عِش وأنت ذليلُ

وروى أن بنتاً ليحيى بن زياد الحارثى حضرت الموسم فى ذلك العام لما قتل فكفّنته واستجادت له الكفن وبكته هى وجميع من كان معها من جواريها وجعلن يندبنه بأبياته التى قالها قبل قتله ومنها :

ألا ، لا أبالى بعد يوم بِسَحبل إذا لم أعَذّبْ أن يجىء حِماميا
تركتُ بأعلى سَحبلٍ ومضيقِه مُراقَ دَمٍ لايبرح الدهرَ ثاويا
شفيتُ به غيظى وحربَ مواطنى وكان شفاءً آخر الدهر باقيا
أرادوا ليثنونى فقلت تجنّبوا طريقى ، فمالى حاجة مِن ورائيا
كأنّ العقَيليينَ يومَ لقيتُهم فِراخُ قطا لاقينَ صقرا يمانيا
تركناهمُ صَرعى كأن ضجيجَهم ضَجيجُ دَبارى النيبِ لاقت مُداويا
ولم أترك لى رِيبةً غير أننى وَدِدتُ (معاذاً) كان فيمن أتانيا
شفيتُ غليلى من (خشينة) بعد ما كسوت الهذيل المشرفىّ اليمانيا
أحقا عباد الله أن لست رائياً صحارى نجد والرياح الذواريا
ولا زائراً شُمّ العرانين تنتمى إلى عامرٍ يحللن رملا معاليا .

فقال (معاذ) يجيبه عنها بعد ما قتل، ويخاطب أباه ويعرّض له أنه قتل ظلماً لأنهم أقاموا قَسامة (شهادة) كاذبة عليه حتى قتل ولم يكونوا عرفوا القاتل من

الثلاثة بعينه إلا أن غيظهم على جعفر حملهم على أن ادعوا القتل عليه :ـ

أبا جعفر سَلِّم بنجرانَ واحتسِب ... أبا عازِمٍ والمُسنِماتِ العواليا
وقوِّدْ قلوصاً أتلف السيفُ ربها ... بغير دم فى القوم إلا تماريا
إذا ذكرته مُعصرٌ حارثية ... جرى دمع عينيها على الخد صافيا
فلا تحسبن الدَّينَ يا.علبُ مُنسأً ... ولا الثائرَ الحرانَ ينسى التقاضيا
ستقتل منكم بالقتيـــل ثلاثة ... ونُغلى وإن كانت دمانا غواليا
تمنيتَ أن تلقى (مَعــاذا) سفاهة ... ستلقى مَعاذا والقضيب اليمانيا[1]

هذه مناقضة بين حىّ وميت ، افتخر جعفر بآثاره فى هذا اليوم فرد عليـه متوعداً أباه ، مسفها رأيه فى تمنيه لقاءه .

ونذكر يوم الرَّحْرَحان لعامر على تميم ولـكنه متصـل بسلطان المناذرة والغساسنة واشترك فى مناقضته شعراء قحطان[2] وحدثت فى سبيله حوادث شتى ، منها قتل زهير بن جذيمة العبسى ، وخالد بن جعفر بن كلاب ، والحارث بن ظالم المرى ، وإنما نذكر هنا شواهد النقائض المتصلة بهذه الحوادث لأنه قتل الحارث ابن ظالم المرى خالد بن جعـفر الـكلابى أبت غطفان أن تجيره ، فغضبت لذلك بنو عبس وبعث إليه قيس بن زهير بن جذيمة بهذه الأبيات :

جزاكَ اللهُ خـيراً من خَليل ... شفى من ذى تَبُولته الخليـــلا
أزحتَ بها جَوَى ودَخيلَ حُزنٍ ... تمخَّخَ أعظُمى زمناً طـــويلا
كسوتَ الجعفرىَّ أبا جُزَىٍّ ... ولم تحفِلْ به ، ســيفاً صقيلا
أبأتَ به زُهيرَ بنى بَغيض ... وكنتَ لمثلها ولها حَمـــولا
كشفتَ له القِناعَ وكنتَ مِمَّن ... يُجلِّى العــارَ والأمرَ الجليـلا

---

(١) راجع معاهد التنصيص جـ ١ ص ٤٥ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٨٣ .
(٢) راجع ابن الأثير جـ ١ ص ٤١١ — ٤٢٠ والنقائض جـ ١ ص ٢١٤ والأغانى جـ ١١ ص ٧٥ — ١٣٠ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٢٤٢ و ٢٤٤ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٤٥ .

فأجابه الحارث بن ظالم :

أتانى عن قُبَيْسٍ بنى زهيرٍ ... مقالةُ كاذبٍ ذكرَ التبُولا
فلو كنتمْ كما قلتم لكنتم ... لقاتلِ ثأركم حِرزاً أصيلا
ولكنْ قلتمُ جاوزْ سِوانا ... فقد جلَّلتنا حَدَثاً جليلا
ولو كانوا همُ قتلوا أخاكم ... لما طردوا الذى قتل القتيلا

فالحارث يكذب قيساً فى ادعائه الفخر بما فعل الحارث ، و يستدل لقوله بعدم حمايتهم إياه ، و بخوفهم من جرائره ، و بتقصيرهم فيما يجب عليهم وأنه دون أعدائهم فى ذلك ، فأفسد عليه معانيه ونقاها جميعاً .

وفى هذا الحادث يقول عبد الله بن جعدة الكلابى يخاطب الحارث — وكان قتله جعفراً غيلة وهو نائم :

ياحار لو نبهته لوجدتَهُ ... لا طائشاً رَعِشاً ولا مِعزالا
شقَّت عليه الجعفرية جيبَها ... جزعاً ، وما تبكى هناك ضلالا
فانعَوا أبا بحر بكل مُحرَّبٍ ... حرّانَ يُحسبُ فى القناةِ هلالا
فليُقتلَنَّ بخالد سرواتكم ... ليجعلَنَّ الظالمِ تمثالا

فأجابه الحارث : —

تاللهِ قد نبهتُهُ فوجدتُه ... رِخوَ اليدينِ مُواكِلا عِقالا
فعلوتُهُ بالسيفِ أضربُ رأسه ... حتى أضلَّ بِسَلحِهِ السِّربالا

فكذَّب ابن جعدة ، وهجا جعفراً بالجبن والفزع .

وكان عمرو بن الإطنابة الخزرجى صديق خالد بن جعفر فلما بلغه مقتله قال : واللهُ لو وجده يقظان ما أقدم عليه ، ولودِدتُ أنى لقيتهُ ، و بلغ الحارث قولُه ، فقال : والله لآتينّه فى رحله ولا ألقاه إلا ومعه سلاحه فقال ابن الإطنابة قصيدته ،

وقيل إنه دعا بشرابه ووضع التاج على رأسه ودعا بقيانه فتغنين له : —

عَلِّلانى وعَلِّلا صاحِبِيّا ... واسقيانى من المروَّق رَيّا

إن فينا القِيانَ يَعزِفن بالدُّ ... فِّ لفتياننا وعيشاً رَخِيّا

إلى أن يقول : —

أبلغ الحارثَ بنَ ظالم الرعـــديد والناذرَ النذورَ عَلَيّا

إنما يَقتـــلُ النيامَ ولا يقــتُلُ يقظانَ ذا سلاحٍ كَمِيّا

مَعِى رِشــكَّتى معابل كالجمـ ... ـرِ وأعددتُ صارماً مشرَفيا

ولو هبطتَ البلادَ أنسيتُكَ القتــلَ كما يُنسِى النسىء النَّسِيّا

فبلغ الحارثَ شعره فذهب إليه يصاوله ولكن عمراً أفلت منه فانصرف الحارث إلى قومه وقال مجيباً له : —

اعزِفا لى بِـــلَذَّةٍ قَينَتَيّا ... قبل أن يُبكِرَ المنونُ عَلَيّا

إلى أن يقول : —

بلغتنا مقالةُ المرء عمـــرو ... فأنفنا وكان ذاك بَدِيّا

قد هممنا بقتــله إذ بَرَزْنا ... ولقيناهُ ذا ســلاحٍ كَمِيّا

غـــيرَ ما نائمٍ تعلّل بالحلـــمِ ... مُعِدّاً بكفه مشرفيا

فمننّا عليـــه بعد عُلُوٍّ ... بوفاء وكنتُ قِــدما وَفِيّا

ورجعنا بالصفح عنهُ وكان الــمنُّ منا عليه بعــدُ بَلِيّا

وكان رد الحارث ، إن صح ما روى ، قولا وعملا فكذب عمراً فى دعواه .

هذا ما وقع لنا من شواهد النقائض فى الأيام القحطانية ، ولعل ما ذهب منها أكثر مما بقى ، فإن فى هذه الأيام إشارات إلى مواقف بين الشعراء تقتضى ذلك ، على أن ما ورد هنا — إن صح جميعه — كاف فى الدلالة على قدم هذا الفن وأصالته فى الحياة الجاهلية وإن لم يبلغ فى القوة والدقة ما بلغ أيام الأمويين .

الفصل الرابع

النقائض والأيام العدنانية

— ١ —

الأيام العدنانية هي ما حدثت بين قبائل معد بن عدنان، وهي كثيرة ، منها ما كان بين قبائل ربيعة ، وما كان بين ربيعة وتميم ، ومنها أيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس وكنانة ، ومنها أيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم ، وذلك سوى مغاورات شتى بين القبائل من أى شعب ، وقد كثر الشعر جداً فى سبيل هذه الأيام صحيحاً وموضوعا حتى ليستحق دراسة خاصة مستفيضة تتناوله وتتناول معه قصص هذه الحوادث ، ولكننا هنا سنقف عند الإشارة إلى الأيام التى تضمنت المناقضة الشعرية .

من أيام ربيعة فيما بينها حرب البسوس بين بكر وتغلب ابنى وائل وهى مشهورة معروفة الوقائع[1] وقد قيل فى هذه الوقائع شعر كثير منه مادار بين جساس بن مرة وأبيه مما يشبه المناقضة ، فلما قتل جساس كليباً قال أبوه : وددت أنك وإخوتك كنتم متم قبل هذا ، مابى إلا أن تتشاءم بى أبناء وائل ، فأقبل قوم مرة عليه وقالوا : لا تقل هـذا ولا تفعل فيخذلوه وإياك ، فأمسك مرة ، فقال جساس : —

---

(١) راجع النقائض ص ٧٧٣ وابن الأثير ج ١ ص ٣٨٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٦٦ وأيام العرب فى الجاهلية ١٤٢ .

تأهَّبْ مثل أهبة ذي كِفاح ... فإن الأمر جَلَّ عن التلاحى
وإنى قد جنيتُ عليك حرباً ... تُغِص الشيخَ بالمـاء القَراح
مُذَكَّرةً متى ما يصحُ منها ... فتى نشِبت بآخر غير صاح
تعدَّت تغلبٌ ظلماً علينا ... بلا جُرم يُعدُّ ولا جُناح
فلما أن رأينـا واستبنَّا ... عُقابَ البَغى رافعةَ الجَناح
صرفتُ إليه نحساً يومَ سُوء ... له كأس من الموت المتـاح

فلما سمع أبوه قال يجيبه : —

فإن تك قد جنيتَ علىَّ حرباً ... تُغِصُّ الشيخ بالماء القَراح
جمعتَ بها يديك على كليب ... فلا وكلٌ ولا رثٌّ السلاح
ولكنى إلى العَلاَّت أجرى ... إلى الموت المحيط مع الصباح (١)
وإنى حين تشتجر العوالى ... أعيد الرمح فى إثر الجِرَاح
شديد البأس ليس بذى عياء ... ولكنى أبوء إلى الفلاح
سألبَس ثوبَها وأذُبُّ عنها ... بأطراف العوالى والصِفاح (٢)
فما يبقى لعِزَّته ذليـــل ... فيمنعه من القـــدر المتاح
فإنى قد طربتُ وهاج شوق ... طِرادُ الخيل عارضةَ الرماح
وأجملُ من حياة الذل موتٌ ... وبعضُ العار لا يمحوه ماح

وقد وقع فى يدى كتاب مطبوع فى العراق بعنوان « تاريخ الحروب العربية أو حرب البسوس » تأليف محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ ، ورد فيه شعر كثير فى شكل مناقضات متصلة بهذه الأيام منسوبة إلى مهلهل وجساس والحارث ابن عباد البكرى وغيرهم ، وهذه الكثرة تدل على نشاط القصاص ومقدار ما نحلوا

---

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى . (٢) الصفاح السيوف العراض .

وأضافوا ومن بينها هاتان المقطوعتان المذكورتان هنا والواردتان فى المراجع الأخرى، على أن دراسة هـذه الأشعار نافعة لفهم القصص الإسلامى وتبين الصورة التى تصورها هؤلاء القصاص لحرب البسوس . وقد قلنا إن هذا الشاهد يشبه النقائض وليس منها لوحدة الموضوع والبحر والقافية ، ولعدم تقابل المعانى ، فإن مرة والد جساس جرى مع ابنه فى نفس المضمار وسايره أو ساير عشيرته متأهباً منكراً الذل الذى يفرضه كليب على بكر .

وهناك يوم (جَدُود) لبنى منقر من تميم على بكر من ربيعة[1] غزا فيـه الحَوْفَزَانُ — وهو الحارث بن شَرِيك — من بكر ، بنى يربوع على جدود ، ومنعتهم يربوع الماء ، فصالحهم البكريون على أن يُعطوا بنى يربوع بعض غنائمهم التى كانت معهم من بنى سعد ابن زيد مناة ، وعلى أن يخلى اليربوعيون بينهم وبين الماء ، ولما علم بذلك بنو سعد ، قال قيس بن عاصم المنقرى فى ذلك —

جزى الله يربوعاً بأسوأ سعيها ... إذا ذُكرت فى الغانيات أمورُها
ويوم (جدود) قد فضحتم أباكُم ... وسالمتمُ والخيل تدمَى نحورُها
ستخطم سعد والرِّبابُ أنوفَكم ... كما غاظ فى أنفِ القضيبِ جريرها[2]
أفخراً على المولى إذا ما بَطِنتمُ ... ولؤماً إذا ما الحربُ شبّ سعيرها
أتانى وعيد الحوفزانِ ودونَه ... من الأرضِ صحراواتُ فَلْجٍ وقُورُها
أقمْ بسبيل الحىّ إن كنتَ صادقاً ... إذا حشدتْ سعدٌ وجاش نصيرها
عصمنا تميماً فى الحروب فأصبحت ... يلوذ بنا ذُو وَفْرِهَا وفقيرُها

فأجابه مالك ، ولعله مالك بن مسروق الرّبيعى ، فقال : —

سأسألُ مَن لا فى فوارسَ مِنقرٍ ... رِقاب إماء كيفَ كان نكيرُها

---

(١) شرح المفضليات ص ٢٤٠ ونقائض جرير والفرزدق ص ١٥٤ و ٣٢٦ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٥٢ وابن الأثير جـ ١ ص ٣٥٦ .

(٢) غاظ : دخل . والقضيب الناقة التى لم تروض . والجرير الحبل

وأما يوم (مُبايِض) فكان لبكر على تميم ، وذلك أن طريف بن مالك العنبرى من تميم كان لا يتقنع فى عكاظ بخلاف الفرسان الذين كانوا يتقنعون كى لا يعرفوا ، فوافى عكاظ وكان قد قتل شراحيل الشيبانى ، فجاء حصيصة بن شراحيل يسأل عن طريف حتى دُل عليه فأخذ يتأمله ، ففطن لذلك طريف وسأله عن شأنه ، فقال : أريد أن أعرفك لعلى أن ألقاك فى جيش فأقتلك ، فقال طريف : —

أَوَ كلما وردتْ عُكاظَ قبيلةٌ ... بعثوا إلىَّ عريفَهم يتوسَّمُ
فتوسَّمونى إننى أنا ذلكمْ ... شاكٍ سلاحى فى الحوادث مُعلِمُ
حولى فوارسُ مِن أُسَيِّدَ شَجْعَةٌ ... وإذا نزلتُ فحولَ بيتى خَضَّمُ
تحتى الأغرُّ وفوقَ جلدى نثرةٌ ... زَعفٌ تردّ السيف وهو مُثَلَّمُ

وحدثت أمور كان منها أن التقى بنو شيبان وتميم عند مبايض وهزمت تميم فقال حصيصة وقد قتل طريفاً : —

ولقد دعوتَ طريفُ دعوةَ جاهلٍ ... غِرٍّ وأنت بمنظرٍ لا تعلمُ
وأتيتَ حيًّا فى الحروب محلُّهم ... والجيش باسم أبيهمِ يُستقدم
فوجدتَ قوماً يمنعون ذِمارهم ... بُسْلًا ، إذا هاب الفوارسُ أقدموا
وإذا دعَوا بنى ربيعة أقدموا ... بكتيبة مثل النجوم تَلَمْلَمُ
حشدوا عليك وعجّلوا بِقِراهمُ ... وحَمَوا ذِمار أبيهمِ أن يُشتَموا
سامُوك دِرعَك والأغر كليهما ... وبنو أُسَيِّدَ أسلموك وخَضَّمُ (١)

فرد حصيصة على طريف ما ادعاه من شجاعته وشجاعة قومه ووضع قومه

---

(١) راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٦٥ وابن الأثير ج ١ ص ٤٥٠ ومعاهد التنصيص ج ١ ص ٧١ .

بإزاء قومه ، حتى إذا وصل إلى آخر أبياته وضع بيته الأخير بإزاء بيتي طريف الأخيرين ، فسلبه درعه وفرسه ، وسخر بأُسَيد وخصَّيه اللتين أسلمتاه حتى قتل ، فكذبه فيما ادعاه .

وكان يوم الشَّيطين لبكر على تميم (١) وكان بعد الإسلام ولم يكن أسلم دووه ، والشيطان واديان لبكر أجدبا فتركتهما إلى السواد وأقامت فيه ، ثم أخصب الشيطان فنزلتهما تميم ، فأغارت بكر على تميم وهزمتهم فقال رُشيد بن رُميض العنزى العنبرى من ربيعة بن نزار : —

وما كانَ بين الشَّيطَين ولَعْلَعٍ ... لِنِسوتِنا إلا مَنَاقِلُ أربَعُ (٢)
فجئنا بجمع لم يرَ الناسُ مثله ... يكاد له ظهرُ الوريعة يظلع (٣)
بأرعَنَ دَهمٍ تُنشَدُ البُلقُ وسطهُ ... له عارضٌ فيه المنيّةُ تلمعُ
إذا حان منه منزل القوم أوقدت ... لأخراه أولاه سنا وتيفّعوا (٤)
صبحنا به سعداً وعمراً ومالكا ... فظلَّ لهم يومٌ من الشر أشنع
وذي حَسَبٍ من آل ضَبّةَ غادروا ... يُجَرّ كما جُرَّ الفصيل المُقَرَّعُ (٥)
تقصَّعَ يربوعٌ بسُرَّةِ أرضِنا ... وليس ليربوع بها متقصع (٦)
وقلتُ ليربوع أبيرٌ نصيحةٌ ... ولو أن يربوعاً إذا امتار يرفع
يخلوا لنا صحنَ العراقِ فإنه ... حِمًى منهم لا يُستطاع مُمَنَّعُ

فأجابه مُحرِز بن المكعبَر الضبّي وكانت ضبة قد استحرّ بها القتل مع تميم : —

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٣٠ وابن الأثير ج ١ ص ٤٩٠ والعقد الفريد ج ٣ ص ٦١ .

(٢) لعلع موضع أو جبل أو ماء . (٣) الوريعة اسم فرس .

(٤) تيفعوا : رفعوا نارهم على يفاع من الأرض أخرى .

(٥) المقرع الذى به القرع وهو جدرى فيجر فى السباخ ليتفقأ ما به .

(٦) متقصع : مقام .

فخرتم بيوم الشيِّطين وغـــيرُكم يَضُرُّ بيــوم الشيِّطين وينفعُ
وجئتمْ بهـا مذمومـةً عَنَزِيَّةً تكاد من اللؤم المبَـــيِّن تَطلَعُ
فإن يكُ أقوامٌ أصيبوا بغِرَّةٍ فأنتمْ من الغارات أخزى وأوجعُ
فريقان : منهم مَن أتى البحرُ دونه ومُودٍ كما أودت ثمودُ وتُبَّعُ
وما منكمُ أفناءُ بكر بن وائل لغـــارتنا إلا ذَلول مُوَقَّعُ[١]

فخر شاعر بكر بقوة جيوشهم ، و بآثارهم السيئة فى تميم ومن معهم ، وشمت بما نزل بهم إذ لم ينتصحوا ، فرد عليه شاعر تميم بنفى هذا الفخر ، وازدراء خيلهم، وأخذهم تميما غدراً ، و بهزيمتهم كذلك .

وأما ما كان من النقائض فى يوم بطن عاقل فقد مر ذكره فى يوم الرحرحان إذ كانا متصلين حوادث وشعراً ، فلا نعيدها هنا .

— ٢ —

فاذا انتقلنا إلى سائر أيام قيس صادفتنا أيام داحس والغـــبراء بين عبس وذبيان[١] وهى كثيرة الحوادث والشعر والقصص قيلت فى أثنائها معلقة عنترة العبسى ، وفى أعقابها معلقة زهير بن أبى سلمى مدحاً للحارث بن عوف وهرم بن بن سنان المريين لنهوضهما بالصلح بين المتحاربين . وقد جـاء فى شرح ديوان الحماسة للتبريزى أن قيس بن زهير العبسى حين قتل ندبة بن حذيفة الفزارى ، أرسل إلى أخيه مالك بن زهير ــ وكان متزوجاً فى فزارة ونازلا فيهم ــ أن يلحق بهم خوف القتل و بعث إليه بهذين البيتين : —

---

(١) بعير موقع الظهر ، به آثار الدبر .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٢٠ والعقد الفريد ج ٣ ص ٤٩ والنقائض ص ٨٣ والأغانى ج ٨ ص ٢٤٠ ، و ج ١٦ ص ٢٦ بلاق .

أمالكُ لا تأمَن فزارةَ واخْشَها فإنك إن تأمَن فزارةَ هالكُ
أمالكُ إن تحسَب مُقامَك فيهمْ صواباً، فقد أخطأتَ فى الرأى مالكُ

فرد عليه مالك بهذين البيتين : —

ياقيسُ حسبك ما أتيت فَخلّنى وبنى فَزارةَ، إنّنى مُتماسِكُ
أترى حُذيفةَ آخذى بجريرةٍ لم تجنِها كفى، وأنتَ الفاتِكُ ؟!

خطأه فى رأيه، وخالفه فى مذهبه، وأنكر عليه ما اقترف من قتل ندبة، ورأى فى صاحب الثأر إنصافا وعدالة .

وكان يوم (الرقَم) لغطفان على عامر[1] وذلك أن بنى عامر غزت غطفان بالرقَم — جبال دون مكة بديار غطفان — وكان عامر بن الطفيل على عامر شاباً، فهزمتهم غطفان، فقال عامر : —

ولتسألَنّ (أسماء) وهى حَفِيّةٌ نُصحاءها أطُرِدْتُ أم لم أطْرَدِ
قالوا لها : فلقــد طردنا خيلَه قَلَحَ الكلابِ وكنتُ غيرَ مطرَّدِ[2]

إلى آخر ما قال متوعداً متحمساً ؛ فبلغ شعره غطفان فهجاه جماعة منهم، وكان النابغة الذبيانى غائباً عند ملوك غسان، ولما عاد سأل قومه عما هجوا به عامر بن الطفيل، فأنشدوه ما قالوا فيه، وما قال فيهم، فقال : لقد أفحشتم، وليس مثل عامر يُهجى بمثل هذا، ثم قال أبياته البائية الآتية يخطىء عامراً فى ذكره امرأة من عقائلهم (وهى أسماء الفزارية المذكورة فى مطلع أبياته السابقة) .

ولكن ورد فى ديوان عامر بن الطفيل[3] أن أبيات النابغة كانت رداً على قول عامر للنابغة : —

---

(١) ابن الأثير جـ ١ ص ٤٨٢ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٥١ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٣٢٨ .

(٢) القلح صفرة تعلو الأسنان شبه بها فزارة . (٣) ص ١٢٩ طبع أوربة .

ألا مَن مُبلغٌ عنى زِياداً   غداةَ القاعِ إذ أزِفَ الضرابُ
غداةَ تثوبُ خيلُ بنى كِلابٍ   على أثباجِها عَلَقٌ يُشابُ
فإن لنــا حُكومةَ كل يومٍ   يُبيّنُ فى مَفاصِــلهِ الصوابَ
وإنى سوف أحكُم غيرَ عادٍ   ولا قَذِعٍ إذا التُمِس الجوابُ
حكومةَ حازمٍ لا عيبَ فيها   إذا ما القومُ كظّهم الخطابُ[١]
فإن مَطيّةَ الحِــلْمِ التأنّى   على مَهَلٍ، وللجهلِ الشّبابُ
وليسَ الجهلُ عن سِنٍّ ولكنْ   غدت بنوافذ القولِ الرِكابُ[٢]
فإلى بنى بَغيضٍ قد أتاهم   رسولُ الناصحين فما أجابوا
ولا ردُّوا مَحُورةَ ذاكَ حتى   أتانا الحِلْمُ والخَرِق الحِجابُ[٣]
فإن مقالتى ما قد علمتمْ   وخيلى قد يحلّ لها النِهابُ
إذا يمّمنَ خيــلا مُسرعاتٍ   جرى بنُحوس طيرهم الغُرابُ
وإن مرّت على قوم أعادٍ   بساحتِهم فقــد خسروا وخابوا

وهذا ردّ النابغة فى رواية ديوان عامر:

ألا أبلِغ عُوَيمرَ عن زِيادٍ   فإن مَطِيّةَ الجهــلِ الشبابُ
فإنك سوف تحلُمُ أو تناهى   إذا ما شِبتَ أو شابَ الغُرابُ
فكن كأبيكَ أو كأبى بَراء   تُوافقكَ الحكومةُ والصوابُ
ولا تذهبْ بحلمك هافيــاتٌ   من الخُيَلاءِ ليسَ لهنّ باب[٤]
فإن يك رَبُّ أذوادٍ بحِسمَى   أصابوا فى لقائك ما أصــابوا[٥]

(١) كظهم : غمهم وملأهم غيظا .
(٢) شبه الشعر بالسهام النافذة التى لا ترد لسيرورته . (٣) المحورة المحاورة والجواب
(٤) هافيات ما يستخفك فتطيش لها . باب : مخلص ونجاة .
(٥) حسمى : يوم لبنى بغيض على عامر فيه حنظلة بن فاتك الطفيل أخو عامر .

فما إن كان مِن نسب بعيدٍ ولكن أدركوك وهمْ غِضاب
فوارسُ مِن (مَنُولةَ) غيرُ مِيلٍ ومرَّةَ فوقَ جمعهم العقابُ(١)

ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عامراً قال أبياته رداً على النابغة ، ولعل النص نفسه يساعد على ذلك ، فقد رمى النابغة عامراً بالجهل والطيش ، وأقذع فى هجائه دون سباب إذ فضّل عليه بعض قومه فأحنقه ، وعلى كل فإن أركان المناقضة متوافرة بين الشاعرين من كل وجه ، وبخاصة المعانى ، فقد التحمت حول الجهل والسفه ، ثم الأيام والظفر ، ثم الحماسة وأربابها ، كل ادعى لنفسه الفضائل والمآثر المتصلة بها وألصق بخصمه أضدادها دون إسفاف أو سباب .

ومن أيام قيس وكنانة يوم (بُرْزَة) لبنى فراس من كنانة على بنى سليم من قيس عيلان(٢) وكان رئيس بنى فِراس عبد الله بن جِذل ، وعلى بنى سليم مالك ابن خالد ، وقامت الحرب أول الأمر على المبارزة إذ قتل عبدُ الله مالكَ بن صخر وأخاه كُرزا بعدما استصغر أخاهما هنداً ، وقال عبد الله :

تجنبتُ هِنداً ، رغبةً عن قِتاله إلى مالِكٍ ، أعشو إلى ضوء مالِكِ
فأنفذتُه بالرمح حين طعنتُه معانقة ليست بطعنةِ باتِكِ
وأثنِي لِكُرزٍ فى الغُبار بِطعنةٍ علتْ جلدَهُ منها بأحمرَ عاتِكِ
قتلنا سُلَيْما غثها وسمينَها قصيراً سُلَيْما ، قد صبرنا لِذلكِ
فإن تكُ نِسوانى بكينَ فقد بكت كما قد بكت أمٌّ لِكُرزٍ ومالكِ

وقال غير ذلك فى معانيه ، ثم إن بنى الشَّريد ثأروا لأنفسهم يوم (الفَيفاء) فقتلوا جماعة من بنى كنانة وسبوا ربيعة بن مُكدَّم ، فقال عباس بن مِرداس فى ذلك يرد على ابن جِذل كلمته التى قالها يوم (بُرْزَة) :

---

(١) منولة أم مازن وشمخ ابنى فزارة ، ومرة بن عوف بن سعد ، والأميل الذى لا ترس معه ، والعقاب الراية .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٦ ومعجم البلدان مادة برز .

ألا أبلغنّ عنى ابنَ جذلٍ ورهطه ... فكيف طلبناكم بكُرزٍ ومالكِ

غداة فجعناكم بحصن وبابنه ... وبابن المعلّى عاصمٍ والمعارك

ثمانية منهم ثأرناهم به ... جميعاً وما كانوا بَواءً بمالك (١)

نُذيقكم — والموت يبنى سرادقاً ... عليكم – صَباحدُ السيوفِ البواتك

تلوح بأيدينا كما لاح بارقٌ ... تلألأ فى داج من الليل حالك

صبحنا كمُ عُوجَ العناجيج بالضُحى ... تمر بنا مرّ الرياح السواهك (٢)

إذا خرجتْ من هَبوةٍ بعد هبوةٍ ... سمتْ نحو ملتفٍ من الموت شائك (٣)

قامت المناقضة على الموازنة ووضع آثار بإزاء أخرى إذ قامت على ذكر الثأر والانتقام ، وقال هند بن خالد بن صخر بن عمرو بن الشريد لما ثأر لأخويه :

قتلتُ بمالك عمراً وحِصناً ... وخلّيتُ القتام على الخدود

وكُرزاً قد أبأتُ به شريحاً ... على إثر الفوارس بالكديد

جزيناهمْ بما انتهكوا وزدنا ... عليه ما وجدنا من مَزيدِ

جلبنا من جنوب العود جُرداً ... كطير الماء غلّس للورود

فلما افتخر هند بيوم الكَديد (٤) ولم يشهده أحد من بنى الشريد غضب من ذلك نبيشةُ بن حبيب فأنشأ يقول : —

تبجّل صعبنا فى كل يوم ... كمخضوب البنان ولا يصيدُ

وتأكل مايعاف الكلب منه ... وتزعم أن والدك الشريد

أبى لى أن أقرّ الضيمَ قيسٌ ... وصاحبُه المزورُ به الكديدُ

---

(١) البواء الكفء.

(٢) العناجيج جمع عنجوج وهو الرائع من الخيل ، والعوج الكرام ، السواهك من الرياح العواصف . (٣) الهبوة الغبرة .

(٤) لسليم على كنانة ، راجع أيام العرب فى الجاهلية ص ٣١٢ .

فكان نقض لُبيشة قائماً على تكذيب هند فى المشاركة فى يوم الكديد ، وعلى إباء الضيم ، ورمى صاحبه بالهوان .

وفى يوم الفِجار الأول بين قيس وكنانة كان بدر بن معشر الغفارِى رجلا منيعاً مستطيلا بمنعته على من ورد عكاظ ، وفى أحد المواسم بعكاظ اتخذ مجلساً بها وقعد فيه ، وجعل يتطاول على الناس ويقول : —

نحنُ بنو مدركةَ بنِ خِنـدفِ   مَنْ يطعنوا فى عينه لا يَطرِفِ
ومَن يكونوا قومَه يُغطرِفِ   كأنهـم لُجَّة بحرٍ مُسـدِفِ[١]

ثم مد رجله وقال : أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف ، فوثب رجل من بنى نصر بن معاويه فضربه بالسيف على ركبته فأندرها ، ثم قال : خـذها إليك أيها المخندف — وهو ماسك سيفه — ثم قام رجـل من هوازن فقال : —

أنا ابنُ همـدانَ ذو التَغطرُفِ   بحرٌ بُحـورٍ زاخر لم يُنزَفِ
نحن ضربنا رُكبةَ المُخندِفِ   إذ مدَّها فى أشهر المعرَّفِ[٢]

ثم تلاحى الحيان حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ثم رأوا الخطب يسير فتراجعوا . ويوم جَبَلة من أيام قيس وتميم ، لعامر وحلفائهم من عبس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرها[٣] وهو من أعظم أيام العرب ومثله الكلاب الثانى وذوقار ، وفى هذا اليوم يقول لقيط بن زرارة : —

ياقومُ قد أحرقتمونى باللومْ   ولم أقاتِل عامراً قبل اليومْ

(١) مسدف : مظلم . خندف زوج إلياس بن مضر وإليها نسب أولاد إلياس جميعا . الغطريف السيد الشريف . (٢) المعرف : الموقف بعرفات — راجع ابن الأثير ج ١ ص ٤٣٩ والعقد الفريد ج ٣ ص ٧٧ . (٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٥٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٤٦ وابن الأثير ج ١ ص ٤٢٥ . والأغانى ج ١١ ص ١٣١ دار الكتب .

فاليومَ إذْ قاتلتهم فلا لُومْ تقدموا وقدمونى للقومْ
شتان هذا والعناقُ والنومْ والمضجَع البارد فى ظل الدومْ

فقال شأسُ بن بُلَىّ يجيبه ـ

لـكننى قاتلتها قبـل اليومْ إذ كنتُ لا تُعصى أمورى فى القوم

وهذه الإجابة لم تكن تحدياً ولا معاداة ولـكنها متابعة وتحميس إذ كان شأس الأسدى فى جانب لقيط بن زُرارة التميمى ، وشعر هـذا اليوم كثير فى الجاهلية والإسلام ، تجده فى الأغانى والنقائض خاصة .

وقد ذكرنا قبلا مناقضة يوم (المرُّوت) بين يزيد بن عمرو بن الصعق والعوراء الرياحية فلا نعيدها هنا .

والواقع أن هنالك شعراً جيداً قيـل فى أيام العرب ومغاوراتها حماسة وفخراً وهجاء ورثاء ، كنت شديد الحرص على عرضه لولا خروجه من المناقضة أو ضياع نقائضه فيما يبدو لى . وكم أود لو فرغت أنا أو فرغ غيرى لدرس هـذه الأيام عامة دراسة مستقلة تتناول حوادثها ، وقصصها ، وشعرها ولدلالاتها الاجتماعية والسياسية ، إذاً لظفرنا من ذلك بخير كثير للدراسات التاريخية والأدبية .

الفصل الخامس

النقائض والحياة الاجتماعية

وهناك نقائض قيلت فى سبيل أمور أخرى اجتماعية لا تتصل بالأيام أو لا تتصل بها اتصالا مباشراً وإن كانت منها بسبب . وربما قيلت فى سبيل حوادث جزئية يسيرة لا تبلغ مبلغ الأيام فى فنونها أو سعتها . وقد قلنا من قبل إن منشأها خلاف على طرائق المعاملة الاجتماعية ومقدار ملاءمتها للأوضاع المقررة سواء أكان ذلك على أساس الحق الواضح الصريح أم على وجهة النظر واختلافها بين المتناقضين ، وقد ألممنا فى الفصل الثانى بشىء من أصول الحياة الاجتماعية فى الجاهلية وما علينا هنا إلا أن نعرض بعض الأمثلة لهذا الجانب من جوانب النقائض .

١ — كان بين امرىء القيس وبين سُبيع بن عوف أحد بنى طُهيّة وشيجة قُربى ، فنزل عليه سُبيع وسأله فلم يعطه شيئاً فذمّه سُبيع بقوله :

إذا ما نزلنا دارَ آلِ مُغــرّزِ ... بِيليل فلا يُخلفْ عليها الغمامُ (١)

مُغرّزُ أبكار اللقاح إذا شتَا ... وضيفكَ جار البيت لأياً ينامُ (٢)

فقال امرؤ القيس يجيبه من قصيدة :ـ

لِمَنِ الديارُ غشيتُها بِسُحامِ ... فعمايَتين فَهُضبِ ذى إقدامِ

فصفا الأطيط فصاحَتين فغاضرٍ ... تمشى النعاجُ مع الآرامِ (٣)

دار لِهندٍ والرَّباب وفرتَنا ... ولَميس قبــل حوادثِ الأيامِ

---

(١) يدعو عليهم بعدم السقيا لبخلهم . (٢) مغرز : يحلب الناقة مرة ويتركها أخرى . لأيا ينام : أى لا يكاد ينام من الجوع . (٣) النعاج : بقر الوحش ، والآرام : الغزلان .

عُوجا على الطلل المحيل لعلَّنا ... نبكى الديار كما بكى ابن حِذام (١)
أبلغ سُبَيعاً إن عرضت رسالةً ... أنى كهمِّك إن عشوتُ أحامِ (٢)
فاقصر إليكَ مِن الوعيد فإننى ... مما ألاقى لا أشُــدُّ حِزامى (٣)
وأنا الذى عرفتْ معدٌّ فضلَه ... ونشدتُ عن حُجر بن أم قطامِ (٤)
خالى ابنُ كَبشةَ قد علمت مكانَه ... وأبو يزيدَ ورهطُه أعمامى (٥)
وإذا أُذيتُ ببــلدةٍ ودَعتُها ... ولا أُقيم بغير دار مُقامِ

وظاهر أن أبيات سُبيع مبتورة ضاع أكثرها بدليل ما فى رد امرىء القيس من حماسة ، وإشارة إلى وعيد سُبيع له وفخر بالأهل وإباء للضيم ، غاية ما فى الأمر أن (آل مُعَرِّز) : هل هم رهط امرىء القيس أو من ذوى قُرباه أو أن ذلك نبز لأسرته ؟

٢ — كان أمية بن خلف الخُزاعى قد هجا حسان بن ثابت بقوله : —

ألا مَن مُبلغ حســانَ عَنِّى ... مُغلغلةً تدِبّ إلى عُـكاظِ (٦)
أليس أبوك فينــا كان قينــا ... لدى القينات فَسْلاً فى الحِفاظِ (٧)
يمانيا يظَلّ يَشُــدُّ كِيراً ... وينفخُ دائباً لهبَ الشُّواظِ (٨)

فأجابه حسانُ فقال : —

أتانى عن أميَــةَ زُورُ قَولٍ ... وما هو بالمغيب بذى حِفاظ (٩)

---

(١) المحيل الذى أتت عليه الأحوال فغيرته. وابن حذام شاعر بكى الديار قبل امرىء القيس .
(٢) كهمك كحالك ، عشوت ، نظر نظراً ضعيفاً ، أحامى ، أدافع .
(٣) لا أشد حزامى ، لست فى حاجة إلى الاستعداد لإزالة ذلك . (٤) حجر ، أبو امرىء القيس .
(٥) ابن كبشة ، لعله مهلهل ؛ راجع ديوان امرئ القيس ص ١٧٥ للسندوبى .
(٦) مغلغلة ، رسالة ، وعكاظ سوق العرب المعروفة .
(٧) القين الحداد ، الفسل الرذل ، الحفاظ المحافظة على العهد عن المحارم .
(٨) كير الحداد ما ينفخ به . (٩) يروى زور أى طرف من الكلام

سأنشر إن بقيت لكم كلاماً ... يُنشَّرُ فى المجامع من عكاظ
قوافىَ كالسلامِ إذا استمرت ... من الصمِّ المعجرفةِ الغلاظِ [١]
تزورُك إن شتوتَ بكل أرض ... وترضح فى محلك بالمقاظ [٢]
بنيتُ عليكَ أبياتاً صلاباً ... كأمر الوسقِ قُعِّصَ بالشظاظ [٣]
مُجَلَّلة تعممه شناراً ... مُضرَّمة تأجّج كالشُّواظِ [٤]
كهمزةِ ضيغم يحمى عريناً ... شديد مغارز الأضلاع خاظى [٥]
تغضُّ الطرفَ أن ألقاك دونى ... وترمى حين أُدبرُ باللحاظِ [٦]

فأمية رمى حسان بأن أباه كان قيناً ، وهى من الصفات التى رمى بها جرير الفرزدقَ فى الإسلام ، فكذبه حسان ، وهدده بالتشهير به فى عكاظ مجتمع العرب العظيم ، وأن هذا التشهير يكون بشعر أليم ، سائر ، يكسبه العار ، ويؤذيه أشد إيذاء ، ثم يرميه بالخوف والمهانة ، فكان أشد فى وعيده .

٣ — وكان بين بنى النجار وبين خَطْمة (بنى عبد الله بن مالك بن أوس) منازعة فى حليف لبنى النجار من بغيض فالتقوا يوما بالدَّرَك [٧] وجمع بعضهم لبعض حتى أصابتهم جراح ولم يكن بينهم قتلى ومنعت بنو النجار حليفها ، فقال حسان فى ذلك : —

فِدًا أمى لِعوفٍ كلها ... وبنى الأبيض فى يوم الدَّرَكْ
منعوا ضيَمى بضربٍ صائبٍ ... تحت أطراف السرابيل هتَكْ [٨]

---

(١) السلام الحجارة ، المعجرفة الغليظة . (٢) ترضح : تكسر . المقاظ مكان الإقامة فى الصيف .
(٣) يقول أبياتا محكمة كالعدل المشدود بالشظاظين وهما عودان فى عروتى العكم .
(٤) مجللة معممة . (٥) خاظ مكتنز اللحم .
(٦) ديوان حسان ص ٢٤١ لبرقوق . (٧) موضع قرب المدينة .
(٨) الضيم الذل ، والسرابيل الدروع ، وهتك شق .

وبنانٍ نادرٍ أطرافُها وعراقيبَ تفسًّا كالفلَك[1]

فأجابه يزيد بن طُعْمَةَ الخَطْمى : —

إذْ تنادَوا بالعوفِ اركَبُوا ليس سِيَّين قوىٌّ ورُكُكْ[2]
فاجتمعْنا فقَصَصْنا جمعَهم بالصُّعَيـداء وفى يوم الدرَكْ
قذفوا سيدَهم فى وَرْطَةٍ قذفَكَ المقلَةَ وسط المعـتَرَكْ[3]
أبلغا عـوفًا بأنا معقِلٌ يَمنعُ الضيمَ وفرع مُشْتَبِكْ[4]
وإذا ماملِكٌ حار بنـا ضمِنَ الخوفُ لنا قلبَ الملِكْ[5]

يكذب حسان فيما ادعاه من غلبة ، ويرميه بالتورط فيما لا يقدر عليه رهطه ، ويفخر عليه بالتئامهم ، وإخافتهم الملوك .

٤ — وقال أبو سُفيان بن الحارث لحسان بن ثابت : —

ألا مَن مُبلغٌ حسانَ عنّى خَلفتُ أبى ولم تَخْلُفْ أباكا

فقال حسان يجيبه : —

لأنّ أبى خلافته شـديدٌ وأن أباكَ مِثْلُكَ ما عداكا[6]

فهذا شـاهد للتوجيه من طرق النقائض .

٥ — تزوج حسان امرأة من أسلم فولدت له غلاما فقال يهجوها : —

غلام أتاه اللؤم مِن شطر خاله له جانبٌ وافٍ وآخر أكشَمُ[7]

فقالت تجيبه : —

غلام أتاه اللؤم من نحو عمِّه ومِن خيرِ أعراقِ ابن حسان أسلمُ[8]

---

(١) نادر ساقط ، العرقوب أسفل الساق ، تفسا تقطع ، والفلك الهنة الناتئة على أصل اللسان .
(٢) ركك : ضعاف (٣) المقلة حصاة توضع فى الإناء لقسمة الماء بقدر ما يغمرها ، والمعترك المزدحم . (٤) مشتبك : متقارب . (٥) خافنا الملك فلا يحاربنا .
(٦) ديوان حسان ص ٢٩٨ (٧) أكشم : ناقص (٨) نفس المصدر ص ٢٩٩

فكان نقضها تكذيباً ، وقلبا ، هجته بهجائه قومها ومدحت قومها .

٦ — رصد جماعة من الأزد تأبط شراً ، وأغروا به رجلا منهم يقال له حاجز فلم يلحقه فقال تأبط شراً فى ذلك : —

وقعقعتَ حِضْنَى حاجز وصحابهَ ... وقد نبذوا خُلْقَانَهم وتَشَنَّعوا[1]
أَظن وإن صادفتُ وعثاً وإن جرى ... بى السهلُ أو مَتْنٌ من الأرض مَهيعُ[2]
أُجارى ظِلالَ الطير لو فات واحد ... ولو صدقوا قالوا له : هو أسرع
فلو كان مِن فِتيان قيس وخِندفٍ ... أطاف به القُناصُ من حيث أفزعوا
وجاء بلاداً نصف يوم وليلة ... لآب إليهم وهو أشوشُ أروع[3]
فلو كان منكم واحداً لكفيته ... وما ارتجعوا لو كان فى مطمع

فأجابه حاجز : —

فإن تكُ جاريتَ الظلالَ فربما ... سبقتُ ويوم القرن عريانُ أسنع[4]
وخليتُ إخوانَ الصفاء كأنهم ... ذبائح عِتْرٍ أو نخيلٌ مُصرَّع[5]
تبكيهمْ شجوَ الحمامةِ بعد ما ... أرحتَ ولم تُرفع لهم منك أصبع
فهذى ثلاث قد حويتَ نجاتَها ... وإن تَنجُ أخرى فهى عندك أربع[6]

يقوم النقض هنا على معانى السرعة والسبق والمغالبة فى الفروسية التى هى خواص الصعاليك ، فكان من تأبط شراً أن سَبقَ حاجزا وصحبه ، وتغلب على جميع المسالك ، وسابق الطير فسبقه ، وعاد قوياً كما كان . وادعى حاجز أنه طالما

---

(١) تشنعوا تهيأوا للقتال . (٢) مهيع : بين . والوعث الطريق الغليظ العسر .
(٣) الأشوس القوى على القتال ، والأروع من يعجبك بحسنه أو شجاعته — الأغانى ج ١٨ ص ٢١٨ بولاق . (٤) أسنع : طويل . عريان : شنيع .
(٥) العتر الصنم الذى يذبح له (٦) الأغانى ج ١٨ ص ٢١٨

سبق أقرانه ، وترك منافسيه مُقيمين كأنهم قربان مذبوحة أونخيل مصرع يبكيهم صاحبهم . وأساس المناقضة هنا الموزانة أو المناظرة .

٧ — أغار البُرج بن الخلاس الطائى على جيران الحصين بن الحمام المرى ، من الحُرَقة فأخذ أموالهم ، وأتى الصريخ الحصينَ ،فتبع القومَ فأدركهم ، فقال للبُرج : ماصبّك على جيرانى يابرج؟فقال له:وما أنت وهم؟هؤلاء من أهل اليمن،وأنشأ يقول:ـ

أنّى لكَ الحرُقاتُ فيما بيننا ... عَنَنٌ بعيدٌ منك يابنَ حُمامِ(١)
أقبلتَ تزجى ناقة متبـاطئاً ... عُلُطا تُزَجِّيها بغير خُطامِ(٢)

فأبه الحُصين : ـ

بُرجٌ يؤنّبنى ويكفر نعمتى ... صَمِّى لِمَا قال الكفيلُ صَمامِ(٣)
مهلا أبا زيد فإنك إن تشأ ... أوردْكَ عُرضَ مناهل أسْدام(٤)
أوردْكَ أقلبـة إذا حافلتها ... خَوْضَ القَعود خبيثةَ الأخصامِ(٥)
أقبلتُ من أرض الحجازِ بذِمَّةٍ ... عُلُطا أسوقُها بغـير خطام
فى إثر إخوان لنـا من طيىء ... ليسوا بأكفاء ولا بكرامِ
لاتحسبَنّ ، أخا المقاطَةِ ، أننى ... رجلٌ بِخَيرك استُ كالمَلامِ(٦)
فاستنزلوك ، وقـد بلَتْ نطاقها ... مِن بيتِ أمك ، والديونُ دوامى

قامت هذه المناقضة على حماية الجار ، اعترض الأول على زميله بأن يحمى من هو غريب عنه ، وأنه ركب فى ذلك ناقة مهملة لاخطام لها ، فرد عليه الثانى فرماه بالعقوق ، وهدده ، وفخر بحمايته الجار ، وبرد أمواله .

---

(١) عنن : اعتراض (٢) علط لاسمة لها ولا خطام
(٣) صمى صمام: زيدى ياداهية (٤) أسدام جمع سدم : ماءمتغير أومندفق .
(٥) أقلبة جمع قليب أى البئر القديمة ؟ أو البئر مطلقا ، الأخصام الجوانب
(٦) المقاطة المسكن .

٨ — ونوجز هنا ما دار بين خُفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمى والعباس ابن مرداس ، وذلك أن خفافاً قال وهو فى ملأ من بنى سُلَيم : أن عباس ابن مرداس يريد أن يبلغ فينا مابلغ عباس بن أنس ، ويأبى ذلك خصال قعدن به : اتقاؤه بخيله عند الموت ، واستهانته بسبايا العرب ، وقتله الأسرى ، ومكالبة الصاليك على الأسلاب ، ولقد طالت حياته حتى تمنينا موته ، فأبلغ العباسَ ذلك فتى منهم ، فقال له العباس : يابن أخى ، إن لم أكن كالأصم فى حلمه فلست كخُفاف فى جهله ، وقد مضى الأصم بما فى أمس وخلفنى بما فى غد ، فلما أمسى تغنى : —

خفافُ مازال تَجرُّ ذَيلا إلى الأمر المُفارق للرشاد
إذا ما عاتبتْك بنو سُليمٍ ثنيتُ لهم بداهية نآدِ[1]
وقد علم المعاشر من سُلَيم بأنى فيهمُ حَسَنُ الأيادى
فأورد ياخفاف فقد بُليتمْ بنى عوف بحية بطنِ وادِ[2]

ثم أخذ يرد على ما قال خفاف فى نثر جميل على طريقة المناقضة النثرية أمام ملأ من سليم وانصرف فقال خفاف يرد على نثر عباس بأبيات منها : —

ولم تَقْتُل أسيرَ من زَبيد بخالى، بل غدرتَ بمستقادِ[3]
فزَندك فى سُلَيم شر زَند وزادُك فى سُلَيم شر زاد

فأجابه العباس بأبيات يهجوه ويتوعده بينهما . ثم كف العباس وخفاف ثم تحارب قوماهما ، ولكن دُريد بن الصمة ومالك بن عوف أصلحا وقال دريد : كفوا صاحبيكم عن لجاج الحرب وتهادى الشعر ، فاستحيا العباس ، فقال : إنا نكف عن الحرب وتهادى الشعر ، فقال دريد : إن كنتما لابد فاعلَين فاذكرا

---

(١) نآد : داهية ، بدن أو شديدة . (٢) أى بداه خبيث . (٣) مستقاد : ذليل .

ما شئتما ودعا الشتم فإن الشتم طرف الحرب ، فانصرفا على ذلك ، فقال العباس : —

فأبلغْ لديكَ بنى مالكٍ   فأنتم بأنبائنا أخبرُ
فأما النخيلُ فليست لنا   نخيلٌ تُسَقّى ولا تؤبَرُ
وكنا جميعاً كجِذل الحِكا   كِ فيه المقنّعُ والحسّرُ (١)
مَغاويرَ ، تحمل أبطالنا   إلى الموت ساهمةٌ ضُمّرُ (٢)
وأعددتُ للحرب خيفانة   تُديمُ الجِراء إذا تخطِرُ (٣)

وأجابه خُفاف : —

أعبّاسُ إنّ استعار القصيـ   ـد فى غير مَعشره مُنكَرُ
علامَ تناولُ ما لا تنالُ   فتقطعُ نفسك أو تحسَرُ
فإن الدهانَ إذا ما أُريد   فَصَاحبُه الشامخ المخطر (٤)
تخاوَصُ لم تستطع عدة   كأنكَ من بُغضنا أعور (٥)
فقصرُكَ مأثورة إن بقيتُ   أصحو بها لك أو أسكَرُ
لسانى وسيفى معاً فانظرنْ   إلى تلك أيهما تبدر (٦)

وطال الأمر بينهما حتى برم عباس بخفاف ورأى أنه تورط فيما لا ينبغى أن يكون عليه فى العرب عامة وفى قومه خاصة ، وقال من أبيات : —

ألم تر أنى تركتُ الحروبَ   وأنى ندمتُ على ما مضى
ندامة زارٍ على نفسه   لتلك التى عارُها يُتّقى

---

(١) جذل الحكاك عود ينصب للابل الجربى لتحتك به ، ويضرب مثلا لمن يلجأ إليه ويستغنى برأيه . (٢) مغاوير : كثيرو الغارات ، ساهمة : خيل عابسة .

(٣) خيفانة : فرس سريعة .

(٤) المخطر من جعل نفسه خطرا لصاحبه فبارزه .

(٥) تخاوص غض من بصره مع تحديق النظر . (٦) تبدر تعجل إليه .

فقال خفاف من أبيات : ـ

أعباسُ إمّا كرهت الحروبَ   فقد ذُقتَ مِن عضها ما كفى

أألقحتَ حرباً لها شِدةٌ   زماناً تُسعّرها بالّلظى (١)

فلمـا ترقَّيت فى غيها   دحضت وزلّ بك المرتقى

وسعى أهل الفساد إلى خُفاف فقالوا : إن عباساً قد فضحك ، فقال خفاف : ـ

يأيها المهدى لى الشتمَ ظالماً   ولستُ بأهل حين أذكر للشتم

أبَى الشتمَ أنى سيِّدٌ وابن سادة   مَطاعينَ فى الهيجا مطاعيمَ للجرم (٢)

هم منحوا الضرا أباك وطاعنوا   وذاك الذى يُرمَى ذليلا ولا يَرمى (٣)

إلى آخر ما افتخر ، فقال العباس : —

يأيها المهدى لى الشتم ظالماً   تبيَّنْ إذا راميتَ هَضْبةَ مَن ترمى

أبى الذمَّ عِرضى إن عرضى طاهر   وأبى أبيّ مِن أباة بنى غَشْم (٤)

وإنى من القوم الذين دماؤهم   شفاء لطُلّاب التِراتِ من الرغم (٥)

وكان العباس وخفاف قد هما بالصلح وكرهت بنو سُلَيم الحرب ، فجاء غوىٌّ من رهط العباس ، فقال للعباس : إن خُفافاً قد أتى عليك وعلى والديك فغضب العباس فقال : قد والله هجانى فكان أعظمُ ما عابنى به أصغرَ عيب فيه ، ثم هجا والدَىَّ فما ضرّهما ولا نفعه ، ثم برزتُ له فأخفى شخصه واتقانى بغيره ولو شئت لشتمتُ أباه وثلبتُ عرضهُ وقال من قصيدة : ـ

أرانى كلما قاربتُ قومى   نأوا عنّى وقطعُهمُ شديدُ

---

(١) ألقحت حربا : أشعلتها .

(٢) الجرم من معانيه الحق .

(٣) من معانى الضرا شدة الحرب .   (٤) الغشم الظلم :

(٥) التراث جمع ترة : الثأر . والمعنى أنهم أمجاد أكفاء .

سئمتُ عتابَهم فصفحتُ عنهم ... وقلتُ لعلَّ حلمهمُ يعود
وعلَّ اللهَ يمكن من خُفاف ... فأسقيه التي عنها يحيد
بما اكتسبت يداه وجرَّ فينا ... من الشحنا التي ليست تبيد

فلما بلغ خفافاً قول العباس قال: والله ما عبت العباس إلا بما فيه، وإني لسليم العُود، صحيحُ الأديم، ولقد أدنيتُ سوادي من سواده فلم أحجم ولا نكصتُ عنه، وقال من قصيدة:

أرى العباسَ ينقصُ كل يوم ... ويزعم أنه، جهلا، يزيدُ
فلو نُقصت عزائمه وبادت ... سلامته لكان كما يريد
ولكن المعايبَ أفسدته ... وخُلِّفَ، في عشيرته زهيد

وقال أيضاً: —

أعباسُ إنَّا وما بيننا ... كصدع الزجاجة لا يُجبَرُ

إلى آخر القصيدة، فقال العباس: —

خُفاف ألم تر ما بيننا ... يزيد استعاراً إذا يسعر
ألم تر أنا نهين التلا ... دَ للسائلين وما نغدر

حتى انتهى من قصيدته أيضاً (١).

هذه السلسلة من النقائض التي دارت بين شاعري سُليم تمتاز بجريانها في حدود قبيلة ملحوظة المكانة من قيس عيلان؛ وأنها بدأت في قصد للبقيا على صلات القربى، وأن عناصرها فضائل اجتماعية، حتى إذا اشتد أوارها، ودعت إلى القتال وجدت من يحد من سورتها، ثم عادت قوية ملحة، ولكنها لم تسفّ على كل حال. وكانت طرائقها القلب، والموازنة، والتكذيب، وغلب عليها الفخر وإن لم تخل من الهجاء.

٩ ــ كان أبو ذئيب الهذلى يهوى امرأة فاتهمها بخالد بن زهير وقال فى ذلك من قصيدة :

خليلى الذى دلّى لغىٍّ خليلتى ... جهاراً فكل قد أصاب عرورُها
فشأنكها إنى أمين وإننى ... إذا ما تحالى مثلها لا أطورها
رعى خالد سرى ليالىَ نفسُه ... توالى على قصد السبيل أمورها
فلما تراماه الشبابُ وغيُّه ... وفى النفس منه فتنة وفجورها
لوى رأسَهُ عنى ومال بوده ... أغانيجُ خَود كان فينا يزورها(١)
تعلقَه منها دلال ومُقلة ... تظل لأصحاب الشقاء تديرها
فإن حراما أن أخون أمانة ... وآمن نفساً ليس عندى ضميرها

فأجابه خالد بن زهير من قصيدة : —

لا يُبعدنَّ الله لُبَّك إذ غزا ... وسافر والأحلام جَمٌّ عثورها(٢)
وكنتَ إماماً للعشيرة تنتهى ... إليك إذا ضاقت بأمرٍ صدورها
لعمرك أمّا أمُّ عمرو تبدلت ... سواك خليلا، شاتمى تستخيرها(٣)
فإن التى فينا زعمت ومثلها ... لفيكَ ولكن لا أراك تخورها(٤)
ألم تنتقذها من عويم بن مالك ... وأنت صفىّ نفسه وسجيرها(٥)
فلا تجزعنْ من سنة أنت سرتَها ... فأول راض سُنةً من يسيرها
وإن كنتَ تبغى للظلامة مركباً ... ذلولا فإنى ليس عندى بعيرها(٦)

هذه الأبيات من النقيضتين دارت حول امرأة كانت خليلة عُويم بن مالك،

---

(١) أغانيج جمع أغنوجة : الدل .

(٢) غزا ذهب .

(٣) تستخيرها : تستعطفها .

(٤) تخورها تعرض عنها :

(٥) سجيرها : صديقها .

(٦) الأغانى ج ٦ ص ٦٢ بولاق .

فاستغواها أبو ذؤيب الهذلى وأخذها لنفسه ، ثم غلبه عليها خالد بن زهير واتخذها خليلة له ، فرماه أبو ذؤيب بخيانة عهد الصداقة ، وركوب سبيل الغواية بعد الرشاد ، ومطاوعة نوازع الشباب ، ومفاتن النساء . فرد عليه خالد ورماه بالجهالة بعد الحزم وادعى أن المرأة برمت به فآثرت عليه خالداً ، وأن هذا الغدر من شيمة أبى ذؤيب فهو الذى اغتصبها قبلا من عويم بن مالك فاستن بذلك سنة الاستغواء وإذاً ، لا يعد خالد ظالماً بل الظالم أبو ذؤيب نفسه .

١٠ — كان النعمان بن الحارث الغسانى قد حمى (ذا أُقُر) وهو واد مملوء حمضاً ومياهاً فاحتماه الناس ، و بنو ذبيان لم تتحامه فنهاهم النابغة وخوفهم إغارة الملك عليهم فعيروه بخوفه النعمان وأتوا الوادى فبعث إليهم الملك جيشاً فأصابهم فقال النابغة فى ذلك من قصيدة : —

لقد نَهَيتُ بنى ذُبيان عن أُقُرٍ ... وعن تَرَبُّعِهم فى كل أصفار(١)
وقلتُ يا قومِ إن الليث مُنقبِض ... على براثنِــــه لوثبةِ الضارى
إمَّا عُصِيتُ فإنى غير مُنفَلِت ... مِنى اللِّصابُ فجنبا حَرَّةَ النار(٢)
أو أضعَ البيت فى سوداء مُظلمةٍ ... تقيِّد العير لا يسرى بها السارى(٣)
تدافع الناسَ عنا حـــينَ نركبها ... من المظالم تُدعى أمَّ صَبَّار(٤)
ساق الرُّفَيدياتِ من جَوْشٍ ومن عِظَمٍ ... وماشَ مِن رَهْطِ رِبعِيٍّ وحَجّار(٥)
قَرْمَى قُضاعةَ حلاَّ حول حُجرَتِه ... مدَّا عليه بُســلاّفٍ وأنفارِ(٦)

---

(١) أصفار جمع صفر وهو الشهر المعروف .

(٢) اللصاب جمع لصب وهو الشعب الضيق من الجبل ، وحرة النار ابنى مرة

(٣) سوداء مظلمة : حرة خشنة صلبة

(٤) تدفع الناس عن مهاجمتنا فيها لوعورتها

(٥) الرفيــدات من بنى كلب ، وجوش وعظم أرض لبنى القين ، وماش خلط ، وربعى وحجار من عذرة

(٦) القرم السيد ، السلاف المتقدمون

حتى استقلَّ بجمع لا كِفاءَ له ... ينفى الوحوش عن الصحراء جرَّار

لا يخفض الرِزَّ عن أرض ألمَّ بها ... ولا يضل على مصباحه السارى(١)

وعيّرتنى بنو ذبيان خشيتَه ... وهل علىَّ بأن أخشاك مِن عارِ ؟(٢)

فبلغ بدرَ بن حزار قول النابغة ، فقال يرد عليه ويذكر أن عمرو بن الحارث أخا النعمان أسر فى تلك الواقعة ناساً من بنى مُرة فيهم عم النابغة ، وكان النابغة قد قال : « أو أضع البيت » الخ يعنى الحرة ولم يفعل بل نزل (بَرَداً) وهى أرض سهلة ، فأغار عليه جيش لابن جفنة وقيل لرجل من قضاعة فأصاب ناساً من قومه فشمت به بنو فزارة فقال بدر :

أبلغ زياداً وحَينُ المرء مُدرِكه ... وإن تكيَّسَ أو كان ابنَ أحذارِ(٣)

أصطرّكَ الحرزُ مِن ليلى إلى بَرَدٍ ... تختارُه معقلا عن جُشِّ أعيار(٤)

حتى لَقيتَ ابنَ كَفٍّ اللؤم فى لَجِبٍ ... ينفى العصافيرَ والغِربانَ جرَّار(٥)

فالآن فاسعَ بأقوام عززتَهُم ... بنى ضِبابٍ ودع عنك ابنَ سيّار(٦)

قد كان وافدَ أقوام فجاء بهم ... وانتاشَ عانيَه مِن أهل ذى قار(٧)

يرد بدر على النابغة ما ادعى من الحزم والكياسة وحسن التدبير ، ويرميه بالتغرير برهطه حتى وقعوا فى الشر .

١١ — وقال النابغة يهجو يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابى :

لعمرك ما خشيت على يزيد ... من الفخر المضلِّلِ ما أتانى

كأن التاجَ معصوباً عليه ... لأذواد أُصِبنَ بذى أبانِ

---

(١) الرز الصوت ، والمصباح النيران توقد ليلا (٢) ديوان النابغة ص٥٩

(٣) زياد هو النابغة ، تكيس أظهر الكياسة ، ابن أحذار : حذر .

(٤) جش أعيار موضع من حرة ليلى ، برد هو المكان الذى أغير عليه .

(٥) لجب : جيش كثير الأصوات . (٦) بنو ضباب رهط النابغة .

(٧) انتاش أنقذ ، العانى الأسير .

فحسبك أن تهاض بمحكمات ... يمرّ بها الرويّ على لساني

فقبلك ما شتمت وقاذعوني ... فما نزر الكلام ولا شجاني

يصدّ الشاعر الثنيان عني ... صدود البكر عن قرم هجان (١)

أثرت الغيّ ثم نزعت عنه ... كما حاد الأزبّ عن الظعان (٢)

فإن يقدر عليك أبو قبيس ... يمطّ بك المعيشة في هوان (٣)

وتخضب لحية غدرت وخانت ... بأحمر من نجيع الجوف آني

وكنت أمينه لو لم تخنه ... ولكن لا أمانة لليماني

فأجابه يزيد فقال :

فإن يقدر عليّ أبو قبيس ... تجدني عنده حسن المكان

تجدني كنت خيراً منك غيباً ... وأمضى باللسان وبالسنان

وأيّ الناس أغدر من شآم ... له صردان منطلق اللسان (٤)

فإن الغدر قد علمت معدّ ... بناه في بني ذبيان باني

وإن الفحل تنزع خصيتاه ... فيصبح جافراً قرح الهجان (٥)

يعيّره النابغة بما يتكبر بغير حق ، ويهدده بالهجاء السائر ، ويفخر بغلبته الشعراء ، ويرميه بإثارته الشر ، ويوعده بما يلقى من الملك جزاء غدره ، فيكذبه يزيد ويثبت لنفسه حسن المكانة عند الملك ، والتقدم على النابغة ، وأن الغدر من شيمة ذبيان ، وأنه غالبه في الهجاء .

١٢ — لما أبى أمية بن الأسكر الكناني أن يزوج ابنته عامر بن الطفيل وزوجها يزيد بن عبد المدان ، وكانا يتنافسان عليها فقال يزيد من قصيدة :

---

(١) الثنيان : المنازل البكر الفتى ؛ والقرم الفحل الكريم ، والهجان الأبيض .

(٢) الأزب البعير النفور ، والظعان حبال الهودج . (٣) يمط : يمد ويبقى .

(٤) الصردان عرقان في أصل اللسان . (٥) جافر عزل عن الضراب .

يا للرِّجال لِطارقِ الأحزان ... ولعامر بن طُفَيْل الوَسنان
كانت إتاوة قومه لمحرِّقٍ ... زمناً ، وصارت بعدُ للنعمانِ
عَدِّ الفوارس مِن هوازن كلَّها ... فخراً علىَّ ، وجئت بالديّانِ
فإذا لى الشرف المتين بوالدٍ ... ضخم الدسيعة زانني وعَنانى
ليست فوارس عامر بمقرّة ... لك بالفضيلة فى بنى عيلان
فإذا لقيتَ بنى الحماس ومالكٍ ... وبنى الضِّباب وحىَّ آل قنان
فاسأل عن الرجل المنوَّه باسمه ... والدافع الأعداء عن نجران
يُعطى المقادةَ فى فوارس قومه ... كرماً لعمرك والكريم يمان[1]

فأجابه عامر بن الطفيل : —

عَجباً لواصفِ طارقِ الأحزانِ ... ولمَا تجىء به بنو الديّانِ
فخروا علىَّ بحبوة لمحرِّقٍ ... وإتاوة سيقت إلى النعمانِ
ما أنت وابنَ محرِّق وقبيلَهُ ... وإتاوةَ اللخمىّ فى عَيلانِ
فاقصد بذرعك قصد قومك نصرَهم ... ودعِ القبائل من بنى قحطان
إن كان سالفةُ الإتاوة فيكم ... أولى ، ففخرُك فخرُ كل يمانى
وافخر برهط بنى الحماس ومالك ... وبنى الضِّبابِ وزَعْبَلٍ وقيانِ
فأنا المعظَّم وابن فارس قُرزُلٍ ... وأبو بَراء زانني وبَناني[2]

هذه القصة ، وإن كانت موضع الشك منسوبة إلى ابن الكلبى وضعاً لضعف شعرها وعدم ملاءمته عصره ، فإنها تدل على صورة كل من الرهطين فى

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٥ .
(٢) ديوان عامر بن الطفيل ص١٥٩ طبع أوربة

رأى شاعر الرهط الآخر ، وتناولت خضوع هوازن الملوك وفخر يزيد بحسبه ونسبه ، ثم رد عامر عليه بأن يفتخر بقومه إن كانت لهم مفاخر .

* * *

ونكتفى بهذه الشواهد راجين أن يجد فيها القارىء صوراً لقيام المناقضة حول الشئون الاجتماعية ، وقد يكون فيها تزيُّد أو وضع ، ولكنها ، فى جملتها دليل على اتصال هذا الفن بحياة السلم كما قوى واتسع فى ظل الأيام .

الفصل السادس

فى خواص النقائض الجاهلية

تمثل النقائض الجاهلية هذا الفن الشعرى فى طوره الأول كما بينا ذلك عند القول فى نشأته الأولى ، لذلك كان من الطبعى أن تتعثر النقائض إبان نشأتها فى هذه العقبات الأولى التى تتراءى فى طفولة كل فن وأوليته السابقة ، ثم تتسم بسمات البداءة والسذاجة قبل أن تقوم أركانها ، وتقرر أصولها ، وهى بعد ذلك خاضعة لكل ما يؤثر فيها من عوامل مكانية ، وزمانية ، واجتماعية ، وشخصية ، حتى تنتهى إلى صورتها العامة التى تمثلها فى هذا الطور القديم .

وقد لاحظنا أن هذه النقائض القديمة ظهرت نثراً أو حواراً عادياً فى بعض المشاكل الاجتماعية كما حدث بين امرىء القيس ورءوس بنى أسد فى أعقاب مصرع حجر والد امرىء القيس ، وهذا أمر طبعى إذا كان النثر أوسع صدراً وأرحب مجالا لهذه المحاجة الاجتماعية والجدل العقلى القائم على البراهين وشرح وجهات النظر ، والسرعة فى إبداء الرأى ، والاحتجاج له .

ثم رأيناها رجزاً كذلك ، نعم ، لست أرى أن يكون الرجز هو البحر العروضى الأول حتما ، ولكنه على كل حال ، من الأوزان التى وجدت فى الجاهلية وقطع عليها بعض الكلام ، وكان فناً شعبياً قليل النصوص ، يعتمد عليه الأعراب فى الاستقاء ، والحداء ، والأيام ، ونحوها واستعمل فى النقائض ساذجاً ، و بقى فى الإسلام ، وفى عصر بنى أمية ، بل وجدنا أن النقائض بين

جرير وخصومه بدأت مراجزة[١] وهذا معناه أن فن الرجز أقرب إلى تمثيل الحياة فى طورها الشعبى وحالاتها البدائية وإن لم يتحتم أن يكون أول الأوزان الشعرية على أية حال .

وظاهرة أخرى أن هذه النقائض الجاهلية قامت ، أول ما قامت ، على الركن الأساسى فيها وهو نقض المعانى دون التزام بحر أو قافية : فكان ردوداً أو حواراً جدلياً ، انتقل من النثر إلى النظم فى صورة ماولعل مرجع ذلك أن الشعراء لم يكن قد حمى بينهم الجدل إلى درجة العدوى الموسيقية ، أو لم يكن قد حمى إلى درجة التحدى فعاشت النقائض الشعرية فى صورة أولية لم تتكامل تقاليدها النظمية المعروفة .

ولما كثرت الأيام ، وحميت العصبيات ، وتقدم الشعر ، وظهر الفحول ، واستحر التحدى بينهم ، وتعاظمت الجاهلية فى نفوسهم ، أخذت النقائض تطول ، وتتكامل عناصرها ، وتخضع للتحدى الموضوعى ، والمعنوى ، والموسيقى ، حتى تمت لها قواعدها المعروفة وإن لم تبلغ من القوة ، والطول ، والدقة ، والسيرورة ، والعناية ، والتأثير ما بلغت أيام الأمويين .

وقد كانت أصولها أو مقوماتها جاهلية كما رأيت ، فقامت على الأنساب والأصول الاجتماعية المقررة ، وأنشئت فى ظل الأيام ، وحميت بنار العصبيات القبلية واعترفت بالظلم ، والعدوان ، والمفاخرة بالأحساب والأنساب . نعم إنها لم تشتد فى سبيل الحياة الاجتماعية السامية شدتها فى الحروب وما إليها ، وهذا طبعى ما دامت الحروب تهيج الانفعالات ، وتبعث الشعر ، وتقوى التحدى ، وكان الفخر والهجاء أهم فنونها بل أهم فنون الشعر الجاهلى جميعه ، وأهم فنون النقائض جميعاً .

---

(١) راجع مقدمة نقائض جرير والفرزدق عن أبى عبيدة .

كذلك قامت النقائض ، أكثر ما قامت ، فى سبيل القبيلة والإمارة ، وعدت بذلك من قبيل الشعر السياسى إذ كانت القبيلة دولة الشاعر وموئله ، وكانت الإمارة عرشه الملكى ، وجماعته السياسية الأخيرة قبل الإسلام[1] ثم قيلت النقائض فى سبل أخرى . ومهما تكن حماسة ، أو فخراً ، أو هجاء ، أو نسيباً ، أو غيرها ، فلقد كانت متأثرة بغايتها القبلية والملكية . وكانت بذلك أضيق أفقاً من النقائض الإسلامية التى قيلت فى سبيل الأمة العربية أو الدولة الإسلامية .

نعم ، إن هذه النقائض لم تشغل العصر الجاهلى كما شغلت العصر الأموى ، أو الإسلامى الأول ، وذلك لتفرق القبائل والشعراء وعدم وجود غاية عامة أو وحدة جنسية تعمل المناقضة فى سبيلها ، كما عملت بعد فى سبيل الدين والدولة وشغلت الشعب ، والحكومة ، والأمراء ، والنقاد ، والعلماء ، والقبائل ، ونهض بها فحول الشعراء . وآية ذلك أن نقائض الأوس والخزرج فى مقدمة النقائض الجاهلية أهمية وسيرورة لتقارب القبائل والشعراء ، وللعمل فى سبيل سيادة يثرب وما حولها حتى كانت قبائل هذين الحيين أشبه بالأحزاب السياسية أو قبائل العرب أيام الأمويين .

ومن الأسباب التى حالت بين النقائض الجاهلية وبين إشغالها العصر القديم أنها كانت ظاهرة شعرية أكثر مما هى فن عتيد له أصوله ورجاله المعروفون فى عصر الأمويين نهض بها الفحول ، وصيروها أظهر الفنون القديمة ، وشغلوا بها العصر والأقاليم ، وأسقطوا منها العاجزين والمتوسطين .

ومع ذلك فلم تنحط النقائض الجاهلية إلى درجة الإسفاف الخلقى كما حدث أيام الأمويين ، ولم تهدر حدة العصبيات جميع ما بين القبائل من حرمات ،

---

(١) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ، الباب الأول .

وإنما لاحظنا فيها بقيا على القرابة ، ورعاية للحرمات ، ووقوفاً في الهجاء عند صفات الجبن والبخل والفرار بحيث لا تخجل المرأة من رواية النقائض الجاهلية والمشاركة فيها إذ كانت أطهر معاني وأبعد عن ذكر العورات والكلمات النابية المكشوفة ، لكانت السفاهة الأموية أوغل في الإسفاف من الجاهلية الاولى ، وكان الإقذاع في الهجاء ، وهو تفضيل شخص على آخر ، شر ما عرف الهجاء الجاهلي .

ومهما يكن من أمر فإن النقائض الجاهلية صورة صادقة لعصرها الأولى من حيث الموضوعات ، والمعاني ، والأساليب ، والغايات ، فلما جاء الإسلام وجد هذا الفن كامل الأداة فاعتمد عليه شعراؤه في ظل النهضة الجديدة وكان معهم امتدادا لهذا الفن الجاهلي من حيث أصوله الفنية ، وإن طرأت عليه سمات جديدة بتأثير الحياة الإسلامية مما نفصله في الباب الثاني .

الباب الثاني

النقائض في صدر الإسلام

الفصل الأول

عصر النقائض الإسلامية الأولى

— ١ —

كان ظهور الإسلام نهضة عامة تناولت الدين، والسياسة، والأدب، والاجتماع، وأخذت تحيل هذه النواحي وما يتصل بها، من طور جاهلي عربي إلى صورة إنسانية عامة لا تفرق بين جنس وآخر، فالناس أمامها سواسية ليس لعربي على عجمي فضل إلا بحسن العمل واصطناع هذا الروح البشري الفاضل. وكان الرسول، عليه السلام، يأخذ بيد هذه الأمة العربية فيزيل أحقادها، ويؤاخي بينها، ويؤلف من قبائلها المتنافرة شعباً متحداً يخضع لسلطان واحد، ويدين بملة واحدة، ثم يتقدم إلى الشعوب في أقطار الأرض يدعوها إلى هذا الدين الإسلامي، ويربطها بوشائج إنسانية تعل الناس يحبون على هذا الأصل الكريم من تحابٍ، وتعاون، ووئام.

لذلك كانت الأوضاع الإسلامية مغايرة للرسوم الجاهلية من وجوه شتى: فالعصبية القبلية صارت شيئاً منكراً أخذت تحل محله رابطة قومية أول الأمر، ثم عقيدة دينية عامة، وجدّ الرسول وخلفاؤه في محاربة الحمية الجاهلية وما يلابسها

من شعر ونثر وإن لم يستطيعوا محوها من نفوس العرب فحييت قوية زمن الأمويين كما قال بعض الشعراء ذلك صريحاً مجاهراً .

فلا تحسبوا الإسلامَ غيّر بعدكم رماحَ مواليكم؛ فذاكَ بكم جهل(١)

كذلك أخذت الديانات القديمة تتضاءل أمام الإسلام ولا سيما فى بلاد العرب، من يهودية ، ومسيحية ، ومجوسية، ووثنية ، وكانت مظاهر النشاط المادى والأدبى تؤازر الوضع الجديد وتساير تياره حتى صار الإسلام دين العرب، واجتهد ليكونَ دين البشر .

وأما الجهالة الجاهلية فقد حل عليها الإسلام ليحل محلها التسامح ، والعفو ، والتمسك بآداب الدين ، فبعد ما كانت (الأيام) مستعرة فى سبيل الرياسة والمادة صارت فى سبيل الإسلام وآدابه ، وبعدما كانت بين العرب انتهت فكانت بين العرب والأمم الأخرى .

صار العرب بالإسلام أمة ودولة لها حكومتها القائمة ، ونظامها المقرر ، بعدما كانوا قبائل وعشائر متنافرة أو إمارات خاضعة لسلطان الفرس والروم، وأصبحت ترى على رأسها حاكما يدير شئونها ويقف بها أمام العالم تشارك فى سياسته ، وتبنى فى حضارته ، وتحمله على الاعتراف بها ثم الخضوع لسلطانها بعد ما كانت بدواً فى أرجاء البادية .

— ٢ —

هذه الدعوة الإسلامية الجديدة من شأنها أن تثير عواطف متناقضة بين دعاة الحق الجديد وأنصار الباطل القديم ، أو بين المحافظين على الرسوم البدوية الجاهلة والمجددين بالأصول الاسلامية الفاضلة ؛ هى عواطف مختلفة تمثل

---

(١) راجع ترجمة عقيل بن علفة فى الأغانى ج ١١ ص ٨٥ بولاق

هذا الصراع بين حياتين أو طورين من أطوار الحياة العربية فى تلك الحقبة من حقب التاريخ ، فريق مع الرسول ، وفريق عليه ؛ وذلك أمر طبعى فى مثل هذه النهضات ، فمن الناس من جمد سلوكهم وتعلق بالماضى الذى درب عليه لا يحيد عنه ومنهم من رُزق مواهب حية متجددة تستطيع مسايرة الزمن وتبيُّنَ أنوار الهدى فتمشى قدماً لا تلوى على شىء ، وهكذا كان الشأن أول الدعوة الإسلامية ، فكانت الكثرة على الرسول والقلة القليلة معه ، ولما كان من الطبعى أن يُنذر عشيرته الأقربين قبل سواهم فقد دارت المعركة بينه و بين قريش أول ما دارت ، بل بينه و بين أسرته وفروعها ولقى فى ذلك بلاء كبيراً صبر عليه كريماً ثابت الجنان قوى العقيدة حتى هاجر من مكة إلى المدينة ، فكان من ذلك معسكران سياسيان أو دينيان : قريش بمكة ، والأنصار والمهاجرون بالمدينة ، وأخذت الدعوة الإسلامية صورة عملية من ذلك الحين ، وقامت الأيام أو الغزوات الدينية فى سبيل هذه النهضة المباركة كما هو مقرر فى التاريخ السياسى .

من مستلزمات هذه النهضة قيام نهضة أدبية بجانبها تسايرها ، وتؤرخها ، وتسندها ، وقد حدث ذلك فعلا ، وكان ذا مظاهر شتى :

فالقرآن الكريم الذى نزل على الرسول كان معجزة هذه الدعوة وأصلها الأول ، وكان فى مستوى أدبى لا يضاهى سواء فى موضوعاته ، ومعانيه ، وأساليبه وغايته السامية .

وكانت أحاديث الرسول ، وخطبه ، وتعاليمه سنداً ثانياً لنهضة العرب وهدى مُبيناً لسلوكهم القومى والإنسانى فوق بلاغتها الممتازة ، وكانت نهضة شعرية عامة ، أظهرت الشاعرية القرشية بعدما كانت خامدة وذلك لتناهض شاعرية قوية أصيلة كانت فى المدينة بين الأنصار من الأوس والخزرج ، واليهود[1] .

(١) راجع ، للمؤلف ، تاريخ الشعر السياسى ص ٩٠ وما وليها ، ط ١

وإذا كان ابن سلام يردّ خمود الشاعرية القرشية فى الجاهلية إلى « أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا »[١] فلقد وجدت الثائرة والحرب الآن وأخذت عواطفهم تثور ، والأيام تتوالى ، ومكانتهم الدينية تمس ، وعليهم الآن أن يقفوا بسيوفهم وألسنتهم المكية أمام سيوف الأنصار وألسنتهم المدنية ، فهذا وجه ، وبذلك قامت مدرستا مكة والمدينة .

ووجه آخر نشير إليه ، وهو أن القبائل الأخرى ، غير قريش والأنصار ، أخذ شعراؤها ينضمون إلى قريش ، أو إلى الأنصار ، فأمية بن أبى الصلت الثقفى وكعب بن الأشرف اليهودى وسواه من شعراء اليهود مع قريش ، والأعشى التميمى ، ومعبد الخزاعى ، وسواهما مع الرسول وأنصاره .

ثم قامت النساء تشارك الشعراء فى هذه النهضة الشعرية مع الرسول أو عليه ، وكنّ يحرضن على القتال ، والانتقام ، ويبكين الموتى ويندبنهم ويشتفينَ من أعدائهن ، كهند بنت عتبة ، وقُتيلة بنت الحارث ، وصفية بنت مسافر فى جانب قريش ، وصفية بنت عبد المطلب ، ونُعم امرأة شماس بن عثمان فى جانب المسلمين .

ووجد اليهود ، بالمدينة خاصة ، أن مكانتهم الدينية والسياسية والاقتصادية ستتعرض لشر كبير إذا نجحت الدعوة المحمدية ، فانضموا إلى قريش بمكة وأخذ شعراؤهم يسيرون فى سبيل ضرار بن الخطاب وعبدالله بن الزِبَعرى وأبى سفيان بن الحارث ومنهم كان كعب بن الأشرف ، وجبَل بن جوّال ، وسمّاك اليهودى ، وقد شرحنا ذلك فى « تاريخ الشعر السياسى » بما يكفى .

وخلاصة ذلك أن هناك نهضة شعرية قوية صاحبت الدعوة الإسلامية وأفادت منها قوة وحياة ، ثم انقسمت القبائل فى سبيلها حزبين كبيرين : مع

(١) طبقات الشعراء ص ١٥٢ طبعة مصر .

الرسول أو عليه ، وكان من ذلك ملاحاة ومهاجاة حول هذا التطور فى الحياة العربية مثَّلها أول الأمر مدرستا مكة والمدينة ، وكان منها النقائض الإسلامية الأولى .

— ٣ —

كانت النقائض أيام الرسول ، عليه السلام ، امتداداً للنقائض الجاهلية من حيث أصولها الفنية ، وكان بعض شعرائها المسلمين ، كحسان بن ثابت وعبد الله بن رَواحة ، من رجالها الجاهليين ، فنهض بهذا الفن ، عصر البعثة المحمدية ، شعراء مخضرمون أدركوا العصرين : الجاهلى والإسلامى ، سواء فى ذلك شعراء مكة والمدينة من العرب واليهود ، رجالا ونساء ، إلا أن ذلك التغير الذى حدث فى أوضاع الحياة العربية فى تلك الفترة — وقد أشرنا إلى شىء منه قبلا — أصاب المناقضة الشعرية نفسها بتغير من عدة وجوه :-

أول هذه الوجوه هو الموضوع فقد كان فى الجاهلية دائراً حول مرعى أو مورد أو رياسة أو طمع أو سفاهة ، ولكنه فى هذه الفترة دار حول دين ينشر ، وأمة تتكون ، ودولة تقوم ، وهداية تُتبَّع ، صار موضوعاً سامياً ، إنسانياً ، عاماً ، أو — فى أدنى درجاته — قومياً عربياً بعد ما كان قبلياً جاهلياً ، وهذا تحول خطير من غير شك فى تاريخ فن النقائض .

وثانيها هو المعانى ، فمهما يكن من المسير سرعة الابتكار المعنوى ، والتحول من الجاهلية إلى الإسلام فى هذا الجانب ، فلقد غلبت المعانى الدينية على غيرها ، ووجد فى كلام المتناقضين ، من المدرستين ، معانٍ جاهلية قديمة تدور على الأحساب والأنساب والأيام وما إليها ، ومعان إسلامية جديدة تقوم على الكفر والإسلام والهدى والضلال ، وفى الأغانى[1] « كان يهجو رسول الله صلى الله

---

(١) جـ ٤ ص ١٣٧ دار الكتب .

عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش : عبد الله بنُ الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبـــد الله بن رَواحة ؛ فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم ، بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبدالله ابن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشـدُّ القول عليهـم قولَ حسان وكعب ، وأهونُ القول عليهم قولَ بن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قولَ ابن رَواحة » . وقد ذكرنا فى غير هذا المكان[١] أن هذا الوصف ليس عاماً ولا دقيقاً لأن حسان كان يهجوهم أيضاً بمذهب عبدالله ابن رَواحة .

وثالثها الأساليب ، فقد كانت أساليب النقائض الإسلامية الأولى مضطربة غير مستوية ، سواء ذلك عند الشاعر الواحد ، وبين الشعراء من المدرستين ، كان منها العبارات الجزلة القوية ، ومنها الضعيفة المهلهلة ، ومنها الوسط العادى ، فإذا اعتبرنا الوضع ولحظناه من بين أسباب هـذا الاضطراب ، فإنا نرده كذلك إلى أسباب أخرى ، كضعف الشاعرية القرشية وحداثتها ، وارتجال الشـــعر أمام الحوادث الطارئة ، وهرم بعض الشعراء كحسان بن ثابت ، واقتحامهم جميعاً مجالا جديداً تعوزه مرانة جديدة طويلة ، والتزام بعضهم حدوداً وآداباً إسلامية تقيد حرية القول وشيطان الشعر ، حدث الأصمعى قال : « طريق الشـعر إذا أدخلته فى باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علَا فى الجاهلية والإسلام ، فلما دخل شـعره فى باب الخير من مراثى النبى صلى الله عليه وسـلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٨ ط ١ .

امرىء القيس ، وزهير ، والنابغة ، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحمر والحروب والافتخار ، فإذا أدخلته فى باب الخير لان »[١] ويمكن إيضاح ذلك بالموازنة بين حسان والحطيئة الذى لم يغمره تيار الإسلام كما غمر حسان ، فاحتفظ الحطيئة بمذهبه الأصيل فبقى شعره مستوى الأسلوب جزلا لا اختلاف فيه .

ورابعها الغاية ، فإذا بحثت عن غاية النقائض الجاهلية وجدتها ، غالباً ، اشتفاء نفس مغيظة ، وصيرورة قبلية ، وافتخاراً بالشعر ، وبعث الرهبة فى النفوس ونحو ذلك من هذه الأغراض القبلية الضيقة الأفق التى لا تحدث تحولا حتى فى حياة القبيلة ، فأما النقائض الإسلامية فكانت فى سبيل الإسلام ، وقد فسرنا معنى (الإسلام) بأنه دين ، ودولة ، ونهضة عامة ، وسلطان شامل ، وإصلاح يتناول الجنس العربى والبشرية كلها ، فهو تحول فى الحياة الإنسانية وطور خطير من أطوار التاريخ العام ، تزعّمه الرسول ثم خلفاؤه ، وعمل فى سبيله الشعر أو النقائض كما أصّله القرآن والحديث ، وحمته الجيوش .

أما الفنون التى كانت قِوامَ النقائض الإسلامية وعناصرها ، فهى الفنون الجاهلية من مديح ، وهجاء ، وفخر ، ورثاء ، ووصف ، ووعيد ، ونحوها لم تفتح فى الشعر العربى أبواب رئيسية فى ذلك الحين ، ومع ذلك فقد أسبقنا أن هذه الفنون تأثرت فى موضوعاتها ومعانيها وأساليبها وغايتها بمقتضيات النهضة الإسلامية ، ونشير هنا إلى شىء من مظاهر هذا التغير الذى فيه سمات الدعوة ورسولها عليه السلام ، فلقد قال عبد الله بن الزِبَعْرى يبكى قتلى بدر من أبيات : —

ما ذا على بدرٍ وما ذا حولَه ‍ ‍ ‍ مِن فِتيةٍ بيضِ الوجوه كِرامِ

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٦٢ .

تَركوا نَبِيَّها خلفهم ومُشِبَّهاً … وابنَىْ ربيعةَ خيرَ خَصمِ فئامِ(١)
وإذا بكى باكٍ فأعولَ شجوَهُ … فعلى الرئيس الماجِد ابن هشام(٢)
حيَّا الالهُ أبا الوليد ورهطَهُ … ربُّ الأنام وخصَّهم بسلام

فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى : —

ابكِ ، بكت عيناكَ ثم تبادرتْ … بدمٍ تُعَلُّ غروبُها سَجَّامِ
ماذا بكيتَ به الذين تتابعوا … هلا ذكرت مكارمَ الأقوامِ(٣)
وذكرتَ مِنَّا ماجداً ذا هِمَّةٍ … سمحَ الخلائق صادق الإقدام
أعنى النبىَّ أخا المكارمِ والنَدى … وأبرَّ من يُولِى على الإقسام(٤)
فَلِمثلِهِ ولمثلِ ما يدعو له … كان الممدَّحَ ثَمَّ غيرَ كهامِ(٥)

فاذا كان ابن الزبعرى يبكى قتلى قريش يوم (بدر) كما يبكى أى شاعر جاهلى قتلى قومه فى بعض (الأيام) فإن حسان بن ثابت وضع بازاء قتلاهم مكانة الرسول ، ونبه على أنهم الباغون ، ثم زاد على ذلك الإشارة إلى الرسول ودعوته وأنه بذلك أحق بالمدح ، وأولى بالفضل .

وهناك مشابهة أخرى بين الفنين الجاهلى والإسلامى ذلك أنهما قويا وشاعا فى ظل الحروب و (الأيام) فقد رأيت فيما مضى(٦) أن كثرة النقائض الجاهلية إنما أنشئت حول الأيام وبسببها ، ونلاحظ هنا أنها كثرت كذلك فى سبيل الأيام الإسلامية أو (الغزوات) كبدر ، وأحد ، والخندق ، والفتح ، وذلك طبعى ما دامت الحروب تهيج الشعر ، وتبعث فى نفوس الشعراء مواقف التحدى

---

(١) الفئام الجماعة من الناس . (٢) أبو البخترى العاص بن هشام .
(٣) تتابعوا : ألقوا بأنفسهم فى الهلاك . (٤) يولى : يحلف .
(٥) الكهام الضعيف — سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٦ طبعة الحلبى
(٦) الباب الأول ، فصل ثالث ورابع .

والمناقضة إذ كانت هـــذه حرباً كلامية بجانب الحروب الدموية ، لذلك كانت (سيرة الرسول) ومغازيه أهم مصادر النقائض الإسلامية .

وقد شغلت النقائض ، عصر البعثة ، شعراء مكة والمدينة كما شغلت النقائض شعراء الأوس والخزرج فى أيام الحيين قبيل الإسلام ، وكما شغلت النقائض الأموية جريراً وصاحبيه أهم فترات الدولة الأموية ، فكانت فى جميع هذه الأطوار مشغلة الشعراء ، والرؤساء ، والجماعات العربية وأوجدت بجانبها مدارس نقدية ، وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية تأثيراً خطيراً .

ولست أدرى ، فلعل رواية ابن إسحاق صحيحة فيما يقوله : إن أول شعر قيل فى الهجرة بيتان قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس[١] أخو بنى محارب بن فهر : —

تداركتُ سعداً عَنوةً فأخذتُهُ   وكان شِفاءً لو تداركتُ منذِرا
ولو نِلتهُ طُلَّتْ هناك جِراحُه   وكان حَرِيًّا أن يُهان ويُهدَرا

قالهما فى سعد بن عُبادة والمنذر بن عمرو الأنصاريين لما خلصا من أسر قريش فى أمر العقبة الثانية[٢] فأجابه حسان بن ثابت من أبيات : —

لستَ إلى سَعد ولا المرء مُنذِرٍ   إذا ما مطايا القوم أصبحنَ ضُمَّرا
أتفخرُ بالكَتّانِ لما لَبِستَهُ   وقد تلبسُ الأنباطُ رَيطاً مُقَصَّرا
فلا تكُ كالوسنانِ يحـــلُمُ أنه   بقَريةِ كسرى أو بقَرية قيصَرا
ولا تكُ كالثكلى وكانت بمَعزِلٍ   عن الثُّكل لو كان الفؤادُ تفكَّرا

---

(١) كان ضرار شاعر قريش وفارسها ، ثم ابن الزبعرى بعده . وكان جد ضرار ، وهو مرداس ، رئيس بنى محارب بن فهر ، وأسلم ضرار عام الفتح .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨١ — ٩٣ طبعة الحلبى .

فإنّا ومَن يُهدِى القصائد نحونا ... كمستبضعٍ تمراً إلى أرض خيبرا[1]

ولو صحت لا تثبت يقيناً أن هذه أول مناقضة إسلامية ، وإن كانت تثبت أنها أول مناقضة بعد الهجرة .

— ٤ —

ومع ذلك فلنقف هنا لحظة يسيرة لنشير إلى ما فى القرآن الكريم من صور المناقضة ، فلعلها ذات أثر بعيد فى هذا الفن الاسلامى والأموى جميعاً .

حكى القرآن الكريم قدراً غير يسير من الجدل الذى دار بين الرسول عليه السلام و بين العرب واليهود ، من نصارى ، ومجوسيين ، ووثنيين ، وسواهم ، حول مسائل شتى فى مقدمتها الألوهية ، والرسالة ، والبعث وسلك فى هذا الجدل سبلا متنوعة ، وأساليب عدة ، نجد فيها صوراً للمناقضة محكمة بحيث تحتاج إلى دراسة خاصة تستوعبها وتصنفها ، ونورد هنا بعض أمثلتها لتكون دليلا للقارىء والباحث إذا كان النقض القرآنى ليس موضوعنا فى هذه الفصول ، وربما عدنا إلى هذه المسألة فى الباب الثالث .

اعتمد القرآن فى نقض دعاوى خصومه وعقائدهم على طريقة التكذيب القائمة على أدلة واقعية كقوله تعالى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل ، فلِمَ يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء ، ولله مُلك السموات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير »[2] .

ادعى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فنقض دعواهم بأن هذه الدعوى

---

(١) نفس المرجع ٩٩ — الأبيات قوم من العجم ، والربط الملاحف البيض المفرد ريطة . خيبر موطن التمر ، والشطر فى يدل يشى ، عند أربابه .

(٢) سورة المائدة ، آية ١٨ .

تستدعى عدم تعذيبكم لأنكم لاتذنبون . ولكن الواقع أن الله عذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ ، وقد اعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات ، إذاً ، يبطل قولكم بأنكم أبناء الله وأحباؤه . ثم أثبت لهم الوصف الطبعى فقال بل أنتم بشر ممن خلقه تعالى تجرى عليكم أحكام القضاء والقدر .

وفى طريقة التكذيب تجده أحياناً يطالب خصومه بالبرهان ، ثم يثبت خلاف ما يدّعون كقوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا مَن كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى ، مَن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون »(١) .

ادعى الفريقان أن الجنة وقف عليهم ، فطالبهم بالبرهان فى دعواهم ، ثم نفاها ، وأثبت أن الجنة حق لكل من يخلص نفسه لله ويحسن فى أعماله .

وكذلك قوله تعالى : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ، قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما تعلمون »(٢) .

رماهم بالافتراء والتورط فى الجهالة . وقوله تعالى : « وقولهم إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شُبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه »(٣) . فكذبهم ، وبين سبب خطئهم ، وأنهم يعتمدون على الظن فيما يدعون .

ومرة يسفه أحلامهم ، ويرميهم بالغفلة والبله فيقول : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ، أولم تأتهم بيّنة ما فى الصحف الأولى »(٤) لما طالبوا الرسول بآية تدل

---

(١) سورة البقرة آية ١١١ ، ١١٢ . (٢) آية ٨٠ (٣) النساء آية ١٥٧
(٤) طه ١٣٣

على صدقه فى ادعاء النبوة ، رد عليهم بآية القرآن المشتمل على زبدة الكتب السماوية السابقة ، فكيف يغفلون عنها أو يتغافلونها ؟!

وقد يتناول بالنقض ماسيدعى خصومه فى المستقبل ، أو ما قد يدور بخلدهم ، أو يفرض أمراً ليقطع عليهم سبيل المعارضة كقوله تعالى : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ »(١) ادعوا أن الله راض عما هم عليه من شرك وإثم ، فقاسهم على مَن سبقهم من أمثالهم فى هذا المذهب حتى وقع بهم العقاب . ثم سألهم الاحتجاج لدعواهم إن استطاعوا ، ورماهم بالكذب واتباع الظن .

رأيت الأمثلة السابقة دالة على مطالبة الخصوم باستعمال عقولهم وأفكارهم فى تبين وجه الحق فيما يدّعون . وقد يعتمد القرآن فى نقضه على الانفعالات والعواطف فيستخدم التهويل والتخويف ، يقول تعالى : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ، لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ، إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ، لقد أحصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً »(٢) . فلما ادعوا لله ولدا بيّن لهم شناعة هذه الدعوى ومبلغ خطورتها وعدم لياقتها ، وبيّن أن كل الخلق عبيد الله يقدر عليهم ويحشرهم يوم القيامة لاسند لأحدهم إلا سلوكه ، وهذا التهويل يخفى الدليل وهو أن الألوهية لايناسبها الأبوة الحسية البشرية التى هى من صفات الكائنات .

---

(١) الأنعام آية ١٤٨ . (٢) مريم ٨٨ — ٩٥ .

وقد يستخدم التنفير من الصفات البغيضة فيصف بها خصومه لعلهم يتحولون عنها كقوله تعالى : « فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ ، وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً »(١) ادعوا أن قلوبهم أوعية للعلم أو أن عليها أغلفة فلا تدرك شيئاً ، فرد عليهم الله بأنه قد حجبها عن المعرفة بسبب كفرهم فقل إيمانهم .

وقد يتردد الحوار بين الرسول وخصومه فيحكيه القرآن ويفصل فيه ، كقوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعْلَمُونَ »(٢) فلما أمروا بالإيمان كما آمن الناس ، تعالوا ورموا المؤمنين بالسفاهة ، ولكن الله قلب عليهم هذه الصفة وأثبتها لهم مع الجهالة .

هذه إشارة خاطفة إلى ماتضمن الكتاب الكريم أثناء جدله من أساليب المناقضة ، ونرجو أن يتاح لهذا الجانب من يتناوله فى القرآن والحديث .

— ٥ —

رأينا أن النقائض الإسلامية كانت من الناحية الفنية امتداداً للنقائض الجاهلية وأنها دارت فى الغزوات ، وإن حدث فيها انحراف تناول بعض جوانبها كما أسبقنا ، وقد نهض بها شعراء مكة ومن ناصرهم من جانب ، وشعراءُ المدينة من جانب آخر .

ذلك كان حياةَ الرسول الكريم ولعلها حَمِيت منذ وقعة (بدر) وفترت

---

(١) النساء ١٥٥ . (٢) البقرة ١٣ .

وفترت من عام الوفود فلما توفى الرسول وكان العرب أمة واحدة فى ظاهر الأمر ، و إن لم تمح العصبية لم تطل حروب الردة حتى استقرت الأمور واتجه العرب إلى الفتوح الإسلامية فوقفت بينهم المناقضة وشغلوا بغيرهم من الشعوب ، ذلك إلى ما حارب عمر وعثمان الهجاء وصرفوا الشعراء عنه وآذوهم بسببه ، فقد علمت أن عمر بن الخطاب حبس الحطيئة لما هجا الزِبْرِقان بن بدر ثم أطلقه واشترى منه أعراض المسلمين[1] كما علمت أن عثمان بن عفان عزّر ضابئاً البُرجُميّ وحبسه فى هجاء بعض الأنصار[2] وفوق هذا فقد كانت العصبيات مكبوتة ، ولا وجود لخلاف مذهبي أو سياسى تحيا فى سبيله النقائض فسكن هذا الفن إذ لم تساعده الحياة الاجتماعية بسبب هذه السياسة الرشيدة التى تشبث بهـــا عمر بن الخطاب بوجه خاص ، لذلك لا نرى للنقائض نشاطاً منذ عام الوفود حتى وفاة عثمان بن عفان ومصرعه المعروف الذى أدى إلى التنافس بين على ومعاوية حول الخلافة[3] . فلما كان هذا الخلاف رأينا أثارة لهـذا الفن متصلة بالعصبيه الهاشمية والأموية لم تكثر ولم تقو لأن الحوادث أسرعت بالخلافة إلى بيت الأمويين ، ولأن فحول المخضرمين الذين نهضوا بالنقائض الإسلامية الأولى قد ماتوا أو شاخوا ، والجيل الجديد من الشعراء لم يكن قد تقدم بعـد إلى مسرح الحياة العامة يتناول شئونها ، فتأخرت النقائض الأموية إلى حينها من أحيان التاريخ الأدبى .

أما عن الأثارة من النقائض التى حدثت فى أعقاب الفتنة العُثمانية فنذكر منها ما قال الوليد بن عُقبة بن أبى مُعيط أخو عثمان لأمه لما قتل عثمان : —

---

(١) الأغانى جـ ٢ ص ١٨٥ دار الكتب . (٢) تاريخ الطبرى جـ ٣ ق ٢ ٢٨٤٩ أوربة . (٣) راجع ، المؤلف ، تاريخ الشعر السياسى ص ١١٦ وما بعدها ط ١

بنى هاشم ، إيهِ فما كان بيننا — وسيف ابن أروى عندكم وحرائبه
بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم — ولا تنهبوه ، لاتحل مناهبُه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه — كما غدرت يوماً بكسرى مرازبُه(١)

فأجابه عن هذا الشعر ، وفيما رمى به بنى هاشم ونسب إليهم ، الفضلُ ابن العباس بن أبى لهب فقال : —

فلا تسألونا سيفكم إنّ سيفكم — أُضيعَ وألقاه لدى الروع صاحبُه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا — فهم سلبوهُ سيفَه ، وحرائبُه
وكان ولى العهد بعد محمد — علىٌّ وفى كل المواطن صاحبُه
على ولىُّ الله أظهر دينه — وأنت مع الأشقين فيما تحاربُه
وأنت امرؤ من أهل صيفور َمازحٌ — فما لك فى الإسلام سهم تطالبُه(٢)

ومن المعروف ما دار بين كعب بن جُعيل والنجاشى فى سبيل على ومعاوية لما تنافسا فى الملك الإسلامى ، فقد قال كعب بن جُعيل برأى معاوية من أبيات : —

أرى الشام تكره مُلك العراق — وأهلُ العراق له كارهونا
وكل لصاحبه مُبغض — يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا : على إمام لنا — فقلنا : رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : نرى أن تدينوا لنا — فقلنا لهم : لانرى أن ندينا
وكل يُسَرُّ بما عنده — يرى غَثَّ ما فى يديه سميناً(٣)

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٤ . (٢) نفس المرجع ص ٢٤٥ .

(٣) الأخبار الطوال ص ١٦٢ـ١٦٣ وشعراء النصرانية بعد الإسلام ، القسم الثانى ص ٢٠٦ .

فأجابه النجاشى برأى على : —

دعَنْ معاوِىَ مالن يكونا ... فقد حقَّق الله ما تحذَرونا
أتاكم على بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب القوانس فى النقع دينا
فإن يكرة القومُ مَلكَ العراق ... فَقِدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلتم علياً وأشياعه ... نَظِيرَ ابن هند ، أما تستحونا[1]

مغزى ، إذاً ، أن النقائض الإسلامية إنما ازدهرت حياة الرسول وفى ظل الغزوات ، وهذا ما نعرضه فيما يلى :

---

(١) نفس المصدر .

الفصل الثانى

النقائض والغزوات

— ١ —

قلنا إن النقائض الإسلامية الأولى إنما أنشئت فى ظل الغزوات، وعلينا الآن أن نعرض بعض الشواهد لهـذه النقائض واصلين بينها وبين أسبابها الحربية ، معرضين عن النصوص الموضوعة قدر استطاعتنا ، متحرِّين الإيجاز الشـديد، محاولين أن نتبين فى هـذه النصوص ما يميزها من حيث الموضوع ، والمعانى ، والأساليب ، والغايات .

ولا شك أن غزوة (بدر الـكبرى)(١) كانت أولى الغزوات الهامة فى تاريخ الجهاد الإسلامى ، لأن ماسبقها لم يكن إلا مناوشات يسيرة ، ولأن آثارها كانت خطيرة ، لِمَا أعلت من مكانة المسلمين ، وأصابت قريشاً بمكة واليهود بالمدينة من ذِلة ونَـكال ، ولأنّ الأمر منذ حدوثها صار جِدًّا ، وصراعاً لاهوادة فيـه بين الجاهلية والإسلام ، وكان يوم (بدر) هذا للرسول على قريش هلك فيه جماعة من عِلية مكة وأعيانها ، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمى يبكى قتلى بدر من المشركين : —

ماذا على (بَدْرٍ) وماذا حولَه ... مِن فِتية بِيض الوُجوه كِرامِ
تركوا نُبَيهاً خلفهم ومنبها ... وابنى رَبيعة خيرَ خَصم فِئامِ(٢)

---

(١) راجع سيرة بن هشام ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) نبيه ومنبه من بنى سهم ، وابنا ربيعة شيبة وعتبة ، والفئام الجماعة من الناس .

والحارثَ الفيّاضَ يبرق وجهُهُ   كالبدرِ جلّى ليلةَ الإظلامِ (١)
والعـاصِىَ بنَ مُنَبِّهٍ ذا مِرّةٍ   رُمحاً تمِيماً غيرَ ذى أوصامِ (٢)
تنمى به أعراقُه وجـدودُه   ومآثرُ الأخوالِ والأعمـامِ
وإذا بكى باكٍ فأعولَ شجوَه   فعلى الرئيس الماجدِ ابنِ هشامِ (٣)
حيّا الإلهُ أبا الوليـد ورهطه   ربُّ الأنام ، وخصّهم بسلامِ (٤)

هذا البكاء يقوم على صفات جاهلية اجتماعية وبخاصة فى قريش بمكة ، من كرم ، وسناء ، وقوة ، وحسب ، وهو أسف شديد على هؤلاء العلية الذين ذهبت بهم سيوف المسلمين وعاد أرهاطهم إلى مكة من دونهم ، فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى الخزرجى فقال : —

ابكِ بكتْ عينـاكَ ثم تبادرت   بدمٍ تُعَـلُّ غُروبُها سَجّامِ (٥)
ماذا بكيتَ به الذين تتابعوا   هلّا ذكرتَ مكارمَ الأقوامِ (٦)
وذكرتَ منّا ماجدًا ذا همّةٍ   سمحَ الخلائقِ صادقَ الإقدامِ
أعنى النبىَّ أخا المكارمِ والنّدى   وأبرَّ من يُولى على الإقسـامِ
فلمثلـه ولمثـلِ مايدعو له   كان الممدَّحَ ثَمَّ غيرَ كَهامِ

كان رد حسان قائماً على نقطتين : استنكار البكاء على قتلى المشركين ، ثم التحقق بالرسول ودعوته الإسلامية الكريمة . وهذه النقطة الثانية هى الصلة بين القديم والحديث من معانى النقائض . وواضح أن المناقضة تدور حول النهضة الإسلامية العامة وفى سبيل غايتها الكريمة ، وكان الأسلوب جزلا وإن لم يكن خير الأساليب القديمة .

---

(١) الحارث بن زمعة من بنى أسد . (٢) العاصى بن منبه من بنى سهم .
(٣) أعول : رفع الصوت بكاء . الشجو الحزن . الرئيس هو أبو البخترى العاص بن هشام .
(٤) أبو الوليد هو عتبة بن ربيعة (٥) الغروب مجارى الدمع ، سجام : سائل .
(٦) تتابعوا : ألقوا بأنفسهم فى الهلكة .

وهناك شعر كثير قيل فى (بدر)[١] منه الأصيل والموضوع ، مناقضةً وغير مناقضة ، اكتفينا بهذا المثال من المناقضة ونشير إلى حوار كان بين حسان بن ثابت والحارث بن هشام فى فرار الحارث هذا اليوم ، قال حسان قصيدته المشهورة التى استوحى فيها طبعه الجاهلى الأصيل فجاءت قوية ، منها قوله : —

تبلتْ فؤادكَ فى المنامِ خَريدةٌ ... تسقى الضجيعَ ببارد بَسَّامِ[٢]
كالمسكِ تخلطهُ بماءِ سَحابةٍ ... أو عاتقٍ كدمِ الذبيحِ مُدامِ[٣]
يا مَن لعاذلةٍ تلومُ سَفاهةً ... ولقد عصيتُ على الهوى لُوَّامى
إن كُنتِ كاذبةَ الذى حدَّثتِنى ... فنجوتِ مَنجى الحارثِ بن هِشامِ
تَركَ الأحبَّةَ أن يُقاتِلَ دُونَهم ... ونجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجامِ[٤]
وبنو أبيه ورهطُه فى مَعرَكٍ ... نصرَ الإلهُ به ذوي الإسلامِ

نسيب تقليدى ، وتعيير بالفرار ، وفخر بانتصار الإسلام . فأجابه الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم بدر ، فقال : —

اللهُ أعلمُ ما تركتُ قِتالهم ... حتى حبَوا مُهرى بأشقرَ مُزبِدِ[٥]
وعرفتُ أنى إن أقاتِلْ واحداً ... أُقتَلْ ، ولا يَنكى عدوى مَشهدى[٦]
فصددتُ عنهم والأحبَّةُ فيهم ... طمعاً لهم بِعقابِ يَومٍ مُفسِدِ[٧]

اتخذ فى الرد طريقة التوجيه فاعترف بالفرار ولكنه برره بإصابة فرسه ، وانفراده ، وأن قتله لا ينفع عدوه شيئاً ، وأنه ينتظر يوم الانتقام ، هذا مع اختلاف

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٨ وما وليها .
(٢) تبلت : أسقمت ، الخريدة : الجارية الحسنة الناعمة .
(٣) العاتق الخمر القديمة ، والمدام من أسماء الخمر . (٤) الطمرة الفرس الكثيرة الجرى .
(٥) الأشقر الدم ، والمزبد الذى علاه الزبد . (٦) ينكى يؤلم ويوجع .
(٧) الأحبة من قتل أو أسر من رهطه ــ راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٧ ــ ١٩ .

الروى كما ترى . وكان حسان فى فنه قوياً يستوحى طبعه القوى ، وموقفه المنتصر ، وإيمانه الصحيح .

— ٢ —

ولما أصيب أصحاب بدر من المشركين فزع كعب بن الأشرف اليهودى لقتل أشراف العرب وملوك الناس ، ولخوفه على مكانة قومه بيثرب ، فأتى مكة ونزل على عبد المطلب بن أبى وداعة السّهمى ، وجعل يُحرِّض على الرسول وينشد الأشعار ويبكى أصحاب (القَلِيب) من قريش الذين أصيبوا ببدر ، فقال من قصيدة : —

طحنتْ رَحى بدرٍ لمهلَكِ أهله ... ولمثل بدر تستهِلُّ وتدمَعُ (١)
قُتِلت سَراةُ الناسِ حولَ حِياضِهم ... لاتبْعَدُوا إن الملوكَ تُصرَّعُ (٢)
كم قد أصيبَ بهِ منَ ابيضَ ماجِدٍ ... ذى بَهجَةٍ يأوى إليه الضُّيَّعُ
طلقِ اليدينِ إذا الكواكبُ أخلفتْ ... حمّالِ أثقالٍ يسودُ ويربَعُ
نُبِّئتُ أن الحارثَ بنَ هِشامهم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزورَ (يثربَ) بالجموع وإنما ... يحمى على الحسبِ الكريمُ الأروعُ

قال ابن إسحاق : فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى فقال : —

أبكَى لِكعبٍ ثمّ عُلَّ بعَبرةٍ ... منه ، وعاش مُجَدَّعاً لايَسمَعُ (٣)
ولقد رأيتُ ببطنِ بدرٍ منهمُ ... قتلى تَسُحُّ لها العيونُ وتدمعُ
فابكى فقد أبكيت عبداً واضعاً ... شِبهَ الكُلَيبِ إلى الكُلَيبةِ يتبعُ
ولقد شفَى الرحمن منا سيِّداً ... وأهانَ قوماً قاتلوه وصُرِّعوا

---

(١) تستهل : تسيل بالدموع .

(٢) سراة الناس : سادتهم .

(٣) مجدع : مقطوع الأنف .

ونجا وأفلتَ منهمُ مَن قلبُـه شَغِفٌ يظل لخوفهِ يتصـدَّعُ[١]

تتضمن أبيات كعب بُكاء على القتلى ، وتحريضاً للأحياء أن ينقذوا المدينة من المهاجرين والأنصار ، فكان النقض سخرية به ، وشمـاتة بالقتلى ، وهجاء للفارين ، وتحفيا بالرسول . وهناك مناقضة أخرى بين كعب هذا و بين امرأة بَدَوِيّة تدعى ميمومة بنت عبد الله ينكر صحتها أهل العلم بالشعر[٢] .

— ٣ —

وكانت غزوة (أحد)[٣] انتصاراً لقريش ، واشتفاء لنسائهم ولا سيما هنـد بنت عتبة ، وفيها مثلت قريش بحمزة عم النبي ، وقال أبو سفيان يذكر صبره في ذلك اليوم ومعانة ابن شعوب إياه على حنظلة بن أبي عامر حتى قتله ابن شعوب، من أبيات : —

ولو شِئتُ نجتنى كُمَيتٌ طِمِرّةٌ ولم أحمـل النَّعماءَ لابن شَعوبِ[٤]
وما زالَ مُهرى مزجرَ الكلبِ منهمُ لدنْ غُدوةٍ حـتى دنت لغُروبِ[٥]
وسلَّى الذى قد كان فى النفس أننى قتلتُ من النجار كلَّ نجيبِ[٦]
ومن هاشمٍ قرماً كريماً ومُصعباً وكان لدى الهيجاء غـيرَ هَيوبِ[٧]
ولو أنّنى لم أشفِ نفسىَ منهـمُ لكانت شجاً فى القلبِ ذاتَ نُدوبِ[٨]
فآبوا وقد أودى الجلابيبُ منهمُ بهم خَدَبٌ من مُعطَبٍ وكئيبِ[٩]

---

(١) شغف : محترق ملتهب . (٢) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٥٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٤ وما يليها . (٤) طمرة : فرسة سريعة الوثوب .
(٥) مزجر الكلب : قريب . دنت لغروب أى الشمس . (٦) النجار رهط حسان من الخزرج . (٧) القرم الفحل الكريم من الابل . يريد حمزة . والهيجاء الحرب .
(٨) الشجا الحزن ، الندوب آثار الجروح .
(٩) الجلابيب الملحون . أودى هلك . الخدب الطعن النافذ . المعطب الذى يسيل دمه .

أصابهمُ مَنْ لم يكن لدمائهم ... كِفاءً ولا فى خُطَّةٍ بضَريب[١]

فأجابه حسان بن ثابت ، فيما ذكر ابن هشام ، فقال : —

ذكرتَ القُرومَ الصِيدَ من آل هاشم ... ولستَ لِزُورٍ قلتَهُ بمُصِيبِ[٢]

أتعجَبُ أن أقصدْتَ حمزة منهمُ ... نجيباً ، وقد سَمّيتَه بنجيبِ[٣]

ألم يقتلوا عمراً وعُتبةَ وابنَهُ ... وشيبةَ والحجاجَ وابنَ حبيب

غداةَ دعا العاصى عليا فراعَهُ ... بضربة عَضْبٍ بَلّهُ بخَضيب[٤]

ادعى أبو سفيان أنه كان يستطيع الفرار وعدم احتمال منة ابن شعوب ولكنه ثبت ، وكان قريباً من العدو طول اليوم ، وقد انتقم من بنى هاشم ، ومن الخزرج ، وعيّر المسلمين بهزيمتهم وغلبة الناس لهم . فرد عليه حسان بأن حمزة لم يمت هدراً وإنما قُتل به فى بدر عِلْيةُ قريش . وقال ابن شَعوب يذكر يده عند أبى سُفيان فيما دفع عنه فقال : —

ولولا دفاعى يا بنَ حَربٍ ومَشْهَدى ... لأُلفيتَ يوم النعفِ غيرَ مُجيبِ[٥]

ولولا مَكَرِّى المهرَ بالنعف قَرقَرتْ ... ضِباعٌ عليه أوْ ضِراءُ كليبِ[٦]

وقال الحارث بن هشام يجيب أبا سُفيان لأنه ظن أنه عرّض به فى قوله : « وما زال مُهرى مَزجرَ الكلب منهمُ » . لفرار الحارث يوم بدر :

جزيتهم يوماً ببدر كمثله ... على سابح ذى مَيعةٍ وشبيب[٧]

---

(١) الضريب الشبيه ، والخطة الخصلة الرفيعة — راجع السيرة ج ٣ ص ٨٠ .

(٢) الصيد : جمع أصيد وهو الملك ومن رفع رأسه كبراً .

(٣) أقصدت : أصبت . (٤) العضب : السيف القاطع . خضيب : دم .

(٥) النعف : أسفل الجبل .

(٦) قرقرت : أسرعت لأكله . ضراء : ضارية . كليب : كلاب .

(٧) ميعة : خفة . شبيب : شباب .

لدى صحن بدر أو أقمت نوائحًا ... عليك ، ولم تحفل مُصابَ حبيبِ
وإنكَ لو عاينتَ ما كان منهمُ ... لأُبْتَ بقلبٍ ما بقيتَ نخيبِ[١]

وقد ذكرنا قبلا ما كان بين هند بنت عتبة وهند بنت أثاثة من مناقضة رجزية في هذا اليوم .

وكثرت المناقضة بالشعر فى أعقاب (أُحُد)[٢] بدافع الفخر والاشتفاء من جانب قريش ، ثم المناهضة ، وذكر بدر ، والهجاء من جانب المدينة ، وإنما نُشير إلى رءوس النقائض هنا ونترك للقارىء الاستيعاب من المراجع ، من ذلك قصيدة هبيرة بن أبى وهب المخزومى من المشركين يقول فيها :

ما بالُ هَمٍ عميد باتَ يطرقنى ... بالوُدِّ مِن هندَ إذ تعدو عواديها[٣]
باتت تعاتبنى هند وتعذلنى ... والحربُ قد شُغِلت عنى مَواليها
سقنا كِنانةَ مِن أطراف ذى يمَنٍ ... عُرضَ البلاد على ما كان يُزجيها[٤]
قالت كِنانةُ : أنَّى تذهبون بنا ؟ ... قلنا : النُخيل ، فأمُّوها ومَن فيها[٥]
نحن الفوارس يوم الجرِّ مِن أُحُدٍ ... هابت مَعَدٌ فقُلنا : نحن نأتيها[٦]
هابُوا ضِراباً وطعناً صادقاً خَذِمًا ... مما يرون ، وقد ضُمَّت قواصيها[٧]
ثُمتَ رُحنا كأنَّا عارضٌ بَرِدٌ ... وقام هامُ بنى النجار يبكيها[٨]

فأجابه حسان بن ثابت فقال : —

سُقتُمْ كِنانةَ جهلا مِن سَفاهتِكم ... إلى الرسول فجُندُ الله مُخزيها

---

(١) نخيب : فزع . (٢) راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٦٤ .
(٣) عميد : موجع . عواد : شواغل . (٤) عرض البلاد سعتها .
(٥) النخيل : عين قرب المدينة . (٦) الجر : أصل الجبل .
(٧) خذم يقطع اللحم سريعاً . (٨) العارض : السحاب ، والبرد : الذى فيه برد ، والهام : جمع هامة وهى الطائر الذى تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل .

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً ... فالنارُ موعدُها والقتلُ لاقيها[1]
جمعتموها أحابيشاً بلا حسبٍ ... أئمةَ الكفرِ، غرّتكم طواغيها[2]
ألا اعتبرتم بخيلِ الله إذ قتلتْ ... أهلَ القليبِ ومَن ألقيتَه فيها[3]
كم من أسيرٍ فككناه بلا ثمنٍ ... وجزّ ناصيةٍ كنّا مواليها[4]

كان هبيرة رائعَ الفخر، قويَّ الأسلوب، معتزاً بنتيجة (أحد)، ثم ذكر كنانة وما شاركتهم في هذا اليوم، فردَّ عليه حسان بأن سفَّه خطتهم في سَوْقِ كنانة إلى مصارعها، وسوء آخرتها، وذلك إلى ضعة أصلها، ثم ذكر مصارع قريش ببدر، وأسراهم، وما وُسموا به من الذل والصغار.

وقال عبد الله بن الزبعرى في يوم أُحد من قصيدة : —

يا غرابَ البينِ أسمعتَ فقلْ ... إنما تنطقُ شيئاً قد فُعلْ
إن للخيرِ وللشرِّ مدًى ... وكلا ذلك وجهٌ وقَبَلْ[5]
أبلغا حسانَ عني آيةً ... فقريضُ الشعرِ يشفي ذا الغُلَلْ[6]
كم ترى بالجرِّ من جمجمةٍ ... وأكفٍّ قد أُترّتْ ورجِلْ[7]
كم قتلنا من كريمٍ سيدٍ ... ماجدِ الجدّينِ مقدامٍ بطلْ
فسلِ المهراسَ مَن ساكنُه ... بين أقحافٍ وهامٍ كالحجلْ[8]
ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جزعَ الخزرجِ من وقعِ الأسلْ[9]

---

(١) ضاحية : بارزة للشمس . (٢) طواغيها : متكبروها .
(٣) القليب : البئر التي ألقى فيها قتلى بدر من المشركين .
(٤) مواليها : أهل النعمة عليها . (٥) القبل : المقابلة . (٦) الغلل : جمع غلة حرارة العطش في الأحشاء .
(٧) الجر : أصل الجبل ، أترت : قطعت ، والرجل : الأرجل .
(٨) الأقحاف جمع قحف والهام الرءوس . (٩) الأسل : الرماح .

فأجابه حسان بن ثابت فقال من قصيدة : —

ذهبتْ يابن الزِّبعرى وقعـــةٌ   كان مِنَّا الفضلُ فيها لو عُـدِلْ
ولقـــد نِلتم ونِلنا منكمُ   وكذاك الحربُ أحيانًا دُوَل
نضع الأسياف فى أكتافكم   حيث نهوى عَلَلا بعدَ نَهَــل
إذ تُوَلُّون على أعقـــابكم   هرَبًا فى الشِّعبِ أشباهَ الرَّسَل (١)
إذ شـدَدنا شَـــدَّةً صادقةً   فأجأناكم إلى سَفحِ الجبل (٢)
وعَـــلونا يوم بدر بالتُّقى   طاعةِ الله وتصديقِ الرُّسُــل
وتركنا فى قريش عَوْرةً   يومَ بدرٍ وأحاديثَ المَثَــل

كانت المناقضة بين بدر وأحد ؛ يقف ابن الزبعرى فى أحد مفتخراً مشتفياً متحدياً يذكر آثار قريش فى المسلمين ، ويجعل المِهراسَ إزاء القَليب ، ويتمنى لو شهد البدريون من صرعى قريش ما حل بالخزرج فى أحد . فسلك حسان فى مناقضته مسلك الموازنة أول الأمر فذكر بدراً إزاء أحد ، وجعل الحرب سجالا ، ثم وصف آثار المسلمين فى قريش يوم بدر ثانياً ، وزاد فذكر اعتزاز المسلمين بالدين وطاعة الله ورسوله .

وقال عمرو بن العاص فى يوم أحد قبل أن يسلم : —

خرجنـــا مِن الفَيفا عليهم كأننا   مع الصبحِ من رَضوى الحَبيكُ المنطَّقُ (٣)
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا   لدى جَنْبِ سَلْعٍ ، والأمانىّ تَصدُقُ (٤)
فما راعهم بالشَّر إلا فُجاءةً   كراديسُ خيل فى الأزقة تَمرُقُ (٥)

---

(١) الرسل : الإبل المرسلة متتابعة .   (٢) فأجأناكم : ألجأناكم .
(٣) الفيفا القفر ، رضوى جبل ، الحبيك الذى فيه طرائق ، المنطق : المحزم .
(٤) سلع : اسم جبل .   (٥) كراديس : جماعات تمرق : تخرج .

أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ... ودون القباب اليوم ضربٌ محرّقُ
وكانت قبابًا أومنت قبل ما ترى ... إذا رامها قوم أبيحوا وأحنقوا
كأن رءوس الخزرجيين غدوة ... وأيمانهم بالمشرفية بَرْوَقُ[1]

فأجابه كعب بن مالك ، فيما ذكر ابن هشام ، فقال : —

ألا أبلغا فهرًا على نأى دارها ... وعندهم من علمنا اليوم مَصدَقُ[2]
بأن غداة السفح من بطن يثرب ... صبرنا ، ورايات المنيّة تخفق
صبرنا لهم والصبر منا سجيّة ... إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق[3]
على عادة تلكم جرينا بصبرنا ... وقدمًا لدى الغايات نجرى فنسبق
لنا حومة لا تستطاع ، يقودها ... نبيٌّ أتى بالحق عفٌّ مُصدَّقُ
ألا هل أتى أفناء فهر بن مالك ... مُقطّعُ أطرافٍ وهامٌ مُفلَّقُ[4]

كان عمرو بن العاص أقوى فخرًا لأنه يعتمد على انتصار قومه وظفرهم فى هذا اليوم فصوّر خروجهم الرائع ، وسفاهة بنى النجار فى تمنى لقائهم ، وجيوش قريش المتراصّة المتتابعة ، وعجز المسلمين دون النصر . وكان نقض كعب بن مالك يصور الصبر فى أُحُدٍ ، ويذكر عادة الأنصار فى السبق ، ويعتز بالرسول وشمائله الفاضلة . فسلك مسلكيَ : التوجيه والموازنة .

---

(١) البروق نبات له أصول تشبه البصل .

(٢) فهر : أصل قريش .

(٣) الأبرام : اللئام . نرتق : نصلح ونسد .

(٤) أفناء القبائل ما اختلط منها ، والهام الرءوس — راجع السيرة ج ٣ ص ١٥١ .

— ٤ —

ولما أراد بنو النضير من اليهود الغدر بالرسول سنة أربع هجرية أجلاهم إلى خيبر[١] ومنهم من سار إلى الشام فكان من أشرافهم الذين ساروا معهم إلى خيبر سلاّم بن أبي الحُقَيق ، وكنانة بن الرّبيع بن أبي الحُقَيق ، وحُيَيّ بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها ، وقد صور الشعر هذا الحادث وما لابسه تصويراً حسناً نشير منه إلى ما يتصل بموضوعنا ، قال رجل من المسلمين ــ قيل هو على بن أبي طالب ــ فى هذا الإجلاء من قصيدة :

عرفتُ ومَن يعتدِلْ يَعرِفِ ... وأيقنتُ حقاً ولم أصدِفِ
عن الكَلِم المحكَمِ اللاءِ مِن ... لدى الله ذى الرأفة الأرأفِ
رسائلُ تُدْرَسُ فى المؤمنين ... بهنّ اصطفى أحمدَ المصطفى
فأيها الموعدون سَفاهاً ... ولم يأت جَوْراً ولم يَعْنُفِ
ألستُم تخافونَ أدنى العذابِ ... وما آمِنُ الله كالأخوَفِ
وأن تُصرَعوا تحتَ أسيافِه ... كمصرع كعبِ أبي الأشرَفِ
وأجلى النضيرَ إلى غُرْبَةٍ ... وكانوا بدارِ ذوى زُخرُفِ
إلى أذرِعاتٍ رُدافَى وهمْ ... على كل ذى دَبَرٍ أعجَفِ[٢]

فأجابه سَمّاك اليهودى فقال :

إن تفخروا فهو فخرٌ لكم ... بمقتل كعبِ أبي الأشرَفِ
غداةَ غدوتم على حتفِهِ ... ولم يأت غدراً ولم يُخلِفِ

---

(١) راجع السيرة ج ٣ ص ١٩٩ .
(٢) أذرعات : موضع بالشام ، دبر : جرح . أعجف : جمل هزيل .

فعالَ الليالى وصرفَ الدهور ... يُديلُ من العادلِ المُنصِفِ[١]
بقتلِ النضيرِ وأحلافِها ... وعقرِ النخيلِ ولم تُقطَفِ
فإن لا أمُتْ نأتِكم بالقنا ... وكلِّ حسامٍ معاً مُرهَفِ
بكفِّ كميٍّ به يحتمى ... متى يلقَ قِرناً له يُتلِفِ
مع القوم صخرٍ وأشياعه ... إذا غاور القومَ لم يَضعُفِ[٢]
كليثٍ بترجٍ حمَى غِيلَهُ ... أخي غابةٍ هاصرٍ أجوَفِ[٣]

تضمنت الكلمة الأولى اعتزازاً بالإسلام والرسول ، ووعيداً لليهود وتهديداً وإشارة إلى مصرع كعب بن الأشرف كما سبق ، وإلى إجلاء بنى النضير إلى خيبر والشام . وكان النقض متضمناً غدر المسلمين بكعب ، وانتظار هزيمة المسلمين بما نكلوا ببني النضير ، وتهديدهم بالثأر ومعهم قريش مكة . فالمعانى متقابلة متوازنة، تتركز من الجانبين حول الغدر والعدوان والتربص ، وفيها روح الدين .

وهناك مناقضة أخرى حول هذا اليوم بين كعب بن مالك الأنصارى وسماك اليهودى تصور بوضوح موقف الفريقين الدينى والسياسى ، وتشرب روح الإسلام واليهودية ، وما كان بينهما من جدل صوره القرآن الكريم[٤] .

والشيء الطريف أن تقوم معركة شعرية من نوع المناقضة بين شعراء العرب حول بنى النضير من اليهود ، وهى معركة تدل على مكانة كانت لليهود بين القبائل العربية من عدنان واليمن ، وعلى المستوى المدنى والاقتصادى الذى ظفر به بنو النضير إذ ذاك من ثراء ، ونعومة عيش ، وجمال خلق . هذا من وجه ، ومن

---

(١) يريد الرسول عليه السلام .
(٢) صخر هو أبو سفيان بن حرب .
(٣) ترج : جبل بالحجاز ، والغيل أجمة الأسد ؛ هاصر : يكسر فريسته . أجوف : عظيم الجوف .
(٤) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٩ و ٢١٠ .

ناحية أخرى تدل على تشبث المسلمين بدينهم ، واعتزازهم برسولهم ، ومن الطريف أيضاً أن يقف شاعر من بنى سليم بن قيس عيلان مع اليهود ، وأن يكون الأنصار على اليهود . وهذه المناقضة رواها ابن هشام فى السيرة[١] . قال عباس بن مرداس السلمى يمتدح رجال بنى النضير :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الدارِ لم يتصدعوا ... رأيتَ خِلالَ الدارِ مَلْهًى وملعبا
فإنكَ عَمْرى هل أريكَ ظعائناً ... سَلَكْنَ على رُكْنِ الشطاةِ فتَيأبَا[٢]
عَليهِنَّ عِينٌ مِن ظِباءِ تَبالةٍ ... أوانسُ يُصْبِينَ الحليمَ المجرَّبا[٣]
إذا جاء باغى الخيرِ قُلْنَ فُجاءةً ... له بوجوه كالدنانير : مَرْحَبا
وأهلاً ، فلا ممنوعَ خيرٍ طلبتَه ... ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنَّبا
فلا تحسبنِّى كنتُ مولى ابنِ مِشْكَمٍ ... سَلامٍ ولا مولى حُيَىِّ بن أخطبا[٤]

يقوم المدح على جمال القوم ، وثرائهم ، وترفهم ، وكرمهم ، وينطوى على أسف شديد ، وحسرة لاذعة ، إذ ذهب بهاء الحياة بذهاب بنى النضير . فأجابه خوّات بن جُبَير ، أخو بنى عمرو بن عوف ، فقال :

تُبَكِّى على قتلى يهودَ وقد ترى ... من الشجوِ لو تبكى أحبَّ وأقربا
فهلاَّ على قتلى ببطنِ أُرَيْنِقٍ ... بكيتَ ولم تُعْوِلْ من الشجوِ مُسْهِبا[٥]
إذا السِّلْمُ دارت فى صديقٍ رددتَها ... وفى الدين صَدَّاداً وفى الحربِ ثَعلبا
عمدتَ إلى قدرٍ لقومِكَ تبتغى ... لهم شَبَهاً كيما تعِزَّ وتغلِبا
فإنك لما أن كلِفتَ تمدُّحاً ... لِمَن كان عيباً مدحُه وتكذُّبا

---

(١) جـ ٣ ص ٢١١ وما وبعدها طبعة الحلبى .
(٢) الشطاة وتيأب موضعان .
(٣) تبالة مكان ، يصبين : يذهبن العقل .
(٤) رجلان من أعيان اليهود .
(٥) أرينق موضع ، المسهب المتغير الوجه .

رحلتَ بأمرٍ كنتَ أهلا لمثلهِ ولم تُلفِ فيهم قائلا لك : مَرحبا
فهلاّ إلى قوم مُلوكٍ مَدحتَهم تبنَّوا مِن العزِّ المؤثَّل مَنصِبا(١)
إلى معشرٍ صاروا ملوكاً وكُرّموا ولم يُلفَ فيهم طائبُ العُرف مُجدبا
أولئك أحرى مِن يهودَ بمدحةٍ تراهم وفيهم عِزةُ المجدِ تُرتَّبا(٢)

ويقوم النقض على إنكار بكاء اليهود دون الأقارب ، وعلى سوء خلق ابن مرداس ، وعلى تعييره بمدح بني النضير ، وتكذيبه فيما ادعى لهم من كرم ، ودعوته إلى مدح من هم أهل للثناء من الأمجاد المفضَّلين .

فأجابه عباس بن مرداس السلمي - ولما يكن قد أسلم — فقال :

هجوتَ صريحَ الكاهنَين وفيكمُ لهم نِعَمٌ كانتْ مِن الدهرِ تُرتَبا(٣)
أولئك أحرى لو بكيتَ عليهمُ وقومُك ، لو أدّوا من الحق واجبا
من الشكر ، إن الشكر خيرٌ مَغَبّةً وأوفقُ فِعلا للذى كان أصوبا
فكنتَ كمن أمسى يُقطِّعُ رأسه لِيَبلغَ عِزاً كان فيه مُرَكَّبا
فَبَكِّ بنى هارون واذكر فَعالهم وقتلَهم للجوع إذ كنتَ مُجدِبا(٤)
أخوّاتَ أذرِ الدمعَ بالدمعِ وابكِهمْ وأعرِض عن المكروه منهم ونكِّبا
فإنك لو لاقيتَهم في ديارهم لألفيتَ عما قد تقول مُنكِّبا
سِراعٌ إلى العليا ، كِرامٌ لدى الوغى يُقال لِباغى الخيرِ : أهلا ومرحبا

كانت الإجابة إنكار عباس أن يهجو خوات اليهود ، ويجحد أياديهم ، وإثبات استحقاقهم البكاء عليهم من الأنصار فذلك هو الحق ، ويتحداه بأنه

---

(١) المؤثل القديم ، تبنوا اتخذوه كالابن .
(٢) ترتب : ثابت .
(٣) الكاهنان قبيلان من يهود المدينة .
(٤) يزعم الكاهنان أنهما من نسل هارون عليه السلام .

لو زارهم فى ديارهم لغير رأيه ، وأنهم أنجاد كرام . ففيها تكذيب ، وهجاء ، وفخر ورد عام للمعانى .

ولـكن كعب بن مالك الخزرجى — أبو عبد الله بن رواحـة — يرد على عباس بن مرداس فيقول :

لعمرى لقد حكت رحى الحرب بعدما … أطارت لؤيًّا قبلُ شرقاً ومغربا(١)
بقيـة آل الـكاهنين وعـزها … فعاد ذليـــــلا بعد ما كان أغلبا
فطاح سلامٌ وابنُ سعية بعده … وقيد ذليـــــلا للمنايا ابنُ أخطبا
وأجلب يبغى العزّ والذلّ يبتغى … خلاف يديه ما جنى حين أجلبا
كتارك سهل الأرض ، والحزنُ همُّه … وقد كان ذا فى الناس أكدى وأصعبا(٢)
وشأسٌ وعزّال ، وقد صليا بها … وما غُيِّبا عن ذاك فيمن تغيّبـــــا
وعوفُ بن سلمى وابنُ عوف كلاهما … وكعبٌ رئيس القوم حان وخيّبا
فبعداً وسحقاً للنضــــــير ومثلها … إن أعقب فتح أو إن اللهُ أعقبا(٣)

فالحرب ذهبت بقريش ، وأذلت النضير ، وأهلكت رجالهم ، وهم قوم مشئومون مغلوبون .

والواقع أن الجدل بين الإسلام واليهودية كان قويًّا عريضاً مثّله القرآن الكريم ، والشعر العربى ، ودل هو من وجه على ما لقيت الدعوة الإسلامية من عنت اليهود ، واعتزازهم بأحسابهم ، وثقافتهم ، وحضارتهم ، ومنزلتهم الاجتماعية حتى غلبها الإسلام وأدال منها لنفسه آخر الأمر .

---

(١) لؤى من فروع قريش . (٢) أكدى : لم ينجح فى مسعاته .
(٣) أعقب : جاء بالنصر عليهم .

— ٥ —

فإذا وصلنا إلى (بدر الآخرة)[١] وقد رجع أبو سفيان فلم يتقدم للقاء المسلمين.

قال حسان بن ثابت فى ذلك من أبيات :

دَعُوا فلَجاتِ الشامِ قد حالَ دُونَها ... جِلادٌ كأفواهِ المخاضِ الأوارِكِ[٢]
بأيدى رجالٍ هاجروا نحو ربِّهم ... وأنصارِه حقّاً وأيدى الملائكِ
إذا سَلكتْ للغَورِ من بطنِ عالجٍ ... فقولا لها : ليس الطريقُ هنالكِ[٣]
أقمنا على الرسِّ النزوعِ ثمانياً ... بأرعنَ جرّارٍ عريضِ المبارِكِ[٤]
بكلِّ كُميتٍ جَوزُهُ نصفُ خَلْقِهِ ... وقبٍّ طوالٍ مُشرفاتِ الحوارِكِ[٥]
فأبلغ أبا سُفيانَ عنى رِسالةً ... فإنك من غرِّ الرجالِ الصعالكِ[٦]

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال من أبيات :

أحسانُ يابنَ آكلةِ الفَغا ... وجدِّكَ نغتالُ الخروقَ كذلكِ[٧]
أقمتَ على الرسِّ النزوعِ تريدنا ... وتتركنا فى النخلِ عند المداركِ[٨]
على الزرعِ تمشى خيلُنا وركابُنا ... فما وطئتْ ألصقْنَه بالدكادكِ[٩]
أقمنا ثلاثاً بين سلعٍ وفارعٍ ... بجردِ الجيادِ والمطىِّ الرواتكِ[١٠]
حسبتُم جِلادَ القومِ عند قبابِهم ... كمأخذِكم بالعينِ أرطالَ آنكِ[١١]

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٢) الفلجات المياه الجارية ، المخاض الإبل الحوامل ، الأوارك التى ترعى الأراك .

(٣) الغور المنخفض من الأرض . عالج مكان فيه رمل كثير .

(٤) الرس البئر : النزوع القريبة الماء ، الأرعن الجيش الكثير .

(٥) جوزه وسطه ، قب ضوامر الخيل ، الحوارك أعالى الكتفين .

(٦) الصعاليك الفقراء . (٧) الفغا التمر .

(٨) المدارك الأماكن القريبة . (٩) الدكادك الرمال اللينة .

(١٠) سلع وفارع جبلان . الرواتك المسرعة . (١١) الآنك القصدير .

فلا تبعث الخيلَ الجيادَ وقل لها ... على نحو قول المعصم المتماسك[1]

سعدتم بها وغيركم كان أهلها ... فوارسُ من أبناء فِهر بن مالك[2]

فإنك لا فى هجرةٍ إن ذكرتها ... ولا حُرُماتِ الدين أنتَ بناسك[3]

تحدى حسان أبا سفيان بن حرب وقريشاً بقدومهم لموعد بدر ، وأثبت عجزهم وأثبت إقامة الرسول مع المسلمين ثمانية ليال قريشاً تفد فلم تفعل ، ووصف جيش المسلمين وصفاً حماسياً ، وعرج على زعيم قريش فرماه بالصعلكة ، وكان أسلوب حسان رائعاً ، قوياً حقاً ، وبخاصة بيته الثالث ، فلما تصدى أبو سفيان بن الحارث لنقض أبياته ، تناول حسان وقومه فنفى عنهم المجد وأثبته لقريش ولعله يريد المهاجرين وذلك نظير هجائه أبا سفيان وقريشاً ، ثم وضع حماسة بإزاء حماسته حين وصف جيش قريش ، وإقامته بين سلع وفارع ، وسخر من الأنصار ورماهم بأنهم قيون أهل نخيل وتمر ، فكان النقض قوياً أيضاً .

وكانت غزوة (الخندق) متصلة بغزوة بنى قُريظة ، وذلك أن نفراً من اليهود منهم سلاَّم بن أبى الُحقيق النضرى ، وحُيَيّ بن أخطب النضرى ، وكنانة بن أبى الُحقيق النضرى ، وهَوْذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل — وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم — خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا : إنا سنكون معكم عليه ، وأن دينكم خير من دينه ، فنشطت قريش لحرب محمد وأخذ هؤلاء النفر من يهود يدعون غطفان إلى حرب الرسول ، حتى أتوا المدينة بعد حفر الخندق ، ثم أتى حُيي بن أخطب النضرى كعب بن أسد القُرظى

---

(١) المعصم المتمسك بالشيء .

(٢) فهر بن مالك : قريش .

(٣) الناسك المتبع معالم دينه .

فحمله على نقض عهد قريظة مع الرسول . فلما فرغ المسلمون من أمر الخندق غزو بنى قريظة فى خبر طويل[١] ، وقد قال ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهرى من المشركين فى يوم الخندق من قصيدة : —

وَمُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بِنَا الظُّنُونَا ... وقد قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُونَا[٢]
كأنَّ زُهاءها أُحُدٌ إذا ما ... بَدَتْ أركانُهُ للناظرينا[٣]
ترى الأبدانَ فيها مُسبغاتٍ ... على الأبطالِ واليَلَبَ الحصينا[٤]
وجُرداً كالقِداحِ مُسوَّماتٍ ... نؤم بها الغُواةَ الخاطئينا
كأنهمُ إذا صالوا وصُلنا ... بباب الخندقين مُصافحونا
فأحجرناهمُ شهراً كريتاً ... وكنا فوقهم كالقاهرينا[٥]
نراوحهم ونغدو كلَّ يوم ... عليهم فى السلاح مُدجَّجينا
فلولا خندقٌ كانوا لديه ... لدمَّرنا عليهم أجمعينا
فإن نرحلْ فإنا قد تركنا ... لدى أبياتكمْ سعداً رَهينا[٦]
وسوف نزوركم عما قريبٍ ... كما زُرْناكُمُ متوازرينا

فأجابه كعب بن مالك من قصيدة :

وسائلةٍ تُسائلُ ما لقينا ... ولو شهدتْ رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عِدْلاً ... على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبىُّ وزيرَ صدقٍ ... به نعلو البريّة أجمعينا
نقاتلُ معشراً ظلموا وعقُّوا ... وكانوا بالعداوة مُرصِدينا

---

(١) راجع السيرة ج ٣ ص ٢٢٤ — ٢٢٦ . (٢) عرندسة : شديدة .
(٣) زهاؤها تقدير عددها . (٤) الأبدان الدروع ، مسبغات كاملة . اليلب الترسة .
(٥) أحجرنا : حصرنا . كريت : كامل (٦) سعد بن معاذ جرح فمات .

ترانا فى فضافِضَ سابغاتٍ ... كغُدران المَلا مُتسربلينا[1]
بباب الخندقين كأن أُسْداً ... شوابِكُهُنَّ يَحمين العَرينا
لننصرَ أحمداً والله حتى ... نكون عبادَ صدق مُخلصينا
ويَعلمَ أهلُ مكة حين ساروا ... وأحزابٌ أتوا متحزِّبينا
بأن الله ليس له شريكٌ ... وأن الله مولى المؤمنينا
فإما تقتلوا سعداً سَفاها ... فإن الله خير القادرينا
سيُدخله جِناناً طيِّبات ... تكون مُقامة للصالحينا
كما قد ردَّكم فَلاًّ شريداً ... بغيظكم خزايا خائبينا[2]

ولسنا نقف عند هاتين النقيضتين لوضوح أمرهما إلا أنا نلاحظ أن الثانية كأنها نظم آى القرآن فى سورة الأحزاب وبخاصة آخرها .

وفى يوم (الخَنْدق) نجد نقائض ثلاثاً جزلة لعبد الله بن الزِّبَعْرَى من ناحية وحسان بن ثابت وكعب بن مالك من ناحية[3] ولا يتسع المقام لإيرادها جميعاً ، فلنشر إليها ونكتفى ، قال ابن الزبعرى فى نقيضته :

حَىِّ الديارَ محا معارفَ رَسمِها ... طولُ البِلَى وتَراوُح الأحقابِ[4]
فكأنما كتبَ اليهودُ رُسُومَها ... إلاّ الكنيفَ ومَعقِد الأطنابِ[5]
فاتركْ تذكّرَ ما مضَى مِن عيشةٍ ... ومَحلةٍ خلق المقام يبابِ[6]
واشكر بلاء معاشرٍ واشكرهمُ ... ساروا بأجمعهم من الأنصابِ[7]

---

(١) فضافض : دروع واسعة. الملا المتسع من الأرض .
(٢) الفل القوم المهزمون . راجع السيرة جـ٣ ص ٢٠٦ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٦٨ . (٤) الأحقاب الدهور .
(٥) الكنيف : الحظيرة ، والأطناب : الحبال التى يشد بها الخباء .
(٦) يباب : قفر . (٧) الأنصاب حجارة يعظم بها الحرم .

حتى إذا وردوا المدينة وارتدَوا ... للموت كل مُجرَّب قضَّابِ (١)
شهراً وعشراً قاهرين محمداً ... وصحابُه في الحرب خير صحاب

فأجابه حسان من قصيدة :

هل رسمُ دارسة المقام يَبابِ ... متكلِّمٌ لمحاورٍ بجوابِ
فدع الديارَ وذِكرَ كُلِّ خريدة ... بيضاءَ آنسةِ الحديث كعابِ (٢)
واشكُ الهمومَ إلى الإله وما ترى ... مِن معشرٍ ظلموا الرسولَ غِضابِ
حتى إذا وردوا المدينة وارتجَوا ... قتْلَ الرسولِ ومَغنَم الأسلابِ
وغدَوا علينا قادرين بأيدهم ... رُدُّوا بغيظهمُ على الأعقابِ
فكفى الإلهُ المؤمنين قتالهم ... وأثابهم في الأجر خيرَ ثواب

كأن حسان بن ثابت ينظم آيات الأحزاب في عجز قصيدته ، وهو جاهلي في مطلعها وقد أجابه كعب بن مالك أيضاً فقال من قصيدة حماسية عامة بعد ما شفى نفسه فخراً :

ومواعظ مِن ربنا نُهدَى بِها ... بلسانِ أزهرَ طيِّب الأثوابِ (٣)
عُرِضت علينا فاشتهينا ذِكرها ... مِن بعد ما عُرِضت على الأحزابِ
حِكماً يراها المجرمون بزعمهم ... حَرَجاً ويفهمها ذوو الألبابِ
جاءت سخينةُ كي تُغالِبَ ربَّها ... فَلَيُغلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ (٤)

---

(١) مجرب : سيف جرب . قضاب : قاطع .
(٢) الخريده المرأة الناعمة . الكعاب التي نهد ثديها أول ما ينهد .
(٣) أزهر : أبيض .
(٤) سخينة لقب قريش في الجاهلية لما كانت تطعم السخينة (لحم يطبخ ببر) . يريد أنها ستغلب على أمرها أمام قدرة الله تعالى .

وهذه الأبيات هى التى كانت متصلة بالموضوع ، وأكثر القصيدة فخر عام وتصوير لقوة قومه ، وجيوشهم ، وعتادهم ، وغنائهم فى الحروب .

وهذه النقائض تصور روحين : جاهلى وإسلامى من حيث المعانى والغايات ولكنها ذات أسلوب جزل قوى يصور معركة حامية قامت على قوة عقيدة المسلمين، وفشل الأحزاب فيما حاولوا .

وقد قال حسان بن ثابت فى بنى قُريظة :

تفـــاقد مَعشر نصروا قُريشاً   وليسَ لهم ببلدتِهم نَصـــير (١)
هم أُوتوا الكتابَ فضيعوه   وهم عُمىٌ من التـــوراة بُورُ (٢)
كفرتُم بالقُرآنِ وقــد أُتيتم   بتصديق الذى قال النـــذيرُ
فهـــان على سَراةِ بنى لُؤى   حَريقٌ بالبـــويرة مُستطيرُ (٣)

رماهم بالتفرقة دعاء عليهم ، وبأنهم لا نصير لهم فى يثرب ، وأنهم ضيعوا كتابهم ، وكفروا بالقرآن مع الاشارة إليه فى الزبور ، وأنهم حقيقون بما حل بهم من عقاب ، فأجابه أبو سفيان بن الحارث ، فقال :

أدام اللهُ ذلكَ مِن صَنيعٍ   وحرق فى طرائقها السعيرُ
ستعلمُ أيُنـــا مِنهـــا بِنُزهٍ   وتعلم أىَ أرضينا تضير (٤)
فلو كان النخيلُ بها رِكاباً   لقالوا : لا مُقامَ لكم فسيروا

يُنكر على حسان اعتزازه بعقاب قريظة ، ويلفته إلى أن ذلك لا يضير قريشاً وإنما يضير الأنصار .

---

(١) تفاقدوا : فقد بعضهم بعضا .
(٢) بور : ضلال أو هلكى .
(٣) سراة : أخيار . البويرة موضع بقريظة .
(٤) النزه البعد . تضير : تضر .

وأجابه جبل بن جوّال الثعلبي أيضاً وبكى النضير وقُرَيظة ، فقال : —

ألا يا سعدُ سعدَ بني مُعاذٍ   لِمَا لَقيت قُرَيظَةُ والنَضيرُ
لعمرُكَ إنّ سعد بني مُعاذٍ   غداةَ تحمَّلوا لَهُو الصَبورُ
وبُدِّلت الموالى مِن حُضَيرٍ   أُسَيداً ، والدوائرُ قد تدور
وأقفرت البُوَيرة مِن سَلامٍ   وسَعيةَ وابنِ أخطبَ فهى بُور
وقد كانوا ببلدتهم ثِقالا   كما ثقُلت بِمَيطانَ الصُخور (١)
فإن يهلِكْ أبو حكَمٍ سَلامٌ   فلا رَثُّ السلاحِ ولا دَثور
وكل الـكاهِنَينِ وكان فيهم   مع اللينِ الخَضارمة الصقُور (٢)
وجدنا المجدَ قد ثبتوا عليـه   بمجدٍ لا تُغَيِّبه البُـدورُ
أقيموا يا سَراةَ الأوسِ فيها   كأنـكمُ مِن المَخزاةِ عُورُ
تَركتم قِدْرَكم لا شيء فيها   وقِدْرُ القومِ حامية تفُور

يبكى صرعى قومه ، ويذكر أعيانهم ، ويشيد بمجدهم ، وينعى على الأوس تخاذلهم عن حماية جيرانهم الأولين من يهود ، واستكانتهم للخزرج وقريش .

ولما كان أمر (الحُديبية) وما أعقبها من هدنة بين الرسول وأهل مكة ، كانت حادثة أبي بَصير عُتبة بن أَسيد من المستضعفين ، وذلك أن طلبت قريش رده إليهم فأشار عليه الرسول أن ينطلق إلى قومه فانطلق مع رجل من بنى عامر ابن لؤى ومولى لهم حتى إذا كان بذى الحُلَيفة قتل أبو بصير العامريّ ، فقام سُهيل بن عمرو يطلب بديته ، فسفّهه أبو سفيان ، فقال فى ذلك مَوْهَب بن رياح أبو أُنَيس ، حليف بنى زُهرة ، أو هو أشعرى : —

---

(١) ميطان جبل بالمدينة .   (٢) الـكاهنان حيان . الخضارمة الأجود الـكرماء — راجع السيرة ج ٣ ص ٢٨١ طبعة الحلبى .

أتانى عن سُهيل ذَرِه قـولٍ ... فأيقظنى ، وما بى من رُقادِ[١]
فإن تـكنْ العِتابَ تُريد منّى ... فعاتِبنى فما بِك من بِعادِ
أتُوعدنِى وعبدُ منافَ حولى ... بمخزوم ، ألهفاً ، مَن تُعادى
فإن تغمِز قناتى لا تجدْنى ... ضعيفَ العُودِ فى الكُرَبِ الشِدادِ
أسامى الأكرمين أبًا بقومى ... إذا وطِئ الضعيف بهم أُرادى[٢]
همُ منعوا الظاهر غيرَ شكّ ... إلى حيث البواطنُ فالعوادى[٣]
بـكل طِمِرَّةٍ وبكلِّ نَهْدٍ ... سَواهِمَ قد طوِينَ من الطِرادِ[٤]
لهم بالخيفِ قد علمت معدّ ... رواقُ المجد رُفِّعَ بالعِمادِ[٥]

فأجابه عبد الله بن الزِبَعْرى فقال :

وأمسى مَوهَبُ كَحِمارِ سَوء ... أجازَ ببلدةٍ فيها يُنادى
فإن العبدَ مثلَك لا يناوى ... سُهيلا ، ضلَّ سعيكَ مَنْ تعادى
فأقصر يابنَ قَينِ السوء عنه ... وعَدِّ عن المقالة فى البلادِ
ولا تذكر عتابَ أبى يزيد ... فهيهات البحورُ من الثِمادِ[٦]

والأمر أن المناقضة هنا داخلية بين رهطين من قريش بمكة لأن القائل التجأ إلى المدينة أخيراً بموافقة قريش . فبقى الأمر بين عامر بن لؤى وسائر قريش ، فأما أبو أنيس فأنكر طلب سُهيل ووعيده ، وتهدّده ، وفخر عليه فانبرى له عبد الله الزِبَعرى فهجاه ونزل به عن سهيل .

---

(١) ذره خرف . (٢) أرادى أرامى . (٣) الظواهر ما علا من مكة والبواطن ما انخفض منها والعوادى جوانب الأودية . (٤) الطمرة الفرس الوثابة والنهد الغليظ . سواهم : عوابس . طوين : ضمرن . (٥) الخيف موضع بمنى . (٦) الثماد الماء القليل راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٩ .

وفى غزوة (خَيبر) خرج مَرحَب اليهودى من حصنهم ، قد جمع سلاحه ، يرتجز وهو يقول :

قَد علمتْ خَيبَرُ أنى مَرحَبُ ... شاكى السلاح بَطل مُجرَّبُ
أطعنُ أحياناً وحيناً أضرِبُ ... إذا الليوث أقبلتْ تحرّبُ[1]
إن حِمایَ لَلْحِمَى لا يُقرَبُ

وهو يقول مَنْ يبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك فقال :

قد علمتْ خيبرُ أنى كعبُ ... مُفرِّجُ الغُمَّى جرئ صُلْبُ
إذا شبّت الحربُ تلتها الحرب ... معى حُسام كالعقيق عَضْبُ
نطؤكم حتى يذِلَّ الصعبُ ... نُعطى الجزاء أو يفئ النهبُ
بِكفِّ ماضٍ ليس فيه عَتبُ

— ٦ —

و بعد بعث الرسول إلى (مُؤتة)[2] أقام بالمدينةشهرين ، فأخذت الأسباب تتجمع لفتح مكة ، وذلك أنه كانت بين بنى بكر بن كنانة وخزاعة بمكة دماء شغلهم عنها ظهور الإسلام ، فلما كان صلح (الْحُدَيبية)[3] بين الرسول وقريش دخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عقد الرسول وعهده، ولكن بنى الديل من بنى بكر اغتنموا الهدنة وأغاروا على خُزاعة وهم على الوَتير: ماء لهم بأسفل مكة ، ورفدت قريش بنى بكر بالسلاح وأعانتهم حتى أدخلوا خزاعة مكة فلجأت إلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم يقال له رافع

---

(١) تحرب : مغضبة ـــ راجع سيرة ابن هشام ج٣ ص ٣٤٧
(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص١٥ (٣) نفسه ج٣ ص٣٢١ .

فقال الأخزر بن لعط الديلى فيما كان بين كنانة وخُزاعة فى تلك الحروب :

ألا هَلْ أتى قُصوى الأحابيش أننا ... رَددْنا بنى كعبٍ بأفوقَ ناصلِ (١)
حبَسناهمُ فى دارةِ العبدِ رافعٍ ... وعند بُديلٍ مَحبِساً غير طائلِ
بدارِ الذليلِ الآخذِ الضيمِ بعدما ... شفينا النفوسَ منهمُ بالمناصلِ (٢)
حبسناهمُ حتى إذا طال يومُهم ... نفحْنا لهم من كل شِعبٍ بوابلِ (٣)
نُذبّحهم ذبحَ التيوسِ كأننا ... أسود تبارى فيهمُ بالقواصلِ (٤)
همُ ظلمونا واعتدَوا فى مسيرهم ... وكانوا لدى الأنصاب أولَ قاتلِ
كأنهمُ بالجزعِ إذ يطردونهم ... بقاثور حُقانَ، النعامُ الجوافلِ

فأجابه بُدَيل بن أمّ أصْرَم الخزاعى ، فقال :

تفاقد قومٌ يفخرون ولم تدعْ ... لهمْ سيّداً يندوهمْ غيرَ نافلِ (٥)
أمِن خِيفةِ القوم الاولى تزدريهمُ ... تُجيزُ الوتيرَ خائفاً غيرَ آئلِ (٦)
وفى كل يوم نحنُ نحبو حِباءَنا ... لِعقلٍ ، ولا يُحبَى لنا فى المعاقلِ (٧)
ونحنُ صبحنا بالتلاعةِ داركم ... بأسيافنا يسبقْنَ لومَ العواذلِ (٨)
ونحنُ منعنا بين بَيضٍ وعِتْوَدٍ ... إلى خَيفِ رَضْوى من مَجرّ القبائلِ (٩)
ويومَ الغَميمِ قد تكفّتَ ساعياً ... عُبَيسٌ فجعناهُ بجَلْدٍ حُلاحِلِ (١٠)

---

(١) الأحابيش حلفاء قريش . بأفوق ناصل : خائبين .
(٢) المناصل السيوف . (٣) الشعب المطمئن بين جبلين . الوابل الخيل الكثيرة .
(٤) القواصل الأنياب . (٥) يندوهم يجمعهم فى الندى وهو المجلس .
(٦) آئل : راجع . (٧) نحبو : نعطى ، والعقل الدية .
(٨) التلاعة ماء لبنى كنانة بالحجاز .
(٩) بيض من منازل كنانة وعتود ماء لهم والخيف ما انحدر من الجبل ورضوى جبل بالمدينة
(١٠) الغميم بين مكة والمدينة ، وتكفت حاد عن طريقه . الحلاحل السيد .

أأنْ أجمرت فى بيتها أمُّ بَعضِكمْ   بجُعموسِها ، تنزونَ أن لم نُقاتِلِ[1]
كذبتم ، وبيتِ اللهِ ، ما إن قتلتمُ   ولكنْ تركنا أمرَكم فى بَلابِلِ[2]

هذه المناقضة جاهلية من حيث أسبابها البعيدة ، وروحها الانتقامية فى الحرم المكى ، ولكنها اتصلت بحوادث الإسلام ، وأتت فى قصة فتح مكة فأوردناها هنا لذلك ، وكانت معانى الأخزر هزيمة خزاعة ، وحبسهم ، والتنكيل بهم لظلمهم.

وكان نقض بُديل بقتل سادة كنانة ، وسيادة خزاعة ، وظفرهم عليهم فى الحروب ، حتى فزعت كنانة واضطربت شئونها ، فكان موازنة وتكذيبا .

وعلى أثر ذلك فزعت خزاعة إلى الرسول بالمدينة من غدر قريش وكنانة ، فلم يكن إلا فتح مكة[3] وفيه قال حسان قصيدته الهمزية التى تعد من خير شعره الإسلامى : —

عفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجِواءُ   إلى عَذراءَ ، منزلُها خلاءُ[4]

وكان عمرو بن سالم الخُزاعى قدم على الرسول المدينة وذكر له نقض العهد ودعاه لفتح مكة فى رجز جيد[5] فلما تم الفتح قال أنس بنُ زُنيم الدِيلى يعتذر إلى الرسول مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعى من قصيدة :

أأنت الذى تُهدى مَعدٌّ بأمرِه   بل اللهُ يهديهم ، وقال لكَ اشهَدِ
وما حملتْ مِن ناقة فوقَ رحلِها   أبرَّ وأوفى ذِمّـــةً مِن مُحمَّدِ
تَعلَّمْ رسولَ اللهِ أنك مُدركى   وأن وعيداً منكَ كالأخذِ باليدِ
تعلَّمْ بأن الركبَ ركبَ عُوَيمرٍ   همُ الكاذبون المخلفو كل موعدِ

---

(١) أجمرت رمت بسرعة . الجعموس العذرة، يصف الفزع .
(٢) البلابل اختلاط الهم ووساوسه — سيرة ج ٤ ص ٣٤ .
(٣) سيرة ج ٤ ص ٣١ .   (٤) نفسه ص ٦٤ .   (٥) نفسه ج ٤ ص ٣٦ .

ونَبَّوا رسولَ اللهِ أنى هجوتُه ... فلا حملت سوطى إلىّ ، إذا ، يَدِى
سوى أنى قد قلتُ: ويلُ أمِّ فتيةٍ ... أصيبُوا بنحس لا بِطلقٍ وأسعُدِ

فأجابه بُديل بنُ أم أصرم ، فقال من قصيدة :

بكى أنسٌ رَزْناً فأعول بالبُكا ... فألاَّ عَدِيًّا إذ تَطُلُّ وتُبعَدُ(١)
بكيتَ أبا عَبسٍ لِقُرْبِ دِمائها ... فتُعذِرَ إذ لا يوقد الحربَ مُوقِدُ
أصابهمُ يوم الخنادمِ فِتيةٌ ... كِرامٌ فَسَلْ ، منهم نفيلٌ ومَعْبَدُ(٢)
هُنالك إن تَسفحْ دموعك لا تُلَمْ ... عليهم وإنْ لم تَدمَع العينُ فا كمَدوا

فأما أنس فمدح الرسول ، واعتذر إليه بأسلوب النابغة الذبيانى ، ورمى عمرو ابن سالم بالكذب فيما ادعى من نقض العهد وهجاء الرسول ، ورمى خزاعة بعدوانها ت كنانة . فرد عليه بديل فعيره بالهزيمة مع قريش وتناول المسألة من قريب .

وقال رجل من بنى جذيمة فى يوم الفتح :

جزَى اللهُ عنا مُدْلجًا حيث أصبحتْ ... جَزاءةَ بُؤسَى حيث سارت وحَلَّتِ
أقاموا على أقضاضِنا يقسِمونها ... وقد نَهلت فينا الرماح وعَلَّتِ(٣)
فواللهِ لولا دينُ آل محمّدٍ ... لقد هرَبت منهم خُيول فشلَّتِ(٤)
وما ضرّهم ألا يُعينوا كتيبةً ... كرِجْلِ جَرادٍ أرسلت فاشمعلّتِ(٥)
فإما يُنيبوا أو يثوبوا لأمرهم ... فلا نحن نجزيهم بما قد أضلّتِ

فأجابه وهب الليثى ، فقال : —

دَعَونا إلى الإسلام والحقِّ عامراً ... فما ذنْبنا فى عامر إذ تولّتِ

---

(١) بنو الأسود بن رزن من كنانة . (٢) يوم الخنادم يوم الخندمة جبل بمكة .
(٣) أقضاضنا . أموالنا . (٤) شلت طردت .
(٥) رجل جراد : جماعة منه . اشمعلت تفرقت .

وما ذنبنا فى عامرٍ ، لا أبًا لهم ... لأن سفهت أحلامهم ثم ضلَّت[١]

— ٧ —

وكان يوم (حُنَين) فى أعقاب فتح مكة[٢] وقد أسلم عباس بن مرداس ، فقال فى يوم حنين من أبيات : —

إنى والسوابحَ يومَ جَمْعٍ ... وما يتلو الرسولُ من الكتابِ
لقد أحببْتُ ما لقيتْ ثقيفٌ ... بجَنب الشعبِ أمسِ من العذابِ
همُ رأسُ العدو من أهل نجدٍ ... فقتلُهم ألذُّ من الشرابِ
هزمنا الجمعَ جمعَ بنى قَسِيٍّ ... وحكَّت بَرْكَها ببنى رِئابِ[٣]
وصِرْماً من هِلالٍ غادرتْهم ... بأوطاسٍ تُعفَّرُ بالترابِ[٤]
بذى لَجَبٍ رسولُ الله فيهم ... كتيبَتُهُ تعرَّضُ للضِرابِ

فأجابه عطية بن عُفَيْف النَّصْرىّ فقال : —

أفاخِرةٌ رفاعةُ فى حُنينٍ ... وعباس بن راضعةِ اللِجابِ[٥]
فإنك والفِجارَ كذاتِ مِرْطٍ ... لِرَبَّتِها وترفل فى الإهابِ[٦]

ينفى عنه عطية فخر حنين ويكذبه فى ادعائه .

وقال أبو ثواب زيد بن صُحَار أحد بنى سعد بن بكر من قيس عيلان يهجو قريشاً فى أعقاب حُنين : —

ألا هَلْ أتاكَ أن غلبتْ قُرَيشٌ ... هَوَازِنَ ، والخطوبُ لها شُروطُ

---

(١) السيرة : ج ١ ص ٧٣ .
(٢) ص ٧٠
(٣) بركها : صدرها .
(٤) الصرم جماعة البيوت .
(٥) اللجاب : الغنم .
(٦) الفجار الفاخرة . المرط كساء من خز غير مخطط .

وكُنَّا يا قُرَيشُ ، إذا غَضِبْنَا ... يجيء مِن الغِضابِ دَمٌ عَبيطُ [١]
وكُنَّا يا قُرَيشُ إذا غَضِبْنَا ... كأن أنوفَنا فيها سَعوطُ [٢]
فأصبحنـا تُسوِّقُنا قُرَيشٌ ... سِياقَ العِيرِ يحدوها النَّبِيطُ [٣]
فلا أنا إن سُئِلتُ الخسفَ آبٍ ... ولا أنا أن أَلِينَ لهم نَشِيطُ [٤]
سَيُنقَلُ لحمُهـا في كل فَجٍّ ... وتُكتَبُ في مَسامِعِها القُطوطُ [٥]

فأجابه عبد الله بن وهب رجل من بنى تميم ، ثم من بنى أسَيِّد ، فقال : —

بشرطِ اللهِ نضربُ مَن لَقِينا ... كأفضلِ ما رأيتَ مِن الشروطِ
وكُنَّا يا هوازنُ حين نَلقَى ... نَبُلُّ الهامَ مِن عَلَقٍ عَبيطِ [٦]
بجمعِكم وجمعِ بَنِي قَسِيٍّ ... نَحُكُّ البَركَ كالورقِ الخَبيطِ [٧]
أصبْنا مِن سَراتِكم وملنا ... بقتلٍ في المبايِنِ والخليطِ [٨]
بهِ (الملثاثُ) مُفترِشٌ يَدَيهِ ... يَمُجُّ الموتَ كالبكرِ النَّحيطِ [٩]
فإنْ تكُ قيسُ عَيلانٍ غِضاباً ... فلا ينفكُّ يُرغِمُهم سَعوطي

هذه حسرة قيس عيلان يصوِّرها أبو ثواب ، فقد ذهب الإسلام بنخوتها الجاهلية وحكّم فيها قريشاً فلا تستطيع قيس عيلان الإفلات من هذا السلطان الجديد فينقض عليه عبد الله بن وهب التميمى معانيه ، فيثبت الاسلام سلطانه ، ويقابل المفاخر بمثلها ، ويشمت بقيس و بطونها ، و يوعدها بالإذلال الدائم .

---

(١) عبيط : طرى . (٢) سعوط : نشوق .
(٣) النبيط جيل كان بسواد العراق . (٤) الخسف الذل .
(٥) القطوط الصكوك .
(٦) العلق الدم . (٧) بنو قسى : ثقيف ، الخبيط المتساقط .
(٨) المباين المفارق المنهزم والخليط الثابت فى القتال . راجع السيرة ج ٤ ص ١١٨ .
(٩) الملثاث رجل . البكر الفتى من الآبل . النحيط الذى يردد النفس فى جوفه فيسمع دويه .

— ٨ —

وفى سنة تسع هجرية وردت الوفود على الرسول مسلمة ، نذكر منها وفد تميم الذى فخر بقومه ، فقال الزبرقان بن بدر فى ذلك : —

نحنُ الكِرامُ فلا حىٌّ يعادلنا ... منّا الملوكُ وفينا تُنصَبُ البِيَعُ(١)
وكم قسرْنا من الأحياءِ كلِّهِمِ ... عند النِّهابِ وفضلُ العزِّ يُتّبَعُ
ونحن يُطعِمُ عند القحطِ مُطعِمُنا ... من الشِّواءِ إذا لم يُؤْنَسِ القَزَعُ(٢)
بما ترى الناسَ تأتينا سَراتُهُمُ ... من كلِّ أرضٍ هُوِيًّا ثم نصطنعُ(٣)
فننحرُ الكومَ عُبْطًا فى أرومتِنا ... للنازلين ، إذا ما انزلوا شبِعوا(٤)
فمن يفاخرُنا فى ذاك نعرفُهُ ... فيرجعُ القومُ والأخبارُ تُستمعُ
إذا أبينا ولا يأبى لنا أحدٌ ... إنا كذلك عند الفخرِ نرتفعُ

ادعى لقومه الكرم ، والفضل ، والرياسة ، والغلب ، والسلطان ، فهم يطعمون عند المحل ، ويفضلون على سراة الناس ، وتسرى مآثرهم بين الأحياء ، ولا ترد لهم كلمة .

فأجابه حسان بن ثابت فقال من قصيدة : —

إنّ الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتِهم ... قد بيّنوا سُنّةً للناسِ تُتَّبَعُ(٥)
يرضى بها كلُّ من كانت سريرتُه ... تقوى الإلهِ وكلَّ الخيرِ يصطنعُ
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوَّهمُ ... أو حاولوا النفعَ فى أشياعِهم نفعوا
إن سابقوا الناسَ يومًا فازَ سبقُهمُ ... أو وازنوا أهلَ مجدٍ بالندى مَتَعوا(٦)

---

(١) البيع مواضع العبادات . (٢) القزع السحاب الماطر . أى عند الجدب والقحط
(٣) هوى : سراع .
(٤) الكوم النوق العظيمة السنام . عبط سليمة . أرومة أصل .
(٥) الذوائب السادة . (٦) متعوا : زادوا .

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيعُ
أهدى لهم مدحتى قلب يؤازره ... فيما أحبَّ لسانٌ حائك صَنَعُ
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جدَّ بالناس جِدُّ القول أو شمعوا[1]

فرد حسان عليه بما للرسول وقومه من مفاخر الدين، والشجاعة، والخير، وسبق الناس إلى الفضائل، ووجود الرسول فيهم، وأنهم خير الأحياء طراً، فسلك سبيل الموازنة، وفضل رهط الرسول، وإن لم يسلك سبيل الهجاء، فالمناقضة قامت بين الشاعرين على الفخر لا غير.

روى ابن هشام أن الزبرقان بن بدر لما قدم على الرسول وفد بني تميم قام فقال:

أتيناك كيما يعلمَ الناسُ فضلَنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم[2]
بأنا فروعُ الناسِ في كل موطنٍ ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارِمِ[3]
وأنا نذود المُعلِمِينَ إذا انتخوا ... ونضربُ رأسَ الأصيدِ المتفاقِم[4]
وأنَّ لنا المِرباعَ في كل غارةٍ ... نغير، بنجدٍ أو بأرض الأعاجِمِ[5]

فقام حسان بن ثابت فأجابه من قصيدة:

هل المجد إلا السؤدَدُ العودُ والنَّدى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبيَّ محمداً ... على أنفِ راضٍ مِن مَعَدٍّ وراغم
بحيٍّ حَرِيدٍ أصلُه وثَراؤه ... بجابية الجَولان وسط الأعاجِم[6]
ونحن ضربنا الناسَ حتى تتابعوا ... على دينه، بالمرهفات الصوارم
بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم

(١) شمعوا: هزلوا — راجع السيرة ج ٤ ص ٢٠٨. (٢) احتضار: حضور.
(٣) دارم من قبائل تميم.
(٤) المعلمون الذين يميزون أنفسهم في الحرب بعلامات خاصة. انتخوا تكبروا. الأصيد المتكبر، والمتفاقم المتعاظم. (٥) المرباع ربع الغنيمة (٦) حريد: منفرد لعزته.

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم　　　وأموالكم أن تُقسَموا فى الغنائم
فلا تجعلوا لله نِدا وأسلموا　　　ولا تلبَسوا زِيًّا كزىّ الأعاجم

يرى الزبرقان فضل قومه على الناس، وقوتهم الغالبة، ورياستهم فى الحروب الداخلية والخارجية. فرد عليه حسان بعكس ما ادعى وأن قومه نصروا الرسول على العرب، وحملوا الناس على الإسلام، وأن لا حقّ لدارم فى فخر، وعليهم أن يسلموا لينجوا من النكال. فكان صوت حسان قوياً غلاباً.

***

ونكتفى بهذا القدر من النقائض الإسلامية بعد ما أشرنا إلى طرقها إجمالا تاركين للدراسة الخاصة تفصيل ما أجملنا، وتحليل ما أوردنا. وقد رأيت أنها دارت حول الغزوات، وكانت شيئاً من الشعر الكثير الذى استدعته هذه النهضة الإسلامية. وأما خواصها العامة فإنا نذكرها فى الفصل التالى.

الفصل الثالث

فى خواص النقائض الإسلامية الأولى

نجمل فى هـذا الفصل ما لحظناه مفرقاً فى الفصلين السابقين ممـا يشخص لنا الطور الإسلامى الأول من أطوار النقائض الشعرية .

وقد لحظنا فيا مضى أن هذا الفن الشعرى ظهر عليه الإسلام وهو قائم مستقيم المنهج بين الشعراء ولا سيا بين الأوس والخزرج فى (يثرب) فاستغله الشعراء فى سبيل هـــذه النهضة الجديدة التى غيرت من أوضاع الأمة العربية أولا واتجهت اتجاهاً إنسانياً ثانياً ، فصار الإسلام موضوعاً للنقائض مكان العصبيات القبلية فى الجاهلية سابقاً وفى الدولة الأموية لاحقاً ، وإذا قلنا الإسلام فقـد عنينا الدين ، والدولة ، والنظام الاجتماعى ، والفتوح الإسلامية آخر الأمر .

وكانت معانى النقائض كما رأيت جاهلة وإســلامية ، الأولى حين يحتفظ الشعراء من المؤيدين والمعارضين بطبعهم الأصيل والثانية حين يستمدون من الدعوة مادة جديدة ، وذلك طبعى ما دامت الفترة فترة انتقال وتحول .

وكذلك الشأن فى الأساليب فقد أصابها اختلاف أو اضطراب ما بين قوة جاهلية وسهولة أو هلهلة إسلامية خضوعاً للتجديد ، أو السرعة ، أو تغير الموضوع ومفاجأته ، وقد ظهر ذلك عند حسان خاصة فضعف شعره الإسلامى كما بينا ، وقد تلحظ ذلك حين توازن بين شـــعر الزبرقان بن بدر الجاهلى عام الوفود وشعر حسان ، أو بين شعر حسان والحطيئة هذا الذى استمسك بجاهلية الأسلوب .

وتلاحظ بجانب ذلك أن موقف بعض الشعراء تغير ؛ كانوا مع قريش معارضين فلما أسلموا صاروا مع الرسول مؤيدين كعباس بن مرداس وعمرو بن العاص وأبي سفيان وغيرهم ، كذلك كان اليهود على صلة حسنة مع قريش ، فلما ظهر الإسلام عادوا الرسول ، وحملهم سلوكهم المضطرب على مراكب خشنة طرّدوا فى سبيلها كل مطرّد ووقف شعراؤهم مع قريش يناقضون الأنصار جيرانهم الأولين ، على أن شعراء الأوس والخزرج قد قضى الإسلام أو أسكن ما بينهم من خلاف ومناقضة واتجه شعراؤهم ولا سيما الخزرج إلى مكة يدفعونها عن المدينة ؛ وهكذا كانت النقائض الإسلامية جادة أول الأمر فى سبيل تكوين الأمة العربية ، وتصفيتها ، لتقيم منها شعباً متحداً ، ودولة منتظمة ، وشغلت بذلك حياة الرسول منذ الهجرة إلى وفاته وإسلامه الأمرَ إلى خليفته الصديق أبي بكر .

والنقائض الإسلامية الأولى تمتاز بأنها كانت قصيرة العمر أو ضرورة وقتية استدعتها المهاجاة بين مكة والمدينة فى ظل الإسلام ، فلما تصالحت مكة والمدينة ودخلت العرب الدين أمة متحدة لم يبق هناك مجال لهذه المناقضة فسكنت ، وأخذ الخلفاء يحاربون دواعيها الجاهلية ، ويشغلون العرب بالفتوح الخارجية ، وينكرون إنشادها دفناً للأحقاد القديمة وحفظاً للوئام بين المسلمين ؛ فأنكروا الفخر والهجاء وعزّروا فيه الشعراء وحبسوهم كما أسلفنا ، فلم تظهر المناقضة إلا حين استدعاها الخلاف السياسي بين على ومعاوية .

على أن هذه النقائض لم تشتمل على فحش ، وجرح للأعراض ، وانتهاك للحرمات كالذى نراه زمن الأمويين فبقيت فى هذا الجانب مسايرة لحالها الجاهلية وإن لم تخل من عصبيات قبلية حادة .

كذلك لم نجد هذه النقائض الاجتماعية إلا نادراً كالذى كان بين الحطيئة

وضيفه ، وذلك لأن السياسة الإسلامية أنكرت المشاحنة والتباغض وجعلت بأس العرب على غيرهم فاستحال الشعر حماسة فى سبيل الدولة الإسلامية كما شرحنا ذلك فى كتابنا (تاريخ الشعر السياسى) .

على أنك حين تدرس النقائض الإسلامية دراسة نقدية دقيقة تجد فى ألفاظها وروحها ، ووجهاتها ، وصياغتها خواص تميزها من سواها .

وقد أشرنا إلى أهمها أثناء عرض النصوص والتمهيد لها .

أما الميزات الإسلامية الجديدة التى طبعت النقائض طابعاً فنياً ممتازاً فإنها تتجلى فى العهد الأموى ، وعند فحول النقائض الذين بلغوا بها ذروتها فى تاريخ الأدب العربى ، ونرجو أن نلم بذلك أخريات الباب التالى .

الباب الثالث

النقائض فى العصر الأموى

الفصل الأول

عصر النقائض الأموية

— ١ —

حينما نتقدم إلى العصر الأموى لنتبين الجوانب التى لابست النقائض وكانت بيئاتها العامة ، ومقوماتها العتيدة ، نجدها جوانب شتى : سياسية واجتماعية واقتصادية وشخصية وفنية وغيرها .

ولنأخذ فى الإلمام بهذه الجوانب أو — على الأصح — بما كان منها متصلا بفن النقائض مؤثراً فيه تأثيراً مباشراً أو غير مباشر .

وربما كانت السياسة أول هذه المقومات وأهمها لما لها هى نفسها من آثار واضحة ، ولأنها شديدة الأثر فى العوامل الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والفنية ، فكانت أولى بالتقديم فى الذكر .

هناك فرق واضح بين السياسة الإسلامية أيام بنى أمية و بينها فى عهد الرسول وخلفائه الراشدين من وجوه كثيرة . والأصل العام فى ذلك أن السياسه قبل عهد معاوية ، قامت على أساس ديموقراطى شورى قدر المستطاع ، ظهر ذلك فى اختيار

الخلفاء وفى سياستهم الرعية سياسة عادلة حازمة لا تفضل جنساً على آخر ولا طبقة على أخرى ، ولا امتياز لأسرة أو فرد ؛ فالناس أمام الدين سواء لا مفاضلة بينهم إلا بمقدار ما يتفاوتون فى الأخذ بأصول الشريعة فى العبادات والمعاملات ، كان ذلك أيام الرسول وخلفائه الأولين وإن أخذ الناس على عثمان أموراً جعلته فى رأى بعضهم دون زملائه تحرجاً والتزاماً للمثل الإسلامية العليا(١) معنى ذلك أن المقاييس السياسية كانت مرتبطة بالمقاييس الدينية والخلقية لا تنفصل عنها ولا تتخذ الدين وسيلة للغايات السياسية العملية ، أو أن السياسة نفسها كانت ظاهرة دينية وعنصراً سلبياً من عنصريه : الروحى والزمنى ، لذلك أنكر الخلفاء التهاجى الاجتماعى وعاقبوا شعراء الهجاء كما فعل عمر وعثمان(٢) فلم تستطع النقائض أن تحيا فى ظل الخلفاء الراشدين وبقيت خامدة منذ الأيام الإسلامية الأولى ، حتى ظهرت بوادرها أيام المعركة السياسية بين على ومعاوية(٣) فى سبيل الحكومة الإسلامية كما بينا فى غير هذا المقام . وكان الشاعر يعيش ، هذه الفترة الأولى ، فى سبيل الأمة العربية أو الدولة الإسلامية(٤) .

أما العهد الأموى فقد انفصلت فيه السياسية عن الدين بوجه عام ، وصار الأمر مُلكا عضوضاً يهدف إلى غرض سياسى عملى يجب أن يتحقق وإن كان فيه جور على الدين ، وكان الدين إما وسيلة سياسة صالحة مقررة كالقصص(٥) وإما أن يلتئم معها فى بعض المواقف ، وإما أن يستكن مغلوباً على أمره ؛ ذلك أن المقاييس السياسية أو الزمنية سيطرت على ملوك بنى أمية فكانوا أصحاب عرش دنيوى همُّهم حفظ الملك فى بيوتهم وإخضاع الرعية لسلطانهم مهما يضحوا فى

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) الأغانى ج ٢ ص ١٨٥ والطبرى ج ٢ ق ٢ ص ٣٠٢٤ .

(٣) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ١٣١ ط ١ . (٤) نفس المرجع ص ٦٦ و ٩٨ .

(٥) فجر الاسلام لأحمد أمين ص ١٨٧ .

سبيل ذلك بأسر أو أفراد أو شيع أو مواثيق أو شعائر فكانوا رجال سياسة ملكية خالصة ونزعة كسروية أو هرقلية ، وأصحاب دنيا لا دين .

وقد سلكوا فى سياستهم مسلك الترغيب والترهيب ، فاتخذوا المال وإغداقه على الأنصار والخصوم وسيلة لتثبيت عرشهم لا يتقيدون فى ذلك بقوانين الشريعة ونظام الصدقات فأغدقوا على خصومهم تخفيفاً لنقمتهم ، وعلى أنصارهم استبقاء لمعونتهم ، ووجدوا طائفة من الشعراء تؤيدهم وتشيد بذكرهم رغبة فى العطاء أو رهبة من العقاب [١] أولئك هم شعراء الحزب الأموى وغيرهم من الفحول .

ولما كان الأنصار والعدنانيون حجازيين فى سياستهم حاول الأمويون بالشام أن يضموا إلى جانبهم اليمنية فأصهر معاوية إلى بنى كلب الحميريين من اليمن بأن تزوج ميسون بنت بَحْدَل الكلبي أم يزيد ابنه ، كما تزوج منهم قبل ذلك عثمان بنائلة بنت الفرافصة و بذلك ضمن البيت السفيانى الأموى معونة الكلبيين فنصروه فى (مرج راهط) على القيسية وكان لحسان بن مالك بن بَحدل خالِ يزيد طمعٌ فى الخلافة ولكنه انصرف عنها ، وكان من نتيجة هذه الخطوة الأولى مناقضة بين عمرو بن مخلاة الكلبي وزفر بن الحارث الكلابى من زعماء قيس عيلان [٢] وأخرى بين زفر هذا و بين جَوّاس بن القَعطل الكلبي [٣] فكانت مناقضة بين قيس واليمن فى سبيل السلطان الأموى .

ولما نزلت قيس الجزيرة واعتصم زُفر بقَرْقيسياء فى أعقاب (مَرْج راهط) استمرت قيس تغير على كلب بزعامة عُمير بن الحباب القيسى ومعونة تغلب انتقاماً لقتلى قيس يوم المرج ، ولكن العلاقات بين قيس وتغلب فسدت لأسباب سياسية

---

(١) تاريخ الشعر السياسى لأحمد الشايب ص ٢٠٤ ط ١ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٧ — ١٩ . (٣) نفس المرجع ص ٢٤ — ٢٦ .

واقتصادية وقامت بينهما أيام شنيعة(١) كانت من الدوافع التى وقفت الأخطلَ يناقض جريراً ؛ الأول مع قومه تغلب ، والثانى مع قيس عيلان فكانت نقائض جرير والأخطل تاريخاً لصلة قيس وتغلب معاً ، ولصلتهما بالحكومة الأموية ، ولموقف هذين الشاعرين كلٌّ من الآخر ، وتفسيراً لانتصار الأخطل للفرزدق على جرير ودخوله بين شاعرى تميم وقبيلهما ، ولا سيما أن عبد الملك ابن مروان كان يؤثر الأخطل ويفضله على سائر الشعراء ، ويَعُدُّه شاعر أمير المؤمنين لإشادته بفضل أمية ولموقف قومه معهم على قيس عيلان وإن كان موقفا يعود فى حقيقته إلى صوالح تغلب ومنفعتهم حتى إذا اصطلح الحيان واتصلت القيسية بعبدالملك غضب الأخطل ، وتوعد الخليفة ، وحذره القيسية ، كل ذلك خشية أن تذل تغلب بفقدها حماية القصر أو أمام وحدة قيس وأمية(٢) .

كذلك كانت الحال بالنسبة لجرير والفرزدق ؛ فعلى الرغم من أن المناقضة بينهما نشأت قبلية ، نجدها قد تأثرت بالسياسة الأموية لموقف جرير فى جانب قيس عيلان الزبيرية ، فكانت تمثل المعارضة منذ انضمت إلى عبد الله بن الزبير ودعت إلى خلافته وقاتلت الأمويين واليمن فى مرج راهط تحت رايته(٣) فكان الفرزدق يخاصم قيس عيلان فى سبيل تميم ويعين الأخطل عليها ، وكلاهما يناقض جريراً هذا الذى أخذ يفخر بقيس عيلان(٤) وقد تجلت هذه الظاهرة السياسية حين تصارعت العصبيات القيسية والتميمية فى مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى فوصلهما الفرزدق وجرير بالسياسة الأموية وجعلا المسألة ظاهرة سياسية تتصل ببيعة سليمان ابن عبد الملك ، وقالا فى هذا الحادث نقيضتين من أهم نقائضهما(٥) وإن لم يسلم الموقف مطلقاً من العصبيات التميمية بين مجاشع قوم الفرزدق وبين يربوع رهط

---

(١) ديوان الأخطل ص ٣٦٢ . (٢) نفس المرجع ص ١٠ و ١٠٥ والأغانى ج ٨ ص ٢٩٦ ونقائض جرير والفرزدق ص ٤٠١ (٣) نقائض جرير والأخطل ص ١٥ — ١٧
(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٥ (٥) نفس المرجع ص ٣٤٢ وما وليها .

جرير ووكيع بن أبي سَوْد قاتل قتيبة ، ولم يبرأ كذلك من العصبيات بين تميم وقيس عيلان أو بين تغلب وقيس كما تنطق بذلك المناقضة نفسها .

وكان المنتظر أن يقف الراعي النميري الشاعر مع جرير على الفرزدق مادام جرير يحطب في حبل قيس عيلان قوم الراعي كما أشار عليه بذلك جرير[١] ولكن السياسة تدخلت في الأمر فألفت وقتاً مابين الراعي و بين الفرزدق على جرير ، ذلك أن بشر بن مروان أخا عبدالملك أمه قيسية فعمل على أن يضم قيس عيلان إلى بني أمية واستطاع أن يستميل إليه الراعي الذي تورّط وأعان الفرزدق على جرير أولَ ما طلب إليه ذلك ، فصرعه جرير بقصيدته البائية المشهورة : —

أقِلِّي اللومَ عاذلَ والعتــــابا وقولي ، إن أصبتُ ، لقد أصابا[٢]

التي نقضها الفرزدق بقصيدته : —

أنا ابنُ العاصمينَ بني تميم إذا ما أعظمُ الحدثانِ نابا[٣]

ولكن هذه المحالفة بين الفرزدق والراعي أو بين تميم وقيس عيلان قد تعقدت فيما بعد موت الراعي وأيام ابنه جندل حين قُتِل قتيبة بن مسلم الباهلي فثار شعراء القبيلين ثورة قضت على هذه الصلة الصناعية ، ووقف جندل هو وذو الأهدام الجعفري يهجوان الفرزدق كما يأتي (النقائض ٩٠٩) .

وكان هوى ذي الرُّمة مع الفرزدق على جرير ، وذلك لما كان بين جرير وعمرو بن لجأ التيمي من خصومة ، وتيم وعدي (قوم ذي الرُّمة) أخوان من الرِّباب ، فانتصر ذو الرمة لرهطه الأدنين ، وهكذا أخذت السياسة العامة تؤثر في النقائض وتستغل العصبية في هذه السبيل كما يمر بك تفصيله قريباً .

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٢٨ (٢) نفس المرجع ص ٤٣٢ (٣) ص ٤٥١

وهناك جانب آخر من جوانب السياسية الأموية متصل بالنقائض ، هو جعلهم الملك وراثياً فى بيتهم متوسلين إلى ذلك بولاية العهد فى الأغلب وإن أدت إلى متاعب سياسية شتى ظهرت آثارها فى النقائض وغيرها من الشعر السياسى [1] فقد أخذ معاوية البيعة ليزيد ابنه ونهض له بذلك مسكين الدارمى الشاعر ، ثم استخلف يزيدُ معاوية الثانى وكان داعية ذلك علىُّ بن الغدير الغَنَوى [2] ثم عهد مروان بن الحكم لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وعهد عبد الملك لولديه : الوليد ثم سليمان ، ولما تولى الوليد ابن عبد الملك أراد خلع سليمان أخيه ليعهد إلى ابنه عبد العزيز وأعانه فى ذلك جرير ، والحجاج الثقفى ، وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم والى السند وكان لذلك أثره فى النقائض لما نقم سليمان على هؤلاء واستغلها الفرزدق فهجا الحجاج فى مناقضته جريراً لما قتل قتيبة ورماه بالغدر والطغيان بعد موته ولم يجادل جريرٌ زميله فى هذه النقطة .

على أن بنى أمية قد اعتدُّوا بمواهبهم من الحلم ، والدهاء ، والحزم ، والسخاء ، وحسن الإدارة ؛ فكان منهم دهاقين السياسة ورجالها العمليون ، وإن فصلوا بينها وبين الدين واتخذوا لها مقاييسها النفعية فكانوا أشبه بطفرة فى تاريخ الحكومة الإسلامية [1] فقد رقبوا هذا الملك منذ وفاة الرسول [2] وصبغوه صبغة أموية من عهد عثمان ، واتخذوا مقتله ذريعة للخلافة [3] وحاربوا علياً فى سبيلها ، وقتلوا الحسين حين تطلع إليها ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، وتغاضوا عن المذنبين ، واشتروا الضمائر بالمال والمناصب ، واستباحوا المدينة ، ونكلوا بالشيعة والخوارج ، فكانوا بذلك رجال ملكٍ عضوض ، وقد صوّرهم الأخطل أحسن تصوير فى

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ١٨٢ و ٢٠١ و ٢٠٧ و ٣٦٣

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ١ — ٥

(١) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ٢٠١ (٢) نفس المرجع ص ١٠٥ .

(٣) نفسه ص ١١٧ و ١٩٩

نقائضه مع جرير[١] وعرف لهم هـذه المواهب السياسية والشمائل النفسية ، كما ألم الفرزدق بها فى نقائضه هو وجرير ، ولم ينس الأخطل خاصة ، وهو يناقض ، أن يحتج لبنى أمية وحقهم فى الملك أكثر من مرة فكان الحزب الأموى ذا أثر واضح فى فن النقائض .

كذلك استعان الأمويون فى سياستهم بجماعة من خير الولاة والقواد الذين كانوا لهم سنداً قوياً ، وأنصاراً مخلصين ، مكنوا لهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبسطوا سلطانهم بين الصين وفرنسة ، نذكر منهم عمرو بن العاص صاحب مصر ، وزياد بن أبى سـفيان الذى استلحقه معاوية وولاه العراق فأخضعه لسلطان الأمويين ، وعبيد الله بن زياد الذى قتل فى عهده الحسين ، والمغيرة بن شعبة الذى ساعد فى البيعة ليزيد بن معاوية ، وكان الحجاج لعبد الملك كزياد لمعاوية كما كان بشر بن مروان داعية الأمويين يؤلف حولهم القبائل والشعراء ، ونذكر بمناسبة هؤلاء الحارث بن أبى ربيعة المخزومى أخا عمر بن أبى ربيعة ، فقد تولى البصرة لابن الزبير مرتين وهدم دارى جرير والفرزدق بها لما أشاعا هذا الهجاء الفاحش المقذع فصرخا بالشكاية منه فى النقائض أيضاً[٢] .

أما القواد فإنا نذكر منهم آل المهلب بن أبى صفرة وقتيبة بن مسلم الباهلى ووكيع بن أبى سَوْد اليربوعى ، فأولئك وغيرهم اتصلوا بالنقائض وغيرها من الشعر السياسى زمن الأمويين[٣] فقد رأينا الحجاج مهجواً فى نقائض الفرزدق ، ممدوحاً فى شعر جرير والفرزدق والأخطل ، ورأينا بشر بن مروان يحمل سراقة البارقى على هجاء جرير ويرسل إلى جرير يأمره بالرد عليه ، وقد أشرنا إلى قيضتى جرير

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٨ — ١٥٦

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٧٠ و ٦٨٣ .

(٣) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٣٤٨ والأغانى ج ٨ ص ١٨ ودواوين جرير والفرزدق والأخطل .

والفرزدق لما قتل وكيعُ بن أبى سود اليربوعى قتيبةَ بن مسلم الباهلى بخراسان وغير ذلك كثير تجده أثناء دراسة النقائض متصلا بالسياسة الأموية الداخلية والخارجية .

— ٢ —

ولم تكن الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى دون الحياة السياسية أثراً فى تقويم النقائض ، وتكوين عناصرها ، وتوجيه تياراتها ، وربما كانت أبعدَ أثراً وألصقَ مباشرة ، ونقتصر هنا أيضاً على أشد جوانبها ملابسة لفن المناقضة . ومَرَدُّ ذلك أن الدولة الأموية كانت دولةً عربية فى صبغتها العامة ، كانت قريبة العهد بالبداوة فلم تغرق فى الحضارة الفارسية أو الرومانية كما حدث أيام العباسيين وكان الترف الأموى عربياً فى جملتـه على الرغم من تسرب شىء من السمات الأجنبية إليه ، فهذا أصل . وأصل آخر هو أن الأمويين لم ينسوا جاههم الجاهلى القديم ومكانتهم فى قريش والعرب فأعادوها أرستقراطية أموية عربية مسلمة ظهرت فى الحلم ، والكرم ، والدهاء ، والتعصب للجنس أمام الموالى ، وللأسرة أمام العرب ، فكانت تقاليدهم ورسومهم عربية فى الطعام والشراب واللباس مترفين أو معتدلين ، وفى ظلهم كانت المعارف الإسلامية العربية هى الطابع الغالب على العقل الإسلامى [1] لذلك رأينا الحياة الاجتماعية فى أقطار الدولة خاضعة لهذا الطابع العربى الإسلامى . ويمكن تمثيل ذلك بالإشارة إلى معالم الحياة فى العراق ، والحجاز ، والشام ، تلك الأقاليم التى كانت ـ وبخاصة أولها ـ أشد اتصالاً بفن النقائض الشعرية تاركين الاستقصاء إلى مراجعه [2] .

---

(١) راجع فى ذلك فجر الإسلام لأحمد أمين .

(٢) المرجع السابق ، وشرح النقائض ، وتاريخ التمدن الإسلامى ، ونهاية الأرب ، والعقد الفريد .

كانت بلاد العراق مستقر المعارضة السياسية ، ومصدر الثورات والفتن ، ومنبع الفرق الدينية ، ومجال الحركة العلمية ، وفى أمصارها وبواديها عادت الحياة الجاهلية بكثير من رسومها وأوضاعها ، فالنظام القبلى واضح فى تقسيم الكوفة والبصرة[١] وعاشت القبائل فى أقسامهما وخططهما محتفظة بكيانها الجاهلى وعصبياتها القديمة وأقامت (المِرْبَدَ) عُكاظ الإسلام تجتمع فيها القبائل حلقات تستمع إلى شعرائها يفتخرون ويهجون وفى هذا المربد أنشد بعض النقائض[٢] ومنه كانت تسير فى أقطار الدولة يتلقفها الرواة ، ويتدارسها النقاد ، ويعتز بها الأرهاط ، وتبع ذلك أوضاحه هذه الحياة البدوية التى خضع لها فحول الشعراء ورجال النقائض من مفاخرة ومنافرة ومعاقرة[٣] وشراب وتحلل من شعائر الإسلام ونزوع إلى الماضى على تفاوت بينهم فى ذلك ؛ فقد كان الفرزدق أشدَّهم جاهلية ومفاخرة وجريرٌ أقبحهم سفاهة ، وأحسنَهم إسلاماً ، والأخطلُ أحرصَ على نصرانيته وتغلبيته ، ولزم ذو الرمة البادية يصفها وينسب بمىّ وخرقاء ، وكان الراعى كذلك يعتسف فى شعره الفلاة بغير دليل ؛ فكان من بينهم لذلك ، ولغيره ، نهضةُ النقائض وسيرورتها وتابعهم فى فنهم هذا شعراء آخرون أقلُّ منهم مكانة وأدنى إلى النظام الإسلامى السديد .

وكان فى العراق أحداث سياسية اجتماعية شتى ذات مظاهر فى هذا الفن الشعرى أشرنا إلى أصولها العامة منذ حين ، ونذكر هنا وقعة الجمل ومصرع الزبير فى أعقابها فقد اتخذه جرير مسبة لمجاشع رهط الفرزدق[٤] وكذلك مقتل الحسين ، وخروج المختار الثقفى ، ومهلك مصعب بن الزبير ، وطغيان الحجاج ، وما استتبع ذلك من اضطراب اجتماعى ، وجدل دينى ، أرَّثَ العداوات وزاد المناقضات .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٨٤ و ٣٥٤ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٣٩ (٣) نفس المرجع ص ٤١٤ و ٩٤١

(٤) نفس المرجع ص ١٧٩

أما الحجاز فعلى الرغم من مكانته الدينيـة والعلمية[١] التى خلعت مرة على نسيب الفرزدق فى النقائض جلالا ووقاراً ما كان يعرفه ، والتى أخرجته طريداً حتى شنع به جرير[٢] فكانت به حياة أخرى عابثة مرحة فيها شراب ، وغناء ، وقيان ، ونسيب ، وتنادر وفكاهة بما أفاءت عليه الفتوح من ثروة ، ومافرغت فيه السَّراةُ لحياة اللهو ، وما جُلب إليه من قيان وفن غنائى جديد طارىء ، وفى المدينة سمع الفرزدق قينة مع الأحوص غنته بقطعة من النقائض :

ألا حَيِّ الديارَ بِسُعْدَ إنى أُحبّ لحبِّ فاطمةَ الديارا[٣]

إذا ما حَلَّ أهلكِ يا سُلَيمى بِدارةِ صُلْصُلٍ شحطوا مزارا[٤]

أراد الظاعنــون ليَحزنونى فهـاجوا صَدْعَ قلبى فاستطارا

فقال الفرزدق : ما أرقَّ أشعارَكم يأهل الحجاز وأملحَها ! قال الأحوص : أو ما تدرى لمن هذا الشعر ؟ قال : لا والله . قال : فهو ، والله لجرير يهجوك به . فقال : ويلُ ابن المراغة ! ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره ![٥] .

والأبيات مطلع نقيضة لجرير[٦] اختيرت غناء لرقتها ، وكان جرير مقدَّماً عند الحجازيين لرقة نسيبه ، وسلاسة أسلوبه ، على الرغم من وروده فى معرض المناقضة والتساب .

وللحجاز صلات أخرى بالنقائض ، فقريش كانت حكَمَ جرير والفرزدق ، ومشاعرُ مكة كثيرة الورود فى نقائضهما ، وفى المدينة قيلت فائية الفرزدق التى نقضها جرير[٧] وإلى عبد الله بن الزبير بمكة فرّت (النَّوار) زوجْ الفرزدق وقيل فى ذلك شعر كثير[٨] .

---

(١) فجر الاسلام ص ٢٠١ .
(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٩٦ .
(٣) سعد موضع بنجد .
(٤) دارة صلصل لعمرو بن كلاب بنجد .
(٥) الأغانى ج ٨ ص ١٢ .
(٦) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٤٩
(٧) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٤٦ .
(٨) الأغانى ج ٩ ص ٣٢٤ والنقائض ص ٣٠٨ .

أما الشام فكانت مقر السلطان السياسي ، والحكومة الأموية ، وكانت دمشق حاضرة الخلافة ومقصد الشعراء بوجه خاص ينشئون قصائدهم فى العراق أو الحجاز ويرحلون بها إلى خلفاء دمشق طلباً للعطاء ، فكان الشعر يرد إلى الشام من خارجها ، ولعل عَدِيّ بن الرِّقاع العاملي من كهلان هو الشاعر الفذّ الذى سكن دمشق فكان من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، وقد لقيه جرير فى حضرة الوليد بن عبد الملك وهم بهجائه لولا أن هدّده الوليد ؛ ولكنه قال بعدُ قصيدته السينية المختارة التى منها :

أقصر فإنّ نزارا لنْ يُفاخرَها فرعٌ لئيم وأصلٌ غير مغروس

وذكر وقائع نزار فى اليمن ، فعلم الناس أنه عناه ، ولم يجبه الآخر بشيء[1] .

وكانت بعض النقائض متصلة بدمشق لما فيها من مدح الخليفة أو لاتصالها بسياسة الدولة وعلاقاتها بالقبائل ولا سيما اليمن ، وتغلب ، وقيس ، وتميم . من ذلك رائية الأخطل فى مدح عبد الملك وهجاء قيس وبنى كليب بن يربوع[2] وميمية الفرزدق فى مقتل قتيبة بن مسلم التى بدأت فى المدينة وانتهت إلى دمشق الشام ، وكانت دمشق ، من الناحية السياسية والإدارية العامة ، مشرفة على هذه المعركة الأدبية بين الفحول من الشعراء إحياء للعصبيات التى تفرق بين القبائل وتشغلها عن السياسة العليا للدولة الأموية كما نشرحه بعد قليل . ولعل بشر بن مروان ، وهو والى الكوفة من قبل عبد الملك ، كان سفيرَ الشام إلى العراق يجمع الشعراء ويوقع بينهم أو يؤلف بينهم على جرير الذى يمثل المعارضة القيسية .

على أن جريراً حين ناقض الأخطل لم ينس هوانَ تغلب وذلتها ، ودينها ، مع مجد مُضَر ودولتهم ودينهم فاستمد من سلطان الشام بعض معانيه فى إحدى القصائد إذ يقول للأخطل :

(١) الأغانى ج ٨ ص ٨٠ (٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٨

إن الذى حرمَ المكارم تغلِبا ... جعل النبوةَ والخلافة فينــا
هل تملكون من المشاعر مَشعراً ... أو تشهدون مع الأذان أذينــا[1]
مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم ... يا خُـزرَ تغلب من أب كأبينا[2]
هـذا ابنُ عمى فى دمشق خليفة ... لو شئت ساقكمُ إلىَّ قطينا[3]

فلما بلغ عبد الملك بيت جرير الأخير قال : ما زاد ابن المراغة على أن جعلنى شُرْطيًّا ! أما إنه لو قال :

لو شاء ساقكمُ إلىَّ قطينا .

لسُقتهم إليه كما قال[4] .

ولما كان الأخطل كثير التردُّد على الشام فلا بد أن بعض نقائضه أُنشىء هناك فى دمشق خاصة وتأثر بما كان يجرى فيها من أحداث ، وما يتراءى من مشاهد ، وما ظفر هو به من تجارب .

— ٣ —

ولعل العصبيات القبلية خاصة كانت ، فى العصر الأموى ، أقوى أسباب النقائض و بواعثها ، وأبعد مقوماتها تأثيراً فى عناصرها ، فإنه على الرغم من أنها كانت تعمل فى ظل السياسة إلا أنها كانت أقوى العوامل المباشرة لنشأتها ، والمصدرَ الخصيبَ لمعانيها ، والشريعةَ التى حدَّدت مواقف شعرائها فى هذه المعركة الأدبية العنيفة .

والأصل الأول لمعنى العصبية هو كلمة (عصب) جمعها أعصاب وهى أطناب (حبال) المفاصل التى تلائم بينها وتشدها ، و عَصَبَ رأسه شده ، وعصب الشجرة

(١) الأذين الكفيل وكذلك الأذان .
(٢) الخزر جمع أخزر : ضيق العين ومن ينظر بمؤخرها .
(٣) القطين الخدم . ... (٤) لإغانى ج ٨ ص ٦٠

يعصبها عصباً ضم ما تفرق منها بحبل ، والعصابة بين العشرة إلى الأربعين ، وفى حديث على : « الأبدال بالشام ، والنجباء بمصر ، والعصائب بالعراق » . أراد أن التجمع للحرب يكون بالعراق ، والتعصب من العصبية وهى أن يدعو الرجل إلى نصرة عَصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا ، والعصَبة الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويعتصب بهم أى يحيطون به ويشتد بهم . والعصبية والتعصب والمحاماة والمدافعة ، وتعصبنا له أو معه نصرناه[(١)].

فأنت ترى أن معنى هذه المادة اللغوى بدأ حسياً متصلا بالأعصاب والعصائب والجماعات والأقارب ثم استحال معنوياً متصلا بالمؤازرة والمحاماة والمدافعة والنصرة فالعصبية انتهت قديماً إلى التحزب والانتصار للرهط أو القبيل انتصاراً حسياً أو أدبياً على أساس القرابة الحقيقية أو الوضعية .

وكانت العصبية لازمة لأعراب الجاهلية لتكوين وحدات من الأسر والقبائل تحقيقاً للعدالة الداخلية والأمن الخارجى والسيادة فى المواطن رجاء الظفر بمادة الحياة ، والشرف ، وحماية القريب والجار ما دامت الحياة البدوية مضطربة لا تنتظمها وحدة شعبية شاملة ، ولا ترأسها حكومة عامة تفرض النظام ، وتقر الأمن ، وتنفذ القانون ، وتنتصف للمظلوم ، فقامت حكومة القبيلة مكان حكومة الأمة ، وصارت القبيلة للبدوى بمنزلة الدولة للحضرى[(٢)] .

وعلى أساس العصبية القبلية قبل الإسلام قامت الأيام بين القبائل وفى ظلها نشأت النقائض الجاهلية ونمت كما بينا ذلك فى الباب الاول من هذا الكتاب .

فلما جاء الإسلام شريعةً إنسانية عامة أنكر هذه العصبية الجاهلية ودعا إلى

---

(١) راجع لسان العرب مادة عصب .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى ج ٤ ص ١٠ — ٣٠ ، وفجر الإسلام ص ٥ ، وضحى الإسلام ج ١ ص ١٧ ، وتاريخ الشعر السياسى ص ٢٠ — ٢٨

التآخي العام بين الناس جميعاً لا فرق بين الأجناس والقبائل ، وإنما المؤمنون إخوة وكان أنصار الرسول من غير قومه قريش ، وبهؤلاء الأنصار من الأوس والخزرج بيثرب اعتز ، وعلى قبيله انتصر حتى فتح عليهم مكة ، وأخـذ مدة حياته ينكر حَمِيَّةَ الجاهلية ، وتبعه خلفاؤه السابقون فى ذلك ، ولو طال العهد بالرسـول وأبى بكر وعمر خاصة لاستطاعوا أن يكسروا حِدَّةَ هـذه العصبية الحمقاء ، وأن يحققوا للعرب وللمسلمين وحدة بشرية أبعد أثراً وأطول عهداً على أقل تقدير .

ولـكن هذه الحمية الجاهلية بقيت ، مع الأسف الشديد ، ولم يستطع الإسلام القضاء عليها عند كثرة العرب فشوهت حياتهم الإسـلامية ، وصدعت وحدتهم السياسية والاجتماعية ، وإن أثمرت لنا فيما بعد فن النقائض .

ففى حياة الرسـول لم تخل المعارك الحربية والشعرية بين مكة والمدينة من العصبية ، وفى غزوة بنى المصطلق كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فكان بينهما قتال تداعت على أثره عشائرهما دعوة جاهلية فأنكرها الرسـول ، فقال عبد الله بن أُبَىّ بن سلول « لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنّ الأعَزُّ منها الأذل (١) » .

ولما توفى الرسول ظهرت عصبية المهاجرين والأنصار .

ولمـا ولى عثمان الخلافة رأت فيها الأسرة الأموية استعادة جاهها القديم فتحركت فى الأسرة الهاشمية مكانتها القديمة والحديثة ، ولم يقتل عثمان حتى سـفرت الأموية والهاشمية عن وجهها واعتركتا إلى أن استقر الملك فى بيت الأمويين .

وَلِفهْم ما كان فى عهد الأمويين من عصبيات متصله بفن النقائض يحسن

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ٧٣ .

أن نعود قليلا إلى الجاهلية لنلاحظ أن العرب كانوا فى ذلك العهد حيين كبيرين : قحطان وعدنان أو اليمن والشماليين . ولكل عصبيته أمام الآخر ، و بين القبائل اليمنية عصبياتها وكذلك القبائل العدنانية ، وكانت قريش ذات منزلة ممتازة بين القبائل العدنانية ، ولها عصبيتها العامة ، وكان فى داخل قريش بطون متنافسة (١) لكل عزته واعتزازه حتى جاء الإسلام وقد توزعت عشائرها وظائفها الدينية والمدنية والسياسية ، ومن أشهر هذه العشائر أو الأسر بيتاً : هاشم وأمية ابنى عبد مناف بن قصى بن كلاب ، وكان قُصَىٌّ شيخ قريش فى الجاهلية .

فلما ظهر الإسلام فى بيت الهاشميين كان من الطبعى أن ينفس عليهم ذلك الأمويون فلزموا جانب المعارضة لهذه الدعوة حتى فتحت مكة ، وكان من الطبعى أيضاً أن تنفسَ القبائل العدنانية على قريش مكانة هذه الدعوة فيها ، وأن تنفس اليمانية ذلك على العدنانية ، اللهم إلا هذه الأنصار بيثرب التى استجابت مُسرعة إلى الإسلام وآوت الرسول ونصرته وكان من الطبعى أيضاً أن يخشى اليهود هذه النهضة العربية التى ، إن تمت ، كانت خطراً على كيانهم الدينى والاجتماعى والاقتصادى شمالىّ الحجاز ، ذلك فوق ما تَلحَظ به الفرس والروم هذا النشاط البدوى العجيب : أيمكن أن يظهر شىء ذو خطر ، بين هؤلاء الأعراب الجاهلين الفقراء بحيث يلفت نظر الفرس والروم أو يكون خطراً على كيان هاتين الأمبراطوريتين ؟!

واجه الإسلام هذه العصبيات المعقدة وشن عليها حرباً أدبية فدعا ، كما قلنا ، إلى وحدة إنسانية وقال الرسول فى خطبة الوداع : « أيها الناس إن الله

---

(٢) راجع العقد الفريد ح ٢ ص ٣١ وتاريخ الشعر السياسى ص ١٩٨ .

تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

ولكن العصبية كانت فى دم العرب ونفوسهم أصيلة معمرة ، لا يسهل استئصالها فبقيت حية وإن توارت تحت حزم الرسول ، وصرامة عمر ، وكشفت عن وجهها إثر مقتل عثمان .

وكان عثمان قد أصهر إلى بنى كلب اليمنيين من حمير فاقتدى به معاوية حين تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية فظفر بنصرة بنى كلب وصاروا أخوال يزيد ابنه ، وبذلك فتح معاوية باب العصبية اليمنية ، أو الكلبية خاصة ، ودخل فيه ، اعتقاداً منه بأن العدنانية ستكون مع السياسة الحجازية أو العراقية ، ثم وقف أمام على فى (صفين) يطلب الملك لآله وتتابعت الأحداث حتى أقرت ماطلب ، وإن خلفت له معارضة من الخوارج والشيعة وغيرهم لم تخل من عصبية . فاستطاع مداراتها مادام حياً ، وعلم أن الدنيا منقضة على ابنه يزيد إن تركه فى الميدان أعزل ، فبايع له وهو حى كما قدمنا حتى إذا مات معاوية تنبهت الفتن وظهرت الزبيرية حزباً قوياً[1] وهنا تتقدم العصبيات التى أمدت النقائض ، مبكرة ، بموضوعاتها ، ومادتها ، واتجاهاتها ، وقسمت الأمة شيعاً وأحزاباً ، ونصبت الشعراء بعضهم لبعض ، وأعادت ، فى ظل الإسلام ، النزعة الجاهلية التى ينكرها الإسلام .

فإذا لاحظنا ما سبق ذكره من مواقف الساسة من هذه العصبيات ، رأينا أن هذه العصبية لها مع ذلك كيان خاص ذو أثر قوى مباشر فى فن النقائض .

* * *

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ١٧٣ .

(ا) نذكر من ذلك ما كان بين بنى كلب واليمنية بعامة و بين قيس عيلان منذ التقيا بالشام فقد اصطدمت أسبابهما السياسية والاقتصادية وحرصت كل أن أن تكون ذات سلطان نافذ فى هذا الإقليم ، حتى لقد أوشكت كلتاهما أن تظفر بالخلافة[١] لولا نزول كلب للأمويين ، والقيسية لابن الزبير ، وذلك أيام (الجابية) ووقعة (مَرج راهط) فلما انتصر مروان كان ذلك انتصاراً لليمن على قيس عيلان وقُتل الضحاك بن قيس الفهرى فى هذا اليوم ومعه كثرة من قومه ، فقال عمرو بن مخلاة الكلبي قصيدته —

ويوم تُرى الراياتُ فيها كأنها عوايفُ طير : مستديرٌ وواقعُ

فأجابه زفر بن الحارث الكلابي القيسي بأبياته : —

فخرتَ ابن مِخلاة الحمار بمشهد علاكَ به فى المرج مَن لا تُدافع
فإن تَكُ نازعْنا قُريشاً فإنهم أخونا ومولانا الذين ننازع[٢]

فذكر قرابة قيس وقريش يريد إقصاء اليمنية .

وقال جوّاس بن قَعْطَل الكلابي فى ذلك أيضاً :

كم مِن أميرٍ قبلَ مروانَ وابنِه كشفْنا غِطاء الموتِ عنه فأبصرا

الأبيات[٣] فأجابه معبد بن عمرو الكلابي : —

لقينا بنى كلبٍ بِخَيلٍ مُغيرةٍ تثير عَجاجاً بالسنابك أكدرا

القصيد[٤] .

وقال زفر بن الحارث الكلابي القيسي يذكر يوم المرج قصيدته المشهورة : —

أرينى سلاحى لا أبالكِ إننى أرى الحربَ لا تزداد إلا تماديا

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١ و ٧ و ١٥ (٢) نفس المصدر ص ١٩
(٣) نفس المصدر (٤) نفسه ص ٢٠

فأجابه جوّاس بن القعطل الكلبي بقصيدته : —

لَعمرى لقد أبقتْ وقيعةُ راهط ... على زُفردا من الداء باقيا[١]

ومما يدل على أن العصبية العدنانية أو النزارية كانت قوية فى نفس زفر ابن الحارث زعيم قيس ، سُخطُه على عُمير بن الحُباب السلمى القيسى لما ترك حرب كلب إلى حرب تغلب ، وتغلبُ من نزار العدنانية ، فقال زفر يذم عميراً : —

ألا مَن مُبلغ عنى عُمَيراً ... مقالة عاتبٍ وعليك زارِى

أتترك حَىَّ ذى كَلَع وكلبٍ ... وتجعل حدَّ نابك فى نِزار

إلى آخر الأبيات[٢] .

وقد تدخلت العصبية اليمنية بين جرير والفرزدق فأثمرت نقيضتين من أهم نقائضهما ، ذلك عند ما قدم الفرزدق المدينة فى إمرة أبان بن عثمان بن عفان وجلس فى المسجد مع كُثيِّر عَزةَ وابراهيم بن محمد بن سعد بن أبى وقاص يتناشدون الأشعار ، فدخل عليهم ابنُ أبى بكر بن حزم الأنصارى وقال للفرزدق : بلغنى أنك تقول إنك أشعر العرب ، قال الفرزدق وتزعمه مضر ، فقال الأنصارى : وقد قال حسان بن ثابت شعراً فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك فيه سنة ، فإن قلتَ مثله فأنت أشعر العرب وإلا فأنت كذّاب منتحل ، ثم أنشده : —

لنا الجفناتُ الغُرّ يلمعن فى الضُحى ... وأسيافُنا يقطُرْنَ مِن نجدةٍ دما

القصيدة . وفى اليوم الثانى جلس الثلاثة وطلع عليهم الأنصارى فأنشده الفرزدق : —

عَزفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعزفُ ... وأنكرتَ مِن حَدْراء ما كنتَ تعرفُ

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٢٤ (٢) نفسه ص ٢٧

النقيضة . فاكتأب الأنصارى وجاء أبوه فى مشيخة من الأنصار فاعتذروا للفرزدق. وقد رد جرير على الفرزدق بنقيضته :—

ألا أيها القلبُ الطروبُ المكلَّفُ ... أفِقْ، ربما ينأى هواكَ ويُسعِفُ(١)

فالدافع الأول هو عصبية أنصارية يمنية لحسان بن ثابت ومكانته فى فن الشعر ومحاولة الارتفاع به فوق الفرزدق ، وقد انتهت بتنحية حسان وقومه ، واحتدام المعركة بين شاعرى تميم .

وهكذا تستمر فتجد مظاهر شتى لهذه العصبية بين قحطان وعدنان متصلة بالسياسة ، أوقفاً على القبيله ، أو ملابسة لأمور شخصية أو فنية ، وقد مر شىء من ذلك كالذى كان بين ابن مَيَّادة من غطفان وعِقال بن هاشم حين اجتمعا بباب الوليد بن يزيد(٢)، وكما يأتى . ونذكر هنا ما كان بين الكميت الأسدى من مضر وبين حكيم بن عياش الكلبى من أهل الشام ، كانا يتهاجيان فى سبيل السياسة ، ثم أخذ الهجاء صورة قبلية ، قال الكلبى : —

ما سرّنى أن أمى من بنى أسد ... وأنّ ربّىَ نجانى من النار
وأنهمْ زوّجونى من بناتهمُ ... وأنّ لى كل يوم ألفَ دينار

فأجابه الكميت : —

يا كلبُ مالكَ أم من بنى أسد ... معروفةٌ فاحترقْ يا كلبُ بالنار
لكنّ أمكَ من قوم شننتَ بهم ... قد قنّعوكَ قِناعَ الخزى والعار(٣)

فذهب الكميت فى نقضه مذهباً منطقياً إذ نفى أن تكون أمه أسدية وأحرقه بالنار تنفيذاً لشرطه ، ثم نزل بأمه إلى الهوان .

* * *

(١) نقائض جرير والفرزدق ج ٢ ص ٥٤٦ (٢) الأغانى ج ٢ ص ١٠٨
(٣) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٨ بولاق .

(ب) أما ما كان بين قيس وتغلب فالكلام فيه يطول[١] وحسبك أن تعرف أن بنى تغلب كانت تسكن من قديم بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات والخابور وقد بقيت على نصرانيتها واجتهدت أن تحافظ على كيانها المادى والأدبى بين هذه العواصف السياسية الإسلامية وذلك النظام الإسلامى الروحى والاقتصادى الجديد ، فوقفت مع الأمويين فى (مَرج رَاهط) ثم خاصمت قيس عيلان وانتهزت فرصة الخلاف بين قيس وأمية وانضمت إلى الأمويين ، وإن قامت الخصومة على أصل اقتصادى ، اجتماعى ، سياسى ، فقد زاحمت قيس تغلبَ فى بلادها ، ثم أساءت جيرتها ، وكانت عاملا سياسياً قويا فيما كان بين أمية والزبيريين من صراع ، وكانت أيامها على تغلب شنيعة جارمة . كان لقيس أيامُ ماكِسين ، والثَّرثار الثانى ، وفُدَين ، والسُّكَير ، والبَليخ ، والكُحَيل ، والبِشر ، وكان لتغلب الثرثار الأول ، والشرعَبيَّة ، والحشَّاك ، ثم أصلح عبد الملك بين الحيين فأمر الوليد بن عبد الملك فحمل الدماء بينهما قبل يوم البِشر ، وضمَّن الجحافَ السُلَمى قتلى (البشر) وألزمه إياها عقوبة له فلجأ هذا إلى الحجاج القيسى فى خبر طويل .

وفى شأن تغلب وقيس قال الأخطل قصيدة : —

ألا ، يا اسلمى يا هندُ هندَ بنى بَدرِ وإن كان حَيَّانا عِدَى آخرَ الدهرِ[٢]

فأجابه نُفَيع بن صَفَّار المحاربى القيسى : —

ألا حَىِّ هِنداً بالنَّبىِّ إلى البِشرِ وكيف تُحَيِّيها على النأى والهَجرِ[٣]

وكان الأمر يهونُ لو بقيت المعركة بين هذين الشاعرين أو بين الأخطل وشعراء قيس خاصة ، ولكنّ جريراً — وهو من تميم — كان شاعر قيس ولسانها

(١) ديوان الأخطل ص ٣٦٣ (٢) نقائض جرير والأخطل ص ٢٨
(٣) نفس المرجع ص ٣٨

فى هذا النضال فلما التحم مع الفرزدق ، ووقف الاخطل يعين الفرزدق على جرير كان من الطبعى أن يهاجم جرير تغلب وشاعرها ، وأن يرد عليه الاخطل فيهجو كليب بن يربوع وقيس عيلان ، وأن ينتصر جرير لرهطه ولقيس على دارم رهط الفرزدق وعلى تغلب وهكذا تعقد الموقف وكانت « نقائض جرير والاخطل » سجل هذه العصبية بين تغلب وقيس أيضاً كما سنفصله فيما يلى .

* * *

(ج) أما عصبية تميم فأكثر فصولا ، وأضخم ثماراً ، وأشد اضطراباً ؛ فكانت فى الجاهلية تسكن بين نجد واليمامة إلى الفرات وجاورت قبائل أسد وباهلة وغطفان وعبد القيس ، وضبيعة ، وبكرا وتغلب ، واتصلت بملوك الحيرة والاكاسرة ، وكثرت أيامها الجاهلية ، ثم أسلمت متأخرة ، وارتدت ، وعادت إلى الإسلام ، وشاركت فى فتوح العراق وفى الأحداث السياسية العامة والقبلية ، وكانت لها عصبيتها على قيس عيلا فى حادث قُتيبة بن مسلم بسبب بنى الاهتم التميميين الذين قتلهم قتيبة ، وفيما كان بين جرير والراعى حين غضب جرير لقومه وقال للراعى وهو يحاوره : « إن أهلى ساقوا بى وراحلتى حتى وضعونى بقارعة الطريق بالمربد ، والله ما ما أكسبهم دنيا ولا أخرى ، إلا لاسُبَّ مَن سَبَّهم من الناس »[1] ثم كان من ذلك قصيدة جرير المشهورة : —

أقلّى اللـــومَ عاذلَ والعِتابا … وقولى ، إن أصبتُ ، لقد أصابا

التى هاجم فيها الفرزدق ، وبنى نمير ، والراعى النميرى ، وسارت فى البلاد لقوتهـا ، وموسيقاها ، وسهولة حفظها ، وكان جرير يسميها الدمّاغة ، ويسميها

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٢٨

الدهقانة ، وكان يسمى هذه القافية المنصورة ، قال: وذلك لأنه قال قصائد على قافيتها كلهن أجاد فيها[١] وقد نقضها عليه الفرزدق بقصيدته :

أنا ابنُ العاصمين بنى تميم إذا ما أعظَمُ الحدثانِ نابا

حيث فخر بقومه ، وهجا رهط جرير ، ودافع عن بنى نمير ، وذكر يوم تغلب على يربوع (يوم إراب حين غزا الهذيل التغلبي بنى رياح بن يربوع)[٢]

ومن ذلك ما كان بين تميم (مجاشع) على لسان الفرزدق و بين قيس (بنى جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة على لسان جرير) وسبب ذلك أن ذا الأهدام متوكل بن عِياض بن حكم بن طفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب هجا الفرزدق[٣] فقال الفرزدق يهجو بنى جعفر : —

عرفتَ بأعلى رائس الفأو بعد ما مضت سَنَةٌ أيامُها وشهورُها

فأجابه جرير يمدح بنى جعفر بن كلاب :

أزُرتَ ديارَ الحىّ أم لا تزورُها وأنّى من الحىّ الجِمادُ ودورُها

ومردُّ ذلك ما كان بين جعفر بن كلاب وشبة بن عقال المجاشعى من خصومة حملت بنى جعفر أن يرشوا ذا الأهدام[٤] فاستعان شَبَّة بالفرزدق فلجأ الفرزدق إلى عمرو بن لجأ التيمى فعرف منه مثالب الجعفريين التى هجاهم بها فى نقيضته المذكورة .

ويتصل بهذه العصبية بين قيس وتميم ما حدث بعد مقتل قتيبة وما قال الفرزدق فى قيس فى الميمية المشهورة ، فهجاه جندل بن راعى الإبل وذو الأهدام

---

(١) نفس المرجع ص ٤٣٠
(٢) نفسه ص ٤٧٣ : (٣) نفسه ص ٥١٢
(٤) نفسه ص ٩٠٧

الجعفرى [١] فهجاها الفرزدق وهجا جريراً معهما أيضاً فقال :

محت الديارَ فأذهبتْ عرَصاتِها　　　محوَ الصحيفةِ بالبِـــلَى والمورِ

فأجابه جرير فقال :

سَقياً لِنِهْيِ حَمامـةٍ وغديرِ　　　بِسجالِ مُرتجزِ الرَّبابِ مَطيرِ

ومن ذلك ما هجا الفرزدقُ الأصمَّ الباهلى :

إخالُ البـاهِلىَّ يظنُّ أنِّى　　　سأقعدُ لا يُجاوِزهُ سِبابى

فعجز الباهلى عن نقيضتها فأجابه جرير فقال :

ألا حَىِّ المنـازِلَ بالجِنابِ　　　فقد ذكَّرْنَ عهدكَ بالشَّبابِ [٢]

وكان للعصبية بين تميم وتغلب مظاهر فى النقائض بدأت قوية حين تدخل الأخطل بين جرير والفـرزدق [٣] وأعان الفرزدقَ على ما يأتى تفصيله ، فقال الأخطل : —

إخسأ كليبُ إليك إن مُجاشِعاً　　　وأبا الفَوارسِ نهشَلاً أخوانِ

فقال جرير يرد حكم الأخطل والفرزدق ويهجو محمـدَ بن عمير بنِ عُطارد ، ويهجو بنى تغلب فى كلمة له طويلة :

لمن الديارُ ببُرقة الرَّوحانِ　　　إذ لا نَبيعُ زمانَنا بزمانِ

فرد عليه الفرزدق :

يابنَ المراغةِ والهجاء إذا التقتْ　　　أعناقُه وتماحكَ الخصمانِ [٤]

---

(١) نفسه ص ٩٠٩　　(٢) نفسه ص ١٠٢٧ — ١٠٣١

(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤

(٤) نفس المرجع ص ٨٧٩ ونقائض جرير والأخطل ص ١٩٧

ومن ذلك الحين اختلطت النقائض باختلاط العصبيات وتعقدها وصارت عصبية تميم وتغلب عنصراً من عناصر المناقضة ، يقف فيهـا الفرزدق مع الأخطل فيهجو قيسَ عيلان ، وكليبَ بن يربوع ، وجريراً ، ويفخر بتميم ودارم وتغلب ويقف فيها جرير عليهما فيهجو دارما وتغلب والأخطل والفرزدق ، ويفخر ببنى يربوع وقيس عيـلان وبتميم ، وكلا شاعرى تميم يفخر بمضر أو بخنـدف أيضاً وينتمى إلى قريش ، وهذا الموقف هو الشائع المسيطر على النقائض فلا حاجة إلى الاستشهاد له هنا .

وأما فى داخل تميم فالأمر عجب ، إذ كانت العصبيات التميمية الداخليـة هى منشأ النقائض أولا ، وموضوعها البارز ثانياً،وما عدا ذلك لم يكن إلا (مُضاعفات) إن صح لنا هنا هذا الاصطلاح الطبى .

من يقرأ مقدمة نقائض جرير والفرزدق يلاحظ أن نشأة النقائض ترجع إلى نزاع بين رهط جرير ، وبين بنى جحيش بن جارية بن سليط — وكلا الحيين من يربوع — بسبب غدير فاستعان بنو جحيش بغسان بن ذهيل السَّليطى فهجا بنى الخطَفى رهطَ جرير ، ويدخل فى المناقضة العَنَّابُ أعور بنى نبهان خال بنى ثمامة من سليط ، وفَضالة العُرَنى اليربوعى ، وإلى هنا نجـد النقائض تحبو فى حىّ اليربوعيين ، ولكنّ الحوادث قضت بتدخل البَعيث المجاشعى من رهط الفرزدق من تميم أيضاً فيلتحم مع جرير فيعلوه جرير ويهجو مجاشعاً فيأتى نساء بنى مجاشع إلى الفرزدق فيحملنه على ردع شاعر يربوع فيشتبكان ويسقط بينهما البعيث وسائر من تدخلوا فى المناقضة ما عدا الأخطل الذى اشتبك فيها أخيراً وقد كبرت سنه .

ومنذ أخذ هذان الفحلان يتناقضان ظهرت فروع العصبية التميمية الواحدُ بعد الآخر كالذى كان بين جرير من ناحية وبين الفرزدق وآل الزبرقان بن بدر

بدر من ناحية وهؤلاء أقرباء الفرزدق[1] وما كان بين بنى صعصعة و بنى نهشل من مجاشع — وكلاهما من دارم — وينتصر جرير لنهشل[2] وكالذى دار بين الشاعرين حول النساء : النوار وحدراء زوجى الفرزدق ، وجارية جرير وموت زوجه[3] وهكذا اتخذا المناسبات الصغيرة وغيرها فرصاً للمناقضة والسباب حتى عادت المسألة لجاجة ومراء ، أو نوعاً من المنافسة الفنية وحتى أتى على المناقضة وقت خلت فيه من البغض والتحاسد. وأصبحت فناً أدبياً التقت فيه روح الشاعرين وتشابه شيطاناهما ولم يجدا لها نداً يقف مواقفهما ، فكانت منافضاتهما مظاهر امتيازهما وتقدير كل لصاحبه وحدبه عليه إلى درجة الغيرة والدفاع عنه وقت الشدة ؛ فقد هجا الفرزدقُ هشامَ بن عبد الملك ، وخالد بن عبد الله القسرى ، فحبسه خالد ولكن جريراً شفع للفرزدق عند هشام ، ثم رثاه لما مات[4] وكذلك حدث أن لقى الفرزدق عمر بن عطية أخا جرير ، وهو حينئذ يهاجى ابن لجأ ، فقال له : ويلك ! قل لأخيك : ثكلتك أمك ! إيتِ التيمىَّ مِن عَلُ كما أصنع أنا بك . وكان الفرزدق قد أنف لجرير وحمى من أن يتعلق به التيمى ، قال ابن سلام : فأنشدنى له خلف الأحمر بقوله للتيمى :

وما أنت إن قرْمَا تميم تَساميا ... أخا التيم إلا كالوشيظةِ فى العظم
فلو كُنتَ مولى العز أو فى ظِلاَلِهِ ... ظَلِمْتَ ، ولكن لا يدَى لكَ بالظُلم

فقال له التيمى :

كذبتَ أنا القرْمُ الذى دقّ مالكاً ... وأفناء يَربوعٍ وما أنت بالقرْمِ

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٥ — ٧١٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٩٤١ و ٩٥٧
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٨٠٣ و — ٨١٩ و ٨٣٧ و ٨٣٩ و ٨٤٧ — ٨٧٩ .
(٤) نفس المرجع ص ١٠٤٦

فأصلحت تميم بين جرير والتيمي وإن لم ينسه جرير[1] .

وحكى أبو عبيدة معمر بن المثنى قال : خرج جرير والفرزدق مرتدفين على ناقة إلى هشام بن عبد الملك الأموي وهو يومئذ بالرصافة فنزل جرير لقضاء حاجته فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال :

إلامَ تَلفَّتينَ وأنتِ تحتي ... وخيرُ الناسِ كلهم أمامي

متى تَردى الرُّصافة تستريحي ... من التهجيرِ والدَّبَرِ الدوامي

ثم قال : الآن يجيئني جرير فأنشده البيتين فيقول :

تلفَّتُ ، أنَّها تحتَ ابنِ قَينٍ ، ... إلى الكيرينِ والفأسِ الكَهامِ

متى تَردُ الرصافة تَخْزَ فيها ... كخزيكَ في المواسمِ كلَّ عامِ

قال ، فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال : ما يضحكك يا أبا فراس ؟ فأنشده البيتين الأولين ، فأنشده جرير البيتين الآخرين ، فقال الفرزدق : والله قد قلت هذا . فقال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟ ![2] .

ومغزى هذه القصة ـ إذا صحت ـ أمران : أولهما ما سماه وحدة الشيطان أو وحدة الروح الشعري من حيث فهمهما موقفيهما كل من الآخر ، وكيف ينبغي أن يقال في كل حالة ، لما مرنا على القول وعرفا كيف يكون نقض المعاني بينهما ، وهذا نجده بين المتجادلين والمتخاصمين الآن إذ يعرف كل ماذا يحتج به صاحبه عليه . والثاني أن المناقضة كما رأيت ، كانت في بعض الأحيان فنا يخلو من الضغائن والأحقاد ، ويصبح ضرباً من الحوار النظمي ، ومجالا للمباراة الأدبية مع احترام كل صاحبه ، وعرفانه قدره وبراعته في باب النقائض ، وتفردهما فيه بالمكانة الممتازة .

---

(١) الأغاني جـ ٨ ص ٧٧ دار الكتب

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ١٠٣ والنقائض ١٠١٠ و ١٠١٦

وأمر آخر تشير إليه هـذه الأبيات : هو مذهب الشاعرين فى النقائض فقد غلبت على الفرزدق سمة الفخر واشتقاق المعانى من حسبه كما غلبت وعلى جرير سمة الهجاء والسباب ونشر مخازى منافسه كما رأيت .

* * *

(د) وهناك هذه العصبية بين العرب والموالى[1] لاعتزاز العرب بالدين ، واللغة ، والجنس ، وتعاليهم على الموالى . فتولدت فى نفوس هؤلاء عصبية جنسية تعتز ، وبخاصة عنـد الفرس ، بماضيهم المجيد وبلائهم فى الأيام الإسلامية ، وأنكروا على العرب خروجهم على أصل المساواة التى هى روح الدين الإسلامى وتولد عن ذلك حزب سياسى يدعو إلى الـكسروية . والذى يعنينا هنا أن هذه العصبية اتصلت بالنقائض ،وكان جرير هو الذى أثارها كما كان موقفه من الموالى مضطربا[2] ففى إحدى نقائض جرير مع الاخطل قال جرير :

لا تطلُبَنَّ خُؤولةً فى تغلبٍ ... فالزَّنجُ أكرمُ منهمو أخوالا

فغضب العبيد من الزَّنج وقال رجل منهم يقال له سُنيح بن رياح مولى لبنى ناجية يرد عليه :

إن الفرزدق صخرةٌ ملمومةٌ ... طالت ، فليس تنالها ، الاوعالا
قدقِسْتُ شِعرَكَ يا جرير وشعرَه ... فقصرتَ عنـه يا جـرير وطالا
ووَزنتُ فخرَكَ يا جريرُ وفخرَهُ ... فخففتَ عنه حين قلتَ وقالا
الزّنجُ لو لاقيتَهم فى صفِّهم ... لاقيتَ ثَمَّ جحاجحاً أبطالا
كان ابنُ نَدْبة فيكم من نجلنا ... وخُفافُ المتحمِّلُ الأثقالا

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ١٨٤ ط١ (٢) نفس المرجع ص ٢٦٤

فَسَلِ ابنَ عَمْرٍ وحينَ رامَ رِماحَهم ... أرأى رِماحَ الزَّنْجِ ثَمَّ طِوالا[1]

ولا يستطيع أن يدرك خطرَ العصبيات ومبلغ آثارها فى النقائض إلا مَن يقرأ النقائض نصوصَها ، وشروحها ، وعواملها التاريخية والاجتماعية ، فهناك يدرك أن هذه العصبيات كانت فى ظل الإسلام أبعدَ أثراً فى هذا الفن الشعرى منها أيام الجاهلية .

٤

على أن الحياة الأدبية ، فى العصر الأموى ، كانت ذات أثر واضح فى النقائض ، ولا سيما ما كان للشعر من منزلة وآثار فى هذه الحياة الإسلامية .

فمن الملاحظ أن الأدب ، فى هذه الفترة الأموية ، كان أدباً إسلامياً على العموم ، وإنما أريد بإسلاميته أنه كان ثمرة هذه الحياة الجديدة التى بدأتها الدعوة المحمدية وكان القرآن الكريم عمودها الأدبى والشرعى وفى ظلها نشأ هذا الجيل الأموى من الشعراء ، والخطباء ، والكتاب ؛ فكانت آثارهم متأثرة بهذه العوامل خاضعة لتياراتها السياسية والاجتماعية والعقلية وللقرآن الكريم ، وهو بذلك يختلف عن الأدب الجاهلى وعن أدب المخضرمين الذين مثلوا فترة الانتقال بين الجاهلية والإسلام .

وأما عربية هذا الأدب ، فمهما يكن هذا الأدب متأثراً بالآداب الفارسية واليونانية ، فقد غلب عليه الطابع العربى من حيث موضوعاته ، ومعانيه ،

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٨٨ — الململومة المجتمعة المدورة ، والأوعال تيوس الجبال . ابن ندبة هو خفاف أحد أغربة العرب ، وابن عمرو هو حفص بن زياد العتكى كان على شرطة الحجاج .

وأساليبه ، ومردُّ ذلك قرب الدولة من عهد البداوة ، ومكانة القرآن العربى ، وعدم غرق الامة فى الحضارة الفارسية ، وميل الحكام إلى النزعة العربية وسلطانها ، فكان الادب الاموى أدبا محافظاً فى الغالب ، على الرغم من تأثره بالحياة الجديدة ، ولا سيما عند شعراء النقائض الممتازين . تعرف ذلك إذا وازنت بينه و بين الادب العباسى حين دخل الفرس فى كيان الدولة بسياستهم ، وتقاليدهم ، وآدابهم ، وتاريخهم ، وعصبياتهم فإذا بالاب العباسى أدب حضرى جديد[١] .

و إذا كانت الكتابة قد تأخر استواؤها إلى أخريات العهد الأموى فإن الخطابة قد بقيت تنهض بأغراضها الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية قوية موفقة إلى آخر العصر الاموى وشطر من العصر العباسى ، ولكن الشعر كان الفن الادبى الممتاز الذى أعاد لنفسه مكانته الجاهلية وأربى عليها فى طول قصائده ، ورقيها الفنى ، وتجدّد فنونه ، واستخدامه فى الغايات السياسية ، وما كان له من آثار اجتماعية ، و إقامة مدارس نقدية ، و بلوغ نقائضه غايتها التى لم يظفر بمثلها فى تاريخ الادب العربى جميعه .

ولعل التجديد الشعرى كان أشد ظهوراً فى فنون الغزل[٢] والسياسة[٣] والهجاء وهذا الأخير من فنون النقائض الهامة يضاف إليه الفخر ، وتعد سائر الفنون توابعَ للفخر والهجاء فى هذا الباب الذى نؤرخه .

كانت نهضة الغزل فى الحجاز لما أسبقنا من أسباب[٤] وكانت نهضة الشعر السياسى فى العراق غالباً إذ كانت العراق مقر المعارضة السياسية ومنبع الأحزاب

---

(١) راجع فى ذلك فجر الاسلام وضحى الاسلام ج ٢ لاحمد أمين .
(٢) حديث الاربعاء ج ٢ لطه حسين . (٣) تاريخ الشعر السياسى لاحمد الشايب .
(٤) فجر الاسلام لاحمد أمين ص ٢٩٧ .

والفرق ، كما كانت مثار العصبيات ، وموطن النقائض الأصيل ، وكان هـذا الصخب السياسي يسـايره صخب عصبي بحيث يكون تاريخ النقائض مسايراً — أو موازياً — لتاريخ الشعر السياسي ، والواقع أن كلا من هذين الفنين بدأ حياته منذ الجاهلية ، وكان ظاهرة طبيعة للأطوار الاجتماعية التي مرت بهذه الأمة إلى آخر — وبعد — هـذا العصر الذي بلغت فيه النقائض ذروتها .

والذي يعنينا أن نشير إليه هنا أن نشاط النقد الأدبي كان من عوامل المضاقة ومقوماً من مقوماتها ؛ كانت المفاضلة بين هؤلاء الفحول أصلا شائعاً وثمرة طبعية لإنتاجهم النشيط ، وتصارعهم الفني ، شغل الناس في الأمصار والبوادي وانتهى إلى ميادين القتال بين جيوش المهلّب بن أبي صفرة والأزارقة من الخوارج إذ تحاكم جماعة من العرب إليه في الفصل بين جرير والفرزدق أيهما أشعر ، فأحالهم على الأزارقة فحكم عُبيدة بن هلال اليشكري لجرير[١] ، ووفد رجل من رهط الفرزدق على امرأة من بني حنيفة فلما عرفت أنه من بني نهشل قالت : أنت ، إذاً ، ممن عناه الفرزدق بقوله :

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمُه أعز وأطول
بيتاً بناه لنـا المليك ، وما بنى ... مَلِكُ السـماء فإنه لا يُنقَلُ
بيتاً زُرارةُ مُحتَبٍ بفنـائه ... ومُجاشِعٌ وأبو الفوارس نَهشَلُ

قال : نعم وأعجبه ما سمع منها ، فضحكت وقالت : فإن ابن الخطفَى قد هدم عليكم بيتكم هذا الذي فخرتم به حيث يقول : —

أخزى الذي رفع السماء مُجاشِعاً ... وبنى بناءك بالحضيض الأسفلِ

---

(١) الأغاني جـ٧ ص ٢ س ٤٤ .

بيتاً يُحَمُّ قَيْنُكُم بِفِنِــائه   دَنِساً مقاعدُه خبيثَ المدخَلِ

فوجم الرجل ، فقالت له : لا عليك ، فإن الناسَ يُقالُ فيهم ويقولون[١] .

ذلك شيء ، وشيء آخر أن الشعراء وغيرهم دخلوا بين جرير والفرزدق ، وكانت كثرتهم الساحقة مع الفرزدق على جرير فسقطوا ما عدا الأخطل ، وكان هذا التجمع لعوامل سياسية ، وعصبية ، وفنية ، وشخصية ربما كان منها سلاطة جرير ، وشدة هجائه، حتى عاد سريع التأثر أو شاعراً «بمركب النقص» لفقره فصبَّ جامَّ غضبه على جميع من عرض له . رأينا ذلك حين اجتمع جرير والفرزدق والأخطل عند بشر بن مروان ، وكان بشر يغرى بين الشعراء، فقال بشر للاخطل : أُحكم بين الفرزدق وجرير فحكم بينهما فغضب جرير وهجا الأخطل ثم استطار بينهما الهجاء[٢] ، وفي رواية أخرى أن الأخطل حكم أولا لجرير على أثر وفادة ابنه إلى العراق ، ثم قدم على بشر بن مروان بالكوفة ، فرشاه محمد بن عُمَير ابن عُطارد المجاشعي ليعدل عن رأيه ، وينصر الفرزدق ففعل ذلك ، فبلغ ذلك جريراً فرد على الأخطل ، وهجا محمد بن عمير بن عطارد وبني تغلب ، ورد عليه الفرزدق ، وندم الاخطل لدخوله بين رجلين من تميم ، ثم وقف أخيراً مع الفرزدق وسقط المتعرضون بين هؤلاء الثلاثة[٣] وممن أعانوا على جرير البعيثُ ، فضّل عليه غسانَ السليطي ، والفرزدقُ أعان البعيثَ ، وبشرُ بن مروان الذي حمل سُراقة البارق على هجاء جرير ، والبلتَعُ العنبري أعان ابن لجأ ، والراعي أعان الفرزدق ، وعمرو بن لجأ أفسدَ شعر جرير وعبث به ، والعباسُ الكندي سخر به

---

(١) الأغاني جـ ٨ ص ٤٤ .   (٢) نفس المرجع ص ٣١٦ .

(٣) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤ و ٨٧٩ والأغاني جـ ١١ ص ٦١ و جـ ٨ ص ١٧ ونقائض جرير والأخطل ١٩٧

والمرّارُ بن منقذ أعان عليه الفرزدقَ ، وهبيرةُ بن الصلت الرَّبَعى روى شعر الفرزدق وهكذا تألبت كثرة على جرير فدفعهم عن نفسه سليطاً قويا مناقضاً[1] .

وبجانب ذلك كان هؤلاء الفحول ينقد بعضهم بعضاً ، ويعتزون بشعرهم ، فقد مر راكب بالراعى وهو يغنى ببيتين لجرير وهما : —

وعاوٍ عوَى مِن غيرِ شيء رميتهُ ... بقاعةٍ أنفــــاذُها تقطر الدما

خروجٍ بأفواه الرواة كأنها ... قَرا هُندوانيٍّ إذا هُزَّ صَمَّما

فأتبعه الراعى رسولا يسأله لمن البيتان ؟ قال : لجرير . قال : لو اجتمع على هذا جميع الجن والأنس ما أغنوا فيه شيئاً . ثم قال لمن حضر : ويحكم أأُلام على أن يغلبنى مثل هذا ؟[1] ، وقال الفرزدق فى جرير : ما أخشن ناحيته ، وأشرد قافيته ، والله لو تركوه لابكى العجوز على شبابها ، والشابة على أحبابها ولكنهم هرّوه فوجدوه عند الهراش نابحاً ، وعند الجراء قارحاً وقد قال بيتاً لأن أكونَ قلتهُ أحبُّ إلى مما طلعت عليه الشمس : —

إذا غضِبتْ عليك بنو تميم ... حسبتَ الناسَ كُلَّهمُ غِضابا[2]

وقد تقدم القول الذى أثنى فيه الفرزدق على نسيب جرير بالمدينة ، ولما أجاز الفرزدق أشطار جرير ، وعرف أنه أصاب فى ذلك ، قال : هكذا ينبغى أن يقال ، أو ماعلمت أن شيطاننا واحد ! وقال جرير : نبعة الشــــعر الفرزدق ، والاخطلُ يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت الخمر ، وأنا نحرت الشعر نحراً[3] وقال الفرزدق وقد سأله رجل من دارم ، هــل تعلم اليوم أحداً يرمى معك : لا ، والله ماأعرف نابحاً إلا وقد استكان ، ولا ناهشاً إلا وقد انحجر إلا جريراً[4] وقال

---

(١) راجع الأغانى جـ ٨ ص ١٤ — ٢٨ .

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٩ ... (٣) نفس المرجع ص١١ و ٣٢

(٤) ص ٢٤ ... (٥) ص ٣٥

جرير عن نفسه إنه أشعر الناس لأنه فاخر بأبيه — على لؤمه — ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلبهم جميعاً[(١)] وقال في ذي الرمة ، وقد سمعه ينشد : « لقد قال وما أنعم »[(٢)] وعرف كل من ذي الرمة وهشام المرئي شعر جرير بقوته . وقال جرير عن الأخطل : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلني به ، ولكن أعانني عليه خصلتان : كبر سن وخبث دين[(٣)] وقال فيه : كان أشدنا اجتزاء بالقليل وأنعتنا للحُمُر والخمر ، وقال الفرزدق : الأخطل أمدح العرب[(٤)] وقال الأخطل ، وقد سئل عن مكانته بين زميليه : أنا . واللاتِ ، أشعر منهما[(٥)] وقد وضع الأخطل نفسه بعد الأعشى وطرفة[(٦)] وفضلهما على الشعراء في المديح والهجاء والنسيب[(٧)] وكان الفرزدق يقول لجرير : —

غلبتُكَ بالمُفَقِّىء والمعنّىَ ... وبيتِ المحتبي والخافقاتِ

ألقاب أبيات له[(٨)] ويدعو جريراً إلى نقض قصيدته فيقول : —

فدونكَ هذى فانقضها فإنها ... شَديدٌ قُوَى أمراسِها ومَواصِلُه[(٩)]

كل ذلك ، وغيره كثير ، يدل على إدراك هؤلاء الفحول مكانتهم في الشعر ، ومواقفهم في المنافسة والمناقضة ، ومقدار اتصالهم النفسي والفني حتى صاروا مدرسة عصرهم الأولى وزعماء الشعر القديم .

كذلك شغلوا معاصريهم ومن بعدهم بتقدهم هذه النقائض ، ودرجة فهم وما علوا به إلى ذروة النظم العربي القديم حتى قال ابن الأثير إنهم أشعر العرب[(١٠)] وقد كان نقدهم اجتماعياً وفنياً ، وكثيراً ما ورد النوعان مختلطين فيروى ابن سلام

---

(١) الأغاني جـ ٨ ص ٤٩ (٢) نفسه ص ٥٤ (٣) نفسه ص ٢٨٥
(٤) ص ٢٨٦ (٥) ص ٢٨٨ (٦) ص ٢٩٣
(٧) ص ٢٩٧ (٨) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٧٤
(٩) المرجع السابق ص ٦٢٩ (١٠) المثل السائر ص ٤٩٠ بولاق .

أن جريراً وصاحبيه أشعر أهل الإسلام ويلحق بهم الراعى ، وكان يونس فرزدقياً وقال ابن دأب : الفرزدق أشعر عامة وجرير أشعر خاصة (والمشهور نقيض ذلك) وأبو عمرو يُشَبّهُ جريراً بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابغة ، ويحتج من قدّم جريراً بأنه كان أكثرهم فنون شعر وأسهلهم ألفاظاً ، وأقلّهم تكلفاً ، وأرقّهم نسيباً ، وكان ديّناً عفيفاً(١) وقال العلاء بن جرير العنبرى ، وكان شيخاً قد جالس الناس : إذا لم يجيء الأخطل سابقاً فهو سُكّيت ، والفرزدق لايجيء سابقاً ولا سُكّيتاً ، وجرير يجيء سابقاً ، ومصلياً ، وسُكّيتاً ، وبنو أسد يرون جريراً قد غلب فى بيوت الشعر الأربعة : الفخر والمديح والهجاء والنسيب(٢) وسئل بشار بن برد : أى الثلاثة أشعر ؟ فقال : لم يكن الأخطل مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له ، وأفرطت فيه ، وكانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق(٣) وعند حماد الراوية أن جريراً أشعر إذا أُرخى من خناقه والفرزدق أشعر إذا خاف أو رجا(٤) وقد فضلت سُكينة بنت الحسين جريراً على الفرزدق(٥) وعده ابن مناذر أشعر الناس لقوة شعره(٦) وقد لقى الوليد بن عبد الملك جريراً وابن لجأ بالمدينة فقال : أتقذفان المحصناتِ وتعضبانهن ، ثم أمر أبا بكر محمد بن حزم الأنصارى — وكان والياً بالمدينة — بضربهما(٧) وقال جرير لرجل من بنى طُهَيّة : أيما أشعر أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند العامة ، والفرزدق عند العلماء ، فصاح جرير : أنا أبو حزرة ! غلبتُه وربِّ الكعبة ! والله ما فى كل مائة رجل عالم واحد(٨) . ولشبة بن عقال وخالد بن صفوان موازنة بين الفحول الثلاثة لما سألها

---

(١) الاغانى ج ٨ ص ٥ . (٢) نفس المرجع ص ٦ .
(٣) ص ١٠ (٤) ص ٣٧ (٥) ص ٣٨
(٦) ص ٥٩ (٧) ص ٧١ (٨) ٧٩

ذلك هشام بن عبد الملك عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم، وأغروا بين عشائرهم فى غير خير ولا بِرّ ولا نفع أيهم أشعر[1] وكان يونس وصحبه يقدمون الأخطل[2] وأما عبد الملك بن مروان فقد قال للأخطل ـ لما سمع مدحه ـ ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ قال : أكتفى بقول أمير المؤمنين وأمر له بجفنة كانت بين يديه فلئت دراهم وألقى عليه خِلَعاً وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب[3] .

وقد ذكروا الفرزدق وجريراً فى حلقة المدائنى فقال أبو غسان لصبَاح ابن خاقان : أنشدك بيتين للأخطل وتجيء لجرير والفرزدق بمثلهما ! قال : هات فأنشدته : —

ألم يأتِهـــا أنَّ الأراقم فلّقت جماجمَ قيس بين راذانَ والحَضْرِ
جماجمَ قوم لم يعــافوا ظُلامةً ولم يعرفوا أين الوفاء مِن الغدرِ

فسكت[4] وقال ابن سلام إن معاوية بن أبي عمرو بن العلاء : أى البيتين عندك أجود : قولُ جرير : ـ

ـ ألستُم خــيرَ مَن ركبَ المطايا وأندى العالمين بطونَ راحِ

أم قولُ الأخطل : ـ

شُمسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا

فقال ابن ســلام : بيت جرير أحلى وأسير وبيت الأخطل أجزل وأرزن ، فقال صدقت ، وهكذا كانا فى أنفسهما عند الخاصة والعامة[5] .

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٨١ (٢) ص ٢٨٣ (٣) ص ٢٨٨
(٤) ص ٢٩١ — الأراقم حى من تغلب . (٥) ص ٣٠٥

هذه النصوص النقدية التي أشرنا إليها تدل على أن النقائض كانت منكرة من حيث تناولها الأعراض ، وتفريقها بين العشائر ، وإشاعتها السباب وهُجرَ القول ، وتجاوزُها في ظل الإسلام حدوداً لم تبلغها في الجاهلية ، ولكنها كانت مشغلة الفحول ، ومدرسة النقاد ، وصحف القبائل ووسائل الرفعة والضعة شأن الشعر الجاهلي ، وكانت الحياة الأدبية وتياراتها النقدية ومقاييسها الفنية ، من دوافع المناقضة ، ومحاوله تجويدها ، فكانت النقائض متفاعلة مع الحياة الأدبية مؤثرة ومتأثرة ؛ فاحتفظت بأساليب الشعر العربي القديم ، وأبقت على فنونه ، ورَقّتها، وأطالت القصائد ، وتمسكت بأصول المناقضة ، وغذت الذوق السائد بين المحافظين ، وانتفعت بالنقد الذي اتصل بهما .

هذه العوامل التي ذكرناها ــ سياسية ، واجتماعية ، وفنية ــ كانت معالم البيئة التي أحاطت بالنقائض ، وأثرت فيها ، وهناك الصلات الخاصة بين الشعراء ، أو العوامل القبلية الجزئية التي لم تسر في غمار العصبيات الكبيرة التي شغلت الفحول ، فكانت أمثلة متفرقة نعرض لها في فصل خاص . ومعنى هذا أن النقائض في العصر الأموي كانت قسمين قسماً خاصاً نهض به الفحول ، وقسماً عاماً مفرقاً بين الشعراء .

الفصل الثانى

نشأة النقائض الأموية وفنونها

١

رأينا فيما سبق أن النقائض خفت صوتها بانتهاء الغزوات الإسلامية فى حياة الرسول عليه السلام ، وأن عهد خلفائه الأولين كان عهد فتوح خارجية لنشر الدين وإقامة الدولة ، لذلك شغل العرب بالجهاد عن الفراغ للمفاخرة والمهاجاة الداخلية ، واستتبع ذلك أن يكون الشعر الذى ينشأ متصلا بهذه الفتوح وأن يكون حماسة وفخرا فى الغالب وأن يتصل ببلاء الجيوش الإسلامية ، وفتوحها فى بلاد فارس والروم ، كما استتبع أمرا آخر هو العناية بالأمن الداخلى وأخذ الناس ، وبخاصة الشعراء ، بتعاليم الإسلام وترك المهاجاة الجاهلية وما تنتج من ملاحات ومفاخرات[(١)] فرأينا عمر بن الخطاب يهدد النجاشى الحارثى لهجائه بنى العجلان[(٢)] ويحبس الحطيئة لما هجا الزبرقان بن بدر ثم يطلقه ويشترى منه أعراض الناس[(٣)] ورأينا عثمان بن عفان يعزر ضابئا البرجمى ويحبسه حتى يموت فى السجن لأنه هجا قوما من الأنصار هجاء فاحشا[(٤)] .

وقد تأثر الشعر بذلك كله فقلت العناية به وهدأ سلطانه وإن لم يتركه العرب

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٩٩ (٢) الشعر والشعراء ١١٥ مصر .
(٣) الأغانى ج ٢ ص ١٨٥ دار الكتب .
(٤) الطبرى ج ٢ ق ٢ ص ٢٨٤ والنقائض ٢١٩

تماماً بل ظل جماعة من الشعراء يقولون فى المديح والرثاء والفخر كالحطيئة والشماخ ابن ضرار ، وكعب بن زهير ، والنابغة الجعدى ، وغيرهم ممن أطاعوا مواهبهم الأصيلة ولم يعقوها .

فلما قتل عثمان بن عفان ، وكانت الفتن بين العراق والشام أو بين على ومعاوية فى سبيل الحكم الإسلامى والظفر بكرسى الخلافة[1] كان من الطبعى أن يتدخل الشعر فى هذا الخلاف ، وأن يأخذ صورة الجدل بين هذين القطرين أو صورة المناقضة ، فكان كعب بن جُعَيل شاعرَ معاوية كما كان النجاشى الحارثى شاعرَ علىّ ، وكان من ذلك مناقضة سياسية مشهورة[2] دارت على كراهة العراق مُلك الشام وكراهة الشام مُلك العراق . وكذلك كانت بين على ومعاوية مناقضات نثرية فى صورة رسائل أشرنا إليها فى التمهيد لهذه الفصول[3] .

ولما استقرت الحكومة فى البيت الأموى وتسلم معاوية بن أبى سفيان زمام السلطان بدأ طور جديد فى نظام الدولة الإسلامية وروحها ، يتلخص فى أنه مُلك عضوض ، وحكم دُنيوى ، يحبس الخلافة فى بيت بعينه ، يتوارثها بنوه ، ومَن خرج عليهم كان ثائراً يبتغى قمعه بكافة الوسائل ، ومتى كانت هذه هى الغاية فلتكن وسائلها ما تكون ولو بالجور على الدين ، ولذلك توارى هذا التحرج الدينى ، وتلك العدالة المثالية ، والقضاء على الحمية الجاهلية ، وعادت الحياة الإسلامية فى ظل الأمويين خاضعة لعوامل فيها عناصر جاهلية وأخرى إسلامية ، ولكنها تتسم جميعها بسمة واحدة عامة هى ملاءمتها للسياسة القائمة وخضوعها لنزعاتها العملية ، فهذه العصبيات القبلية تقوى وتستأنف نشاطها القديم وتبلغ فى

---

(١) تاريخ الشعر السياسى ص ١١٦ ط ١ (٢) الأخبار الطوال ص ١٦٢ .
(٣) راجع العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٠٠ المطبعة الشرقية .

آثارها درجة جاهلية أو تزيد . وتكون أقوى العوامل فى نشأة النقائض وسعة ميادينها ، وهذه الأحزاب السياسية تصطرع فى سبيل الحكومة وتمد النقائض بمدد فياض وتوجهها فى كثير من المواقف ، وتلك الحياة الاجتماعية التى أطلقت فيها الحريات إلى حد ما فظهرت الملاحاة الشعرية واعتمدت على النقائض فى تصوير حوادثها ، ثم العصبية العربية على الموالى التى بدت سماتها فى الشعر السياسى والنقائض ، وكانت هذه الحياة الأموية صالحة لقيام هذا الفن واستعادته مكانته الجاهلية الأولى أو أن هذه الحياة الأموية كانت فى الشعر حياة جاهلية إلى حد كبير ، لذلك عاشت النقائض فى ظله ، وسايرته إلى نهايته ، وبلغت فى درجتها الفنية ، وآثارها الأدبية والاجتماعية منتهى ما بلغت فى تاريخ الشعر العربى جميعه .

— ٢ —

فإذا رحنا نلتمس شواهد النقائض فى هذه الفترة الأموية ، ونتبين دوافعها لنعرف نشأتها ، رأيناها كثيرة متتابعة من عهد معاوية إلى سقوط الدولة وبعد سقوطها ، وكانت تسير فى سبيل عامة تعود أسبابها إلى السياسة أو العصبية القبلية أو العلاقات الشخصية . كذلك سارت فى سبيل خاصة أو ممتازة لمثل تلك الأسباب ولغيرها مما يمر بك قريباً . وهى سبيل الفحول الذين شهدوا بها كجرير وصاحبيه .

وإذا لاحظنا أن ما دار بين كعب بن جعيل والنجاشى الحارثى من أول النقائض الأموية — إن لم تكن أولها — فإنا نرى أنه فى عهد معاوية نفسه أخذت النقائض تجرى على ألسنة الشعراء فى مناسبات شتى ، من ذلك ما دار بين هُدبة ابن خَشْرَم العُذرى وزيادة بن زيد الذبيانى ، فقد اصطحبا وهما مقبلان من الشام فى ركب من قومهما إلى المدينة زمن معاوية وعلى المدينة يومئذ سعيد

ابن العاص ، فكانا يتعاقبان السَّوق بالإبل . وكان مع هُدبة أخته فاطمة فنزل زيادة فارتجز : —

عُوجى علينا واربَعى يا فاطما ما بينَ أن يَرَى البعيرُ قائما

ألا تَرَيْن الدمعَ مِنّى ساجما حِذارَ دارٍ منك لن تلائما

إلى آخره . فغضب هدبة حين سمع زيادا يرتجز بأخته فنزل فرجز بأخت زيادة وكانت تدعى أم خازم أو أم قاسم : —

لقد أرانى والغلامَ الحازما نُزْجِى المطىَّ ضُمَّرا سَواهِماَ

متى تقولُ القُلُصَ الرواسما يبلغن ، أم خازم وخازما

الأبيات ، ثم جعلا يتهاديان الأشعار ويتفاخران ويطلب كل منهما العلوَّ على صاحبه فى شعره وسيأتى شىء منه[١] وكذلك ما كان بين ابن أرطاة وبعض الشعراء فى مقتل سعيد بن عثمان[٢] وما كان بين حارثة بن بدر اليربوعى وأنَس ابن زُنيم الليثى[٣] وبين سلمان العجلى والأبيرد بن رياح اليربوعى[٤] وبين الأبيرد — ومعه ابن عمه الأحوص الرياحى — وسُحَيم بن وَثيل الرياحى من يَربوع[٥] .

ولما مات معاوية وقام بالأمر يزيد ابنه وتحركت الأحزاب السياسية ومعها العصبيات مهد ذلك لنشاط النقائض حتى إن نقائض جرير ومهاجمته مع غسان السليطى والبعيث المجاشعى بدأت أيام ملك ابن الزبير فيما يقال ، واستمرت حتى

---

(١) الأغانى ج ٢١ ص ٢٦٥ (٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٨٤ بولاق
(٣) ج ٢١ ص ٢٣ (٤) ج ١٢ ص ١٠
(٥) ج ١٢ ص ١٠

التحم جرير والفرزدق[1] ولما كانت وقعة مَرْج راهط التحم عمر بن مخلاة الكلبي ، في عهد مروان بن الحكم ، مع زُفَر بن الحارث الكلابي[2] وتناقض جوّاس الكَلْبي مع مَعبد بن عمرو الكِلابي[3] ثم زُفَر بن الحارث مع جوّاس ابن القعطل الكلبي[4] واتصل ذلك بما دار بين جرير والأخطل في شأن قيس وتغلب[5].

فلما كان عهد عبد الملك كانت الأحزاب تامة التكوين والعصبيات على أشدها ، والنقائض ، لذلك ، حامية الوطيس ، والفحول ولا سيما جريراً وصاحبيه يشغلون الحياة الأموية بما يتبادلون من المفاخر والأهاجى والعالم العربى يستمع إليهم ما بين مُعجَب ، وساخط ، وراض ، والأمور متأثرة بصيحات هؤلاء ، والقبائل محتفية بما تكسبها النقائض من صِيت ، أو ناقمة لما أصابها من ضعة وهوان ، ويموت عبد الملك وتبقى النقائض عالية الصوت ، متأثرة بالسياسية ، زمن خلفائه ، ويموت الأخطل سنة خمس وتسعين فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وتستمر المعركة قائمة بين فحلى تميم حتى يموتا سنة عشر ومائة أيام هشام بن عبد الملك وبذلك تنهى هذه المناقضة الخاصة ، ولكن هذا الفن كان يجرى على ألسنة الشعراء الآخرين خافتَ الصوت متناثر العوامل والنصوص كما نُصوره فى فصل خاص ، حتى وجدنا الكُميت الأسدى ملحوظ المكانة فى هذا الفن وبخاصة حين أثار ما بين النزارية واليمانية بقصيدته التى أولُها : —

ألا حُيِّيتِ عنّا يا مَدِينا وهل ناسٌ تقولُ مسلِّمينا

---

(١) النقائض ص ١٢٤

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٧ .

(٣) نفس المرجع ص ١٩ .

(٤) نفسه ص ٢١ (٥) نفسه ص ٢٧

فيأتى دِعبل بن على الخزاعى فينقضها عليه و يذكر منـاقب اليمن و يعرض بغيرهم ، وذلك فى قصيدته التى أولها : —

أفيقى مِن مَلامكِ يا ظَعينا   كفاكِ اللومَ مَرُّ الأربعينا

وهذه القصيدة الثانية من آثار العصر العباسى[1] .

— ٣ —

فإذا أردنا تَبَيُّنَ الأسباب التى أنشأت هـذه النقائض وجدناها تدخل فى عدة أبواب نوجزها هنا و إن تناولناها من قبل بصفة عامة : —

منها الاقتصاد وأسباب العيش ، ولاشك أن نقائض جرير والأخطل متأثرة بهذا السبب إذ أنها قامت على ما كان بين قيس وتغلب من عداوة مردّها المنافسة على أرض الجزيرة واستغلالها منذ نزلت قيس قِنَّسرِين ، واعتصمت بقَرْقِيسياء ، وأساءت جوار تغلب ، وكانت بينهما أيام شنيعة أرَّثت الأحقاد ، ووقفت جريراً والأخطل وغيرهما متناقِضين[2] كذلك كانت نقائض جرير مع غسان والبعيث بسبب غـدير بالقاع اعترك فيـه بنو جُحَيش بن سَيف بن جارية بن سَليط ، و بنو الخَطَفَى قومُ جرير[3] وقد قامت الملاحاة بين خالد بن علقمة بن دارم و بين سُوَيد بن كُراع العُكلى فى خَبْرَاء بالصَّمَّان يقال لها ذات الزجاج تنازع فيها بنو السِيد بن مالك من ضبة و بنو عدى بن عبد مَناة[4] وكانت بينهما دماء .

ومنها السياسة الدولية والحزبية ، وهذا الجانب ذو مظاهر شتى ، فقد كان موقف قيس عيلان مع الزبيريين على بنى أمية فى (مرج راهط) ثم مكانتهم فى

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٥٩ .   (٢) ونقائض جرير والأخطل ص ١ — ٢٧
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٢ — ٧   (٤) الأغانى ج ٢١ ص ١٢٧ .

فى الشام والجزيرة مما أخاف تغلب وشغل بنى أمية وعيّن موقف جرير من الأخطل ثم موقف الفرزدق منهما فى هذا الفن العتيد ، وهذا يفسر لنا ، كما مر ، احتماء تغلب بالبيت الحاكم فى دمشق ومكانة الأخطل فى القصر الملكى ، وإيثاره على جرير ، ثم فزع التغلبيين لما رأوا قيس عيلان تقترب من دمشق ، وما دار حول هذا من نقائض اشترك فيها أقطابها الثلاثة . هذا وقد رأينا بشر بن مروان يجمع الشعراء على جرير ويغريهم به ما دام يحطب جرير فى حبل قيس ، وذلك كان من بشر تأييداً لسياسة آل مروان كما عرفت[1] وكانت ولاية العهد ذات أثر فى النقائض ، وقد أشرنا إلى نظرة سليمان بن عبد الملك إلى موقف تميم منه فى خراسان أول عهده بالخلافة ، وكيف أصلحه وكيع بن أبى سود وصوّره الفرزدق إثر مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى . ولما خرج زيد بن علىّ على هشام منعَ أهل مكة وأهلَ المدينة أعطياتهم سنة ، فلما استُخلف الوليد بن يزيد كتب إلى أهل المدينة : —

ألا أيها الركبُ المخبُّون بلّغوا ... سلامىَ سُكان البلاد فأسمعوا
وقولوا : أتاكم أشبهُ الناس سنة ... بوالده فاستبشروا وتوقعوا
سيُوشك إلحاقٌ بكم وزيادة ... وأعطِيَةٌ تأتى تباعاً فتُشفَع
ضمنتُ لكم إن لم تصابوا بمهجتى ... بأنّ سماءَ الضر عنكم ستُقلِعُ

فقال حمزة بن بيض يرد على الوليد لما فعل خلاف ذلك : —

وصلتَ سماء الضُّر بالضر بعدما ... زعمتَ سماء الضر عنا ستقلعُ
فليت هشاماً كان حياً يسوسنا ... وكنا كما كنا نُرجّى ونطمَع[2]

فكذبه فيما ادعاه ، وفضل عليه هشاماً .

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٦٨ — ٦٩ و٣١٥ .

(٢) مهذب الأغانى ج ٢ ص ٦٠ وديوان الوليد ص ٤٦ دمشق .

وهناك أسباب قبلية أو اجتماعية ؛ فإنه — على الرغم من العوامل السياسية والاقتصادية التي ذكرناها — من الواضح أن العصبية القبلية كانت الدافعَ المباشرَ لما ثار من مناقضة بين الشعراء ، في الأغلب الأعم، فالأخطل تغلبي في نقائضه مع جرير وكان انتصاره لأمية أو لدارم في سبيل قومه ، وكان يفخر بمآثر تغلب وأيامها في جمع مواقفه حتى لقد فخر بها على عبد الملك بن مروان[1] وامتن بموقفه مع الأمويين على الأنصار ، وكان جرير ، على الرغم من نزعته مع قيس ، تميمياً يفخر بتميم عامة ويربوع رهطه الأدنين خاصة حين يلتحم مع صاحبيه ، فلما قتلت تميم قتيبة القيسي نسب فخر ذلك ، حقاً ، ليربوع ونبه قيساً إلى أن ذلك ثأر لبنى الأهتم ، ثم عاد يحامل قيس عيلان[2]. وأما الفرزدق فقد غلبت عليه القبلية في هذا الفن وفي سواه فهو زعيم تميم والمحامي عنها ، خاصم في سبيلها الخلفاء والولاة ، ونفى جريراً عنها لدفاعه عن قيس عيلان ، وساعد الأخطل على يربوع رهط جرير لما فضل الأخطل دارماً على بنى كليب بن يربوع ، وتميما على قيس ، والفرزدق كان لسان تميم أمام سليمان بن عبد الملك إثر مصرع قتيبة وهو الذى بسط للخليفة رداءَهُ رهناً عن بنى تميم وقال في ذلك من نقيضة : —

فِدَى لِسيوفٍ من تميمٍ وفَى بهـا ... رِدائى ، وجلَّت عن وجوهِ الأهاتِمِ
شفَين حزازاتِ النفوسِ ولم تَدعْ ... علينـا مقالاً في وفاء للائمِ
أَنَأْنا بهم قتـلى وما في دمائهم ... وفاء ، وهنَّ الشـافياتُ الحوائمِ
جـزى اللهُ قومى إذ أراد خِفارتى ... قتيبةُ ، سعيَ الأفضلين الأكارمِ
هُمُ سمعـوا يومَ المحصَّبِ مِن مِنًى ... نِدائى إذا التفَّت رِفاقُ المواسمِ[3]

(١) نقائض جرير والأخطل ص١٥٧ . (٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٠٠
(٣) نفس المرجع ص ٣٧١

وكان اشتراك جرير وغسان على أصل قبلى اقتصادى ، كما كان التحام جرير والبعيث بسبب ما فضل البعيث بنى النوّار بنت مجاشع على بنى ذُهَيل من يربوع [١] وأخيراً ينتصر الفرزدق لقومه مجاشع على جرير [٢] .

فإذا تركنا الفحول إلى غيرهم رأينا هذه العصبية أو القبلية تحمل الشعراء على المناقضة كالذى دار بين يزيد بن هُبيرة الفزارى وابنة الحكم بن عبدل الاسدى لما تمثلا ببيتى الاخطل [٣] و بين الابيرد اليربوعى وسلمان العجلى [٤] وأخذت هذه العصبية تضيق وتدنو حتى تدخل بين رجال العشيرة أو القبيلة الواحدة ، فقد نشأت النقائض الكبرى فى يربوع ثم تعدتها إلى غيرها ، وهذا الابيرد مع ابن عمه الاحوص من بنى رياح يناقضان سحيم بن وثيل الرياحى [٥] وأحياناً تتسع وتعلو حتى تتناول القبائل العامة كما قدمنا وكما أقامها الكميت بين النزارية والقحطانية [٦] ومثلها ابن ميادة الغطفانى وعقال بن هاشم حين اجتمعا بباب الوليد ابن يزيد وغير ذلك كثير [٧] .

وهنالك عوامل فنية تقوم على قيمة الشعر والمفاضلة بين الشعراء ، من ذلك ما جرى من الاخطل حين بعث ابنه مالكا إلى العراق ليأتيه بخبر جرير والفرزدق ، فقال له ابنه : وجدت جريراً يغرف من بحر ، ووجدت الفرزدق ينحت من صخر ، فقال الاخطل : الذى يغرف من بحر أشعرهما وقال يفضل جريراً على الفرزدق : —

---

(١) ص ٣٢

(٢) ص ١٦٧ .

(٣) مهذب الأغانى جـ٢ ص ١٤٩ بلاق

(٤) المرجع السابق جـ١٢ ص١٣ .

(٥) جـ١٢ ص ١٤

(٦) مروج الذهب جـ٣ ص ١٥٩

(٧) الأغانى جـ ٢ ص ١٠٨ بلاق

إنى قضيتُ قضاء غير ذى جَنَفٍ   لما سمعتُ ولما جاءنى الخبرُ
أن الفرزدقَ قد شالتْ نعامتهُ   وعضّة حية من قومه ذَكَرُ

فلما دخل الكوفة بشر بن مروان قدم عليه الأخطل فبعث إليه محمد بن عُمير بن عُطارد بألف درهم وكُسوة و بغلة وخمر على أن يغير حكمه ويقضى للفرزدق فقال الأخطل قصيدته فى ذلك :

أجريرُ إنكَ والذى تسمو له   كأسيفةٍ فخرتْ بحِدْج حَصان

فرد عليه جرير :

لمن الديارُ ببُرقة الرَّوحانِ   إذ لا نبيعُ زماننا بزَمانِ[1]

وقيل إن ذلك كان بحضور الشعراء الثلاثة عند بشر بن مروان[2] ومن ذلك ما قال الراعى :

يا صاحبَىّ دنا الرواح فسيرا   غلب الفرزدقُ فى الهجاءِ جريرا

وقال : —

رأيتُ الجَحْشَ جحشَ بنى كُليبُ   تيمّمَ حَوضَ دِجلةَ ثم هابا

ففتح بذلك على نفسه باب البائية المشهورة لجرير : —

أقلّى اللومَ عاذِلَ والعِتابا   وقولى ، إن أصبتُ لقد أصابا[3]

وقد نقضها عليه الفرزدق .

وكانت السرقة الشعرية من هذا الجانب الفنى ، فإنه لما قال الفرزدق فى بنى رُبيع بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة : —

---

(١) راجع الأغانى ج١١ ص٦١ دار الكتب
(٢) ج٨ ص٣١٥ ونقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤ ونقائض جرير والأخطل ص ١٩٧
(٣) الأغانى ج ٨ ص٢٠ و ٥٩ ونقائض جرير والفرزدق ص ٤٣٧

أترجو رُبَيع أن تجيء صغارها ... بخير وقد أعيى رُبيعا كبارُها

أخذه البعيث فقال لجرير :

أترجو كليب أن يجيء حديثُها ... بخير وقد أعيى كُليباً قديمُها

فقال الفرزدق فى البعيث : —

إذا ما قلتُ قافية شَرودا ... تنحَّلها ابنُ حمراء العِجانِ

فأجابه البعيث : —

تناومتُمْ لأعينَ إذْ دَعاكم ... بنى القينات للقَينِ اليمانى

تبادرَهُ سُيوف بَنى حُوَىّ ... كأنَّ عليهِ شُقَّةَ أُرجُوانِ (٢)

ويتصل بذلك تألب الشعراء على جرير وتعاونهم عليه نفاسة منهم عليه لسيرورة شعره ، أو غيظاً من سفاهته وسوء لسانه ، أو جرياً وراء الرشوة ومرضاة الزعماء ، أو سخطاً على جرير لبخله ، فقد أعان الفرزدق البعيث المجاشعى ، والبعثَ أعان غسانَ بن ذُهَيل ، والأخطل يقبل رشوة ابن عُطارد ، وعمرو بن لجأ يعبث بشعر جرير ، وسراقة البارقى يهجو جريراً بأمر بشر بن مروان ، والبَلْتَع يُعين ابن لجأ ، والعباس بن يزيد الكندى يتحدى جريراً ، وجفنة الهزانى يسأل جريراً مالا قبل له به فيأبى فيهجوه وكذلك الأعور النبهانى . وهكذا حتى وجد جرير نفسه غرضاً لكل رام فساء ظنه بالشعراء وأصيب (بمركب النقص) وصار شديد التأثر يغضب لأقل هفوة فينهش أعراض خصومه مقذعاً مفحشاً حتى هابه الناس (١) .

---

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ١٢٤

(١) راجع فى ذلك الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ — ٣٨ و ٥٣ — ٥٥ و ٧٠ — ٧٨ و ٨٤ والشعر والشعراء ص ١٩٦ و ١٩٧ و ١٤٣ و ١٤٤ .

ومن عوامل المناقضة أمور خاصة خالصة أو متأثرة ببعض ما سبق من أسباب كالذى كان بين ابن الدُّمَينة وأمامة من مناقضة غزلية ذكرناها فى التمهيد أول الكتاب ، وكالذى أشرنا إليه بين هُدبة بن خَشرم وزيادة بن زيد الذبيانى ، ومن ذلك ما قال رجل للبعيث : أى رجل هو أبو كلدة ؟ فقال : قتادة بن معرب أعرف به حيث يقول : —

إنّ أبا كلدةَ مِن سُكره ... لا يعرف الحقّ من الباطلِ

الأبيات ، فقال أبو كلدة يجيبه :

قُبحتَ لو كنتَ امرأً صالحاً ... تعرفُ ما الحق مِنَ الباطِلِ

إلى آخر ما قال[1] .

وهذا المغيرة بن حَبناء يرجع إلى أهله وقد ملأ كفيه بجوائز المهلب وصلاته والفوائد منه ، وكان أخوه صخر أصغر منه فكان يأخذ على يديه وينهاه عن الأمر ينكر مثله ولا يزال يتعتب عليه فى الشىء بعد الشىء مما ينكره عليه فقال فيه صخر : —

رأيتُك لما نِلتَ مالا وعضَّنا ... زمان نرى فى حد أنيابه شَغبا

بجنّى علىّ الدهــرَ أنى مُذنِبٌ ... فأمسِكْ ولا تجعلْ غِناكَ لنا ذنبا

فقال المغيرة يُجيبه :

لحى اللهُ أنآنا عن الصيفِ بالقِرى ... وأقصرنا عن عِرض والده ذبَّا

ألم تـرَ أنى لم أكن لك ظالماً ... أحرِّك عرضى أن لعبت به لعبا

ثم ما دار بينهما بشأن أختهما لما أتلف مالها صخر[2] .

---

(١) الأغانى جـ ٦٠ ص١٨٨ بولاق

(٢) الأغانى جـ١١ ص ١٦٨

وسيأتى القول فى هذا النوع خلال النقائض العامة .

— ٤ —

تلك هى العوامل الرئيسية التى بعثت النقائض أيام الامويين ، أجملناها هنا على أن تلقاها مفصلة حين نعرض فيا بعد لشعراء النقائض ، وعناصرها ، ونصوصها ، إلا أن هناك نقطة نشير إليها الآن باختصار إلى أن يأتى تحقيقها . ذلك أننا أشرنا إلى أن ما دار بين كعب بن جُعيل والنجاشى الحارثى يُعد أول مظاهر النقائض فى هذه الفترة التاريخية بعد خمودها زمن الخلفاء الأولين ثم استمرت متتابعة الشواهد إلى قيام الدولة العباسية ، ولكن النقائض الخاصة بين جرير وخصومه ، متى بدأت ؟

هناك نص يقول : إن جريراً كان يهاجى غسان عام الجماعة[1] وذلك عام أربعين الهجرى ، ونص آخر يقول : إن جريراً كان يقول الشعر فى حياة معاوية وأن بعض شعره كان يردده يزيد ابنه أمامه فيظن أنه له[2] وهو أول شعر قاله جرير زمن معاوية . وهناك نص ثالث بأن أول شعر قاله جرير إنما كان رجزاً هجا به بنى سليط لمّا سمع غسّانَ ابن ذُهيل السَّليطىَّ يَرجُز بقومه ، وذلك وقت ملك ابن الزبير[3] أى بعد موت معاوية ابن أبى سفيان ، وكان هذا الرجز هو الخطوة الأولى لنقائض جرير مع خصومه وبعدها التحم مع البعيث فالفرزدق وغيرهما .

فماذا عسى أن يكون الحق من هذه الأقوال ؟

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٥ — ٢٦ (٢) الأغانى جـ ٨ ص ٥٠ دار الكتب.
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٥٢ .

يروى ابن خلكان أن جريراً عُمِّر نيِّفاً وثمانين سنة وأن وفاته كانت فى سنة عشر ومائة أو فى سنة إحدى عشر ومائة(١) فيكون ميلاده سنة خمس وعشرين هجرية على وجه التقريب وذلك فى خلافة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) ومعنى ذلك أن يقرب من الثلاثين أيام معاوية فيكون شاعراً على الأرجح ، ويجوز أن تكون له أبيات العتاب التى تمثل بشىء منها يزيد بن معاوية مع أبيه وهى التى عاتب بها جريراً أباه كما يرجح ذلك نصها إذ يقول فيها : —

وإنى لمغرور أعلَّلُ بالمنى　　لَيالىَ أرجو أن مالكَ ماليا
فأنتَ أبى مالم تكن لى حاجة　　فإن عرضَتْ أيقنتُ ألاّ لا أباليا
بأى نِجادٍ تحمل السيف بعدما　　قطعتَ القُوى من مِحمَلٍ كان باقيا
بأى سِنان تطعنُ القومَ بعدها　　نَزعتَ سناناً من قناتك ماضياً
ألم أكُ ناراً يَصطليها عدوكم　　وحِرزاً لما ألجأتمُ مِن ورائيا
وباسِطَ خير فيكمُ بيمينهِ　　وقابضَ شرٍّ عنكم بشماليا
ألا ، لاَ تخافا نبوتى فى مُلِمَّة　　وخافا المنايا أن تفوتكما بيا(٢)

وإن روى أبو الفرج أنه قال هذه الأبيات لابنه(٣) .

فإذا فرض ذلك صادفنا أمور : منها أن جريراً كان يهاجى غسان من عام اجتمع الناس على معاوية وذلك سنة أربعين فتكون سنه نحو خمسة عشر عاماً وهى سن لا تمنع أن يرجز جرير وإن كانت تبعد ذلك إلى حد ، ومنها أن جريراً إنما بدأ مراجزته مع غسان أيام ابن الزبير أى بعد موت معاوية وكانت

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٤　　(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ١٧٧ .
(٣) الأغانى ج ٨ ص ٥٠ دار الكتب .

هذه المراجزة أول ما شَعَر ، فهذه الرواية تناقض شاعرية جرير أيام معاوية ، ومنها أن هذه الأبيات إنما وردت فى نقيضة لجرير يرد بها على الفرزدق قصيدته : —

ألم تر أنى يوم جوِّ سُوَيقةٍ بكيتُ فنادتنى هُنيدةُ ماليا

وهى أول قصيدة هجا بها جريراً والبعيث[1] ، وهى أيضاً رد على قصيدة للبعيث فى هجاء جرير من جهة وفى إجابته للفرزدق[2] عن قوله فى البعيث : —

ألا استهزأت منى هُنَيدةُ أن رأت أسيرا يُدانى خطوَه حلَقُ الحِجْلِ[3]

وفى هذه القصيدة يترك الفرزدقُ قيدَه الذى أخذ به نفسَه حتى يجمع القرآن منصرفاً عن الشعر ، ويقول إنه قضى ثلاثين عاماً فى عماية[4] .

ومعنى ذلك أن أبيات جرير السابقة إما أن تكون قيلت أيام معاوية ثم أضيفت إلى النقائض بعد ذلك مسايرة لرواية أبى عبيدة فى ترتيب النقائض ، وإما أن تكون المناقضة بدأت أيام معاوية وفى ذلك مناقضة لرواية أبى عبيدة أن النقائض بدأت أيام ابن الزبير كما أسبقنا .

فإذا تركنا المسألة ، من ناحية جرير ، عند هذا الحد ، وعُدنا إلى الفرزدق ، وجدنا ابن خلكان يروى أنه توفى سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوما ، وقيل بثمانين يوما ، وقيل إنهما توفيا سنة إحدى عشر ومائة ، وقيل إن الفرزدق لقى على بن أبى طالب وتوفى سنة عشرة وقيل اثنى عشر وقيل أربع عشرة ومائة ، ومات وقد قارب المائة[5] فاذا أخذنا المسألة بالتقريب كان ميلاد الفرزدق سنة

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٦٧ . (٢) نفس المرجع ص ١٣٢ . (٣) المرجع السابق ص ١٢٧ . (٤) نفس المرجع . (٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ .

خمسة عشر أيام عمر بن الخطاب ، ويؤيد ذلك ما روى عن الفرزدق أنه كان فى خلافة عثمان بن عفان غلاما يهاجى شعراء قومه وكان قومه يخشون معرّة لسانه منذ يومئذ[1] وأنه لقى على بن أبى طالب مع أبيه عام الجمل (سنة ست وثلاثين) وهو شاعر فأشار على بن أبى طالب على أبيه أن يعلمه القرآن[2]. وليس من شك أنه وفد على معاوية سنة خمسين هجرية وكان شاعرا كامل الأدة جرىء اللسان تطاول على معاوية وافتخر عليه لما ردّ عطاء الحتات المجاشعى إلى بيت المال[3].

كان الفرزدق يكبر جريرا بنحو عشر سنين أو خمس عشرة سنة ، وذلك أمر مقرر مشهور ، فيكون ميلاد جرير ، سنة خمس وعشرين إلى سنة ثلاثين ، وتكون سنه عام الجماعة من عشر سنين إلى خمس عشرة سنة ، وهنا لا نميل إلى أنه كان يهاجى غسان حين اجتمع الناس على معاوية ، وتكون سنه أيام ابن الزبير نحو خمس وعشرين سنة أو تزيد وهى سن صالحة لبدء المراجزة كما تروى لنا .

بقى أن نعرف الأمر فى رواية الأغانى المتصلة بتمثل يزيد بأبيات جرير ، والأرجح أن هذه الأبيات ليست فى مخاطبة جرير لابيه ، فهى إما متجهة إلى أبيه وإما إلى أخيه بدليل ما يروى : —

فأنتَ أخى مالم تكن لى حاجة فان عرضَتْ أيقنتُ أن لا أخاليا

وبدليل ما ورد قبله : —

وإنى لأستحييكَ والخرق بيننا من الأرض أن تلقى أخًا لِيَ قاليا[4]

ويقول شارح النقائض : إن جريرًا يعاتب عمه فى هذه القصيدة لأنه وعده بشىء فلم يف به له وروى أنها فى عتاب جده الخطَفَى[5].

---

(١) و (٢) الأغانى ج ١٩ ص ١٠ . (٣) الطبرى وديوان الفرزدق ص ٤٩ .
(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ١٧٧ .
(٥) ديوان جرير ص ١٦٥ مصر ١٣١٣ هـ .

و بعد ذلك ألاحظ أن هذه الأبيات ليست مَكِينةً فى موضعها من القصيدة فإنّ قبلَها النسيبَ التقليدى و بعدها الفخر فالهجاء ، وهذا هو الطابع العام للنقائض أمّا أن يتوسطها عتـاب خاص فهذا شىء غريب . ومهما نقل فى فنون القصيدة القديمة وتعددها والاقتضاب بينهـا ، فإنه يبقى أمامنا هذا العتاب الخاص الذى لايتصل بموضوع النقيضة إلا بتمحُّل غير مألوف ؛ لذلك أميل إلى أنها مضافة إلى هذه النقيضة وليست منها فى أصلها الأصيل .

فإذا صح ذلك ، خرجت رواية الأغانى من صميم المعركة ، وصار وضع المسألة هو : أبدأت النقائض ، بين جرير وغسان ، زمن ابن الزبير أم قبله ؟ و إذا كان الأول فهل كانت هذه المراجزة أول شعر جرير ؟ و إذا لم تكن أول شعره فهل تكون الأبيات السابقة أول شعره ؟ وأما إذا كانت أول شعره فقد بطلت رواية الأغانى ، وكان علينا أن نبحث عن مكان هذه الأبيات من ديوان جرير .

لا أميل إلى أن النقائض بدأت عام الجمـاعة لصِغَر سن جرير إذ ذاك ، فهل بدأت أيام معاوية ، وقبل مُلكِ ابن الزبير ؟ أميل إلى أنهـا بدأت آخر عهد معاوية وقبل الملك الزبيرى ، وأن هذه المراجزة ليست أول ما شعر بدليل غلبة جرير على غسان — على الرغم من نباهة غسان وقتذاك — و إنشائه القصيد رداً عليه فى الحال ، وأن هذه المراجزة من ناحية جرير كانت مسايرة لفن غسان الذى هجا به رهط جرير .

وأما الأبيات المذكورة فى العتاب فلا مانع عندى أن تكون من شعره أيام معاوية وأن يكون يزيد قد تمثل بها أمام والده .

وهنـا لا نتفق مع شارح النقائض حيث يقول[1] : إن جريراً وقت رجز

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٢ .

غسان بقومه كان يرعى على أبيه الغنم لم يقل الشعر بعد ، ذلك أن سن جرير كانت ثلاثين سنة على أقل تقدير . . أفيبلغ جرير هذه السن دون أن يقول شعراً ؟ وإذا كانت نقائضه مع الفرزدق دامت خمسين سنة فيما يقـال ، وأن بدأها تأخر عن مراجزته مع غسان ومهاجاته البعيث ، فلا بد أن هذه المراجزة بدأت آخر عهد معاوية .

— ٥ —

أما عن فنون النقائض فلسنا نقول شيئاً جديداً ، بعد ما ذكرنا فى التمهيد ، أنها استغلت جميع فنون الشعر العربى إذ ذاك ، من نسيب ، وحماسة ، وفخر ، وهجاء ، ورثاء ، ووصف وغيرها ، وإن كان الفخر والهجاء فيها الأساسيين يقوّمانها ويُضْفيان طابعهما على الفنون الأخرى فتتأثر معانيها بالفخر والهجاء .

وهذا أمر طبعى : فإن القصيدة العربية تبدأ بالنسيب عادة وقد غلب ذلك على النقائض ولاسيما عند جرير الذى يعد أستاذ هذا الفن بين زملائه خاصة ، وكانت معانى هذا الفن مجالا للمناقضة فى بعض الأحيان كما سخر جرير باصطناع الفرزدق الجلال والعفة فى ديباجة ميميَّته : —

تَحِنُّ بزوراء المدينـــة ناقتى حنـين عجول تبتغى البوّ رائم

فقال جرير فى نقضها عليه : —

أتيتَ حدودَ الله مذ أنت يافع وشبتَ فمـا ينهاك شيب اللهازم

هو الرجسُ يأهل المدينة فاحذروا مُدَاخِلَ رِجسٍ بالخبيثات عالم

لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكمُ طَهورا لمـا بين المصلَّى وواقم (١)

---

(١) نقائض جرير والفرزدق جـ ١ ص ٣٩٦ طبع أوروبة .

وكانت الحماسة من لوازم الفخر إذ هى فن القوة والتعالى ولا سيما عند ذكر مواقف القتال والظفر بالمجد والسيادة ، فصارت بذلك عنصراً من عناصر هذا الفن القائم على الجدل والملاحاة ، وقد عرض جرير فى رثاء زوجه لهجاء الفرزدق فردّ عليه وهجا زوجته التى أحسن جرير الثناء عليها فصار الرثاء من مجالى النقائض أيضاً ، وكان وصف الشمائل والرذائل وتصوير ما يلابسها من معانى المهاجاة والمفاخرة حتى عدت بعض الصور غاية فى الهجاء والسخرية أو الفخر والسناء .

غير أننا نلاحظ هنا سراعا ، إلى أن يمر تفصيله ، أن جريرا كان مقدما فى النسيب والهجاء المتصلين بالنقائض ، وأن الفرزدق امتاز بالفخر فى هذا الباب ، وكان الأخطل يفخر ويهجو معتدلا وواصلا ذلك بالمدح والخمريات .

وكل ذلك طبعى عند الثلاثة الفحول الذين يمثلون هذا الفن أصدق تمثيل وأقواه ، وإن اشتركوا جميعا فى تناول هذه الفنون كلها ، ما عدا الخمر ، فلم تكن من فنون جرير والفرزدق ، وكانت الفنون عندهم مختلفة متعاونة غير منفصلة ولا دقيقة الحدود .

اعتمد النسيب عند جرير على رقة طبعه ، وصدق شعوره الإنسانى الطبعى ، وتهذيبه الإسلامى ، فكان عنده فنا رقيقا ، مطردا ، خصبا ، طويل النفس غاليا كأنه دور موسيقى رائع يحتل مطالع نقائضه تعبيرا عن نفسه وإعدادا لها حتى ليُعد جرير أستاذ الشعراء فى هذا الضرب من النسيب وقد يكون البحترى خليفته فيه ، فإذا أرضى نفسه منه انتقل إلى الفخر أو الهجاء . وقد يصطدم بنسيب مصطنع عند خصمه فيعرض له بعد ذلك ناقضا أو ساخرا مكذبا كالمثال السابق ، فى حين أن الفرزدق مثلا لا يتقيد بهذه الديباجة ناسبا فيهجم على موضوعه أو ينسب موجزا جدا وكذلك الأخطل إلا أن تغلب عليه الخمريات أو ينسب نسيبا لا روح فيه ، فاقرأ رائية الأخطل : —

خفَّ القطينُ فراحوا منكَ أو بكروا   وأزعجتهم نوًى في صرفها غِيَرُ[1]

واقرأ يائية جرير : —

ألا حيِّ رهبى ثم حيِّ المطاليـــا   فقد كان مأنوساً فأصبح خاليـــا[2]

أو لاميته : —

لمن الديارُ كأنهـــا لم تحلَلِ   بين الكِناسِ و بين طلحِ الأعزلِ[3]

أو بائيته : —

أقلِّي اللـومَ عاذِلَ والعِتـــابا   وقولي إن أصبتُ لقد أصـــابا[4]

كذلك اعتمد الهجاء على صدق حِسّه ، وشدة تأثره ؛ وتحامل خصومه وتألبهم عليه ، وكثرة ما نالوه من نواحي فقره ، وهوان حسبه ، وقلة جوده ، فكان يثور عليهم وينشر مخازيهم أو يخلقهـا في صور مضحكة ساخرة انتقاماً لنفسه وتنفيساً عنها ما بها من غيظ واستجابة (لمركب النقص) الذي أصابه ، وساعد ذلك سيرورةُ شعره لسهولة حفظه وعجيب خياله كقوله للأخطل :

والتغلبي إذا تنحنحَ للقِــرى   حكَّ استه وتمثّل الأمثـالا[5]

وقوله للراعي : —

فغض الطـرف إنك مِن نُمَـير   فلا كـعباً بلغتَ ولا كلابا[6]

ومن الملاحظ أن الهجاء بلغ على أيدي هؤلاء الفحول حدّ السِباب والفحش إلى درجة لم يعرفها الشعر العربي من قبل كما وكيفا .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٨ .
(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ١٧٢ .
(٣) نفس المرجع ص ٢١١
(٤) نفسه ص ٤٣٢
(٥) نقائض جرير والأخطل ص ٨٩
(٦) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٤٦

وقد ظفر الفخر عند الفرزدق بطبع قوى ، وحسب ضخم ، وغنى عريض ، ومفاخر شتى ، وأيام عدة ، فاستمد منها عتاداً مكيناً وأسلوباً جزلا وكان سمته الغالبة فى النقائض وإن لم تخل قصائده من هجاء مقذع فاحش ، واختلاق المخازى ، وأخذ بالسباب ، ليرد بذلك على جرير كما أن جريراً وجد فى تميم عامة مآثر شتى ، وفى يربوع رهطه مفاخر وأياما أشاد بذكرها فى نقائضه ، وفى قيس عيلان مواقفها ووقائعها التى وضعها أمام زميليه ، تجد الفرزدق قوى الفخر فى لاميته : —

إنَّ الذى سمكَ السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعـزُّ وأطولُ[١]

وفى ميميته : —

تَحِنُّ بزوراء المدينـةِ ناقتى ... حنينَ عَجُولٍ تبتغى البوَّ رائم[٢]

وفى فائيته : —

عَزفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعزِفُ ... وأنكرتَ من حَدراءَ ما كنت تعرف[٣]

وفى لاميته : —

سمونا لنجرانَ اليمـانى وأهلِه ... ونجرانُ أرضٌ لم تُدَيَّثْ مقاوِلُه[٤]

وفى نقضائضها لجرير ، وعند الشعراء المغمورين — فى باب النقائض — مثل لجميع ماسبق ترد عليك فيما يلى .

وقد وجد الأخطال فى أيام تغلب القديمة والحديثة مدداً لفخره كما فخر بدارم على يربوع وقيس عيلان ، واستطاع أن يهجو جريراً بما هجاه به الفرزدق ويعرض ذلك فى صور قبيحة أيضاً كقوله فى رهط جرير : —

قوم إذا استنبح الأضيافُ كلبَهُمُ ... قالوا لأمهـم : بُولى على النار[٥]

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٢ . (٢) نفس المرجع ص ٣٤٣ .
(٣) ص ٤٥٨ . ج ٢ (٤) ج ٢ ص ٦٠٠ .
(٥) نقائض جرير والأخطل ص ١٢٥ .

من قصيدته : —

ما زال فينا رِباطُ الخيلِ مُعلمةً وفى كُلَيبٍ رِباطُ الذل والعار

ونعينا الرثاء ، فلما رثى جرير زوجه خالدة بنت سعد أم ابنه حزرة بقصيدته : —

لولا الحياء لعادني استعبارُ ولزُرتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ[1]

هجا فيها الفرزدق والبعيث فنقضها عليه الفرزدق بقصيدته : —

أعرفتَ بينَ رُوَيّتينِ وحَنْبَلٍ دِمناً تلوحُ كأنّهما الأسطارُ[2]

وهجا فيها جريراً وزوجه : —

كانت منافِقةَ الحياةِ ، ومَوتُها خزيٌ علانية عليك وعارُ

فلئن بَكَيتَ على الأتانِ لقد بكى جزعاً غداةَ فِراقها الأعيارُ

تبكِي على امرأةٍ وعندكَ مثلُها قمساء ليس لها عليكَ خِمارُ

وهكذا كانت الفنون كلها مَعرِضاً للنقائض ، وأدواتِه الناطقة ، يدافع بها الشعراء عن أنفسهم أو يردّون عن غيرهم من الشعراء ومن يلوذ بهم كما هو مقرر معروف[3] .

هذه الفنون ، على الرغم من التطور الذى أصابها فى القرن الأول ، اعتمدت فى معانيها على الأنساب ، والأحساب ، والأيام ، والدين ، والخلق ، وتجويد الشعر ، وعلى حوادث وأمور خاصة طارئة حقيقية أو خيالية مختلفة ، كحادثة السيف ، وجعثن ، والزبير بن العوام ، وجارية جرير ، وأزواج الفرزدق ، وشناعات قيس مع تغلب ، وغيرها تناولها الشعراء ونشروها فى نقائضهم الباقية ، وفى الفصلين التاليين نلم بهولاء الشعراء و بتلك العناصر أو المقومات .

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٨٤٧ جـ ٢ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٦٦

(٣) المرجع السابق ص ٢ — ٦ و ١٢٧ و ٤٥١ و ٥٣٧ و ٥٧٦ .

الفصل الثالث

شُعَراء النقائض الأموية

— ١ —

سُئل جرير : مَن أشعرَ الناس ؟ فقال للسائل : قُم حتى أعرفَك الجواب ، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمصّ ضَرعها ، فصاح به : اخرج يا أبَتِ فخرج شيخ دميم رَثّ الهيئة وقد سال لبن العَنز على لحيته ، فقال ألا ترى هذا ؟ قال نعم . قال : أو تعرفُه ؟ قال : لا ، قال: هذا أبى ، أفتدرى لم كان يشرب من ضَرع العنز ؟ قال : لا . قال مخافةَ أن يُسمع صوتُ الحلْب فيُطلبَ منه لبن . ثم قال : أشعر الناس مَن فاخر بمثل هـذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم جميعاً[(١)] .

هذه القصة ، على فرض وضعها ، تدل على كثرة من فاخرهم جرير حتى بلغوا ثمانين شاعراً ، وإن كانت المفاخرة لايتحتم أن تكون فى صورة المناقضة بوضعها الإصطلاحى المعروف . كذلك يحسن أن تلاحظ منذ الآن أن لفظ مفاخرة معناه تبادل الفخر من جانبين ، فهل كان بين جرير وبين هؤلاء الثمانين مفاخرة من الجانبين أو أن الفخر كان أكثر من ناحية جرير على أقل تقدير ؟ ومن هم الثمانون شاعرا الذى التحم معهم جرير فى سبيل أبيه ؟ ألا يجوز أن تكون كلمة (شاعرا) هنا من باب التغليب وأن من بين من افتخر عليهم أو هجاهم عشائر أو أناسى ليسوا من الشعراء ؟ !

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٤٩ دار الكتب

وقال الأصمعي ، وذكر جريرا فقال : كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرا فينبذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحداً واحداً ومنهم من كان ينفحه فيرمى به ؛ وثبت له الفرزدق والأخطل. وقال جرير : والله مايهجونى الأخطل وحده وإنه ليهجونى معه خمسون شاعراً كلهم عزيز ليس بدون الأخطل ، وذلك أنه كان إذا أراد هجائى جمعهم على شراب ، فيقول هذا بيتاً وينتحل هو القصيدة بعد أن يتموها(١) .

ورواية جرير عن الأخطل وشركائه تقرب منها رواية لجرير أيضاً وردت فى إحدى نقائضه حيث يقول : —

أعددتُ للشعراءِ كأساً مُرّةً ... عندى مُخالطُها السِمامُ المنقَعُ
هَلاّ نهاهُمْ تِسْعَةٌ قتّلتُهم ... أو أربعون حدوتُهم فاستجمعوا
خصّيتُ بعضهمُ وبعضٌ جُدِّعوا ... فشكا الهوانَ إلى الخصِىِّ الأجدعُ
كانوا كمشتركين لما بايعوا ... خسروا وشُفَّ عليهمُ فاستوضِعوا
أفينتهون وقد قضيتُ قضاءهم ... أم يصطلون حر نار تَسْفَعُ
ذاق الفرزدقُ والأخيطلُ حرها ... والبارقىُّ وذاق منها البَلْتَعُ
ولقد قسمتُ لذى الرقاع هديّةً ... وتركتُ فيه وهيّةً لا تُرقَعُ
ولقد صككتُ بنى الفدوكس صكةً ... فلقوا كما لقى القُرَيد الأصلعُ(٢)

القرد الأصلع هو الفرزدق .

أما قول الأصمعى فيهبط بالعدد إلى نحو النصف ، وهذا شىء يرد تحقيقه . وأما حكاية جرير فلا أظنها حقا بهذه الصورة التى وصفها ، وإن لم تبعد كثيراً عن قول الأصمعى .

---

(١) نفس المرجع ص ٨ . (٢) النقائض ص ٩٦٦

بقيت قصة أخرى طريفة خلاصتها أن جرير وفد على الحجاج فسأله : علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقـــال جرير : والله إنى ما أظلمهم ولـكنهم يظلمونني فأنتصر[1] ، وأخذ يسرد له من التحم بهم فى الهجاء، فـكانوا عشرة ناقضوه هم غسان بن ذهيل السَليطى ، والبعيثُ المجاشعى ، والفرزدق ، والبلتَعُ وهو المستنير ابن سَبْرة العنبرى وهؤلاء من تميم ، ثم الأخطل التغلبى ، وجَفنة الهِزَّانى وكلاهما من ربيعة بن نِزار ، ثم الراعى من قيس عيلان ، ثم سُراقة البارقى من كهلان ، والعباس بن يزيد الـكِندى ، وسُحمةُ الأعور النبهانى الـكهلانى وهؤلاء من اليمن وهم جميعاً غير ستة أعانوا عليه هم المرّار بن مُنقذ التميمى أعان عليه الفرزدق، وحكيم ابن مُعَيَة التميمى أعان عليه غسان السليطى ، وثور بن الأشهب بن رُميلة النهشلى من تميم أعان عليه الفرزدق ، والدَلهَمَس أحد بنى ربيعة بن مالك بن زيد مناة من تميم أعان عليه الفرزدق ، وقَبَضَـة الـكلب أعان الدلهمس وقومه ، وعِلْقَة ، والسرَنْدى من بنى الرِّباب (أحياء من ضبّة بن أدّ بن طابخة من مُضر) أعانا عليه ابن لجأ ، ثم اثنان روَيا شعر الفرزدق هما هُبيرة بن الصلت الربَعى من ربيعة ابن مالك من تميم ، والطهَوى من بنى طُهَيّة بنت مالك بن حنظلة التَميمى ، وهناك عَمرو بن لجأ الذى عبث بشعر جرير وأفسد روايته وسخر به ، وعُقبة بن السُبَيع الطُهَوى وكان نَدَردم جرير ، وهؤلاء جميعاً هجاهم جرير دون أن يناقضوه وإن هجاه بعضهم[2] .

وهذه القصة كما أوردها أبو الفرج يظهر أنها موضوعة ، لعدة أمور :

أولها : أنها تدل على أن هذه الوفادة كانت أول ما وفد جرير على الحجاج من قبل والٍ له على البَصْرة هو الحكم بن أيوب الذى رأى فى جرير أعرابياً شيطاناً وشاعراً

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ١٤ دار الـكتب ، وراجع النقائض ص ٥٠٥ بيت ٣٥ و ٣٦

(٢) اقرأ القصة فى الأغانى ج ٨ ص ١٤ دار الـكتب

ظريفاً فبعث به إلى الحجاج ، وفى هذا الوقت لم يكن جرير قد التحم بالأخطل ، مثلا ، فإن المقرر أنه التحم به بعدما عرف وشهر بتقائضه مع الفرزدق وقدم الأخطل على بشر بن مروان فرشاه محمد بن عمير بن عطارد المجاشعى ليفضل الفرزدق على جرير ففعل فطار بينهما التهاجى ، والقصة تدل على أن جريراً كان مجهولا عند الحجاج وخليفته الحكم بن أيوب ، ولم يكن اتصل بدمشق ورجال الأسرة الحاكمة .

وثانيها : أن قصة جرير مع جَفنةَ الهِزّانى تدل على أن جفنة سأله الحلة التى كساه إياها الوليد بن عبد الملك ، ولم يكن الوليد خليفة — إذا صح أنه أعطاه إياها وهو خليفة وهو أمر راجح — حين قدوم جرير على الحجاج أول مرة ، إذ كان الحجاج هو الذى بعث بجرير إلى عبد الملك بعدما سارت مدائحه فى الحجاج ، وكانت صلة الشاعر بالخليفة الوليد بعد ذلك لا قبله .

وثالثها : أن أسلوب القصة نفسه يفضح وضعها ويدل عليه ، فإنك تجد الحجاج يسأل جريراً عن خصومه واحداً واحداً فيذكر جرير غسان مثلا فيقول له الحجاج : ماذا قال لك ؟ فيجيبه ، ثم يسأله الحجاج : فماذا قُلتَ له ؟ فيجيبه وهكذا يجرى السياق طبعياً مؤيداً حجة جرير فى أنهم يبدأونه الهجاء فيرد عليهم منتصفاً لنفسه ولكن العجيب أن هناك خصوماً لم يبدأوا جريراً بالشعر وإنما رووا شعر الفرزدق أو أعانوا على جرير ، فنجد الحجاج — وكأنه يعرف هذا الغيب — لا يسأل جريراً عما قال هؤلاء ، وإنما يسأله تواً : فما قُلتَ له ؟ فيجيب جرير بما قال . تجد ذلك شأنه مع ثور بن الأشهب النهشلى ، والدَّلهَمس ، وهبيرة بن الصلت وغيرهم .

هذه القصة بصورتها الواردة فى الأغانى موضوعة من غير شك ولكنها

لا تنفى التحام هؤلاء مع جرير وأن منهم مَن ناقضه كما رأيت فى العشرة الأولين .

وعلى أية حال فهناك رواية الأصمعى تنص على أن من هاجاهم جرير بلغوا ثلاثة وأربعين شاعراً وهى صريحة فى أن المهاجاة كانت من الجانبين ، وهناك رواية جرير الثانية تدل على أن عصبة تبلغ الخمسين شاعراً تعين عليه الأخطل ، وهذه الرواية ليست فى قيمة سابقتها ، إذ لا تنص على أن أحداً من الخمسين قد التحم بجرير مباشرة ، وإن كان الخمسون أعواناً للأخطل ، وهناك العشرون الذين ذكرهم جرير للحجاج ، أو الذين ورد ذكرهم فى هذه القصة ، فلم يناقضه منهم إلا عشرة والباقون إلبٌ عليه .

بقيت رواية الثمانين التى رويت عن جرير وهى مشهورة سائرة وإن لم تعين أحداً منهم ، وهذه يصح أن نقرنها بروايته عن الخمسين أعوان الأخطل لعلها تجمع إليهم سواهم ممن انفردوا بالهجاء أو كانوا مع الفرزدق أو البعيث ، أو كانوا أناساً مهجوين دون أن يكونوا شعراء هجائين .

فما الرأى فى هذا العدد الذى اتصل بجرير فى هذه المعركة الهجائية أو الفخرية كما تقول الروايات ؟!

رجعنا إلى ما بأيدينا من المراجع فتبين لنا أن الذين اتصلوا بجرير فى باب المهاجاة طوائف أربعة : —

١ – شعراء التحم بهم فى صورة مناقضة وهؤلاء لا يتجاوزون ستة عشر شاعراً فى الغالب ، ذكرنا منهم عشرة من قبل ونضيف إليهم عدى بن الرقاع ، والحِمّانى ، والصلتانَ العبدى ، وخُليد عَيْنَيْن ، وأبا الورقاء عقبة بن مليص المقلدى ، وعَمْرَو بن لجأ التيمى .

٢ — وشعراء وغيرهم أعانوا عليه الفرزدق وغيره فهاجهم وقد ذكرنا بعضهم فيما مضى .

٣ — وشعراء وأحياء وأناسيّ هجاهم جرير لأسباب شتى وهؤلاء أكثر عدداً فقد يتجاوزون الستين ، وقد يكون بعضهم هجاء .

٤ — وشعراء عرضوا بينه و بين الفرزدق فلم تلتفتا إليهم كالعين المنقرى ، وربما كان هؤلاء أقل عدداً .

وجملة هذه الطوائف تبلغ الثمانين أو تزيد[١] .

وربما كان الغريب أن نجد رجلا ، كمُخَرِّق بن شُرَيك من بنى ذُهل بن الدُول بن حنيفة ، ضلمهُ مع جرير ، فينهاه الفرزدق مرتين فلم ينته ، فيهجوه فيردّ عنه جرير[٢] .

أمام ذلك تكون قصة جرير مع الحجاج سليمة لامن ناحية صورتها وتاريخها لكن من حيث ماورد فيها من الشعراء الذين ناقضوا جريراً ، أوهاجوه، أوأعانوا عليه ، أورَووا شعر الفرزدق . ثم تكون رواية الأصمعى صحيحه إذا صح أن الذين هجاهم كان فريق منهم ، على الأقل ، يهجونه أيضاً.

وأخيراً لا يصح عدد الثمانين إلا إذا تساهلنا فى معنى (فاخر) الواردة فى كلام جرير . وأردنا منها مجرد الاشتباك الهجائى ولو من ناحية جرير وحده .

وإتماماً لهذه المسألة نذكر ، أولا ، أن الفرزدق ناقض مع جرير الطِرِمّاح ، وابن رُمَيلة النهشلى ، والبعيث ، ومسكينا الدارِمى ، والأصم الباهلى ، وهاجى جندل بن الراعى وذا الأهدام الجعفرى ، و بنى جعفر ومنهم حاجب وحبيب

---

(١) راجع ديوان جرير للصاوى ، والأغانى ج ٨ ، والشعر والشعراء وطبقات ابن سلام والنقائض .

(٢) النقائض ص٨٤٦

ابنا حميصة[1] وأن الأخطل ناقض مع جرير نُفَيع بن صفار المحاربى ، وتميم بن أبى مقبل العامرى ، كما هجا أرهاطاً وأشخاصاً آخرين وفخر عليهم . ثم نذكر ، ثانياً ، أن كثرة الشعراء الذين التحموا مع جرير من تميم ؛ فقد نشأت نقائضه فى رهطه بنى يربوع ، وامتدت إلى أحياء تميم ، ثم تجاوزتها إلى غيرها من القبائل . كما يتضح مما يلى . وإذا حاولنا ردّ الذين هاجاهم جرير إلى قبائلهم تبين لنا أن حظ تميم أكثر والباقى موزع بين قيس ، وربيعة ، واليمن ، وقريش ، والموالى .

— ٢ —

أما كيف التحم شعراء النقائض معاً فمن الخير للباحث أن يساير تاريخ هذه النقائض الخاصة ثم يفرغ للاشارة إلى شعراء النقائض العامة .

ولما كان جرير حجر الزاوية فى هذا الفن ونقطة اشتراكه رأينا أن نبدأ منه فى بيان مواقف الشعراء فى هـــذه المناقضة راجعين أولا إلى مقدمة نقائضه مع الفرزدق .

١ — كانت بَكْرَةُ بنت مليص أحد بنى مُقَلَّد بن كليب بن يربوع من تميم تحت تميم بن عُلاثة أحد بنى سَليط بن يربوع أيضاً ، فضربها تميم فشجها ، فلقى أخوها زوجَ أختــه تميما فلامه على ضربه وشجه إياها ، فوقع بينهما لحاء ، فشج تميم أخا بكرة أيضاً ، فحمــل هلالُ بن صَعصعة أحد بنى كليب ثلث الدية وهو ثلاثة وثلاثون بعيراً وثلث بعير ، وكذلك دية الآمة (أى الشجّة) فالتأم ما بينهم على دخن .

ثم تنازع بنو جُحيش بن سيف بن جارية بن سليط وبنو الخَطَفَى — عشيرة

(١) ديوان الطرماح والنقائض والأغانى ، وفى النقائض بخاصة ص ٨٠٢ و ٩٠٩ و ٩٠٧ و ٩٠٢ والشعر والشعراء وطبقات ابن سلام .

جرير — فى غدير بالقاع ، فجعلت بنو الخطفى تهجوهم ، وكان بنو جُحيش مُفحَمين لا يقولون الشعر ، فاستعانوا (بغسّان) بن ذُهيل بن البرّاء بن سَليط ، فهجا غسانُ بنى الخطفى عن بنى عمه بنى سيف بن حارثة ، وجرير بن عطية يرعى غنم أبيه إذ ذاك ، فمر ذات يوم على غسان يُنشد بعشيرته ، فركب بعيراً وأقبل حتى أشرف على غسان والجماعةِ فرجز بهم رجزاً قبيحاً بالغ فيه ؛ ولحم التهاجى بين جرير وغسان لذلك ، وأخذ التهاجى صورة المناقضة الشعرية بعد الرجز ، فقال غسان أبياته :

لعمرى لَئنْ كانت بَجيلةُ زانها … جرير لقد أخزى كُليباً جريرُها

فأجابه جرير بقصيدته : —

ألا بكرت سَلمى فجدّ بُكورُها … وشقّ العصا بعد اجتماعٍ أميرُها

واستمرا يتلاحيان . وقد ردّ على جرير أيضاً أبو الورقاء عُقبةُ بن مُلَيص المقلّدِى من كليب بن يربوع فقال : —

إنّ الذى يَسعى بجُرٍّ بلادِنا … كمبتحثٍ ناراً بكفّ يُثيرها

وما حار بيننا مِن مَعَدّ قبيلةٌ … فتُفلِحَ إلا وهى تدمَى نحورُها

وإلاّ رميناها بصدر وكلكل … من الشر حتى ما يهرّ عقورها

أبِالخطفى وابنَى مُعيدٍ ومُعرِضٍ … تُسَدِّى أموراً جَمّةً لا تُثيرها

وبينا كان غسان ذات يوم يُنشد لَبيد بن عُطارد بن حاجب بن زُرارة بالكُناسة ويحدثه إذ جاء (جَنْباء) بن جَناب الكلبي ولاحى غسان لاعتزازه بنفسه (وكانت تميم حالفت كلبا اليمنية بعد مقتل عثمان) فقطع هذان الحلفَ وأغار غسان على الكلبي وأخذ إبله فزحفت بنو ثعلبة بن يربوع إلى بنى سَليط فحملها قيس بن حنظلة السليطى عن أخواله ، فقال غسان فى ذلك ، وقد جاء الكلبي يَنشد إبله : —

يُسائلنى جبناء : أين محاضةُ   فقلتُ له : لا تعلُ عثرةُ تاعِس

فأجابه جرير عن جَنباء وحضّ عليه بنى عاصم وعيّره الغــدر بجار بنى يربوع فقال : —

ألاحَيِّ أطلالَ الرسومِ الدوارسِ   وآرِيَّ أمهــارٍ ومُوقَد قابسِ

القصيدة ، والح جرير على بنى سليط بالهجاء .

٢ — وفى أعقاب ذلك أتى (العَنّاب) أعورُ بنى نبهان الطائى بنى أخته (كهفة) من ثُمامة بن سيف بن جارية بن سليط يسترفدهم فى حمالة أو حفر رَكيّة فأعطوه فأرضوه وزينوا له أن يسأل جريراً ، وكان جرير لا يعطى أحداً لا يخافه — وإنما أراد بنو ثمامة أن يمنعه جرير فيهجوه — فلم يرض الأعور النبهانى بحباء جرير فانصرف فهجا جريراً فقال : —

قلتُ لها : أُمّى سَليطا بأرضها   فبئسَ مُناخُ النازلين جرير

ولو عندَ غسانَ السَليطىّ عرّست   رغا قَرَنٌ منها وكاس عَقيرُ

وأنت كُليبىٌّ لـكلابٍ وكَلبةٍ   لها عندَ أطنابِ البيوت هريرُ

فقال جرير يرد عليه بقصيدته : —

عفا ذو حَمامٍ بعدنا وحفيرُ   وبالسرِّ مَبدًى منهمُ ومَسيرُ

يقول فيها : —

وجدنا بنى نبهانَ أذنابَ طيىءٍ   وللناسِ أذنابٌ تُرى وصُـــدورُ

وأعورَ مِن نبهانَ أمّا نهـارُهُ   فأعمى وأما ليلهُ فبصـــيرُ

٣ — وكان (البَعيثُ) المجاشعى الدارمى من تميم قد سُرقت إبلُه ، سَرَقها ناس من يربوع يقال لهم بنو ذُهَيل ، فطلبها البعيث حتى وجدها فى أيديهم ، فقالوا : إنما كانت مع لص فانتزعناها منه ، وكانت بينه و بينهم صلة رحم من قبل النوار بنت مجاشع ، وكانت ولدتهم ، وغسان يومئذ يهاجى جريراً ، فجعل البعيث

يقول : وجدنا الشرف والشعر فى بنى النوار بنت مجاشع ، فبلغ ذلك عطية بن جعال أحدَ بنى غدانة بن يربوع ، فقال :

وما أنت وهذا يا بَعيث ؟ أتدخل بين يربوع وأنت رجل من بنى مجاشع ؟!

فبلغ ذلك جريراً فهجا البعيثَ وقومَه بقصيدته : —

طاف الخيالُ ، وأينَ منكَ ، لِماما فارجع لزورِكَ بالسَّلامِ سَلاما

فقال البعيث وقد أغضبه قومه بعد ما كان صفح عن بنى الخطفى : —

أجريرُ أقصِرْ لا تَحِنْ بك شِقوةٌ إن الشقىَّ ترى له أعـــلاما

فركب عطاء بنُ الخطفى إلى بنى مجاشع فقال لهم : أنتم الإخوة والعشيرة وقد قلنا فانتهوا عنا ، فأبى البعيثُ إلا هجاءهم فالتحم الهجاء بين جرير والبعيث فسقط (غسان) وقال البعيث يهجو جريراً : —

ألا حَيِّيا الربعَ القَواء وسَلِّما ورَبْعا كجُثْمانِ الحَمامةِ أدهَما

فقال جرير يرد على البعيث : —

لِمن طَلَلٌ هاجَ الفؤاد المتيَّما وهَمَّ بسلمانينِ أن يَتَكَلَّما

وألح فيها على بنى مجاشع بالهجاء ، وأخذ يتهاجيان بالنقائض .

٤ — وكان (الفرزدق) قبل قول البعيث ، وقد هجا بنى رُبيع بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة فقال : —

أترجو رُبَيعٌ أن تجيء صِغارُها بخيرٍ وقد أعيى رُبَيعا كِبارُها

فلما سمعَ قولَ البعيث فى بنى كليب : —

أترجو كُليب أن يجيء حَديثُها بخيرٍ وقد أعيى كُلَيبا قديمُها

قال الفرزدق : —

إذا ما قلتُ قافيةً شَرودا تنخَّلها ابنُ حمراء العِجانِ

فأجابه البعيث : —

تناومتم لأعين إذ دعاكم بنى القينات للقين اليمانى
تبادره سيوف بنى حوى كأن عليه شققة أرجوان[1]

حتى إذا غم جرير نساء بنى مجاشع أتين الفرزدق — وكان قيد نفسه حتى يجمع القرآن وعاهد الله ألا يهجو أحدا أبدا — فقلن : قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك ، فلحيت شاعر قوم فأحفظنه ، ففض قيده ، وكان قد تهيأ بالتحامه مع جرير . فلما رأى ما وقع فيه البعيث قال قصيدته : —

ألا استهزأت منى هنيدة أن رأت أسيرا يدانى خطوه حلق الحجل

يلحى البعيث ، وينهض للدفاع عن قومه فى وجه جرير ويفخر بنفسه وقومه ؛ فقال البعيث يهجو جريرا ويجيب الفرزدق : —

أهاج عليك الشوق أطلال دمنة بناصفة الجوين أو جانب الهجل

وفيها يلحى الفرزدق ، ويسخر بقيده ، ويفخر بنفسه ، وذبه عن رهطه ، ويذكر مآثر قومه وأيامهم ، ويهجو جريراً وبنى كليب .

فقال جرير يجيب البعيث ويهجو الفرزدق : —

عوجى علينا واربعى ربة البغل ولا تقتلينى ، لا يحل لكم قتلى

نعى فيها على الفرزدق مسلكه معه ، وذكر إشادته بتميم ودفاعه عنها ، وهجا البعيث والفرزدق ، وافتخر بيربوع ، وأشار فى آخرها إلى أبى خالد الحارث بن أبى ربيعة المخزومى والى البصرة من قبل عبد الله بن الزبير ، وأثنى عليه ، ورجاه ألا يشمت به أعداءه المتربصين به الهلاك .

وظاهر من النصوص والروايات[2] أن الفرزدق كان حريصاً ألا يلتحم

---

(١) راجع شرح البيتين فى النقائض ص ١٣٥ (٢) راجع النقائض ص ١٢٣

بجرير فى المهاجاة ، ولـكنه وجد نفسه محرجاً فقد هجا جرير رهطه فى اشتباكه مع البعيث ، وأحفظه نساء قومه ، وجره البعيث إلى المعركة ، فلم يستطع أن يقف بعيدا واضطر بعد ما سبق ذكره أن يجيب جريراً ولـكنه يهجو معه البعيث بهذه القصيدة التى يقول أبو عُبيدة إنها أول قصيدة هجا بها جريرا : —

ألم تر أنّى يومَ جوّ سُوَيقةٍ ... بكيتُ فنادتنى هُنيدةُ : ما ليا

دلّ فيها على البعيث ، ونفاه عن مجاشع ، ورماه بجر الشرور : —

وما أنت مِنا غيرَ أنك تدعى ... إلى آل قُرْطٍ بعد ما كنت عانيا

تكونُ مع الأدنى إذا كنتَ آمنا ... وادعى إذا غَمّ الفتاة التراقيا

ثم التفت إلى جرير وقومه ، فأنذره بالويل لما تعرّض له بالهجاء ، ونزل بقومه إلى الحضيض أمام مجد دارم وسنائهم وجلال أحسابهم .

فأجابه جرير بنقيضته : —

ألا حَيّ رَهْبَى ثم حَيّ المطاليا ... فقد كان مأنوساً فأصبح خاليـــا

وفيها يشتفى بالنسيب الرقيق الرائع ، ثم يورد هذه الأبيات التى عاتب بها ابنه أو أباه أو أخاه أو عمه على اختلاف الروايات والتى يقال إن يزيد بن معاوية تمثل ببعضها أمام أبيه فظنها له ، وبها توسل جرير حتى دخل على يزيد لما ولى الخلافة ، ثم افتخر بنفسه ومكانته من خندف والتفت إلى (قيون مجاشع) الذين غدروا بالزبير فى أعقاب وقعة (الجمل)

فقال البعيث للفرزدق — لما وقع الشر بينه وبين جرير وجعلا لا يلتفتان إلى البعيث ، فقال النا سقط البعيث — :

أشاركتنى فى ثعلبٍ قد أكلته ... فـلم يبقَ إلا رأسُه وأكارِعُهُ

فدونَك خُصْيَيه وما ضمّتاستُه ... فإنك قمّامٌ خَبيث مراتِعُه

ستَلفِظُ يوماً إن تمطّقتَ لحمَهُ ... وتدْسَعُ منه بالذى أنت بالعُه

وقال البعيث لبنى عِقّان بن محمد بن سفيان بن مجاشع فى شىء كان بينه و بين الفرزدق : —

و إنى لأستبقيكُمُ ولقد أرَى ... لبئسَ الموالى لو يَرِقَ لكم عَظمى

همُ استنقذوا منى الكُليبيَّ بعدما ... هوَى بين أنياب شبَكن مِن اللُخَمِ

فلقى البعيثَ ناجيةُ بنَ صعصعة أخو غالب أبى الفرزدق ، فقال له ناجية : أنت المعيِّرنا بأعين ، والشاتمُ أعراضنا ، والملقى ذنبك علينا ، وقد منّنا عليك ، ورمينا دونك إذ كلّت مراميك ، فقال البعيث لناجية بن صعصعة فى ذلك : —

أناجىَ ، إنى لا إخالكَ ناجيا ... ولا مُفلِتِى إلا رَكوباً مُوَقَّما

أناجِىَ قد عُدَّ اللئامُ فلا أرى ... من الناسِ أدنى من أبيكَ وأوضعا

تمنيتم أن تشتمونا وتُترَكوا ... أصعصعَ للنُوكِ الضَلَّلِ صَعْصَعا

وما ترك الهاجون لى فى أديمكم ... مَصَحّحا ، ولكنّى أرى مُتَرَقَّعَا

قال أبو عبيدة : فلم يزل الفرزدق وجرير يتهاجيان حتى هلك الفرزدق .

٥ — وأما (الأخطل)[١] فقد قيل إنه لما بلغه تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدِر إلى العراق حتى تسمع منهما فتأتينى بخبرهما ، فانحدر مالك حتى لقيهما ثم استمع منهما ، ثم لقى أباه فقال : وجدتُ جريراً يغرف من بحر ، ووجدت الفرزدق ينحت من صخر ، فقال الأخطل : الذى يغرف من بحر أشعرهما ، ثم قال يُفضّل جريراً الفرزدق : —

إنى قضيتُ قضاءً غيرَ ذِى جَنَفٍ ... لمّا سمعتُ ولما جاءنى الخَبَرُ

---

(١) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤ و ٨٧٩ والأغانى ج ١١ ص ٦٦ وج ٨ ص ٦٢ و٧٢ و٣١٥ ونقائض جرير والأخطل ص ١٩٧ .

إن الفرزدقَ قد شالت نعامته   وعضّة حيّة من قومهِ ذَكَرُ

فلما ولى بشرُ بن مروان الكوفةَ سنة اثنتين وسبعين هجرية قدم عليه الأخطل فبعث إليه محمد بن عُمير بن عطارد المجاشعى بألف درهم و بغلة وكسوة وخمر وقال له : لا تعِنْ على شاعرنا واهجُ هذا الكلب (يعنى جريراً) الذى يهجو بنى دارم فإنك قد قضيتَ له على صاحبنا فقل له أبياتاً ناقض لصاحبنا عليه ، فقال فى ذلك الأخطل : —

إخسأ كُليبُ إليكَ ، إن مُجاشِعاً   وأبا الفوارسِ نهشلًا أخوانِ
قوم إذا خطرت عليك قُرُومهم   جعلوكَ بين كلاكلٍ وجِرانِ
و إذا وضعتَ أباكَ فى ميزانهم   رجحوا وشال أبوكَ فى الميزانِ
ولقد تجاريتم إلى أحسابكم   وبعثتمُ حَكَماً من السلطانِ
فإذا كُلَيبُ ليس تعدل دارما   حتى تُوازنَ حَزْرَماً بأبانِ
أجريرُ إنك والذى تسمو له   كمسيفةٍ فخرتْ بحدجِ حَصانِ
و إذا سمعتَ بدارمٍ قد أقبلوا   فاهْرَب إليك مخافةَ الطوفانِ

فبلغ ذلك جريراً فقال يرد عليه حكمه و يهجو محمد بن عُطارد و بنى تغلب والفرزدق وقومه و يفتخر برهطه ، وذلك فى نقيضته المشهورة : —

لِمَن الديارُ ببُرْقَةِ الرَّوْحانِ   إذ لا نبيعُ زمانَنا بزمانِ

فرد الفرزدق على جرير بنقيضته : —

يابنَ المراغة والهجاء إذا التقت   أعناقُه وتماحكَ الخصمانِ

و بذلك دخل الأخطل المعركة مع الفرزدق ، فندم الأخطل لما هجاه جرير وقال : ماأدخلنى بين رجلين من بنى تميم ، وسقط المتعرضون بين جرير والفرزدق، وتكاوح الشر بين الثلاثة ، ولما بلغ الأخطلَ قول جرير : —

لاقَيْتَ مُطَّلِعَ الجِراء بنابِهِ   رَوْقٌ شَبِيبَتُهُ وعمرُكَ فانِ

قال الأخطل : صدق ، إنه لشاب : ولقد ولّيتُ . . . وبقى فى المعركة حتى هلك ، فقال فيه جرير : —

زار القبورَ أبو مالكٍ   فأصبح أهونَ زُوّارِها

فأجابه الفرزدق فقال : —

زار القبورَ أبو مالكٍ   برغم العُداةِ وأوتارِها[1] .

ولما سمع جرير بموت الفرزدق قال : —

هلك الفرزدق بعدما جدّعتهُ   ليتَ الفرزدق كان عاش قليلا

ثم بكى ، فسأله القوم ما يُبكيك ، قال بكيت لنفسي والله إن بقائى بعده لقليل ، إنه قلّما كان اثنان قرينان أو مُصطحِبان أو زوجان إلا كان أمد بينهما قريباً ، ثم أخذ يرثى الفرزدقَ ، وما غبر بعده إلا قليلا حتى هلك[2] .

٦ — وكان عَرادَة النُميرى من قيس عيلان نديما للفرزدق فقدم (الراعى) البَصرة فاتخذ عَرادة طعاماً وشراباً ودعا الراعى ، فلما أخذت الكأس منهما قال عَرادة يا أبا جَندل : قُل شعراً تفضّل به الفرزدق على جرير[3] فلم يزل يزيّن له حتى قال : —

يا صاحِبَيَّ دنا الأصيلُ فَسِيرا   غلب الفرزدقُ فى الهجاء جَريرا

وكان الراعى شاعر مضر وذا سِنّها فلامه جرير وقال له : إننى وابنَ عمى هذا نستَبُّ صباحَ مَساءَ وما عليك غَلَبةُ المغلوب . ولا لكَ غلبة الغالب ، فإما أنْ تدعنى أنا وصاحبى ، وإما أن يكون وجهٌ منك إلىَّ أن تُغلّبنى عليه فإنى أحق

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٤١ .   (٢) نفس المرجع ص ١٠٤٥ .
(٣) ص ٢٧، والأغانى جـ ٨ ص ٢٩ .

بذلك منك لانقطاعى إلى قيس ، وذبى عنهم ، وحَظِّى فى حَبلهم ، فقال له الراعى ــ وهو من نُمير القيسية ــ صدقت ، نعم ، لا أبعدك من خير ، ميعادك (المِرْبَدُ) غدا ، فصبحه جرير فبينما هما يستنبث كل واحد منهما مقالة صاحبه رآهما جندل بن عُبيد الراعى فأقبل يركض على فرس له حتى ضرب وجه البغلة التى تحت أبيه الراعى وقال : مالك يراك الناس واقفاً على كلب من كليب ، وصرفه ، فحمى جرير وقال : أما والله يابن بَرْوَع لتأتين بنى نُمير بأعباء ثقال ، إن أهلى ساقوا بى و براحلتى حتى وضعونى بقارعة الطريق بالمربد ، والله ما أكسبهم دُنيا ولا أخرى إلا لأسُبَّ مَن سَبَّهم من الناس ، وإن عُبيداً بعثه أهله على رواحلهم من أكناف (خُلُصَ وهَبُّودَ) يلتمس عليها الميرة والخير ، وايم الله لأوقِرَنَّ رواحلَه مما ساء نِسوةَ بنى نُمير ، وبات جرير ليلته حتى طلع مع الصـــباح على المربد بيائيته المشهورة فى الراعى وابنه وقومه والفرزدق مفتخراً بقومه حتى ملأت قصيدته الآفاق : —

أقلِّى اللومَ عاذلَ والعتــابا　　　وقولى، إن أصبتُ ، لقد أصابا

فأجابه الفرزدق بنقيضته : —

أنا ابنُ العاصمينَ بنى تميم　　　إذا ما أعظمُ الحــدثان نابا

وكان الراعى قال وهو يريد نقضها : ــ

أتانى أن جَحش بنى كُلَيْبٍ　　　تَعرَّضَ حولَ دِجلةَ ثم هابا

فأولى أن يظَلَّ العبد يطفو　　　بحيث ينازع الماءُ السحابا

أتاكَ البحرُ يضرب جانبيه　　　أغرَّ ترى لجريتــه حَبابا

ثم كف الراعى ورأى ألا يجيبه وتولى عنه الفرزدق ذلك ، ولـكن هــذه المحالفة بين قيس والفرزدق فسدت بعد موت الراعى ، وسبب ذلك ماقال الفرزدق

فى قيس عيلان حين قُتل قتيبة فهجاه جندل بن راعى الإبل وذو الأهدام الجعفرى فهجاهما الفرزدق وهجا جريراً معهما[١] ، ووقف جرير مع بنى جعفر مناقضاً الفرزدق .

٧ — وكان (العباس بن يزيد الكِندى) لما سمع قول جرير للراعى :

إذا غضبت عليك بنو تميم … حسبتَ الناسَ كلهمُ غِضابا

قال : —

ألا رغِمت أُنوفُ بنى تميمٍ … فُساةِ التمر إن كانوا غِضابا
لقد غضبت عليك بنو تميم … فما نكأتْ بغضبتها ذُبابا
لو اطّلع الغرابُ على تميمٍ … وما فيها من السوءات شابا

فانتهز جريرٌ إثماً تورّط فيه الكندى بعد ذلك بسنين ، فقال له : —

إذا جهل الشقىُّ ولم يقدِّرْ … لبعض الأمر أوشك أن يُصابا
أعبداً حلَّ فى شُعَبى غريبا … ألُؤماً لا أبالكَ واغترابا ؟
إلى آخر ما قال مما لا نذكره هنا[٢]

٨ — وأما (سُراقة البارقى) فقد حمله بشر بن مروان وأكرهه على هجاء جرير فقال سُراقة :

إن الفرزدقَ برّزت أعراقُه … عَفواً وغُودِرَ فى الغُبار جريرُ
ما كنتَ أولَ مِخمَرٍ قعدت به … مَسعاتُهُ إن اللئيم عَثورُ
هــذا قضاء البارق وإنه … بالميــل فى ميزانكم لبَصير

ثم بعث بشر إلى جرير رسولا وأمره أن يجيبه فقال جرير : —

يا بِشرُ حَقَّ لوجهك التبشيرُ … هلاَّ غضبتَ لنا وأنت أمير ؟!

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٩٠٩ . (٢) الأغانى ج ٨ ص ٢١ .

بِشرُ أبو مَرْوانَ إن عاسَرْتَه عَسِرٌ وعند يسارهِ مَيسور
إن الكريمةَ ينصرُ الكرمَ ابْنُها وابنُ اللئيمة لِلئــامِ نَصور
قد كان حقَّك أن تقول لبارق يا آل بارقَ ، فيمَ سُبَّ جرير
وكسحتَ باستِكَ للفخار وبارِقٌ شيخان : أعمى مُقعَدٌ وكسير (١)

٩ ـ وكان (عمرو بن لجأ) التيمى من تيم الرِباب يُنشد أرجوزةً له يصف فيها إبله وجرير حاضر ، فعابها جرير ، فعاد ابن لجأ ينقد قول جرير ويعبث بشعره ، فقال جرير له إنه مُعين للفرزدق وهجاه بقوله : ـ

هَلاَّ سَــوانا ادَّرأتمْ يا بنى لجأ شيئاً يُقارَبُ أو وَحشاً لها غِرِرُ
أحينَ كنتُ سِمَاماً يا بَنى لجأ وخاطرتْ بى عن أحسابها مُضرُ
خَلِّ الطريقَ لمن يبنى المنارَ به وابرُزْ ببَرزةَ حَيث اضطرك القدَر
أنتَ ابن برزةَ منسوباً إلى لجأ عند العُصارةِ والعيدانُ تُعتَصرُ

فقال ابن لجأ يرد عليه : —

لقد كذبْتَ وشرُّ القول أكذَبُه ماخاطرَتْ بك عن أحسابها مُضرُ
بل أنتَ نَزوةُ خــوّارٍ على أمَةٍ لا يسبق الحلَبات اللؤم والخَوَرَ
ما قلتَ مِن هــذه إلا سأنقضها يابنَ الأتانِ ، بِمثلى تُنقَضُ المِرَرُ

وتهاجيا بعد ذلك (٢) .

١٠ — ووجد ابن لجأ مَن أعانه على جرير وهو (البلتع ، المستَنير بن سَبْرَة العنبرى) فقال لجرير : —

إن التى ربَّتــك لما طلَّقتْ قعدتْ على جحشِ المراغة تمرَعُ

---

(١) المرجع السابق ص ١٨ . (٢) الأغانى جـ ٨ ص ١٨ و ٧٠ والنقائض ص ٤٨٨ .

أتعيبُ مَن رَضيَتْ قريشُ صِهرَهُ ... وأبوكَ عبدٌ بالخـورنقِ أذلعُ

فأجابه جرير : —

فما مسـتنيرُ الخبث إلا فراشَةٌ ... هوتْ بين موتَجِّ الحريقين ساطعِ

نهيتُ بناتِ المستنيرِ عن الرُّقى ... وعن مَشيهنَّ الليـلَ بين المزارعِ (١)

١١ — وأقبل (جفنة الهزّانى العنزى) يمدح جريراً ويسأله فلم يعطه جرير الحلة التى طلبها فمضى جفنة إلى المرّار بن منقذ أحد بنى العدويّة ، فحمله على ناقةٍ له يقال لها القصواء ، فقال جفنة :

لَعمـرُكَ للمرّارُ يومَ لقيتُهُ ... على الشحطِ خيرٌ من جريرٍ وأكرمُ

فقال له جرير : —

لقد بعثتْ هزّانُ جفنةَ مائراً ... فآبَ وأحذى قومَهُ شرَّ مَغنَمِ

فيا راكبَ القصواءِ، ما أنت قائل ... لهزّانَ إذ أسلمتَها شرَّ مُسلِمِ

أظنُّ عِجانَ التيسِ هزانَ طالباً ... عُلالةَ سبّاق الأضاميمِ مرجَمِ

كأنَّ بنى هزّانَ حين رَدَيتُهُم ... وبارٌ تضاغت تحت غارٍ مُهدَّمِ

بنى عبد عمرو قد فرغتُ إليكم ... وقد طال زجرى لو نهاكم تقدُّمى

ورضـاء هزانيةٍ قد تحفشتْ ... على مثلِ جرباءِ الفلاةِ المعممِ (٢)

١٢ — نازع جرير بنى حِمّان — حى من تميم أحد حيى سعد بن زيد مناة — فى ركية لهم ، فصـاروا إلى إبراهيم بن عدى باليمامة يتحاكمون إليه فقال جرير : —

أعوذ بالأمير غـيرِ الجبارْ ... من ظلم حِمّانَ وتحويل الدارْ

ما كان قبلَ حفرِنا من مِحفارْ ... وضربى المنقارَ بعـدَ المنقارْ

---

(١) المرجع السابق ص ١٩ . (٢) ص ٣٢ .

فى جبَـــل أصمَّ غيرِ خوارْ يصيح بالجُبِّ صياحَ الصرَّارْ
له صهيل كصهيل الأمهارْ فاسألْ بنى صَخْب ورهط الجرارْ
والـلَّهِيِّينَ العظامَ الأخطـارْ والجـار قد يخبر عن دار الجارْ

فقال الحمانى : —

ما لِـكليبٍ مِن حِمًى ولا دار غير مُقامِ أتُنٍ وأعيــــارْ
قُعْسِ الظهور دَاميات الأثفارْ

فقال جرير : فَمن مُقامهن ، جعلتُ فِداك ، أجادل . فقال ابن عدى للحمانى : قد أقررتَ لخصمك ، وحكم بها لجرير[1] .

١٣ ــ وقد عرض (الصلتان العبدى) للحكم بين جرير والفرزدق ، فلم يرض واحد منهما قوله ، فقال الفرزدق : أما الشرف فقد عرفه وأما الشعر فما للبحرانى والشعر ؟ وقال جرير : ــ

أقول ولم أملِكْ سوابقَ عَبرةٍ متى كان حكم اللهِ فى كَرَبِ النخل

فقال الصلتان : ــ

أعيَّرتنا بالنخلِ أن كان مالَنـا لَوَدَّ أبوك الـكلب لو كان ذا نَخلِ

فاعترضه (خُليد عيْنَيْن) من أهل هَجر فقال : ــ

وأىُّ نَبيٍّ كان فى غَـيرِ قرْيَةٍ وما الحُـكم يابنَ اللؤم إلاَّ مع الرُّسل[2]

١٤ ــ هذا وقد التحم الفرزدقُ مع الطِرِمَّاح) بن حكيم الطّائى الخارجىِّ ، ومن قول الطرماح فى ذلك : ــ

تَميم بطُرق اللؤم أهدى من القَطا ولو سلكتْ سُبل المكارم ضلَّتِ
فخرتَ بيوم لم يكن لك فخرُه وقد نهلت منه الرماح وعلّت

(١) الأغانى ج ٨ ص ٦٣ . (٢) طبقات ابن سلام ص ١٤٣ مصر .

كفرِ الإماءِ اراحات عشيّة برقم خنوج الحي لما استقلت

ومن نقض الفرزدق لهذه القصيدة : —

لقد هتكَ العبدُ الطرمّاحُ سِترَهُ وأصلَى بنـــارٍ قومَه فتصلّتِ

سَعيراً شوت منهم وجوهاً كأنها وُجوهُ خنازيرٍ على النار مُلّتِ

فما أنجبتْ أم العلافيّ طيّ ولكن عجوز أخبثت وأقلّت (١)

١٥ — وفى أثناء هرب الفرزدق من زياد أتى الروحاء فنزل فى بكر بن وائل فأمن وقال فى ذلك قصيدته : —

قد مثلتْ بينَ المسير فلم تجدْ لعورتها كالحيِّ بكرِ بنِ وائلِ

أعفَّ وأوفى ذِمّة يعقدونها إذا وازنتْ شمُّ الذرى بالكواهل

فقال (الأشهب بن رُميلة النهشلى) ينقضها : —

إن تميما شرُّها وأذلّها وألأمها جيرانُ بكرِ بنِ وائلِ

ولستُ بروّاغ يروغ لظهرِه إذا زَبَنَتْهُ الحربُ ذاتُ التلاتلِ (٢)

١٦ — وفى ثلاث وسبعين هجرية قُتل عبد الله بن الزبير ، وهدأت الفتنة واجتمع الناس على عبد الملك ، وتكافتْ قيس وتغلب عن المغازى بالشام والجزيرة وظن كل واحد أن عنده فضلا لصاحبه ، وتكلم عبد الملك فى ذلك ولم يُحكم الصلح ، فبيناهم على تلك الحال إذ أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان وعنده وجوه قيس قوله : —

ألا سائل الجحّافَ هل هو ثائرٌ بقتلى أُصيبت من سُليم وعامرِ

أجحّافُ إن نهبط عليك فتلتقى عليك بحورٌ طاميات زواخر

تكن مثلَ أبداء الحبابِ الذى جرى به البحرُ تزهاهُ الرياح الصراصر

---

(١) ديوان الطرماح ص ١٣٩ وديوان الفرزدق ص ١٣٥ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٦١٢ — ٦١٥ .

فوثب (الجحّاف) يجر مطرفه وما يعلم من الغضب وهو يقول : ـ

نعم سوف نبكيهمْ بكل مهنَّدٍ   ونبكى عُميراً بالرماح الخواطر[1]

فأنت تجد أن اشتراك شعراء العصر الأموى يرجع إلى السياسة ، والقبيل ، والفن ، والطمع والرشوة ، وأسباب العيش ؛ والسلطان الأدبى ونحوها . ولسنا نجزم بأننا أحطنا بمن اشتركوا مع هؤلاء الفحول الذين يمثلون النقائض الخاصة ، فقد يكون بعضهم خفى علينا .

— ٣ —

ويبقى علينا بعد ذلك هؤلاء الشعراء الذين اشتبكوا فى مناقضات عامة ، وأريدُ بهم جماعة لم يشتهروا بهذا الفن ولم يفرغوا له فراغ جرير وصحبه ، وإنما جرت المناقضة على ألسنتهم أحياناً دن أن يلتزموها ، وهؤلاء سنفرد لهم فصلا خاصاً نلم فيه بأمثلة من نقائضهم ، لذلك ندع ذكرهم إلى موضعهم من هذه الفصول .

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٦٠ بلاق .

الفصل الرابع

مُقوِّمات النقائض الأموية

— ١ —

وإنما نحاول فى هذا الفصل أن نتقدم خُطوة أخرى داخلَ موضوعنا ، فنلم بمقوّمات النقائض فى هذا الطور من تاريخها الأدبى أو بهذه العناصر المعنوية التى اعتمدت عليها النقائض لتقيم عليها فنونها السياسية ، والهجائية ، والفخرية ، والغزلية ، والرثائية ، والحماسية وما إليها مما ذكرناه فى الفصل الثانى من هذا الباب .

كانت هذه العناصر ، إذاً ، هى المواد الأولية التى يبنى منها المتناقضون قصائدهم ، وكل يتخذ لنفسه منها ما يلائم موقفه ، ويسدد حجته ، ويَروع خَصمه ، ويكسبه هو الظفَر ، وبُعدَ الصيت ، وعُلُوَّ المكانة له ولقبيلته .

وليس من خُطتنا ، هنا ، أن نستقصى المعانىَ الجزئية التى أوردها كل مناقض فى شعره ، وحسبنا أن نقول إنها تدخل فى أبواب : الأيام ، والأنساب ، والأحساب ، والدين ، والشعر ، والشمائل ، والحوادث الاجتماعية ، والمواقف السياسية ، وعلينا أن نشير إلى كل من هذه النواحى بالإيجاز والاستشهاد لعل فى ذلك مفتاحاً للباحثين .

وكانت (الأيام) فى مقدمة هذه العناصر شيوعاً فى النقائض ، استغلها المتناقضون إما فخراً بها إذا كانت فى جانبهم وإما تعييراً لخصومهم الذين كانت عليهم لأى قبيلة كانت . وكانت الأيام جاهلية تتصل بتاريخ القبائل الماضى ،

وإسلامية تلابس تاريخها الحديث ، وكانت الأيام الجاهلية أشد ظهوراً فيما دار بين جرير والفرزدق كما كانت الإسلامية واضحة فيما دار بين جرير والأخطل .

وسنرى أيضاً أن موقف جرير الذى شرحناه من قبل جعله يفتخر بأيام لتميم عامة حيناً ، وأيام ليربوع خاصة حيناً آخر وذلك يكون فى وجه مجاشع رهط الفرزدق ، وأيام لقيس عيلان أمام الفرزدق والأخطل ، وأن موقف الفرزدق جعله يفخر بأيام تميم كثيراً إذ جعل نفسه زعيمها والمتكلم باسمها ، كما جعله يفتخر بأيام لدارم رهطه خاصة ولعل ذلك قليل ، وكان كذلك يذكر أيام تغلب رهط الأخطل يتحدى بها قيس عيلان ويذكر أيام ضَبّة أخواله . وقد ذكر البعيث يوم (أوارة الثانى) على اعتبار أنهم ثأروا له كما يلى . وكان الأخطل يذكر أيام تغلب رهطه ، وأيام دارم خاصة مُمالأة للفرزدق ، ويواجه قيس عيلان بما عليها من أيام وهكذا .

وهناك أيام أخرى اشترك فى الفخر بها شاعران أو أكثر لأنها قَدْر مشترك بين القبائل فكان من حق الشعراء أن يساهموا فى الإشادة بها ، أو لأنها ذات جانبين ، كل شاعر له وجهة نظر إليها من حيث تاريخها الواقعى أو من حيث ما لابسها من حوادث .

وذلك استدعى ورود هذه الأيام على ألسنة المتناقضين مفتخرين بها أومعيرين خصومهم بما لابسها من أحداث .

وهناك ظاهرة أخرى هى أن بعض المواقف اقتضت الخروج عن ذلك الأصل العام الذى بيناه من قبل ، من ذلك أن الفرزدق يفخر بيوم (فَيف الريح)(١) وهو لعامر القيسية على بعض القبائل ، وقد دعاه إلى ذلك دفاعُه عن الراعى القيسى

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٦٩ .

أمام جرير، كما فخر بيوم (المَرُّوت)[١] وهو ليربوع على قُشَير، وهذا فخر يتجه به إلى قيس عيلان فهو يتكلم باسم تميم كلها، وكذلك فعل بيوم (ذو نَجَب) ليربوع على عامر القيسية[٢] ونحو ذلك فخر جرير على الراعى القيسى بيوم (الكُلاب الثانى) لتميم على مذحج[٣].

على أن نتائج بعض هذه الأيام وحوادثها موضع خلاف بين الرواة فآثرنا هنا مجاراة شراح النقائض إذا كان ذلك مطابقاً لسياق القصائد وتفسير أبياتها، ومهمة المؤرخ، فى مثل هذا الموقف، أن يصف ما كان يعتقده الشعراء فصوروه فى شعرهم، وإن كان عليه بعد ذلك عمل التحقيق التاريخى، ذلك شىء.

وشىء آخر أننى لم أستقص ما ورد فى النقائض من أيام، إذ كانت كثيرة جداً يعوزها إحصاء دقيق ودراسة خاصة، فاقتصرت على أشهرها واستعنت على حصرها بما ورد منها فى فهارس نقائض جرير والفرزدق، وفهارس نقائض جرير والأخطل، ثم ما ورد فى ديوان الأخطل أيضاً[٤]، وقد آن الأوان لعرض شواهد هذا الجانب من مقومات النقائض وعناصرها متوخياً الإيجاز، وعلى من يريد التوسع أو الاستقصاء أن يرجع إلى النقائض والدواوين وشروحها ففيها ما يشفى غلته.

---

(١) نفس المرجع ص ٣٨٥ و ٣٨٨. (٢) ص ٢٧٥ و ٣٨٨ و ٣٦١ و ٣٩٢ . (٣) ص ٤٤٨

«٤» منها أيام : إراب، أقرن، أوارة، الإياد، بزاخة، البشر، تياس، ثيتل، جبلة، جدود، جزع ظلال، حومل، خزاز، الدفينة، ذو قار، ذو نجب، رحرحان، الرغام، زبالة، سفوان، الشيطان، الصرائم، صوءر، طخفة، الغبيط، غول، كنهل، المروق، قبف الريح، القويرة، قشاوة، الكلاب الأول، الكلاب الثانى، اللوى، المروت، ملزق، النباج ونبتل، النسار، نقا الحسن، النقيعة، الهباءة، هراميت، الوقدات الوقيط، ماكين، الثرثار، قدين، الكير، المسارك والمضر، البليخ، الكحيل، سنجار، الشرعبة، الخنافس، ذو بهدا، العدان، المظالى، واحط، الدنائب، شراحيل، واردات :

١ — كان يوم (إراب) لتغلب على يربوع حين أغار الهذيل بن هبيرة التغلبي على بنى رياح بن يربوع ، وفيه يقول الفرزدق لجرير : —

لقد ترك الهُذيل لكم قديما مخازىَ لا يَبِتْنَ على إرابا[١]

ويقول فى نفس النقيضة : —

نساء كُنّ يومَ إراب خلّت بُعولتهن تبتدرُ الشِعابا[٢]

وبقول فى أخرى : —

ولم تمنعوا يومَ الهذيل بناتِكم بَنى الكلب، والحامى الحقيقة مانعُ
غداةَ أتت خيل الهُذَيل وراءكم وسُدّت عليكم من إرابَ المطالع[٣]

ويقول فى ثالثة : —

وكأنّ راياتِ الهذيل إذا بدت فوقَ الخميس كواسرُ العِقبانِ
وردوا إرابَ بجحفلٍ من وائل لجبِ العَشِىّ ضُباركِ الأركان
ويبيتُ فيه من المخافة عائذا ألفٌ عليه قوانسُ الأبدانِ
تركوا لِتغلبَ إذ رأوا أرماحهم بإرابَ كُلّ لئيمة مِدران
يمشينَ فى أثر الهذيل وتارةً يُرْدِفْنَ خلفَ أواخر الرُكبانِ
أحبَبْنَ تغلبَ إذ هبِطنَ بلادهم لما سَمِنّ وكنّ غيرَ سِمانِ[٤]

٢ — وكان يومُ (أقرُن) لعبس على دارم فعير به جرير الفرزدق : —

عرفتم بنى عبس عشيةَ أقرُنٍ فَخَلّى للجيش اللواءُ وحامِلُه[٥]

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٧٣
(٢) نفسه ص ٤٧٦
(٣) نفسه ص ٧٠٢
(٤) نفسه ص ٨٨٢
(٥) نفسه ص ٦٧٨

وفى نقيضة أخرى يقول له : —

هل تعرفون على ثَنِيَّـةِ أقرُنٍ   أنسَ الفوارسِ يومَ شُكَّ الأسلعِ (١)

٣ — وأما يوم (أوارة الثانى) فكان لعمرو بن هنـد ، وقد تناوله البعيث مفتخراً بالثأر له بيوم طيىء إذ يقول : —

ونحنُ حـدرنا طيئاً عن بلادها   ونحنُ رددنا الحوفزانَ مُكَبَّلا (٢)

وعيَّر به جرير الفرزدقَ إذ كانت نازلتُه بدارم فقال : —

ولسنا بذِبْحِ الجيشِ يومَ أُوَارَةٍ   ولم يستبحنا عامرٌ وقنابِلُه (٣)

٤ — ويومُ (الإياد) ليربوع على بكر وبه افتخر جرير أمام الفرزدق :

وما شهدتْ يومَ الإياد مُجاشع   وذا نجب يومَ الأسنةُ تُرْعِف (٤)

٥ — وكان (بُزاخة) لضبة (أخوال الفرزدق) على إياد ففخر به الفرزدق:

مَلِكان يومَ بُزاخة قتلوهما   وكلاهما تاج عليه مُكَلَّلُ (٥)

٦ — ويومِ (البِشر) من الأيام الإسـلامية المشهورة لقيس على تغلب ، فأخذه جرير وعيَّر به الأخطلَ وقاس عليه هزائم مجاشع فقال للفرزدق : —

وقبلك ما أخزى الأخيطلُ قومه   وأسلمهم للمأزِق المتـلاحِمِ (٦)

وقال فى نقيضة أخرى وسماه يوم الرَّحوَبين : —

وظلَّ لكم يومٌ بِسِنجارَ فاضحٌ   ويومٌ بأعطانِ الرَّحُوَبين أفضحُ (٧)

وفى يوم البِشر أشار الشمَرْذَى البكرى على بنى تغلب أن يحرقوا قتـلاهم لئلا يعيروا بهم إذا قبروهم لكثرتهم ، فوقع شهاب على جنب الشمرذى فأحرقه

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٩٧٧ (٢) نفسه ص ٤٥ (٣) نفسه ص ٩٥٢
(٤) نفسه ص ٥٨٠ (٥) نفسه ص ١٩٢ (٦) نفسه ص ٤٠١
(٧) نفسه ص ٥٠٨

ثم قتلته قيس بعد ذلك بالبَلِيخ ، قتله رجل من غَنِيٍّ ، وفى ذلك يقول جرير :

ولقد شفوكَ من المكوَّى جنبُهُ   والله أنزله بدارِ هَوانِ (١)

ويقول للأخطل بلسان قيس عيلان : —

ولقد شَقَقْتَ يومَ الرَّحوبِ سيوفنا   عواتقَ لم يثبتْ عليهنَّ محملُ (٢)

ويقول فى أمّ الأخطل : —

أمُّ الأخيطلِ بالرَّحوبِ إذا انتشت   علقتْ بشقشقةِ العجان هديرا (٣)

وفى هذا اليوم يقول نُفَيع بن صفَّار المحاربى القيسى للأخطل : —

أبا مالكٍ لو أدركتكَ رماحُنا   لحرَّ البواقى من نواجذكَ الخضرِ

وإنّ نداماكَ الذينَ خذلتهم   أبا مالكٍ عند المؤاساة والصبرِ

ثوَوا إذ لقُونا بالرَّحوب كما ثوت   ثمودُ إلى يوم القيامةِ بالحِجْرِ (٤)

ويقول جرير أيضاً . —

رقصت بعاجنة الرَّحوبِ نساؤكم   رقصَ الرئالِ ومالهنَّ ذيُولُ

أينَ الأراقمُ إذ تجرُّ نساءهم   يومَ الرَّحوب محاربٌ وسلولُ

قد كانَ فى جيَفٍ بدِجلةَ حُرِّقت   أوفى الذين على الرَّحوب شغولُ (٥)

٧ — ويُعد يوم (جبلة) من أعظم أيام العرب لعامر وعبس على تميم وذبيان وفيه أسر حاجب بن زُرارة الدارمى من تميم ، ادعى أسره ذو الرُّقَيْبَةِ القُشيرىّ من عامر بن صعصعة من قيس عيلان وادعاه الزَّهْدَمان من عبس فحكَّمته عبس وعامر فى نفسه فحكم أنه أسيرُ ذى الرُّقيبة وأعطاه ألفَ بعير ، وأطلق له مائة

---

(١) نفسه ص ٨٩٩

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ٦٩

(٣) نفسه ص ١٢٦

(٤) نفسه ص ٣٩

(٥) نفسه ص ١٨٦

أسير من أسارى قيس فى بنى تميم ، وأعطى العبسيين مما تالا من ثيابه مائة ناقة ، وإنمـا دياتُ الملوك ألفُ بعير فزادهم حاجب على فداء الملوك مائة ناقة ومائة أسير وافتك نفسه من الأسر .

هذا الحادث تناول منـه الفرزدق جانباً يلائم فخره وهو جانب الافتداء ، وسكت عن جانب الأسر فقال من نقيضة مفتخراً :

وما علِمَ الأقوامُ مثـلَ أسيرِنا أسيراً ، ولا أجدائِنا بالكواظم[1]

أما جرير فقد عيّر الفرزدق بهذا الأسر وقرنَ به قتلَ لقيط بن زُرارةَ هذ اليوم ، وفرَارَ عمرو بن عمرو الدارمى ، فقال جرير :

كأنك لم تشهدْ لقيطاً وحاجبا وعمرو بن عمرو إذ دعوا يا لَدارِم[2]

ثم عـيّر قوم الفرزدق بذلك اليوم (وسماه الصفا) ومعـه يوم الوَقيط (الحزن) : —

ويومَ الصفا كنتمُ عبيـداً لعامرٍ وبالحزن أصبحتم عبيدَ اللهازِم[3]

ثم وقف عند مسألة الافتداء فنقضها على الفرزدق وفسرها بأنها خضوع لحكم مفروض ، وذلة لقهر غالب :

ألم تُعطِ غَضْباً ذا الرُّقَيبة حُكمَهُ ومُنيةَ قَيْسٍ فى نصيبِ الزهادِم[4]

٨ — و (ذو نجَب) يوم ليربوع على عامر بن صعصعة من قَيس عيلان ، أما جرير فقد اعتزّ به على الفرزدق وقرنه بيوم (جزع ظِلال) وإن كان اليوم على عامر القيسية، قال جرير : —

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٧٩ (٢) نفس المرجع ص ٤٠٩ .
(٣) نفسه ص ٤٢٦ . (٤) نفسه ص ٤٢٥ .

فاسألْ بذِى نَجب فوارسَ عامرٍ　　واسألْ عُيينةَ يومَ جزعِ ظِلالِ (١)

ويقول فى بائيته المشهورة : —

حَمينا يومَ ذى نَجب حِمانا　　وأحرزْنا الصنائعَ والنهابا (٢)

ويقول فى نقيضة له : —

بذى نَجب ذُدنا وواكل مالِكٌ　　أخاً لم يكن عند الطِعان يُواكله (٣)

ثم يقول فى أخرى هاجياً الفرزدق :

أقَينَ بن قينٍ لا يَسرُّكَ نساؤنا　　بذى نَجبٍ أنَّا ادعينا لدارم (٤)

وغير ذلك . أما الفرزقُ فقد حلّق بهذا اليوم فى أفق أوسع واتخذه لتميم عامة وافتخر به على قيس عيلان وقال لجرير فى شأن قيس : —

وكان لهمْ يومانِ كانا عليهمُ　　كأيام عاد بالنُحوس الأشائم (٥)

يريد يومَ ذى نجب ويومَ الوقِدات ، ويقول فى نفس القصيدة : —

بذى نجب يومٌ لقيسٍ شَريدُهُ　　كثيرٌ اليتامى فى ظلال المآتم (٦)

ويقول الفرزدق لبنى جعفر بن كلاب من قيس فى فارس (قُرزُل) وهو طفيل ابن مالك بن جعفر الذى فر من يربوع يوم ذى نجب على فرسه قُرزل :

هل تعرفون إذا ذكرتم قُرزُلاً　　أيامَ ندَّ بفارسٍ مذعورِ (٧)

٩ — وكان يوم (صوْءَر) — وإن لم يكن قتالا بل مذبحة حيوانية — مُعاقرة بين غالب بن صعصعة المجاشعى والد الفرزدق و بين سُحيم بن وثيل الرياحى من يربوع أيام عثمانَ بنِ عفانَ وقد أسرف غالب فى عقر النوق مواءمة حتى غطى على عمل سُحيم ، وأنكر ذلك علىٌّ بن أبى طالب وحرّمَ أكل لحومها لأنها أُهلّت لغير الله . أما الفرزدق فقد أكثر الفخر بهذا اليوم فذكر به أباه وهو يعد رجال قومه : —

(١) نفسه ص ٣٠١　(٢) ص ١٣٨　(٣) ص ٦٣٧
(٤) ص ٧٠٦　(٥) ص ٣٧٥　(٦) ص ٣٩١　(٧) ص ٩٣١

وصاحبِ صَوءرٍ وأبى شُريح وسَلمى من دعائم ثابتات(١)

وذكر النوق التى عقرت ذلك اليوم أثناء فخره بالكرم : ـ

وما جبرَت إلا على عَتَبٍ بها عراقيبُها مُذ عُقِّرت يوم صوءر(٢)

ولكن جريراً أخذ يسخر بهذا اليوم ، ويقرنه بأيام العراك ، ويضحك الناس بادعاء الفرزدق له ، فيقول بجانب مسألة السيف الآتية : ـ

ضربتَ به عُرقوبَ ناب بِصوءَرٍ ولا تضربون البَيض تحت الغَمائم(٣)

ويقول له فى نقيضة أخرى : ـ

ولا يستوى عَقرُ الكزوم بصوءَر وذو التاج تحت الراية المتسيِّف(٤)

ثم يقول فى أخرى : ـ

لقد سَرَّنى ألا تَعدَّ مجاشع مِن الفخر إلا عقرَ نابٍ بِصوءَرِ(٥)

١٠ — وكان يوم (الكُلاب الأول) لسلمة بن الحارث الكندى ، ومعه تغلب ، على أخيه شرحبيل ، وبهذا اليوم يفخر الأخطل على قيس ويهجو جريراً ورهطه :

أبنى كُليب إن عَمَّىَّ اللذا قتلا الملوكَ وفككا الأغلالا

وأخوهما السفَّاح ظمَّأ خيلَه حتى وردن جِبَى الكُلاب نِهالا

يخرجن من ثغر الكُلابِ عليهم خببَ السباع تُبادِرُ الأوشالا(٦)

وهكذا ، ويأتى جرير فتذكر أنهم قتلوا فى هذا اليوم أبا مندوسة مرة بن مجاشع والصمة بن الحارث الُجشمى (جاريبة المجاشعى) :

ندسْنا أبا مندوسةَ القينَ بالقَنا وما رَدَمٌ مِن جاريبةَ ناقعُ(٧)

وأما (الكلاب الثانى) فكان لتميم على مذحج ، قال جرير يفخر به على

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٢٥و٧٧١ . (٢) ص ٩٥٣ .

(٣) ص ٤١٣ (٤) ص ٥٨٠ (٥) ص ٩٥٥ (٦) ديوان الأخطل ص ٤٥

(٧) النقائض ص ٦٩٣

الراعى وقومه ، ويذكر تعريضه قيساً للهجاء ، كما يذكر مآثر تميم :

وبئس القرضُ قرضك عند قيس ... تهيِّجهم وتمتدح الوطابا
فلن تسطيعَ حنظلتى وسعدى ... ولا عمرى بلغتَ ولا الربابا
هُمُ ملكوا الملوك بذات كهف ... وهم منعوا من اليمن الكُلابا
إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غضابا[1]

وكذلك الفرزدق ، لم ينس هذا اليوم فأشار إليه فى غير موضع فقال :

وأبى لذى ورد الكلابَ مُسوِّما ... والخيل تحت عَجاجها المنجال[2]

١١ — وقد قلنا إن يوم (المرُّوت) كان ليربوع على قُشير القيسية ، ووجدنا جريراً يفتخر به على البعيث فيقول :

وقد أثكلت أمَّ البحيرين خيلُنا ... بورد إذا ما استعلنَ الروعُ سوَّما[3]

وقال وسماه يوم (العُناب) :

رددنا بجبراء العُناب نساءكم ... وقد قُلنَ عِتقُ اليوم أو رِقُّنا غدا[4]

وقال: ــ

ألا تسألون المردَفاتِ عشيةً ... مع القوم لا يَخبأنَ ساقاً لُمجتلِ[5]

وقال أيضاً : ــ

ونحنُ تداركْنا بَحيراً وقد حوى ... نِهابَ العُنابين الخميسُ ليربعا
فعاينَ بالمرُّوتِ أمنعَ معشرٍ ... صريخَ رياحٍ واللواءَ المزعزعا
فوارسَ لا يدعون بالَ مجاشعٍ ... إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا[6]

ويأتى الفرزدق فيفخر به على قيس وإن كان ليربوع خاصة فيقول :

ويوم جعلنا الظل فيه لعامرٍ ... مُصَمِّمةً تفأى شئون الجماجمِ

(١) نفس المرجع ص ٤٤٨ (٢) نقائض جرير والفرزدق ص٢٨٩ (٣) ص ٧٠
(٤) ص ٤٨٢ (٥) ص ٧٠٩ (٦) ص ٨٣٥

فمنهن يوم للبُرَيكين إذ تَرى   بَنُو عامرٍ أن غانمٌ كلُّ سالِمِ[1]

والبُرَيكان هما بُرَيك وأخوه بارك مِن بنى قُشير بن كعب قتلهما بنو يربوع يومَ المرُوت .

١٢ ـ ومن أيام قيس على تغلب يوم (الكُحيل) ذكره جرير للأخطل فقال:

وحامَى الفوارسُ يومَ الكُحيلِ   ولم تحمِ تغلبُ أدبارها[2]

١٣ ـ وكان (الثرثار الأول) لتغلب على قيس فذكره الأخطل فقال فى نقيضة:

لعمرى لقد لاقت سُليم وعامرٍ   على جانب الثرثار راغية البَكر[3]

ولما كان (الثرثار الثانى) لقيس على تغلب ذكره جرير ، فيما يظهر، فقال:—

لقيتم بالجزيرة خيلَ قيسٍ   فقلتم : مارَ سَرْجِسَ لا قِتالا

فلم أر خيلكم صبرت لخيلى   ولا أغنت رجالكم رجالا

وأسلمتم شُعيث بنى مُلَيل   أصاب السيفُ عاتقهُ فمالا[4]

١٤ ـ وكذلك يوم (الشرعبية) لتغلب على قيس ، قال الأخطل :

ولقد بكى الجحّاف مما أوقعت   بالشرْعَبيّة إذ رأى الأطفالا[5]

ولكن جريراً ذكره فى جانب قيس عيلان حيث يقول :

ألم تر قيساً قيس عيلان دمّرت   خنازيرَ بين الشرعبية والدرب[6]

١٥ — ويوم (الحشّاك) لتغلب على قيس وفيه قتل عمير بن الحباب السُلَمى ، وفيه يقول الأخطل من نقيضة يمدح فيها عبد الملك بن مروان ويهجو قيساً وبنى كليب بن يربوع مشيرا إلى موقف تغلب من الأمويين :

وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنين بنا   لما أتاكَ ببطن الغُوطةِ الخبرُ

يُعرّفونك رأس ابنِ الحباب وقد   أضحى وللسيفِ فى خيشومهِ أثَرُ

(١) نفسه ص ٣٨٥ (٢) نقائض جرير والأخطل ص ٤٦ (٣) نفسه ص ٣٤ (٤) ص ١٩٥
(٥) ص ٨٠ (٦) نفسه ص ١١٣

لا يسمع الصوتَ مُستَكًا مسامعُه   وليس ينطقُ حتى ينطقَ الحجرُ
أمستْ إلى جانب الحشاكِ جيفته   ورأسُه دونَه اليحموم والصورُ[1]

وقد أمسكتُ عن الاستمرار كارهاً ، خوف الإطالة والإملال ، ولكن هذا الجانب فى حاجة إلى أن يُفرد له مؤلف خاص يتناول الأيام وما دار حولها من مفاخر ، وأهاج ، ومناقضات ، وأقاصيص ، ويُبيِّن كيف يكون ذلك كله مصدراً لتصوير شخصيات القبائل ، والأبطال ، والحوادث تصويراً تاريخياً أو خيالياً .

ويجب أن يلاحظ أن هذه الأيام حين كانت ترد على لسان شاعر فإن خصمه كان يضع نظائرها أمامها أو ينقضها مكذباً أو مفسراً تفسيراً آخر كما قدمنا وكما يمر بك بعضه .

— ٢ —

وأما مسألة الأنساب فلسنا فى حاجة إلى الوقوف عندها بعدما أسبقنا من القول فى الفصل الثانى من الباب الأول ، وكلُّ ما نشير إليه هنا أن هذا العنصر اعتمد عليه المتناقضون الأمويون واتخذوه مفخرة لهم حيناً كما غمزوا به خصومهم حيناً آخر ، فجرير يذكر أن أم البعيث من سَبى أصفهان : —

أُنبِئتُ أنك يا بن (وَردةَ) آلفٌ   لِبَنى حُدَيَّةَ مقعدا ومُقاما[2]

وردة هِبة من القَعْقاع بن معبد بن زرارة لأبى البعيث وحُدَيَّةُ أم بنى ذهَيل غسان وإخوته ، ويقول فيه من نقيضة : —

لَعمرى لقد جارى دَعِى مُجاشعٍ   عَذوماً على طول الجاراة مِرْجَما[3]

ويأتى البعيث فى إحدى نقائضه فيعتز بنسبه الدارمى : —

فإنى امرؤ من آل بَيبةَ نابِهٌ   وسادَ بنى سُفيانَ أولُهم قبلى

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٦١
(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٠   (٣) نفس المرجع ص ٦٣

وجدتُ أبى مِن مالكٍ حلَّ بيتَه   بحيث تَنصَّى كل أبيض ذى فضل
من الدارميـــين الذين دماؤهم   شفاء من الداء المجنة والخبل (١)

ولـكن الفرزدق ينفى البعيث عن مجاشع الدارميين فيقول له : —

وما أنتَ مِنا غـــير أنك تدَّعى   إلى آل قُرطٍ بعد ما شبتَ عانيا (٢)

قرط بن سفيان بن مجاشع ، والعانى ههنا العبد الخادم .

وجرير ينسب الفرزدقَ إلى القَين ومعه مجاشع ، وذلك لعبد كان لصعصعة ابن ناجية بن عقال يسمى جُبَيراً فنسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى القين فقال : —

وجدنا جُبَيْـــيْراً أبا غالب   بعيـــدَ القرابة مِن مَعبدِ
أتجعلُ ذا الـكير مِن دارمٍ   وأينَ سُهَيلُ من الفَرْقدِ (٣)

ويقول للفرزدق : —

أعينَكَ مأثرةُ القيونِ مُجاشعٍ   فانظُر لعلكَ تدَّعى مِن نهشل (٤)

فإذا فخر الفرزدق بآبائه فى حنظلة بن مالك وأخواله ضبة فقال : —

وأنا ابنُ حنظلةَ الأغرّ وإننى   فى آل ضبة للمُعِمُّ المخـــولُ
فرعان قـــد بلغ السماء ذُراهما   وإليهما مِن كل خوف يُعقَلُ (٥)

نقض عليه جرير ذلك فقال : —

كان الفرزدقُ إذ يَعوذُ بخـاله   مثلَ الذليلِ يعود تحت القرمَلِ
وافخر بضَـبةَ إن أمكَ مِنهمُ   ليسَ ابنُ ضَبة بالمعِم المخولِ (٦)

ويمدح الفرزدق سعدَ بن زيد مناة من تميم فيقول له جرير : —

---

(١) نفسه ص ١٧٢
(٢) ص ١٧٠ .
(٣) النقائض ص ٧٨
(٤) المرجع السابق ص ٢١٤ .
(٥) نفسه ص ٢٢٥
(٦) ص ٧٠٨

أتمدح سعداً بعدَ أسلاب جارِكم وجرُّ فتاةٍ عقرها لم يُحلَّلِ(١)

والجار هو ابن الزبير ، وقاتله ابنُ جُرموز السعدى ، ولكنَّ الفرزدق يذكر لجرير غدر بنى يربوع بسعد حين أدركوا الحوفزانَ ومن معه من بكر ابن وائل فى إغارتهم على بنى رُبيع : —

أتنسَى بنو سَعد جَدودَ التى بها خذلتم بنى سعد على شرِّ مَخذَلِ
عشيةَ وليّتم كأنَّ سيوفكم ذآنينُ فى أعناقكم لم تُسلَّلِ(٢)

وينزل الفرزدق بسُليم فى حضيض قيس عيلان مكانة وعدداً فيقول : —

فما أنتمُ مِن قيس عيلانَ فى الذُّرَى ولا مِن أثافيها العِظامِ الجماجمِ
إذ حُصِّلت قيسٌ فأنتم قليلُها وأبعدُها من صُلب قيس لعالمِ
وأنتمْ أذلُّ قيسِ عيلانَ حُبوةً وأعجزُها عند الأمور العوارمِ(٣)

ثم يأتى الأخطل فى رائيته فينفيهم عن قيس كذلك حيث يقول : —

ولا يُلاقون فرّاصا إلى نَسَبٍ حتى يُلاقِيَ جَدى الفرقَدِ القمرُ
ولا الضِباب إذا اخضرّت عيونهمُ ولا سَواءةَ إلا أنهم بشرُ(٤)

وأما شاعرا تميم فقد أكثرا الفخر بنسبهما التميمى أحيانا ، وأحيانا يرتفعان به إلى مضر وخندف ، وكثيراً ما اتصلا بقريش المضرية ، يقول الفرزدق : —

أنا ابن تميم والمحامى وراءها إذا أسلمَ الجانى ذِمارَ المحارمِ(٥)

ويقول جرير : —

مضرٌ أبى وأبو الملوك فهلْ لكم يا خُزرَ تغلبَ من أبٍ كأبينا(٦)

---

(١) نفسه ص ٢٠٨
(٢) ص ٢١٠
(٣) ص ٣٩٣
(٤) نقائض جرير والأخطل ص ١٦٠ .
(٥) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٧٩ .
(٦) ديوان جرير ص ٥٧٩ .

— ٣ —

وإذا كان الحسب ما يُعد من مفاخر الآباء أو هو المال أو الدين أو الكرم أو الشرف فى الفعل أو الشرف الثابت فى الآباء[1] ، فقد كان كل ذلك من أهم مقومات النقائض وأكثرها شيوعاً فيها ، وأبعثها على الملاحاة والجدل ، وأدعاها إلى البحث عن مفاخر القبائل والرجال أو مثالبهم للمفاخرة والمهاجاة . اجتهد فى ذلك الفحول وغيرهم فرأينا لكل من دارم ، ويربوع ، وقيس ، وتغلب ، وتميم ، واليمن ، مآثر تنشر ، ومثالبَ تذاع ، كما رأينا ذلك للشعراء ، والزعماء ، والنساء ، سواء أكانت حقائقَ مقرَّرة أم أكاذيب مختلقة ، وفى أثناء ذلك رأينا حُرمات تُنتهك ، وأعراضاً تمزق ، وصوراً شنيعة تنشر ، وتهماً تكال جزافاً ، وأحقاداً تُنبش ، وعصبيات تحيا وتثور ، ومعارك تقوم ، والدولة ترى ذلك وكأنَّها راضية عنه ، مطمئنة إليه ، حتى عادت النقائض ، فى بعض نصوصها ، نوعاً من الأدب القبيح الذى ينافى الذوق ، والخلق ، والدين ، ومن عجب أن يكون ذلك فى ظل الإسلام ، وأن يبلغ من ذلك مالم يدر بخلد الجاهليين .

ونذكر هنا بعض شواهد هذا العنصر من عناصر النقائض تاركين مالا يصح أن نورده هنا اعتماداً على وروده فى النقائض والدواوين يرجع إليه من شاء الدرس والاستقصاء .

ولا شك أن دارما ، قوم الفرزدق ، ذات مآثر جمة ، ومفاخر مأثورة ، وأن أسرة الفرزدق ترجع إلى حسب ضخم ومكارم عدة ، وإن نشر لها جرير

---

(١) راجع القاموس المحيط مادة حسب.

مثالب شتى وصوراً قبيحة ، وقد ذكر الفرزدق بعض مآثر قومه فى مطلع نقيضته التى يرد بها على جرير إذ يقول :

مِنَّا الذى اختيرَ الرجالَ سماحةً ... وخيراً إذا هبَّ الرياحُ الزعازعُ
ومنَّا الذى أعطى الرسولُ عطيةً ... أســارى تميم والعيونُ دوامعُ
ومنَّا خطيبٌ لا يُعابُ وحاملٍ ... أغرُّ إذا التفت عليه المجامع
ومنا الذى أحيي الوئيدَ وغالب ... وعمرو ومنـا حاجب والأقارع
ومنا الذى قاد الجيادَ على الوَجى ... لنجران حتى صبّحتهـا الترائع
أولئكَ آبائى فجئنى بمثلهم ... إذا جمعتنـا يا جرير المجامع[1]

الأقرع بن حابس كلم الرسول فى أصحاب الحجرات من تميم فرد سبيهم ، وخطيب الناس هو شبة بن عقال ، والحامل هو عبد الله بن حكيم المجاشعى الذى حمل الحملات يوم المربد ، ومحيي الموءودات هو جد الفرزدق صعصعة بن ناجية ابن عقـال ، وغالب أبوه صاحب (صوءر)[2] ، وعمرو بن عمرو بن عُدُس ، والأقارع الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال ، والأقرع بن حابس هو الذى أغار على أهل نجران .

وقد افتخر كل من البعيث والفرزدق بهذه الحكومة التى كانت فيهم منذ الجاهلية إلى ظهور الإسلام ، كان الأقرع بن حابس أحدَ حُكام تميم فقال البعيث : —

وعمّى الذى اختارت معدّ فحكّموا ... فألقوا بأرسانٍ إلى حَكَمٍ عَدْلِ[3]

وقال الفرزدق : —

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٦٩٦ — ٦٩٩ .   (٢) ص ٤١٤ .
(٣) النقائض ص ١٣٩ .

إنى وجـدتُ أبى بنى لى بيتهُ فى دَوحة الرؤساء والحكام (١)

كذلك افتخر الفرزدقُ بقومه تميم فى نقيضة وذكر فيهـا فك آل مجاشع للأسرى ومنادمتهم للملوك : —

ومُكبَّلٍ ترك الحـديدُ بساقهِ أثراً مِنَ الرسفانِ فى الأحجالِ
وفَدت عليه شُيوخ آلِ مُجاشعٍ مِنهمْ بكل مُسـامحٍ مِفضالِ
ففَدَوه لا لِثوابِهِ ولقـد يُرى بيَمينه نَدَبٌ من الأغـلالِ
ما كان يلبس تاج آل مُحرِّق إلا همُ ومَقـاوِلُ الأقوالِ
كانتْ منادمة الملوك وتاجُهم لمجاشع ، وسُلافَةُ الجِريالِ (٢)

كذلك ذكر الإجارة بقبر أبيه مع مسألة الموءودات فقال : —

وكان لنا شيخان ذو القبر منهما وشيخ أجارَ الناسَ مِن كل مَقبَرِ
على حـينِ لاتحيا البناتُ وإذ همُ عُكوف على الأنصاب حول المدوَّرِ
أجار بناتِ الوائدين ومَن يُجِرْ على الفقر يعلم أنه غـير مُخفَرِ (٣)

وقد مرت أبياتٌ لجرير يفخر فيها بالدين والخلافة ، وهذا الفرزدق يفعل ذلك إذ كانت مضر مؤئل هذين فيقول من نقيضه : —

مِنّا النبيُّ محمـد يُجلى به عنّا العَمى بِصدْقٍ مأمـورِ
خـيرِ الذين وراءه وأمامه بالمكرَمات مُبَشّر ونذيرِ
إن النُّبوَّةَ والخِـلافة والهُدى فينا وأولُ مَن دعا بِطَهورِ (٤)

بجانب ذلك نشر جرير للفرزدق وأسرته ورهطه مثالب شتّى بعضها كذب واختلاق ، منها مسألة القيون السابقة ، ومنها فسق الفرزدق وزِناه إذ يقول جرير من نقيضة : —

(١) نفس المرجع ص ٢٦٥ . (٢) ص ٢٧٢ . (٣) ص ٣٨٠ و ٩٤٩ .
(٤) ص ٢٩٣ .

لقد ولدتْ أم الفرزدق فاجرا ... وجاءت بِوَزوازٍ قصير القوائم
وما كان جارٌ للفرزدقِ مسلمٌ ... ليأمنَ قِردا ليله غــيرُ نائم
يوصِّل حَبْليه إذا جَنَّ ليـــله ... ليرقَى إلى جاراتِه بالسلالِمِ(١)

ولذلك نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة : —

هو الرجسُ يأهلَ المدينةِ فاحذَروا ... مَداخِــلَ رجسٍ بالخبيثاتِ عالِمِ
لقد كان إخراج الفرزدق عنــكمُ ... طَهوراً لما بينَ المصَــــلّى وواقِم(٢)

كذلك شنَّع جرير (بِجِعْثِنَ) أختِ الفرزدق ورماها بسوء هى منه براء ونسب هذا إلى فتيانٍ من مُقاعِس إذ استخرجوها من خِبائها ثم سحبوها ليُسَمِّعوا بها(٣) فعيّره جريرٌ بهذه القصة وبالغ فيها ، وصوَّرها أقبحَ تصوير ، ومع هذه قصةٍ أخرى وقعت فى مجاشع هى غـدرُهم بالزبير بن العوام مُنصرَفَه من وقعة (الجمل) إذا قتله عَمرو بن جُرموز ابنِ الذَيَّال وأخذ سَلَبه(٤) فقال للفرزدق فى هذين الأمرين : —

قُتِلَ الزُّبيرُ وأنت عاقدُ حُبوَةٍ ... تَبًّا لحُبوتك التى لم تُحلَلِ
وافاكَ غدرُكَ بالزُّبير على مِنًى ... ومَجرُّ جِعثِنِكم بذات الحرمَلِ(٥)

ثم حادثة السيف وضربة الرومى فقد حَجَّ سليمان بن عبد الملك وقدمت إليه أسرى الروم فجعل يدفعهم إلى وجوه الناس لقتلهم ، وقدَّم لجرير رجل فضربه فأبان رأسه ، ودفع إلى الفرزدق أسير فضربه فلم يصنع شيئا فضحك الناس وغضب الفرزدق وأخذ يعتذر عن ذلك بالشعر وقال جرير فى ذلك : —

أ كلَّفتَ قيساً أنْ نبا سيفُ غالبٍ ... وشاعت له أحدوثة فى المواسم

---

(١) نفسه ص ٢٩٥ . (٢) نفسه ص ٢٩٦ . (٣) النقائض ص ٢٢٢ .
(٤) نفسه ص ٨٠ (٥) نفسه ص ٨٠ و ٢٢٢

بسيفِ أبى رَغوانَ سيفِ مُجاشع ... ضربتَ ولم تضرب بسيفِ ابن ظالم
ضربتَ به عندَ الإمام فأُرعِشت ... يداكَ وقالوا : مُحدَثٌ غيرُ صارِم
ضربتَ به عُرقوبَ نابٍ بصوءرٍ ... ولا تضربون البيضَ تحتَ الغماغم
عنيفٌ بهزِّ السيفِ قينُ مُجاشع ... رفيقٌ بأخراتِ القيوسِ الكرازم (١)

وقال الفرزدق فى ذلك : —

فَلا نقتل الأسرى ولكنْ نفكّهم ... إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارمِ
فهل ضربةُ الرومىِّ جاعلةٌ لكم ... أبًا عَن كُليبٍ أو أبا مثلَ دارِم
كذاكَ سُيوفُ الهندِ تنبو ظُباتُها ... ويَقطعنَ أحيانًا مَناط التمائم (٢)

فقد سخر جَريرٌ بخيبةِ الفرزدق وردّها إلى خيبة رهطه ، وقرنها بحادث صَوءر ومَسألة القيون ، وأما الفرزدقُ فقد اعترف بالحادث وأخذ يعتذر عنه أولا بأنهم اعتادوا فك الأسرى دون قتلهم ، ثم هوّن مِن شأنها فلن تُشرّف جريراً أو ترفعَ من قدره ، وضرب مثلا بالخيبة تلم بالظافرين .

وهناك أمور أخرى تتصل بدارم نتركها إلى حين نعرض نقائض جرير والفرزدق .

أما عن يربوع فقد أذاع جرير مفاخرها وهى كثيرة فيظهر أنها على فقرها كانت معروفة بالشجاعة والإقدام والبلاء فى الحروب حتى كان الفرزدق يفتخر بأيام يربوع على قيس عيلان كما بينا ، وذلك غير الردافة (٣) فكانت فى بنى يربوع من رياح ، منهم أرداف الملوك وقد احتفظوا بها دون بنى دارم وفى ذلك يقول جرير : —

مَن مِثلُ فارسِ ذى الخِمار وقَعنبٍ ... والحنتَفين لِلَيلَةِ البلبالِ

---

(١) نقيضه ص ٤١٣ (٢) نقيضه ص ٣٨٣ (٣) نقيضه ص ٢٩٨

والردفِ إذ ملكَ الملوكَ ومَن له عِظمُ الدسائع كل يوم فِضالِ[1]

كذلك الإجازة ، قال جرير يخاطب الراعى ، وقد حلّق بهذا المعنى إلى أفق أعلى : —

عَلوتُ عليك ذروة خِنـدِفيّ ترى من دونها رُتباً صِعابا

له حوض النبى وساقياه ومَن ورث النبوة والـكتابا

ومِنا مَن يجيز حجيجَ جَمْعٍ وإن خاطبتَ عزّكم خِطابا[2]

كانت الإجازة فى الجاهلية لِصفوان بن شُجْنة بن سعد بن زيد مَناة من تميم . ويريد بالبيت الأخير ما كان يجيز كَرِب بن صفوان الناسَ من عرفات إلى المزدلفة ، وهى جَمْع ، وأبو سَيّارة عُمَيلة بن الأعزل يجيز من مزلفة إلى منى ، وكانت صوفة ، وهم بنو الغوث بنِ مُرّ ، يجيزون من مِنى إلى الأبطح ، وبكر بن وائل من الأبطح إلى الـكعبة .

كذلك ذكر جرير رجال يربوع خاصة أمام الفرزدق والأخطل فقال : —

كذبَ الأخَيطلُ إن قومى فيهمُ تاجُ الملوك ورايةُ النُعمانِ

منهم عُتيبةُ والُمحِلُّ وقعنبٌ والحَنتفانِ ومنهم الرِدفانِ[3]

يريد عُتيبةَ بن الحارث بن شِهاب ، والُمحلّ بن قدامة من ثعلبة بن يربوع وقعنبَ ابن الحارث بن رِياح اليربوعى ، والحَنتفان حَنتفُ بن السِجف وأخاه وهما ثعلبيان ، والرِدفان عتابُ بن هَرَمىّ بن رياح وابنه عوف بن عتّاب ، وأما حماسة تميم وشجاعتها وعزتها فقد بلغ جرير فى ذلك مدى بعيداً : —

وقد عَلِمَ الأقوامُ أن سُيوفنا عَجَمْنَ حَديدَ البَيْض حتى تَصدّعَا

---

(١) النقائض ص ٦٦ ، ٨٩٨ (٢) نفسه ص ٤٥٠ (٣) نفسه ص ٨٩٧

ألا رُبَّ جبَّار عليه مَهابةٌ سقيناه كأس الموت حتى تضلَّعا
تقودُ جياداً لم تَقُدها مُجاشِعٌ تكونُ مِنَ الأعداء مرأى ومسمَعا
أخيلُك أم خيلي بيلقاء أحرزت دعائمَ عرشِ الحيِّ أن يتضعضعا
ولو شهِدتْ يوم الوقيطين خيلُنا لما قاظت الأسرى القِطاطَ ولعلعا[1]

ولم يفت الفرزدق والأخطل أن ينشرا ليربوع صحفاً سيئة ، ومثالب شتى : —

وإذا عددتَ بنى كُليب لم تجد حسَباً لهم يُوفى بِشِسْعِ قِبالِ
لا يمنعون لهم حَرامَ حليلةٍ بمهابة منهم ولا بِقتالِ
أجريرُ إن أباكَ لو أتعبتَهُ قصُرت يداه ومدَّ شرَّ حِبالِ
إن الحجارة لو تكلم خبّرت عنكم بألأم دِقّةٍ وسِفالِ
لو تعلمون غداة يُطردُ سيبُكم بالسفحِ بينَ مُلَيحةٍ وطِحالِ[2]

ذلك قول الفرزدق ، وقال الأخطل : —

أما كُليبُ بنُ يربوع فليسَ لهمْ عندَ المكارم إيرادٌ ولا صدَرُ
مُخلَّفونَ ويقضى الناسُ أمرهمُ وهم بغيب وفى عمياء ما شعروا
مُلَطَّمونَ بأعقار الحياض فما ينفكُّ مِن دارِميٍّ فيهمُ أثَرُ
قومٌ تناهتْ إليهم كلُّ مُخزِيةٍ وكلُّ فاحشةٍ سُبّت بها مُضَرُ
الآكلون خبيثَ الزاد وحدهُم والسائلون بظهر الغيب ما الخبر[3]

ثم رمى الفرزدقُ جريراً بأمه[4] وبإتيان الأُتُن[5] واتهم أمه بالزنا[6]

(١) النقائض ص ٤٣٨
(٢) نفسه ص ٢٨٤
(٣) نقائض جرير والأخطل ص ١٦٣
(٤) النقائض ص ٢١٠
(٥) نفسه ص ١٠٤
(٦) نفسه ص ٢٠٥

مما لا نذكره هنا ، ويعود إلى جرير فيتهمه بخيانة قومه ، والحطب فى حبل قيس ، طمعا فى الرشوة : —

تُعيِّرنا أيامَ قيسٍ ولم ندع ... لِعيلانَ أنفاً مُستقيمَ الخياشِمِ
فما أنتَ مِن قيسٍ فتنبحَ دونها ... ولا مِن تميم فى الرءوس الأعاظم
وإنك إذ تهجــو تميما وترتشى ... تبابينَ قيس أو سُحوقَ العمائم
كُمهريقِ ماءٍ بالفلاةِ وغــرّهُ ... سَرابٌ أثارته رياح السمائم[1]

وقال البعيث لجرير من نقيضة :

ألستَ كليبياً إذا سِيمَ خُطةً ... أقرَّ كإقرار الحليـلةِ للبَعلِ
وكل كُلَيبيَ صـــحيفةُ وجهِهِ ... أذلُّ لأقدامِ الرجال من النعل
وكل كليبيٍ يســوقُ أتانَه ... له حاجة من حيث تُثفَر بالحبل[2]

ويرى بعض بنى كليب أن هذه الأبيات أشد ما هجوا به .

ونقف عند الأخطل وقومه فقد استطاع جرير أن يهاجمهم من عدة نواح فى بعضها إحراج للأخطل كالدين ، والجزية ، والسكر ، والقذارة ، والبعد عن قبيلة الخلافة والسلطان ، كما وقف الأخطل يهاجمه هو وقيسَ عيلان ويُشيد بأحساب بنى تغلب قومه ، قال جرير :

قبح الإله وجوهَ تغلبَ كلما ... شبحَ الحجيجُ وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذَّبوا بمحمد ... وبجــبرئيل وكذبوا ميكالا
والتغلبى إذا تنحنـــح للقِرى ... حكَّ استه وتمثــل الأمثالا
أنسيتَ يومَكَ بالجزيرة بعد ما ... كانت عواقبُه عليــك وَبالا
حملتْ عليكَ حُماةُ قيس خيلَها ... شُعثاً عوابسَ تحمل الأبطالا

---

(١) نقائض ص ٧٣٢و٥١٢ (٢) ص ١٥٢

مازلتَ تحسبُ كل شيء بعدهمْ … خيلا تشد عليكمُ ورجالا[1]

والطريف فى هذه النقيضة أن يعترف جرير بمساوىء مجاشع رهط الفرزدق بأسلوب طريف أيضاً ثم يعود إلى تغلب مجهزاً عليها فيقول :

أوَجدْتَ فينا غيرَ غدر مُجاشع … ومجَرِّ جِعْثِنَ والزبيرِ مقالا

إن القوافىَ قدْ أمِرَّ مَرِيرُها … لبنى فدوْكَس إذ جدَعْنَ عِقالا

لولا الجِزَى قُسِمَ السوادُ وتغلِبٌ … فى المسلمينَ فكنتمُ أنفالا[2]

فيقول له الأخطل يهجوه ويفضل عليه دارماً رهط الفرزدق :

ولقد جشمتَ جريرُ أمراً عاجزاً … ووهبتَ سوءةَ أمِّكَ الجُهّالا

فانعقْ بضأنكَ يا جريرُ فإنما … منّتكَ نفسك فى الخلاء ضلالا

منّتك نفسك أن تكونَ كدارمٍ … أو أنْ توازنَ حاجباً وعِقالا[3]

ثم يلتفت الأخطل إلى قومه فينشيد بحماستهم على نهج عمرو بن كلثوم ، ويقول من نقيضة :

فضَلنا الناسَ أن الجارَ فينا … يُجير ، وأىُّ جار يُستجارُ

وأنا نُطعمُ الأضياف قِدماً … إذا العذراءُ أخرجها القُتارُ

وأنا الضاربون إذا التقينا … كِباشَ القوم قد علمت نِزارُ

نُدَافِعُ فى الكريهة عن بنينا … ونعلمُ أن جُبنَ القوم عار

بضربٍ لا كِفاء له وطعنٍ … كأفواهِ المزادِ له شِرار[4]

وتجد فى رائيتى جرير والأخطل صورتين متقابلتين لموقفى الشاعرين وما يمثلان من قبائل أو يهاجمانها .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص٨٧

(٢) نفس المصدر ص٩٢ (٣) نفس المصدر ص ٨١ (٤) نفس ص ١٢٨

هذه أمثلة قليلة جداً لمسألة الأحساب تركت كثيراً جداً غيرها تمثل معانى أخرى، خوف الإطالة ورغبة أن يعود القراء إلى النقائض فى مراجعها. فنى ذلك خير كثير، وإدراك تام لعناصر المناقضـــــة، والاطلاع على ما لا يحسن ذكره هنا.

— ٤ —

وهناك غير ما سبق حوادث أخرى جزئية دخلت فى بناء النقائض المعنوى وكانت متأثرة بتيارات سياسية، أو عصبيات قبلية، أو دوافع شخصية، أو غيرة خلقية. من ذلك أنه لما تهاجى جرير والفرزدق فقام جرير بالمربد وقام الفرزدق فى المقبرة أرسـل الحارث بن عبد الله المخزومى أخو عمر بن أبى ربيعة — وهو القُباع(١) — وكان والى البصرة لابن الزبير، وكان متنسكا يُروى عنه الفقـه، الى الدارين اللتين كانا ينزلانها فشعّث منهما ليتهيا، فقال الفرزدق فى ذلك من نقيضة:

أحارثُ دارى مرتين هدمْتَها ... وكنتَ ابنَ أختٍ لا تُخاف غوائلُهْ
وأنت امرؤ بطحـاء مكة لم يزل ... بها منكم معطى الجزيل وفاعِلُه
فقلنـا له لا تُشمتَنّ عـدونا ... ولا تنسَ من أصحابنا مَن نواصِلُه
فقبلك ما أعييت كاسر عينـه ... زياداً فلم تقـدر علىّ جبائلُه(٢)

وقال جرير كذلك فى نقيضتها:

أحارثُ خُذ مَن شئتَ منا ومنهمُ ... ودعنا نَقِسْ مجداً تُعَدُّ فواضِلُهْ
فما فى كتاب الله تهـديمُ دارِنا ... بتهديم ماخـور خبيثٍ مَداخِلُهْ
وفى مَخدَعٍ منه النوارُ وشَربه ... وفى مَخدَعٍ أكيارُه ومَراجِلُه(٣)

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٠٠ (٢) المصدر السابق ص ٦٠٧ (٣) نفس المرجع ص ٦٨٣

اتفق الشاعران على لوم الحارث ثم اختلفا فى نزعة الفرزدق الجاهلية ونزعة جرير الإسلامية ، وفى تحدّى جرير لخصمه الفرزدق بطلبه من الحارث ترك الدور والمقايسة بين الرجال ومجدها ، وفى الموازنة بين بيته الطاهر وبين بيت الفرزدق الخبيث ، ثم فى الإشارة إلى النوّار زوج الفرزدق والى مسألة القيون وحرفتهم ، فكانت براعة جرير فى أن أحال المسألة مناقضة وسلكها بين عناصرها كما رأيت .

وحادث آخر هو مقتل أعيَن بن ضُبيعة المجاشعى أبى النوّار امرأة الفرزدق (١) وكان على بن أبى طالب وجهه إلى البصرة فقتل بها ، قتله رجل من بنى حُوَىّ ابن عوف بن سفيان بن مجاشع فعير البعيثُ وجرير الفرزدق بذلك . فلما قال الفرزدق للبعيث : —

إذا ماقلتُ قافية شَرودا ... تنحَّلها ابنُ حمراءِ العِجانِ

أجابه البعيث :

تناومتُم لأعينَ إذ دعاكم ... بنى القَينات للقين اليمانى
تبادَرهُ سُيوف بنى حُوَىّ ... كأنّ عليه شُقّةَ أرجُوانِ

وحادثة مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى بخراسان قتله وكيع بن حسان بن قيس بن أبى سُود بن كليب بن يربوع فى حديث طويل متصل بالبيعة لسليمان بن عبدالملك سنة ست وتسعين هجرية (٢) فقال الفرزدق فى ذلك : —

نبحتَ لقيسٍ نَبْحة لم تدع لها ... أنوفاً ومرّت طيرها بالأشائم
ندمتَ على العصيان لما رأيتنا ... كأنا ذرى الأطواد ذات المخارم
على طاعة لو أن أجبالَ طيىء ... عَدَدْنَ لها والهضْبَ هضْبَ التهائم

---

(١) نفس المرجع ص ١٢٥ (٢) ص ٣٤٩

لينقلنها ، لم يستطعن الذى رسا   لها عند عالٍ فوقَ سبعين دائم[1]

ويقول جرير جامعاً بين إبعاد مجاشع عن فخر هذا الحادث اليربوعى و بين الاعتذار لقيس عيلان :

فغيرُكَ أدّى للخليفة عهده   وغيرُكَ جلّى عن وجوه الأهاتم
فإن وكيعاً حين خارت مُجاشع   كفى شَعبَ صدعِ الفتنةِ المتفاقمِ
لقد كنتَ فيها يا فرزدق تابعاً   وريشُ الذُنابى تابعٌ للقوادمِ
تدافعُ عنكم كلَّ يومِ عظيمةٍ   وأنت قُراحِىٌّ بسيف الكواظم
أجُبناً وفَخراً يا بَنى زَبْدِ استها   ونحنُ نَشُبُّ الحربَ شِيبَ المقادمِ
أباهِلَ ما أحببتُ قتل ابن مُسلم   ولا أن تروعُوا قومَكم بالمظالمِ
أباهلَ قد أوفيتُكم من دمائكم   إذا ما قتلتُم رهط قيس بنِ عاصمِ[2]

وأمر آخر هو ما دار بين جرير والفرزدق حول أزواج الثانى وجارية الأول وهو كثير[3] نكتفى منه بقصة الفرزدق لما برم بالنوار زوجه تزوج عليها حدراء بنت زيق بن بسطام بن قيس بن مسعود الشيبانى فعابتها النوار فأخذ الفرزدق ينظم الشعر فى مدح حَدْراء ، فأغضب ذلك النوار وقالت للفرزدق : والله لأخزينّك يا فاسق ! و بعثت الى جرير فجاءها ، فقالت : ألا ترى ما قال لى الفاسق ! وشكت اليه فقال جرير :

فلا أنا مُعطِى الحُكمِ عن شِفٍّ مَنصِبٍ   ولا عن بَنات الحنظليين راغبُ
وهُنَّ كماءِ المُزنِ يُشفَى به الصدَى   وكانت مِلاحاً غيرهن المشارِبُ
لقد كنتَ أهلاً أن تسوق دِياتِكم   إلى آل زِيقٍ أن يعيبَك عائب
وما عدلتْ ذاتُ الصليب ظعينةً   عُتيبةُ والرِدفان منها وحاجبُ

---

(١) نفسه ص ٣٧٣   (٢) النقائض ص ٣٩٩   (٣) الاغانى ج ٨ ص ٣٢٤

ألا رُبما لم نُعطِ زيقاً بِحكمهِ وأدّى الينا الحكم والغلُّ لازب
حوَينا أبا زيقٍ وزيقاً وعمّه وجدّةَ زيق قد حوتها المقانب[1]

وكان أجداد حَدراء نصارى ، فأجابه الفرزدق بقصيدة منها :

ألستَ اذا القعساء أنسلَ ظهرها الى آلِ بِسطام بن قيس بخاطبِ
فنَلْ مِثلَها مِن مِثلِهم ثم لُمهُمُ بمِلكك من مالٍ مُراحٍ وعازبِ
فلو كنتَ من أكفاء حدراء لم تَلُمْ على دارمى بين ليلى وغالبِ
وإنّى لأخشى إن خطبتَ إليهمُ عليكَ التى لاقى يسارُ الكواعبِ
ولو قبلوا مِنّى عطيةَ سُقْتُهُ إلى آل زيق من وصيف مُقاربِ
همُ زوّجوا قبلى ضِرارا وأنكحوا لَقيطاً وهم أكفاؤنا فى المناسبِ
ولو تُنكحُ الشمس النجومَ بناتِها إذًا لنكحناهنّ قبل الكواكبِ[2]

وهكذا تجد النقائض غاصة بحوادث منها ما لا يحسن إيراده فى هذه الفصول .

— ٥ —

وكان لفن الشعر وقيمته الأدبية نصيب فى بناء النقائض وملاحاتها ، وقد رو ينا قبل ذلك ، وسيأتى فى الفصل التالى ، هذه الملاحاة بين مكانة اليمن وعدنان فى الشعر ، وكانت بين ابن ميادة وعقال بن هاشم ، وهنا نجد الفرزدق فى نقيضته (الفَيْصَل) كما دعاها يذكر أخذه الشعر عن الفحول السابقين حتى انتهى إلى الأخطل فيقول : —

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣٢ والنقائض ص ٨٠٧

(٢) النقائض ص ٨١٢ .

إنّ التى فُقِئَتْ بها أبصارُكم ... وهى التى دَمَغَتْ أباكَ ، الفَيْصَلُ
وهبَ القصائدَ لى النوابغ إذ مَضَوا ... وأبو يزيدَ وذو القُروحِ وجَرْوَلُ
والفحلُ علقمةُ الذى كانت لَهُ ... حُلَلُ الملوكِ ، كلامُهُ لا يُنحَلُ
وأخو بَنى قَيسٍ وهنَّ قتلنَهُ ... ومُهلهِلُ الشعراء ذاكَ الأوّلُ
والأعشيان كلاهما ومُرَقِّشٌ ... وأخو قُضَاعَــــةَ قولهُ يُتمثّلُ
وأخو بنى أسدٍ عَبيــد إذ مضى ... وأبو داؤد ، قـــولهُ يَتَنَحّلُ

الأبيات[1] ثم يأخذ عليه الآفاق بسيرورة شعره من عُمانَ إلى مِصرَ ويدله على أبيات ذات ألقاب خاصة مُتَحدِّياً فيقول : —

تَغَنَّى ياجريرُ لِغيرِ شىء ... وقد ذهبَ القصائدُ للرُّواةِ
فكيف تَرُدُّ ما بِعُمانَ منهـا ... وما بجبالِ مِصرَ مُشهَّرَاتِ
غَلبتُــكَ بالمُفقِّىء والمُعَنَّى ... وبَيتِ المُحتَبى والخافِقاتِ[2]

وتدل إحدى الروايات على أن الفرزدق كان فى هجائه واقعياً محققاً ، فإنه لما أراد هجاء بنى جعفر بن كلاب القيسيين وذا الأهدام الضبانى صار إلى عمرو ابن لجإ فعرف منه مثالب الجعفريين وسجلها فى نقيضته التى يقول فيها : —

وُنُبِّئتُ ذا الأهدامِ يَعوى ودونه ... من الشام زَرّاعاتُها وقصورها
إلىَّ ؟ ولم أتركْ على الأرض حيّةً ... ولا نابحاً إلا استَسَرَّ عَقُورها[3]

ورمى جريراً بسرقة شعره فقال له : —

إنَّ استراقَكَ ياجريرُ قصائدى ... مثلُ ادعاءِ سِوَى أبيكَ تَنَقُّلُ[4]

فيرد عليه جرير فيقول : —

(١) النقائض ص ٣٠٠ .   (٢) نفس المرجع ص ٤٧٤ .
(٣) ص ٧٠٩ .   (٤) نفسه ص ٢٠٢

حَسبُ الفرزدق أن تُسَبَّ مُجاشِعٌ ... ويَعُدَّ شعر مُرَقِّشٍ ومهلهل[1]

ويقول له فى نقيضة أخرى : —

ستعلمُ مَن يصيرُ أبوه قيناً ... ومَن عُرِفَتْ قصائدُه اجتلابا[2]

على أن جريراً كان يلقب قصائده بألقاب اعتزازا بها فسمى نقيضته : —

لولا الحياء لهاج بى استعبارُ ... ولَزُرتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ

الجوساء لذهابها فى البلاد[3] وسمى بائيته : —

أقلِّى اللومَ عاذلَ والعتابا ... وقولى ، إن أصبتُ ، لقد أصابا

الدمَّاغة ، والدهقانة ، والمنصورة[4] ، ثم يعتز بسيرورة شعره وذهابه فى البلاد حقاً حتى اتهمت الجن بإذاعتها[5] ويقول جرير فى ذلك وهو يناقض البعيث : —

وعاوٍ عوى مِن غير شىءٍ رَمَيْتُهُ ... بقارعةٍ أنفاذُها تقطرُ الدما

وإنى لقوّالٌ لكلِّ غريبةٍ ... ورُود إذا السارى بليل ترَنَّما

خَرُوجٍ بأفواهِ الرواةِ كأنها ... قَرَى هُندُوانِىّ إذا هُزَّ صمَّما

فإنى لَهاجيهِمْ بكلِّ غريبةٍ ... شَرود إذا السارى بليل ترَنَّما

غرائب ألَّافا إذا حان وِردُها ... أخذن طريقاً للقصائد مَعْلَما[6]

وهذه الأبيات سمعها الراعى يتغنى بها رجل فقال : ما لجرير لعنه الله ! علام يلومنى الناس أن غلبنى هذه ؟ ! وقد ذكرنا كيف اعترف الفرزدق

---

(١) نفسه ص ٢١٨ (٢) نفسه ص ١٣٤

(٣) نفسه ص ٨٤٧ (٤) نفسه ص ١٣٠

(٥) الاغانى ج ٨ ص ٣١ دار الكتب وراجع النقائض ص ٦٨٨

(٦) النقائض ص ٦٢

لجرير برقة شعره[١] ومكانته[٢] وكذلك عرف جرير أن الفرزدق أفحل خصومه[٣] : وقد ظهرت مكانة الفرزدق لما تحداه ابن أبى بكر بن حزم بشعر حسان وهو بالمدينة فأسكته بفائيته المشهورة الواردة أول الجزء الثانى من النقائض : —

عَرفتَ بأعشاشٍ وما كِدتَ تعرِفُ وأنكرتَ مِن حدراءَ ما كنتَ تعرِفُ[٤]

وقد نقضها عليه جرير . وعرفت ، حين ذكرنا شعراء النقائض أن الجانب الفنى جعل جريراً يلتحم مع كثرة من الشعراء منهم الأخطل . وليس من شك أن هؤلاء الشعراء جميعاً كانوا يتأثرون فى فنهم كلٌّ بغيره كما يظهر ذلك لمن استقصى دراسة النقائض وقد يمر بك بيان ذلك .

— ٦ —

وكانت المعانى والموضوعات السياسية من أصول النقائض وعمدها ، وقد بينا من قبل مواقف الشعراء السياسية[٥] فلا نعيد ذلك هنا وإنما نشير إلى أن معانى السياسة وجدت فى هذا الفن متأثرة بمواقف الشعراء وقد رأيت فى الأمثلة السابقة كيف تناول جرير والفرزدق مسألة البيعة لسليمان بن عبد الملك إثر مصرع قتيبة فإذا رجعنا إلى كتاب نقائض جرير والأخطل وجدنا فيه كثرة من هذه المعانى منها ما قاله زفر بن الحارث الكلابى القيسى وهو يناقض عمرو بن المِخلاة الكلبى حول وقعة (مَرْج راهط) : —

---

(١) نفسه ١٠٤٧ (٢) نفسه ١٠٤٧
(٣) نفسه ١٠٤٨ (٤) نفسه ص ٥٤٨
(٥) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ب ٣ ف ٦

فإن تكُ نازعنا قُريشاً فإنهم   أخونا ومولانا الذين ننازعُ
فأى قبيلينا وأمّكَ ما يكن   له الملك، تتبعْه وخدُّك ضارع(١)

وما قاله جوّاس الكلبى فى مناقضته مَعبداً الكلاعى يعتب على الأمويين أن لم يعرفوا لبنى كلب بلاءهم فى نصرتهم على قيس يوم المرج : —

ضَرَبنا لكم عن مِنْبَر الملك أهلَه   بجَيرون اذ لا تستطيعون منبرا
وأيامَ صِدق كلّها قد علمتم   نصرْنا ويوم المرج نصرا مؤزّرا
فلا تكفروا حسنى مَضتْ من بلائنا   ولا تمنحونا بعدَ لين تَجَبُّرا(٢)

ومنها ما احتج به الأخطل للأمويين وحقهم فى الملك حتى عد شاعر القصر الملكى الأموى ، وسمى شاعر أمير المؤمنين ، وهو القائل :

بَنِى أميـــةَ نُعماكُم مُجلِّلةٌ   تَمّتْ فلا مِنّةٌ فيها ولا كَدَرُ
أعطاهم الله جداً يُنصرون به   لا جدّ إلا صغيرٌ بعدُ مُحتقَرُ
لم يأشِروا فيه إذ كانوا مواليَه   ولو يكونُ لقومٍ غيرِهم أشروا
بَنى أميـةَ إنى ناصحٌ لكمُ   فلا يبيتَنّ فيـكم آمناً زُفَرُ
واتخذوه عدواً إنّ شاهدَه   وما تَغَيّبَ من أخلاقِه دَعَرُ
بنى أمية قد ناضلتُ دونكمُ   أبناء قوم هُمْ آوَوا وهم نَصروا
أفحمتُ عنكم بنى النجار قد علمتْ   عُليا مَعَدٍّ وكانوا طالما هدَروا(٣)

من نقيضة له مع جرير ذكر فيها ملكهم العتيد وحسن سياستهم ، وحذرهم قيس عيلان وزعيمها زُفر بن الحارث ، وامتن عليهم بما أعانهم على الأنصار حين هجاهم لما حمله يزيد بن معاوية على ذلك بسبب تشبيب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت برملة أخته فى حديث طويل(٤) .

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٩   (٢) نفسه ص ٢٠
(٣) و (٢) نقائض جرير والاخطل ص ١٥٦   (٤) الأغانى ج ١٤ ص ١١٩

نكتفى بهذا القدر ، ونريد فى ختام هـذا الفصل أن نشير إلى مسألة جديرة ببحث خاص هى تبين شخصيات القبائل ، والشعراء ، والزعماء من خلال النقائض وواضح أن دارماً قبيلة ذات مآثر ، ورجال معروفين ، وثراء عريض وأن يربوعاً قبيلة الشجاعة والنجدة وإن كانت فقيرة ، وأن قيساً وتميماً متكافئتان فى المكانة العامة والأيام فكانتا ركنى مضر ، ولتغلب ماضيها الجاهلى الحماسى وإن ذلت فى الإسلام وبقيت على نصرانيتها .

وهذه السمات القبلية وضحت فى شخصيات الشعراء والزعماء مما لا نفصله هنا ونرجىء بعضه إلى فصل (فنّ النقائض)

ونرجوا أن نبدأ عرض شىء من نصوص النقائض العامة ثم نتبع ذلك بوصف النقائض الخاصة .

الفصل الخامس

فى النقائض العامة

— ١ —

كان من الطبعى ، بعد أن شرحنا عصر النقائض الأموية ، ونشأتها وفنونها ، وألممنا بشعرائها وعناصرها ، أن نعرض للنقائض نفسها فنوردَ بعض نصوصها ، ناظرين فيما يلابسها من نواح فنية ، أو تاريخية ، أو موضوعية ، متبينين منها بعض المظاهر التى تكوّن طابعها العام . وإذا كنا قد لاحظنا فى غير موضع من هذه الفصول أن النقائض نوعان : نوع عام متناثر جرى على ألسنة بعض الشعراء دون أن يفرغوا له أو يكثروا منه ، ونوع خاص استفرغ جهود الفحول ومن اتصل بهم أولَ أمره كالبعيث ، فإنا نكسر هذا الفصل على عرض شواهد النوع الأول تاركين مَن التحموا بجرير ممن ذكرناهم فى الفصل الثالث من هذا الباب ، وسنجعل الأمثلة تجىء موضحة نفسها دون حاجة إلى تمهيد عام .

٢ — من ذلك ما حدث بين هُدبةَ بن خَشرم العُذرى وبين زيادة بن زيد ابن مالك من بنى رقاش ، وذلك أن كانت بينهما ضغائنُ بسبب رهان ثم اصطحبا مقبلين إلى المدينة من الشام فى ركب من قومهما فكانا يتعاقبان السوق بالإبل وكان مع هدبة أختُه فاطمة فنزل زيادة فارتجز : —

عُوجى علينا واربَعى يا فاطِما ما بين أن يُرَى البعيرُ قائمـا

ألا تَرين الدمعَ مِنّى ساجِمَا حِذار دارٍ منكِ لن تلائما

فعرّجتْ مُطرداً عِرَاهما ... فَعَمّاً يَبُذُّ القُلُصَ الرواسِمَا
كأنَّ فى المثناةِ منه عائما ... إنك والله لأن تُباغِمَا
خَوْداً كأن البوصَ والمآكما ... منها نقاً مخالط صرائمـــا
خيرٌ مِن استقبالكَ السمائما ... ومِن مُنادٍ تبتغى مُعاكما

فغضب هُدبة حين سمع زيادة يرتجز بأخته فنزل فرجز بأخت زيادة وكانت تدعى أم خازم أو أم قاسم : —

لقد أرانى والغلامَ الحازما ... نُزْجى المطىَّ ضُمَّراً سَواهِماً
متى تقولُ القُلُصَ الرواسما ... والجِلَّةَ الناجيـــة العياهما
يبلغن أمَّ خازم وخازما ... إذا هبَطْنَ مُستحِيراً قاتما
ورفَّع الحادى لهـــا الهماهما ... ألا تَرينَ الحزن منى دائما
حِذار دارٍ منك لن تلائما ... واللهِ لا يَشفى الفؤادَ الهائما
تَمْساحُكَ اللبّاتِ والمآكما ... ولا اللمامُ دون أن تلازما
ولا اللزامُ دون أن تفاقما ... ولا الفِقامُ دون أن تُباغِما

هذه المراجزة ، وهى من المناقضة ، متوافرة العناصر ففيها وحدة الموضوع والقافية ، وكانت المناقضة فيها تقوم على الموضوع أولا من حيث أنه تسيب بالمحارم ، ثم كان الثانى أشد جرأة ومبالغة فى المعانى حتى شتمه زيادة وشتمه هدبة وتسابا طويلا ، وأسكتهما القوم على ما فى نفسيهما ، وهُدبه أشدهما حنقا لأن زيادة رجز بأخته وهى تسمع منه بخلاف أخت زيادة فكانت غائبة ، ولما أتما حجهما وعادا إلى عشائرهما أخذا يتناقضان ، فقال زياد قصيدته : —

أراكَ خليلا قد عزمتَ التجنُّبَا ... وقطعت حاجاتِ الفؤاد فأصحبا

وأجابه هُدبة :—

تذكر شجوا مِن أُميمةَ مُنصِباً ... تَليدا ومُنتاباً من الشوقِ مُجلِباً(١)

ولم يزل هُدبة يطلب غرة من زيادة حتى أصابها فقتله .

٢ — وقد ذكرنا فى (التمهيد) ما كان بين ابن الدُمينة عبيد الله الخثعمى الكهلانى وبين امرأة من قومه تدعى (أميمة) فهامَ بها مدة ، فلما وصلته تجنى عليها ، وجعل ينقطع عنها ، ثم زارها ذات يوم فتعاتبا طويلا ، ثم أقبلت عليه ، فقالت له : —

وأنتَ الذى أخلفتنى ما وعدتَنى ... وأشمتَ بى مَن كان فيكَ يلومُ

وأبرزتَنى للناس ثم تركتَنى ... لهم غرَضاً أُرمى وأنتَ سَليمُ

فلو أن قولا يكلِمُ الجِسم قد بدا ... بجسمى من قول الوُشاةِ كلوم

فأجابها ابن الدُمينة فقال : —

وأنتِ التى قطعتِ قلبى حرارةً ... ومزّقتِ قرحَ القلبِ فهو كَليمُ

وأنت التى كلّفتِنى دَلَجَ السُّرَى ... وجُونُ القطا بالجلهتَينِ جُثومُ

أنتِ التى أحفظتِ قومى فكلهم ... بَعيدُ الرضا دامى الصدور كظومُ(٢)

قامت هذه المناقضة الغزلية على طريقة الموازنة أو المقابلة ، فقد رمته بخلف الوعد وتعريضها لشماتة العُذال ، وجعلها هَدَفاً للألسنة حتى ليكاد كلام الوشاة يدمى جسمها من شدة وقعه . ويجىء وهو يضع بإزاء معانيها ما يقابلها فهى التى مزّقت قلبه بحرارة الوجد مع الهجران ، وهى التى كلفته السرى والمشاق فى سبيلها ، حتى غضب عليه قومه وأضمروا له البغض والكراهية .

---

(١) الاغانى ج ١١ ص ٢٦٤ . (٢) الأغانى ج ٥ ص ١٥١ بولاق .

٣ — كذلك أشرنا إلى ما كان بين قَتادة بن معرب وبين أبى كلدة الُجشمى البكرى ، فقد قال رجل للبعيث : أى رجل هو أبو كلدة ؟ فقال : قتادة بن معرب أعرف به حيث يقول : —

إن أبا كَلدةَ مِن شُكرِهِ لا يعرف الحقَّ من الباطلِ
يزداد غياً وانهما كاً ولا يسمع قولَ الناصح العاذلِ
أعيا أبوه وبنو عَمِّهِ وكان فى الذروةِ من وائل
فليتَه لم يك مِن يَشكرٍ فبئس خِدنُ الرجلِ العاقل
أعمى عن الحق بصير بما يعرفه كل فتى جاهلِ
يُصبح سكرانَ ويُمسى كما أصبح لا أسقِى من الوابلِ
شدَّ رِكابِ الغىِّ ثم اغتدى إلى التى تُجابُ من بابلِ
فالسجنُ ، إن عاش ، له منزل والسجنُ دارُ العاجزِ الخاملِ

وقال أبو كَلدة يجيبه : —

قُبِّحت لو كنتَ امرأ صالحاً تعرفُ ما الحقُّ مِنَ الباطِلِ
كففتَ عَن شَتمى بِلا إحنَةٍ ولم تُورِّط كفَّةَ الحابِلِ
لكن أبتْ نفسُك فعلَ النُهى والحزمِ والنجدةِ والنائلِ
فتحتَ لى بالشتم حتى بدا مكنونَ غِشٍّ فى الحشا داخِلِ
فاجهد وقُل لا تتْرِك جاهداً شتم امرىء ذى نجدة عاقِل
تعذلنى فى قهوة مُزَّةٍ دِرْياقةٍ تُجْلَبُ مِن بابل
ولو رآها خرَّ مِن حُبِّها يسجدُ للشيطان بالباطِلِ
ياشرَّ بكر كلها محتِداً ونُهزَةَ المختلسِ الآكلِ

عرضَك وفره ودعنى وما   أهواه يا أحمقَ من باقلِ (١)

تدور المناقضة على أن أبا كلدة يشربُ الخمر ، ولا يستمعُ لناصحيه ، ولا يعرف الحق من الباطل ، حتى اتضعت منزلته ، وسلك مسلك الجهال ، فورد السجن . وقد نقض أبو كلدة على خصمه بطريقين : الأول : طريق التسليم بأنه يعاقر الخمر ويوجه ذلك بلذتها الآسرة . والثانى طريق الموازنة فقد وصف خصمه بالزيغ والجهالة والحمق ونفى عنه الفضائل ، ثم قلب عليه مارماه به .

٤ — وقد وقع بين أرطاة بن سُهيَّة المرى من غطفان وبين زُمَّيل قاتل ابن دارة لِحاء فتوعده زُمَّيل وقال : إنى لأحسبك ستجرع مثل كأس ابن دارة فقال أرطاة : —

يا زُمّلُ إنى إن أكن لكَ سائقا   تركضْ برجليك النجاةَ وألحقِ
لا تحسبَنِّى كامرىء صادفته   بمضيعةٍ فخدشْتَه بالمرْفقِ
إنى امرؤ أوفى إذا قارعتُكم   قصبَ الرهانِ وما أشا أتعرقِ

فقال له زُمّيل : —

يا أرطَ إن تكُ فاعلا ما قُلتَهُ   والمرء يستحيي إذا لم يَصدُقِ
فافعل كما فعلَ ابنُ دارةَ سالمٌ   ثم امْشِ هونَك سادراً لا تتّقِ
وإذا جعلتُك بين لَحْيَيْ شابكِ الـ   أنيابِ فارعُد ما بدا لك وابرُقِ (٢)

يدعى أرطاة أنه غالبه إذا غالبه ، وأنه ليس فى هوان ابن دارة ، وأنه محقق عزيمته ، فأتى زميل يكذبه فى دعواه ، ويتحداه بإنجاز وعده ، ويتهدده بالويل ساخراً به .

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١١٨ بولاق .   (٢) نفسه ج ١١ ص ١٤٣

٥ — وقد كانت ملاحاة بين ابن ميّادة المُرّى الغطفانى وبين حكم بن معمر الخُضرىّ المحاربى ومناقضات كثيرة وأراجيز شتى منها ما قال حكم فى ابن ميادة : —

فيا مُرُّ قد أخزاكِ فى كل موطن ... من اللؤم خلاتٌ يزدْنَ على عَشرِ
فمنهنّ أن العبـــدَ حامى ذِمارِكم ... وبئسَ المحامى العبدُ عن حَوْزَةِ الثغرِ
ومنهن أن لم تمسَحوا وجهَ سابقٍ ... جوادٍ ، ولم تأتوا حَصاناً على طُهْرِ
ومنهُنّ أنّ الجارَ يسكنُ وسْطَكم ... بريئاً فَيُلقَى بالخيانة والغَدْرِ
ومنهن أن الشيخ يُوجَد منكمُ ... يَدِبُّ إلى الجارات محدودِبَ الظهرِ

فأجابه ابنُ ميادة مجيباً عن هـذه الخِصال التى سبّهم بها وسلك فى نقضه طريقة الموازنة على العموم فذكر لبنى محارب خصال سوء تجاه ما ذكر حكم لبنى مرة بن غطفان ، قال ابن ميادة : —

لقـــد سبقتْ بالمخزياتِ مُحاربٌ ... وفازت بخَلات على قومها عَشْرِ
فمنهـــنّ أن لم تعقروا ذاتَ ذِروةٍ ... لحقٍّ إذا ما احتيج يوماً إلى العَقرِ
ومنهن أن لم تضربوا بسيوفكم ... جماجمَ إلا فيشـــلَ القُرّح الحُمرِ
ومنهن أن كانت شيوخُ مُحاربٍ ... كما قد علمتم لاتَريش ولا تَبْرِى
ومنهن أن لو كان فى البحر بعضكم ... لخبّث ضاحى جِلدِه حومةَ البحرِ (١)

وقد مر فى (التمهيد) ما دار بين ابن ميّادة وعقال بن هاشم حول مكانة عدنان (قيس وخندف) فى الشعر وبين اليمن ، وكانت المناقضة على طريقة اعتراف عقال بمكانة عدنان الأدبية ولـكنه فضل الحى اليمـانين بالسبق إلى ذلك وأخذ الناس عنهم .

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٩٧

٦ — كانت مهاجاة بين حارثة بن بدر اليربوعي وأنس بن زُنَيم الليثي فتهاديا الشعر زمناً عند عبيد الله بن زياد ووقع بينهما شر حتى قدم سلم بن زياد عاملا على خراسان وسجستان فعرَض على أنس صُحبته وجعل له أن يستعمله على كُورة فاستمهله ، وكتب أنس إلى عبيد الله : —

أَلم تَرَني خُـــيِّرتُ والأمرُ واقعٌ ... فما كنتُ لمـا قلت بالمتخيِّر
رِضاكَ على شيء سـواه ولم يكنْ ... إذا اختار ذا حزم من الأمر يظفرِ
قعدتُ تَرضى عن جهادٍ وصاحبٍ ... شفيقٍ قديمِ الوُدِّ كان مُؤَمَّري
على أحَـــدِ الثغرين ثم تركتُه ... وقد كنتُ في تأميره غيرَ مُمتر
فأمسكتُ عن سَلْمٍ عنانِي وصُحبتي ... ليعرفَ وجهَ العُذرِ قبـل التعذرِ
فإن كنتَ لمـا تدر ماهي شِيمتي ... فسَلْ بيَ أكفائي وسَلْ بيَ معشري
ألستُ مع الإحسانِ والجود ذا غنى ... وبأس إذا ما كفروا في التـَكَثُّرِ
ورائي ،وقدأعصيَ الهوى خشيةَ الردى ... وأعرفُ غِبَّ الأمر قبـل التدبُّرِ
وما كنتُ ذاك ترتدّ تُغيِّبني ... عليَّ ارتدادَ المظلـــــم المتحيِّر

فردّ عليه حارثةُ بنُ بدر بأمر عُبَيْد الله بن زياد : —

أَبـلِّغني إلى مَن قال هـذا وقُل له ... كذبتَ فما إنْ أنتَ بالمتخيِّر
وأنك لو صاحبتَ سَـلْماً وجدتَه ... كعهدكِ عهـــد السوء لم يتغيَّر
أتنصحَ لي يوماً ولسـتَ بناصح ... لنفسك فاغشُشْ ما بدا لك أو ذَرِ
كذبتَ ولـكنْ أنت رَهن بخزية ... ويومٍ كأيامٍ ، عبوسٍ مذكَّر
كأشقر يُضحي بين رُمحين إن مضى ... على الرُمح يُنحرْ أو تأخر يُعقَر (١)

---

(١) الأغاني جـ ٢ ص ٢٢

يمتن أنس على عبيد الله بأنه آثر رضاه والبقاء معه على منصب يعرضه عليه سلم وفاء لابن زياد ، ثم أتبع ذلك بالفخر بشمائله من غنى ، وجود ، وبأس ، وحزم ، وذكاء ، ولولا فضائله لتركه وانصرف . وكان النقضُ أن كذبه حارثة ، وأنه لو صاحب سلماً لما ارتاح إليه ؛ ودعاه أن ينصح نفسه ولا قيمة لرأيه عند عبيد الله ، وصوّر له حاله بأنه لاقٍ شراً لامحالة أقام أم رحل .

وأعجبت الأبيات عبيد الله وقال : لعمري ، لقد أجبته على إرادتي ، وأمسكها عبيد الله في يده فلما دخل عليه أنس دفعها إليه فنظر فيها ثم قال لعبيد الله : لقد رَدّ على مَن لا أستطيع جوابه وظن أن عبيد الله قالها ، وخرج أنس والصحيفة في يده فلقيه عبد الرحمن ابن رألان فدفعها إليه أنس ، فلما قرأها قال : هذا شعر حارثة بن بدر ، أعرفه ، فقال له أنس : صدقت والله ، ثم قال لحارثة . —

عَجبتُ لِعُوجٍ من زَمانٍ مُضَلّلٍ ... رأى لألباب الرجال مُغَيِّرَ

القصيدة[1] .

٧ — كانت بنو عجل قد جاورت بني يربوع في سنة أصابت عجلا فكان الأبيردُ الرياحي اليربوعي يعاشر رجلا منهم يقال له سعد ويجالسه ، وكان قصده امرأةَ سعد هذا فمالت إليه فومقته وعُرف أمرهما ولام الأبيردَ قومُه فتلكأ فاعترضه سلمان العِجلي فهجاه وهجا بني رياح فقال : —

لَعمرُكَ إنني وبني رياحٍ ... لكالعادي فصادفَ سَهمَ رامِ

يسوقون ابنَ وجرَةَ مُرْبَغِرا ... ليَحميَهم وليس لهم بحامِ

وكم مِن شاعرٍ لبني تميمٍ ... قصير الباع من بَقرٍ نِيامِ

وإن يُذكر طعامُهمُ بشرٍّ ... فإن طعامَهمْ شرُّ الطعامِ

(١) نفس المرجع

وســــوداءِ المغابن من رياح على الـكِرْدَوْسِ كالفأس الـكَهام

فقال الأُبيردُ مجيباً له : —

عوى سَلمانُ من جوٍّ فلاقَى أخو أهل اليمامة سهمَ رام

بنو عِجلٍ أذلُّ مِن المطايا ومن لحم الجزور على الثمام

تُحَـيِّي المسلمون إذا تلاقَوا وعِجلٌ ما تُحَيِّي بالسلام

إذا عِجْلية ولَدت غُلاماً إلى عِجلٍ فقُبِّحَ مِن غلامِ

خَبيثُ الريح يُنشأ بالمخازى لئيم بين أبنـــــاءِ لئام

أنا ابنُ الأكرمين بنى تميم ذَوى الآطال والهمم العِظامِ

وكائنْ مِن رئيس قطَّرته عواملنا ومن ملك هُمامِ

وجيشٍ قد ربعناه وقومٍ صبحناهمُ بذى لَجِبٍ لُهامِ[1]

فبنو رياح ، فى رأى العجـلى ، يعتمدون على حام لهم ضعيف ، وشعراؤهم لئام أخساء ، بخلاء فقراء ، ونساؤهم قذرات عجفاوات .

و بنى عجل ، فى رأى الأبيرد ، أذلاء ، زنادقة ، لئام الأصـول ، أقذار ، ولـكن بنى تميم كرام ، أمجاده شجعان .

فالمناقضة مقابلة الهجاء بالهجاء وقد زاد الثانى بالفخر .

٨ — كذلك سبقت الإشارة إلى ما كان بين المغيرة بن حبناء بن زيد مناة من تميم وأخيه صخر من مناقضات ، ولـكنا نقتصر هنا على ما دار بينهما بسبب أخت لهما ، فقد جاءت المغيرة تشكو إليه أخاها صخراً أنه أسرع فى مالها وأتلفه وأنها منعته شيئاً يسيراً بقى لها فمد يده إليها وضربها فقال له المغيرة معنفاً :

ألا مَن مُبلغ صخر بن ليلى فإنى قد أتانى من نثا كا

---

(١) مهذب الأغانى جـ ٥ ص ١٠٢

رسالةَ ناصح لك مستجيب ... إذا لم ترعَ حُـرمته رعاكا
فإنك لا ترى أسمـاء أختاً ... ولا تَرَبَنَّـني أبداً أخاكا
فإن تعنُف بها أولا تصِلها ... فإن لأمها ولداً سِـواكا
يَبرّ ويستجيب إذا دعتهُ ... وإن عاصيتَه فيها عصاكا
وكنتُ أرى بها شرفاً وفضلا ... على بعض الرجال وفوق ذاكا
جزانى الله منك وقد جزانى ... ومنى فى مَعاتبنا جزاكا
وأعتبَ أصدقَ الخصمين قولا ... وولى اللـوم أولانا بذاكا
فلا والله لو لم تعص أمرى ... لـكنت بمنزل عما هناكا[1]

أخذ المغيرة على أخيه عقوقه الأخوة، وعنفه بأخته أسماء مع غناها عنه، وأنه مستعد لإكرامها ومخاصمته فى سبيلها، وهى تبز الرجال شرفاً وفضلا، ثم دعا الله أن يجزىَ كلا بما يستحق، ويرضى عن أصدقنا ويغضب على مذنبنا، وذلك كله ناشىء عن عصيان صخر نصحَ أخيه المغيرة: وقد أجابه أخوه صخر بقوله:

أتانى عن مُغـيرةَ قول زُور ... تعمّده، فقلتُ له: كذاكا
يَعُم به بَنى ليـلى جميعاً ... فولّ هجاءهم رجلا سواكا
فإن تكُ قد قطعتَ الوصل منى ... فهذا، حـين أخلفنى مُناكا
تُمنّينى إذا ما غبتَ عنى ... وتُخلفنى مُنـاى إذا أراكا
وتُوليِنى مَـلامة أهلِ بيتى ... ولا تُعطى الأقارب غير ذاكا
فإن تكُ أختُنا عتبتْ علينا ... فلا تصرِم لِظِنّتها أخاكا
وإن تكُ قد عتبت علىّ جهلا ... فلا، والله، لا أبغى رضاكا
فقد أعلنتُ قولكَ إذ أتانى ... فأعلِنْ عن مقالى ما أتاكا

---

(١) مهذب الأغانى جـ ٥ ص ١١٢

سيُغني عنكَ صخراً ربُّ صخرٍ   كما أغناكَ عن صخرٍ غناكا
ويُغنيني الذي أغنـاكَ عني   ويكفيني الإلهُ كما كفاكا
ألم ترني أجودُ لكم بمالي   وأرمي بالقوارصِ مَن رماكا
وأني لا أقود إليك حرباً   ولا أعصيك إن رجلٌ عصاكا
ولكني وراءك شَمَّرِيٌّ   أُحامي، قد علمتَ، على حماكا
وأدفع ألسُنَ الأعداء عنكم   ويَعنيني العدو إذا عناكا
وقد كانت قريبة ذاتَ حق   عليك فلم تطالعها بذاكا
رأيت الخير يقصر منك دوني   وتبلغني القوارص مِن أذاكا

فكان نقض صخر قائماً على تكذيب أخيه، ورميه بعقوق أهله وبخله عليهم ويرمي أخته بسوء الظن فيما ادعت على صخر، ويعلن أخاه القطيعة، ثم ينصرف عنه إلى الله الذي يغنيه عنه كما أغنى المغيرة، ثم يأخذ صخر في الامتنان على المغيرة بكرمه عليهم، وذبِّه عنهم، مع عقوق المغيرة أهله وبخله على أخيه وشدة هجائه. فدخل النقض في أبواب التكذيب، والموازنة، والافتخار. وتدل القصة كلها على أن المغيرة غني شحيح، وصخراً فقير طامع متلاف.

٩ — ومن ظريف ما دار من النقائض ما قال حكيم بن عياش الكلبي للكميت الأسدي: —

ما سرَّني أن أُمي من بني أسد   وأن ربيَ نجاني منَ النار
وأنهم زوجوني من بناتهم   وأن لي كل يوم ألف دينار

فقد رفض الجنة إذا كانت سبيلها أن تكون أمه أسدية كما رفض ألف دينار تأتيه كل يوم ثمناً لزواجه من الأسديين، فأخذه الكميت بنقض منطق إذ نفى الأسدية

عن أمه ودفع به إلى النار ، ثم عاد فهجاه بها إذ كانت من قوم ذوى ضعة حتى أكسبوا هذا الكلبي الخزى والعار لكون أمه منهم ، فقال الكميت :

يا كلب مالك أمٌّ مِن بنى أسد معروفةٌ فاحترق يا كلب بالنار
لكن أمّك من قوم شنئتَ بهم قد قنّعوك قِناع الخِزى والعار

فقال له الكلبي :

لن يبرحَ اللؤم هذا الحىَّ من أسدٍ حتى يفرّق بين السبت والأحد(١)

١٠ — كان بين بنى السيد بن مالك الضبّ و بين عدى بن عبد مناة ترامٍ على خَبراء بالصَّمّان يقال لها ذات الزِجاج نشأت عنه دماء قتل فيها سالم العدوى فقال فى ذلك خالد بن علقمة أخو عبد الله بن دارم :

أسالمُ ما منّتكَ نفسُك بعد ما أتيتَ بَنى السيدِ الغواةَ الأشائما
أسالمُ قد منّتك نفسك ، إنما تكون دِياتٌ ثم ترجع سالما
كذبتَ ، ولكن ثائرٌ متبسّل يُلَقّيك مصقول الحديدة صارما
أسالمُ ما أعطى ابنُ مامة مثلَها ولا حاتمٌ فيما بَلا الناسُ حاتما
أسالمُ إن أفلتَّ مِن شر هذه فوائل فِراراً إنما كنت حالما
وقد أسلمت تيم عدياً فأربعت ودلّت لأسباب المنية سالما

فأجابه سُويد بنُ كراع العُكلىّ — وعكل وضبة وعدِىّ وتيم هم الرِّباب :

أشاعرَ عبد الله إن كنتَ لائما فإنى لما تأتى من الأمر لائمُ
تحضّض أبناء الرِّباب سفاهة وعرضك موفور وليلك نائم
وهل عجب أن تدرك السيد وِترَها وتصبرُ للحق السَّراةُ الأكارم

---

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٢ .

رأيتُك لم تمنع طُهيَّةَ حُكمها   وأعطيتَ يربوعا وأنفُكَ راغِمُ
وأنت امرؤٌ لا تقبلُ النصحَ طائعاً   ولكن متى تُقهَر فإنك راغم[(1)]

لام الدارمي سالماً اطمئنانه إلى بنى السيد فقتلوه ، ونبهه أنه كان من الغفلة بحيث جاد بما لم يجد به أكرم الأكرمين وهو نفسه ، ودعاه إلى الفِرار إن أفلت مِن أيديهم لأنه كان رهن نفسه لبنى السيد الغادرين . فنقض سويد على الدارمى بأنه جبان يعرض الناس للشر وينأى عنه ، وبأن السيد قتلت سالماً بمن قتل من بنى عدى فهجاه وكذب دعواه . ثم غمزه بما ليربوع على قومه دارم من مواقف وأنه لا ينتصح إلا راغماً .

* * *

ونكتفى بهذه الشواهد للنقائض العامة ، لنفرغ لعرض النقائض الخاصة : بين جرير والفرزدق أولا ، ثم بين جرير والأخطل ثانياً .

---

(١) مهذب الأغانى جـ ٥ ص ٢

الفصل السادس

نقائض جرير والفرزدق

— ١ —

فى كتاب الفهرست لابن النديم عنوان: « أسماء من ناقض جريراً وناقضه جرير » تحته : نقائض جرير والأخطل ، نقائض جرير وعمر بن لجأ ، نقائض جرير والفرزدق (١) .

هناك ، إذاً ، هذه المجموعات الثلاث من النقائض ، ولكنها ليست كلّ ما دار من هذا القصيد بين الشعراء ، ولعل نقائض جرير والبعيث تكوِّن مجموعة أكبر من نقائض جرير وعمرو بن لجأ فضلا عن نقائض جرير مع كل من الفرزدق والأخطل ، ومع ذلك فليس أمامنا من هذه المجموعات منشوراً سوى نقائض جرير والفرزدق ، ونقائض جرير والأخطل ، وسنكسر هذا الفصل على الكلام فى أولاهما .

نشر كتابَ نقائض جرير والفرزدق الأستاذ أنتونى أشلى بيڤان Anthony Ashley Bevan فى جزءين كبيرين عدد صفحاتهما أربع وخمسون وألف صفحة عدا جزء ثالث ضمنه فهارس قيمة منظمة ، وطبع فى مدينة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٠٧ .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٢٥ طبعة مصر .

اعتمد الناشر على مخطوطات ثلاثة كما قال فى التمهيد Introduction : — مخطوطة أكسفورد ، ومخطوطة لندن ، ومخطوطة استراسبورج[1] .

أما مخطوطة أكسفورد فموجودة بمكتبة بودليان Bodleian وحرْدُها[2] مؤرخ ٢٧ رجب سنة ٩٧١ ﻫ (١٣ مارس سنة ١٥٦٤ م) تحتوى على ٢٢٧ ورقة واضحة الخط على العموم وفى بعض صفحاتها الأخيرة بياض كثير يدل على أن مكانه نصوص لم يمكن قراءتها فيما نقلت عنه وعنوان هذه المخطوطة الوارد على الحَرْد هو « كتاب النقائض نقائض جرير والفرزدق » ويحتوى على : —

١ — تمهيد قصير .

٢ — ومجموعة من القصائد يختلف طولها بين البيت الواحد والمائة والخمسة والخمسين ، وقد رمز إليها فى النشر بالحرف الانجليزى O .

٣ — وخاتمة تحتوى على ملاحظات متصلة بتراجم و بعض مقطوعات شعرية إضافية .

ومن قصائد هذا الأصل المائة والثلاثة عشرة ، ثنتان وستون لجرير وثمان وثلاثون للفرزدق ، وست للبعيث ، وخمس لغسان بن ذُهيل السَليطى ، وواحدة لعُقبة بن مُلَيص القلَّدى ، وواحدة للنعمان بن شريك .

وهذه القصائد مصحوبة بشروح لغوية حيناً ، وتاريخية حيناً آخر ، وهذه الأخيرة ، على طولها الشديد أحياناً ، تدور على حوادث الشعراء أو أيام العرب .

---

(١) راجع المقدمة والتمهيد بالانجليزية فى صدر الجزء الأول .
(٢) ذيل صفحة العنوان Colophon .

ومن المقدمة والخاتمة يفهم أن الكتاب تأليف أبى عبيدة (معمر بن المثنى التيمى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) رواه بالتواتر أبو جعفر (محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) والحسن بن الحسين (السكرى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ) وأبو عبد الله (محمد بن العباس اليزيدى المتوفى سنة ٣١٠) .

وواضح أن المصادر التى أخذ عنها أبو عبيدة كثيرة جداً لأنه ذكر أكثر من خمسين شخصاً استمد منهم معارفه . وهناك زيادات من وضع محمد بن حبيب ، والسكرى ، وأخرى كثيرة من إضافة اليزيدى ، كما أن هناك روايات منسوبة إلى سعدان بن المبارك تلميذ أبى عبيدة والأصمعى اقتبسها عنهما مشافهة ، وقد شرح النقائض كما ورد فى الفهرست لابن النديم وشرحه هو المعروف بشرح أبى عثمان .

وهذه المخطوطة كانت أساس نشر هذا الكتاب الضخم ، إذ هى أوفى الثلاثة ، مع الاستعانة بالنصين الآخرين فى التحقيق والإكمال والإصلاح .

أما مخطوطة لندن London الموجودة فى مكتبة المتحف البريطانى ، فقد رمز إليها الناشر بالحرف الانجليزى L وتحتوى على ٢٠٠ ورقة ضاع أولها وآخرها ، وقد يرجع العهد بهذه المخطوطة إلى القرن الثانى عشر الميلادى لرداءة الخط ، وصعوبة قراءته ، وعدم نقط حروفه بحيث لا يمكن الاعتماد عليها عند اختلاف النصوص اختلافاً قائماً على النقط . على أنها لا تشمل جميع القصائد الواردة فى نسخة أكسفورد ، وما ورد بها بعضه منقوص ، وكذلك تجد فيها بعض أبيات زائدة وأخرى ناقصة . وأما شروحها وملاحظاتها التاريخية فأقل مما ورد منها فى نسخة أكسفورد . ومع هذا فالأصلان يشتركان فى مواد كثيرة وينفرد كل بمادة خاصة به .

أما مخطوطة ستراسبورج الموجودة بمكتبة جامعتها بالألزاس فقد رمز إليها الناشر بالحرف الانجليزى S وتحتوى على ١٧٤ ورقة فقد بعضها فى مواضع متفرقة. وحَرْدُها مؤرخ منتصف ربيع الآخر سنة ٦٨٧ هـ (مايو سنة ١٢٨٨ م) . وهذا الأصل جميل لكنه كتب بإهمال وفيه بعض الأخطاء وينقصه بعض القصائد ، واختلافه عن نسخة أكسفورد قليل. وتنقصه القصص الطويلة الواردة فى الأصلين الأولين . أما مصادر هذه المخطوطة فغير واضحة فإن نصوصها تنسب إلى أبى عبيدة مباشرة وإن كانت هناك إشارات قليلة إلى اليربوعى والأصمعى وأبى سعيد السكرى . وقد ذكر محمد بن حبيب مرة ، لكنّ اسمى اليزيدى وسعدان بن المبارك وردا هنا ، وربما كان هذا الأصل أقدم من زميليه أو مختصراً عنى صاحبه بالملاحظات التاريخية كما يبدو ذلك من الكلمات الأولى للحرد وهى « تم كتاب النقائض عن أبى عبيدة بأخباره وتفسيره » مما تدل على أنه مختصر من أصل أقدم منه مشتمل على روايات غزيرة تستحق العناية .

هناك أصلان آخران للنقائض مؤرخان بسنة ١٢٩٧ هـ أحدهما بمكتبة جامعة Yale والآخر بالمكتبة الخديوية بالقاهرة (دار الكتب المصرية) وهذان الأصلان صورتان بسيطتان لنسخة ستراسبورج ، فليست لهما ، إذاً ، قيمة خاصة . ثم استعان الناشر بما ظفر به من نسخ ديوانى جرير والفرزدق ، مع مراجع شتى ذكرها بعد المقدمة متبعاً منهجاً وضّحه آخر التمهيد[1] .

و بعد نشر الجزء الأخير من المجلد الثانى تلقى الناشر خطابا من الأب أنستاس مارى الكرملى ببغداد يخبره أن لديه مخطوطة من النقائض بتاريخ ٩٢٥ هـ وقد

---

(١) ص ١٧

استظهر الناشر أن نسخة بغداد مأخوذة عن نسخة استراسبورج كما أوضح ذلك في مقدمة الجزء الثالث الخاص بالفهارس .

ولا يسع القارىء إلا الإعجاب العظيم بمجهود بيفان والتقدير الخالص ليده على لأدب العربي بنشر هذا الكتاب .

— ٢ —

يبدأ ديوان النقائض بهـذه العبارة : « قال أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي : قال الحسن بن الحسين السكري : قال أبو جعفر محمد بن الحبيب : حكي عن أبي عبيدة مَعمر بن المثنّى التَّيمي من تَيم قريش مولًى لهم فغلب عليه نسبهم ، قال : كان التهاجي بين جرير والفرزدق فيما ذكر له مِسحل بن كُسَيب ابن عمران بن عطية الخطفي ، وأمُّ مِسحل زَبداءُ بنت جرير بن عطية ، وكانت بَكرة بنت مَليص أحد بني مقلد بن كليب تحت تميم بن عُلاثة أحد بني سَليط . . الخ » .

ولم يذكر ابن النديم كتاب النقائض بين كتب أبي عبيدة[١] ولكنه ذكر في أخبار ابن حبيب[٢] أنه روى عن أبي عبيدة وغيره وأن كتبه صحيحة منها كتاب نقائض جرير والفرزدق وكتاب نقائض جرير وعمرو بن لجأ وورد نحو ذلك في معجم الأدباء لياقوت الحموي[٣] .

وفي معجم الأدباء في ترجمة الحسن بن الحسين السكري (٢١٢ ـ ٢٧٥هـ) أنه سمع محمد بن حبيب وروى عنه ، وللسكري من الكتب على ما ذكره محمد

---

(١) ص ٧٩ من الفهرست طبع مصر (٢) نفس المرجع ص ١٥٠ .
(٣) جـ ١٨ ص ١١٢ طبع مصر .

ابن إسحاق النديم كتاب النقائض[١] . وفى الفهرست لابن النديم عند الكلام على ما عمله أبو سعيد السكرى « ولم يعمل السكرى شعر جرير ، والذى عمله جماعة من العلماء منهم أبو عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، وابن السِكِّيت ، والذى روى شعر جرير أيضاً عنه مِسحل بن كُسَيب بنِ عمّار ابن عُكابة بن الخَطَفى . هذا من خط ابن الكوفى فى نقائض جرير والفرزدق عملها أبو عبيدة مَعمر بن المثنى ورواها الأصمعى دون تلك الرواية وعملها أبو سعيد الحسن بن الحسين فجوّدها ، وقد عملها أبو المغيث الأوْدِى ، رواها عنه ثعلب »[٢] .

وفى ابن خلكان فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى « كان محمد المذكور إماماً فى النحو والأدب ونقل النوادر وكلام العرب ، له تصانيف كثيرة ، وكان قد استُدعى فى آخر عمره إلى تعليم أولاد المقتدر بالله فلزمهم مدة ، وتُوفى أبو عبد الله المذكور ليلة الأحد أول الليل لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة عشر وثلثمائة وعمره اثنتان وثمانون سنة وثلاثة أشهر »[٣] .

سلسلة الرواة عن أبى عبيدة قائمة متواترة فابن حبيب أخذ عن أبى عبيدة ومن كتبه نقائض جرير والفرزدق ، والسكرى أخذ عن محمد بن حبيب ، وينسب هذا الكتاب للسكرى ، واليزيدى أدرك السكرى وعاش معه نحو نصف قرن ، وبذلك كانت فاتحة النقائض صحيحة من هذا الوجه .

(١) جـ ٨ ص ٩٤ طبع مصر . (٢) الفهرست ص ٢٣٤ .
(٣) وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٥٠٣ .

— ٣ —

أما ترتيبُ النقائض ترتيباً تاريخياً فلم يتوافر فى جميع الأصول ، وسنحاول هنا بعد عرض الكتاب أن نضيف بعض الملاحظات إلى ما لحظه الناشر راجين أن نصلَ إلى ترتيب معظم القصائد ولو فى فترات تاريخية متوالية معتمدين على نصوصها ، وموضوعاتها ، وصلاتها بالحوادث التاريخية وشخصيات الخلفاء والأمراء والولاة وغيرهم ، لعلنا نفرغ فيما بعد لتلمُّس الوثائق التى تساعدنا على ترتيبه ترتيباً دقيقاً ونشره بشرح أوفى وأنفع (١) .

وأولُ ما يلقانا من ذلك ترتيب كل نقيضتين معاً ومعرفة أيهما أسبق إذ أن هذا يشوبه شىء من الغموض ، فبينما نجد فى النقيضة الثانية ردودا صريحة على الأولى إذ نجد فى الأولى أبياتاً هى ردٌّ على نظيرة لها فى الثانية أوقطع السبيل عليها ، ولعل منشأ ذلك أن بعض الأبيات كانت تقال فى مناسبة طارئة ثم تدخل بعد ذلك فى النقائض ، أو أن بعض النقيضة كان ينشأ فى وقت ما ثم تكمل بعد ذلك كبائية جرير فى الراعى وبنى نمير ، وهناك أبيات مكررة فى القصائد كما هى أو بتغيير القافية ، وذلك من عمل الشاعر نفسه أو رُواته .

من شواهد ذلك قول الفرزدق فى قصيدة مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى : —

فلا نقتلِ الأسرى ولكن نفكّهم ... إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارمِ
فهل ضَربةُ الرومى جاعلةٌ لكم ... أباً عن كُليب أو أباً مثلَ دارمِ
كذاك سيوف الهند تنبو ظُباتُها ... ويقطعْنَ أحياناً مَناط التمائم (٢)

ردًّا على قول جرير فى نقضهِ قصيدة الفرزدق المتضمنة الأبيات المذكورة ، قال جرير فى نقيضته : —

---

(١) راجع نقائض جرير والفرزدق للدكتور محمود غناوى الزهيرى ص ٦٢ مطبعة دار المعرفة ببغداد

(٢) النقائض ص ٣٨٣ .

أكلفتَ قيساً أن نبا سيفُ غالب ... وشاعتْ له أحدوثة في المواسم

بسيفِ أبي رَغوانَ سيفِ مُجاشع ... ضربتَ ولم تضربْ بسيف ابن ظالم

ضربتَ به عند الإمام فأرعشت ... يداك وقالوا : محدَث غير صارم

ضربتَ به عُرقوبَ نابٍ بصوءر ... ولا تضربونَ البيضَ تحتَ الغماغم

عنيفٌ بهزِّ السيفِ قينُ مجاشع ... رفيق بأخرات القوس الكرازم(1)

فإذا وقفنا عند نصوص النقائض فقط كان غريباً أن يردف الفرزدق على أبيات لم يقلها جرير ، وكان علينا أن نلتمس حلا لهذه الظاهرة ، وكان من الفروض الجائزة أن يكون الفرزدق قد سبق ليقطع على خصمه خط الهجوم ويرد على ما يدور بخلد جرير ، ولكن قصة هذه الأبيات الواردة في شرح النقائض تيسر علينا فهم هذه الظاهرة(2) إذ لمّا كلّ سيف الفرزدق في ضرب الأسير الرومي في حضرة سليمان بن عبد الملك وضحك به الناس وشمتت بنو عبس أخذ الفرزدق يعتذر عن عجزه بالشعر متمثلا بسيف ورقاء بن زهير العبسي وعجزه عن قتل خالد بن جعفر ، ومعتمدا على تأخر القدر ، وكان جرير حاضرا هذا الحادث واستطاع أن يقتل أسيره بضربة سيف قاطع دسته إليه بنو عبس ، فكان من الطبعي أن يستغله في المناقضة وقد فعل . ويجوز أن تكون هذه الأبيات قيلت قبل النقيضتين ثم دخلتهما بعد ذلك .

وقد ذكرنا من قبل قصة اصطحاب جرير والفرزدق إلى هشام بن عبد الملك مرتدفين على ناقة ، وكان هشام يومئذ بالرصافة فنزل جرير لقضاء حاجته فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال : —

إلامَ تلفّتين وأنتِ تحتي ... وخيرُ الناسِ كلّهم أمامي

---

(1) ص ٤١٣ .

(2) ص ٣٨٣ — ٣٨٥ .

متى تردى الرُّصافةَ تستريحى ... مِن التهجير والدبَرِ الدوامى

ثم قال : الآن يجىء جرير فأنشده البيتين فيقول :

تلفّتُ أنها تحت ابن قينٍ ... إلى الكيرَين والفأس الكهام

متى ترد الرصافة تخزَ فيها ... كخزيك فى المواسم كلَّ عام

فجاء جرير فأنشده الفرزدق البيتين الأولين فأنشده جرير البيتين الآخرين

ثم رأينا بيتى الفرزدق فى نقيضة له[١] و بيتى جرير فى الرد عليها[٢] ، وهذا الشاهد ورد الترتيب فيه طبعياً .

قال أبوعبيدة : وقف جرير بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً وركب فرساً أعاره إياه أبو جَهْضَم عَباد بن حُصَين الحَبَطىّ فبلغ ذلك الفرزدقَ فلبس ثيابَ وشيٍ وسواراً وقام فى مَقبرة بنى حصين ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما فلما بلغ الفرزدقَ لباسُ جريرٍ السلاحَ والدرع قال :

عجبتُ لراعى الضأنِ فى حُطَمِيَّةٍ ... وفى الدرع عَبدٌ قد أصيبتْ مقاتِلُه

وهل تَلبَس الحُبلى السلاح وبَطنُها ... إذا انتطقت عِبءٌ عليها تُعادله

ولما بلغ جريراً أن الفرزدق فى ثياب وَشى قال :

لبستُ أداتى والفرزدق لُعبة ... عليه وشاحاً كُرَّجٍ وجلاجِلُه

أعِدُّوا مع الحَلْى الملابَ فإنما ... جرير لكم بعل وأنتم حلائله

وأعطوا كما أعطتْ عَوانٌ حليلَها ... أمرتُ لبَعلٍ بعدَ بعلٍ تُراسِلُه

ثم رأينا هذه الأبيات تدخل النقائض[٣] بترتيب ورودها إن صح ترتيب الرواية .

---

(١) النقائض ص ١٠١٠ (٢) ص ١٠١٦ وابن خلكان جـ ١ ص ١٠٣

(٣) النقائض ص ٦٢٣ و ٦٥٠

وفى شرح النقائض (١) أن جريراً فى هجائه الراعى قال من قصيدته البائية ثمانين بيتاً حتى أتى فى آخر الليل على قوله :

فغُضَّ الطرفَ إنك من نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ثم قال لراويته : حسبك ، أطفىء سِراجَك ونَمْ ، ثم إن جريراً أتم هذه القصيدة بعد ، وكان يسميها الدّمّاغة ، والدهقانة ، والمنصورة .

هذه الشواهد تشير إلى أن ترتيب الأبيات بين كل نقيضتين معاً قد يشوبه شىء من الاضطراب وعدم الإحكام ، وسنرى شواهد تؤيد ذلك ، وتدل أيضاً على أن ترتيب النقائض جميعاً غير متوافر فى هـذا الديوان المنشور ، وذلك أثناء عرض هذا الديوان .

بدأ ديوان النقائض هذه بذكر ما دعا إلى التحام جرير مع غسان السَليطى كما قدمنا وما رجز به جرير غسان ومن معه فرماهم بالجبن والبخل وأهدى إليهم فى رجزه حيراً قبيحة الصورة ووصم رجالهم بالضعة ونساءهم بالقذارة وذلك فى الأراجيز الخمسة الأولى فنشط غسان وأخذ يرد على جرير بالشعر فى القطعة السادسة :

لعمرى لئن كانتْ بَجيلةُ زانَها جرير لقد أخزى كُليباً جريرها

يوازن بينه وبين جرير بن عبد الله البجلى الصحابى الشهير (٢) ويرمى كليباً بالجبن واللؤم والبخل وجريراً بالعجز عن حماية قومه وبحماقة أصـلـه ، فأجابه جرير بقصيدته :

ألا بكرتْ سَلمى فجدَّ بكورها وشَقَّ العصا بعد اجتماع أميرها

وبعد نسيب قصير يسخر بغسان ويرميه بالعجز عن حماية قومه سليط ويصف قومه بالجبن والفرار والدناءة والهوان فيقلب عليه معانيه ويحـــذرهم التعرض

---

(١) ص ٤٣٠ — ٤٣٢ (٢) الاصابة لابن حجر ج ١ ص ٢٣٢ مصر سنة ١٩٣٩م

لبني الخطفى حول الغدير الذى اختلفوا عليه بالقاع ، فإن بنى الخطفى أنقذوهم من قيس عيلان أيام (سُوفةَ) بالمروّت وردوا إليهم (بنْر حِصْن) من بنى مرّةَ بن غطفان ، ويهددهم بشعره ، ويعيرهم بيوم (الحِذاب) لبكر بن وائل على سَليط فاستنقذتهم بنو رياح وبنو ثعلبة ابنا يربوع .

وهنا يرد على جرير أبو الورقاء عُقبة بن مُليص المقلّدى يهدده ويعتز بقومه على معد كلها ويحذر جريراً ورهطه أن يعرضوا لمـا لا يقدرون عليه .

ويستمر جرير وغسان حتى نجد فى القطعة الحادية عشرة غســان يذكر تقدم سنه وطول تجربته ، وشدة بأسه ، ويرمى بنى كليب بالضعف وخفـة الأحلام والذلة واللؤم ، فيجيبه جرير فى القطعة الثانية عشرة ، ويأخذ منه معنى خفة الأحلام فيرده عليه : —

أَبَنِي أُدَيْرة إنّ فيكمْ فاعلموا خَوَرَ القُلوبِ وخِفّةَ الأحلامِ

ويعيرهم بيوم (قشاوة) لبسطام بن قيس الشيبانى حتى أنقذهم همام بن رياح ابن يربوع ، وهنا يذكر الشارح خبر هذا اليوم .

وهكذا حتى نصل إلى ما كان بين غسان و بين جَبْناء الكلبي وردّ جرير عن جبناء ، وتعييره غسانَ بالغدر بجار اليربوعيين وحضّه بنى عاصم عليهم كما مر ، ويلح جرير على غسان وقومه ، ثم يأسف لأن غسان شغله عن أن ينشر من أيام بنى سليط مالا يَبيد جِدّ الدهر إذ كانوا فُرساناً .

ويصادفنا بعقبِ ذلك تعرُّضُ فضـالة العُرَني من ثعلبة بن يربوع لجرير وتهديده إياه بالقتل لأن جريراً يشتم أخوالَه بنى سَليط فيقول له جرير : —

أتُوعِــــدُنى وراء بنى رياح كذبتَ لتقصُرَنّ يداكَ دُونى

عَرِينٌ مِن عُرَيْنَةَ ليس مِنــا ... بَرئتُ إلى عُرَيْنَــة مِن عَرِينِ

الأبيات[1] ثم تعرّض الأعور النبهانى لجرير وسؤاله ، دفعه إلى ذلك بنو أخته من سَليط ، فلم يُشبع جرير أطاعه فانصرف وهجا جريراً بقوله : —

فقلتُ لها : أُمّى سَليطاً بأرضِها ... فبئس مُناخُ النــازلين جريرُ

ولو عند غسان السَليطى عرّست ... رغا قَرَنٌ منهــا وكاسَ عقيرُ

وأنتَ كُلَيبيّ لكلبٍ وكلبةٍ ... لها عند أطناب البيوت هَرِيرُ[2]

فقال جرير يرد عليه : —

عفا ذو حَمام بعــــدنا وحَفيرُ ... وبالسِرّ مَبْدًى مِنهمُ ومَصيرُ

ويرمى بنى نبهان الطائيين باللؤم والهوان والفجور ويصور نســاءهم صوراً قبيحة ثم يمتن على خصمه بما أكرمه ويجهز عليه .

ثم يلتحم جرير والبعيث كما سبق ذكره ، وذلك بالقطعة السادسة والعشرين لجرير وفيها يتهم البعثَ بنصره غسانَ ، ويهجو أمــه ، وينذره ، فيرد عليه البعيث واصِفاً رهطه باللؤم مُنذِرَه بالشر هاجياً أمه أيضاً ، مفتخراً بأيام مجاشع قومه كيوم (طَيِّيء) ويوم (نَجْران) فيردّ عليه جرير ويُطيل النسيب ويفخر بشعره وينذره هو وقومَه بالويل ويذكر أمه ، وكانت أمَةً من سَبْي أصبهان[3] فحقت عليه الجزية يؤديها لسادته ، ويرميه باللؤم وأمه بالسوء . ثم يفخر جرير ببأس قومــه يربوع وفروسيتهم ويذكر يوم (ذى طلوح) ليربوع على بكر ، وخبرَ الرِدافة[4] مع المنذر بن ماء السماء ويوم (المرُّوت) ليربوع على عامر ويوم (أعشاشٍ) ليربوع على شَيْبان ، ثم يذكر جرير غدرَ مجاشع بالزُبير بن العوام

---

(١) النقائض ص ٣١ ... (٢) نفسه ص ٣٢

(٣) نفسه ص ٦٣ ... (٤) نفسه ص ٦٦ .

إثر وقعة الجمل[١] ومسألة القيون ، وقِرامِ النازلين بالحزير ، ويذكر الشارح حديثَ داحِس[٢] .

ويعود البعيث فيهجو جريراً ، ويتعالى عليه ، ويذكر هذا البيت الذى أخذه من الفرزدق وأغضبه : —

أترجو كليبٌ أن يجيء حديثُها   بخيرٍ وقد أعيى كليباً قديمُها

فأجابه جرير : —

ألا حَيِّ بالبُردَينِ داراً ولا أرى   كدارٍ بِقَوٍّ لا تُحَيّي رُسُومُها

وهى القطعة الثلاثون ، وفيها يتعالى على مجاشع ويذكر يوم (اللِوى) ويوم (عبيد الله بن زياد) ومبايعة تميم لعبد الله بن الحارث الهاشمى مِن غير مشورة اليمن وربيعة[٣] إثر موت يزيد بن معاوية ثم ذودَهم عن المِنبر الشرقى أيام فتنة البصرة[٤] وعن الكعبة مناصرةً لابن الزبير : —

عَنِ المِنبرِ الشرقيّ ذادت رِماحُنا   وعن حُرمةِ الأركان يُرمى حَطيمُها

وهذا يقرِّب إلينا تأريخ هذه القصيدة فهى بعد حصار مكة سنة ٦٤ ﻫ و بعد فتن البصرة عقب ذلك[٥] ، ثم ذكرَ يومَ (عاقل) لبنى حنظلة من تميم على جُشَم من ربيعة ، وألحّ على أمّ البعيث بالهِجاء الفاحش وهجا مجاشعاً ثم قال له : —

أتشتِم يَربوعاً لأشتِمَ مالكاً   وغيرُكَ مَولى مالكٍ وصميمُها

ومالك أصل دارم ومجاشع ، ولعل جريراً يشير إلى أن الفرزدقَ أحقُّ من البعيث بالدفاع عن مالك والتكلم باسمها .

---

(١) نفسه ص ٨٠   (٢) نفسه ص ٨٣ — ١٨٠
(٣) النقائض ص ١١٢   (٤) و (٥) نفسه ص ١١٨

وهنا تلوم نساء مجاشع الفرزدق لتركه جريراً يهتك عوراتهم و يأكل البعيث أكلا ، فاضطر الفرزدق أن يدخل المعركة كارهاً وأن يشتبك مع جرير و يسقط بينهما البعيث[1] .

و يلاحظ أن الفرزدقَ فى القصيدة الحادية والثلاثين يتقدم إلى المعركة متثاقلا و يذكر أنه قضى ثلاثين عاماً فى غواية ثم قَيَّدَ نفسه لجمع القرآن إذ يقول :

ألا استهزأتْ مِنِّى هُنيدةُ أن رأتْ أسيراً يُدانى خطوَه حَلَقُ الحِجْلِ

الأبيات ، ومعنى ذلك أن سنه فى ذلك الوقت (وهو سنة ٨١ هـ) كانت نحو ست وخمسين سنة على ما يفهم من ذلك النص ومن أنه قارب المائة ومات سنة عشر ومائة هجرية .

وشىء آخر ، إذا كان البعيث قد سقط منذ التحام جرير والفرزدق كما قال الناس ، فمعنى ذلك أن هذين الفحلين قد انصرفا عنه إلى مابينهما ، وانعدم أو ندر التحامه بأحدهما ولا سيما أنه قد شاخ فصار ذكره فى النقائض ذكرى أو مثلا للعدو المهزوم وأخذ يختفى من تاريخ هذه المناقضة المطَّردة النامية ، لذلك يرجح أن يستمر ترتيب النقائض هكذا : فالقطعة الثانية والثلاثون مرتبطة بما قبلها إذ كانت رداً عليها وهى للبعيث فى هجاء الفرزدق وجرير ، وتليها القطعة الثالثة والثلاثون لجرير فى الرد على البعيث وهجاء الفرزدق وفيها مدح الحارث بن أبى ربيعة المخزومى والى البصرة من قبل ابن الزبير (٦٥ — ٦٧ هـ) : و بعدها النقيضتان الرابعة والثلاثون للفرزدق أول ماهجا جريراً والخامسة والثلاثون لجرير فى الرد على الفرزدق وفراغ كل منهما لصاحبه . ثم يلى ذلك على الأرجح القطع التى ذكر فيها البعيث ، منها القصيدة الخامسة والستون لجرير يهجو الفرزدق والبعيث

---

(١) ص ١٢٤ — ١٦٢ .

ونقيضتها السادسة والستون للفرزدق ، ثم التاسعة والستون للفرزدق يهجو جريراً ويعرض بالبعيث ونقيضتها السبعون لجرير يهجو الفرزدق وقد أنشئتا بعد ما ترك البصرة خالدُ بنُ عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى إلى الشام وكان قد دخل البصرة داعياً إلى عبد الملك لما تركها مصعب إلى قتال عبد الملك سنة سبعين هجرية[١] ، ويمكن أن يعقب ذلك أو يتصل به من قرب القطع الحادية والسبعون إلى الثانية والثمانين المتصلة بزوجات الفرزدق من عهد ابن الزبير الذى لجأت إليه (النوار) إلى عهد عبد الملك لتدخل الحجاج فى إحدى هذه الزيجات .

كذلك يمكن تقريب تاريخ النقائض الرابعة والتسعين للفرزدق والخامسة والتسعين لجرير ومعهما قصيدة الأخطل الواردة فى تقائضه مع جرير[٢] إذ أنشئت الثلاثة مدة ولاية بشر بن مروان الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير سنة إحدى وسبعين هجرية ، وتكون اللاميتان[٣] بعد هذه القصائد لورود الأخطل فيهما ، وكذلك كل نقيضة ورد فيها ذكره ، ومنها « نقائض جرير والأخطل » .

وأما القصيدة الخامسة والخمسون لجرير فقد أنشئت بعد ولاية الحجاج على العراق سنة خمس وسبعين هجرية ففيها مديحه ، وترتبط بها السادسة والخمسون نقيضتها للفرزدق ،وكذلك أنشئت النقيضتان الحادية والخمسون والثانية والخمسون سنة ست وتسعين بعد مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى فى عهد سليمان بن عبد الملك .

وهناك القصيدة الواحدة بعد المائة لجرير قيلت سنة ١٠٦ هـ بعد قتل الخيار ابن سَبْرَة المجاشعى ، قتله بنو المهلب فى فتنة يزيد بن المهلب ، وكان الخيار أميراً على عُمان وكان أمّرهُ عَدى بن أرطاةَ الفَزارى ، وكان عدى عاملا لعُمر بن عبد العزيز على البصرة[٤] :

---

(١) النقائض ص ٧٤٩ .

(٢) ١٩٧ .

(٣) النقائض ص ١٨٢ و ٢١١ .

(٤) ص ١٧٤ .

قَتَلَ الخِيارَ بنو المهلبِ عَنوةً فخذوا القلائد بعده وتقنّعوا
وُطِيء الخيارُ ولا تَخافُ مجاشع حتى تَحطَّمَ فى حشاه الأضلع
ودعا الخِيارُ بنى عِقالٍ دَعوةً جَزِعا وليس إلى عِقالٍ مَجزَعُ

وأما النقيضتان الثانية والثالثة بعد المائة فقد قيلتا لخالد بن عبد الله القسرى والى العراق (١٠٦–١٠٩هـ) وكذلك القصيدة الخامسة بعد المائة للفرزدق قيلت فى مدح هشام ابن عبدالملك (١٠٥–١٢٥هـ) ومعها نقيضتها لجرير يهجو الفرزدق والبعيث والأخطل وسُراقة البارقى والكندى . وأما رثاء جرير للأخطل فكان سنة خمس وتسعين هجرية ومعه ردّ الفرزدق عليه .

— ٤ —

ونعود إلى عرض الكتاب بعد هذا الاستطراد مسايرين نصوصه فنياً وتاريخياً قدر الاستطاعة .

لما قال الفرزدق قصيدته الأولى فى هذا الفن وفكّ قيده ، وأنذر جريراً ونهض لحماية قومه وارتفع بهم إلى منزلة الملوك هجاه البعيث مع جرير لأن الفرزدق رمى البعيث بسرقة شعره كاملاً[1] فسخر بقيد الفرزدق فى نقيضته الثانية والثلاثين وامتنّ على مجاشع بدفاعه عنهم وفخر بنفسه وبآله من دارم ، وهدد بشعره ، وذكر حكومة قومه فى الجاهلية[2] ورجالاتهم وبأسهم ، ويومَ (جَدُود)[3] لبنى مِنقَر من تميم على بكر من ربيعة ، ويوم (الكُلاب الثانى)[4] لتميم على مَذحِج ، وأنحى على جرير وقومه بالهجاء فأجابه جرير ، ويهجو الفرزدق بنقيضته الثالثة والثلاثين : —

---

(١) النقائض ص ١٢٥ . (٢) ص ١٢٩ . (٣) ص ١٤٤ . (٤) ص ١٤٩ .

عُوجِي علينا واربَعِي رَبَّةَ البَغْلِ ولا تقتُليني لا يَحِلُّ لكم قتلي

أطال فيها النسيب وعتب على هؤلاء التيميين الذين يرجون له الردى (وهم البَعيث، والفرزدق، وغسّان، وابن لَجَأ، والبلتع) وهجا البعيث هجاء خبيثاً هو والفرزدق، ووقف بجانب يربوع رهطه الأدنين، وهاجم مجاشعاً، ومدح الحارث بن أبي ربيعة المخزومي والي البصرة من قبل ابن الزبير ورجاه ألا يُشْمِتَ به أعداءه، وذلك يجعل تاريخ هذه القصيدة بين الخامسة والستين والسابعة والستين للهجرة، فأجابه الفرزدق وكانت أول قصيدة هجا فيها جريراً، وهذا هو بدء النقائض بينهما سنة سبع وستين هجرية على أبعد تقدير متأخر وتكون مدة النقائض بينهما ثلاثاً وأربعين سنة اذا صح أن موتهما كان سنة ١١٠ هـ

وقد تضمنت قصيدته هجاء البعيث ودلت على بغضه ما هو قادم عليه من مهاجاة ثم عكف على جرير يهدده ويصف ذلته ويضعه دونه ويذكر شيوخ قومه هو وسناءهم الرفيع. ولكن اجابة الفرزدق هذه للبعيث لم تتحد فيها القافية وان اتحد البحر، وقد التفت جرير الى الفرزدق ينقض عليه قصيدته بالقطعة الخامسة والثلاثين التي تضمنت نسيباً رائعاً، وعتاباً تحدثنا عنه كثيراً، وفخراً بأصله الخِندفي وبأسه، وهجاء لمجاشع بجبنها وشاعريها، والغدر بالزبير بن العوام فلما التحيا قال الناس: سقط البعيث [1] فتم أمر البعيث واضطرب موقفه كما يدل على ذلك القطعتان السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون ثم عُني كل من الفحلين بصاحبه.

---

(١) ص ١٨٠.

— ٥ —

يلقانا بعد ذلك اللاميتان ، ولا بد أن تكونا بعد القصائد النونية الثلاث لجرير والفرزدق والأخطل لذكر الأخطل فى اللاميتين وادعاء الفرزدق سرقة جرير شعره .

طرق الفرزدق موضوعه مباشرة دون هذه الديباجة التقليدية فافتخر بقومه وهجا جريراً وقومه ، وذكر بأس مجاشع وطوائفهم ، وخولتهم ، وأحلامهم ، وألم بأعمامه وأخواله ضبة وفوقهم على كليب ، وذكر يوم (نقا الحسن)[١] لضبة على شيبان ، ومقتل عمارة بن زياد العبسى يوم (أعيار)[٢] وهو يوم النقيعة ، وجيرة بدر بن حمراء الضبى لبنى تميم[٣] ويوم (الجمل)[٤] وهجا أبا جرير ، ولقب قصيدته هذه (بالفيصل) ثم ذكر وراثته الشعر عن الماضين حتى الأخطل ، ورمى غدانة باللؤم والخور وجريراً بسرقة شعره وادعائه نسباً دارمياً ، ويقول له : —

ليس الكرامُ بناحليكَ أباهمُ   حتى تُرَدَّ إلى عَطيةَ تُعتَلُ
وزعمتَ أنك قد رضيت بما بَنَى   فاصبرِ فما لك عن أبيك مُحوَّلُ

فمتى وأين زعم ذلك جرير ؟ ربما ظفرنا ببيان ذلك فى النقيضتين الستين والرابعة والستين لجرير الآتيتين ، ثم هجا أمه وقال له :

أسألتنى عن حَبوتى ما بالُها   فاسأل إلى خَبرَى وعمّا تسألُ

فمتى سأله ؟ أيجوز أن يكون هـذا القول صنعة فرزدقية خيالية ؟ ثم يرمى جريراً بإتيان الأتن ، ويدعى أنه أتى (حِقّة) امرأة جـــرير أو أمه[٥] ويرمى

---

(١) النقائض ص ١٩٠ . (٢) ص ١٩٣ . (٣) ص ١٩٨ . (٤) ص ٢٠٢ .
(٥) ص ١٩٧ .

إم جرير بالزنا وجريراً بالحبَل لشربه المنى[1] ولذلك قصة . أما جرير فقد نسب أولا ، ثم قال : —

أعـــددتُ للشعراء سُمّاً ناقِعاً   فسقيتُ آخرهم بكأس الأولِ
لما وضعتُ على الفرزدق مِيسمى   وضَغَا البعيث جدعتُ أنف الأخطلِ

ثم دخل فى المناقضة فهدم بيتَ الفرزدق ، وعيّره بالقيون ، ومقتل أبيه بكاظمة بلدتهم فى قصة[2] وبحديث البراجم[3] ثم نقض على الفرزدق احتفاءه بالشعراء ، وغمزه بأن (قُفَيرَةَ) جدتهم بنت زِنا ، أمها المِذَّبَةُ وَليدةُ كسرى وهبها إلى زُرارة بن عُدُس[4] ثم ذكر الزُّبير وجِعْثِنَ قُبالة أم جرير[5] وشنع بها كثيراً ، وغمزه بارتضاع الفيشل موازاة شرب المنى[6] ورمى مجاشعا باللؤم والضعف ، وتعالى بقومه وحلومهم أخذاً من الفرزدق ، واستأنس بحَكَمىْ قريش : هشام وأمية أو عبد مناف وهاشم[7] . وذكر أرهاطه موازنة ما ذكر خَصمه وهجا ضَبَّة ومُجاشِعاً ، وذكر أم الفرزدق بصورة قبيحة مقابلة لما قال زميله ، وذكر يوم (رَحْرَحان)[8] لعامر على تميم ولم تشترك فيــه يربوع ، ثم خصاء الفرزدق ، وعورات مجاشع ، وقيونَهم ، وهدّد الفرزدق .

وبعد ذلك القصيدة الحاديه والأربعون للفرزدق يبدأها بنسيبه بزوجه (النوار) وهجائه (ابن المراغة) وبنى كليب ، وفجر بناتهم ، ولؤمهم ، ثم يفخر بأخواله وبيوم الشَّقِية)[9] لضبة على شيبان ويوم (النِسار) لضبة وتميم على عامر[10] .

---

(١) نفسه ص ٢٠٦ . (٢) ص ٢١٤ . (٣) ص ٢١٩ . (٤) نفس المرجع
(٥) النقائض ص ٢٢٢ . (٦) ص ٢٢٣ . (٧) ص ٢٢٤ . (٨) ص ٢٢٦ .
(٩) ص ٢٣٣ . (١٠) ص ٢٣٨ .

فرد عليه جرير فهجاه هو والبعيث وسخر بهما — وهذا يرجح أن يكون مكان هذه المناقضة قبل هذا الموضع — ثم فخر بنفسه وقومه ورجالهم و بيوم (الصَّرائم)[1] ليربوع على بني جَذِيمة العبسي ، وهجا مجاشعاً وضبة هجاء قبيحاً كما فعل صاحبه به .

ويبدأ جرير النقيضة الثالثة والأربعين بالنسيب وهجاء الفرزدق ومجاشع والموازنة بين مراودته مُضيفتَهُ و بين حادث (جِعثن)[2] ويذكر مقتل أبي(النوّار) دون ثأر ، وأنه تزوج الفرزدق والبَعيث وأن هذا أتى أمه ، ويفخر ببأس قومه وشجعانهم ، ويختمها بالزُّبير وجِعْثنٍ ورهن عوف مزاد بن الأقعس المجاشعي وعوف بن القعقاع .

فيُجيبه الفرزدقُ دونَ نسيب ، ويذكر شؤم جرير على قومه ، ويفخر بما حمله قومه من مكارم ، و برجاله ، ويتعالى بهم على كُليب ويذكر يوم(النِّسار)[3] ويرمي كليباً بالمهانة ، ويطلب إلى جرير محاكمته إلى قُضاعة ونِزار .

ويبدأ الفرزدق هذه المرة فيرمي جريراً بأمه ، وقومَه بالذل ، ويفخر (بِهُنَيدة)[4] و بأسرته ويعيد ذل جرير وقومه .

ويجيبه جرير بالسادسة والأربعين ناسباً وهاجياً كليباً وجريراً بصور قبيحة وموازناً بين رهطيهما ، وفاخراً بيوم (الكُلاب) .

فيرد عليه جرير ناسباً ، ذاكراً سيرورة هجائه ، مشيراً إلى البَعيث

---

(١) ص ٢٤٨ (٢) ص ٢٥٤

(٣) ص ٢٥٨ (٤) ص ٢٦٤

ملحقاً به الفرزدق ، مفتخراً بنفسه وقومه ، ذاكراً (الردافة)[1] ويوم (ذى نجب)[2] لتميم على عامر وحيادَ قومه ويقول : —

أحسبتَ يومَكَ بالوقيط كيومنا يومَ الغَبيط بقُلة الأرْحالِ[3]

والوَقيط لبكر على تميم ، والغَبيط لشيبان على يربوع ، ويستمر هاجياً ذاكراً أعين ، والزبير ، وجِعثن يصورها صورا قبيحة ، ولباسهما فى المربد[4] والقيونَ ونساء مجاشع بشكل مُزْرٍ ثم ينحى على ضَبة بالهجاء .

ثم قال الفرزدق يهجو جريرا ويردّد ما قاله ويذكر يوم (جدُود)[5] لتميم على بكر ويستشهد بهوازن على عز مجاشع ويفخر بقومه ويهجو جريراً وقومه .

فأجابه جرير ، فهجا البعيثَ وأمّهُ وأباه مع الفرزدق ومجاشع ونوّه بيوم (الصرائم)[6] بين عبس ويربوع ، وشنع بنساء مجاشع وقال : —

سار القصائد واستبحْنَ مجاشعاً ما بينَ مِصرَ إلى جنُوب وَبارِ

وقرن نوار إلى جعثن ، وهنا نجد البيت الذى سألنا عنه قبلا : —

لما بنى الخَطَفى رضيتُ بما بنَى وأبو الفرزدق نافخُ الأكيارِ[7]

أليس هذا يرجح أن تكون هذه النقيضة قبل لاميّة الفرزدق التاسعة والثلاثين ؟

ونترك الميميتين فى مصرع قتيبة سنة ٩٦ هـ إلى أن نحللهما بالتفصيل ، وإن كان قد ورد فى أثنائهما حادث قتيبة[8] ويوم (جبلة)[9] وإجارة الفرزدق

---

(١) النقائض ص ٢٩٨ (٢) ص ٣٠٢ (٣) ص ٣٠٥ — ٣١٧ .
(٤) ص ٣٢٠ (٥) ص ٣٢٦ (٦) ص ٣٣٦ (٧) ص ٣٤٢
(٨) ص ٣٤٩ ــ ٣٧٠ (٩) ص ٣٧٩ .

بقبر أبيه[١] وضربة الرومى[٢] وقدوم الفرزدق على عمر بن عبد العزيز بالمدينة وإخراجه منها[٣] وحادث الأخطل وقومه مع الجحّاف فى حضرة عبد الملك[٤] وما أعقب ذلك من يوم (البِشر) ويوم (الثويرة)[٥] ويوم (جبَلة)[٦] ويوم (الرّغام)[٧] ويوم (صَوْءر)[٨] ويوم (القَرَوْقين)[٩].

— ٦ —

ونُفْجَأ بالتحام الراعى وجرير واضطراب موقف الشاعرين تبعاً لذلك ، فالراعى قيسى يلتحم مع جرير شاعر قيس ، والفرزدق تميمى ينتصر للراعى القيسى ويتناقض الفحلان التّميميان فى سبيل الشاعر القيسى[١٠] ونظفر من ذلك ببائية جرير المنصورة كما سماها وهى الثالثة والحسون ، نسب فيها ، وهجا مجاشعاً ، وذكر قصة أبى البلاد الطُهَوى مع سَلمى بنت عمه[١١] وفخر بقومه وبأسهم ، وذكر الزبير ، والقيون ، وعوفا ، وجِعْثن ، وجبن مجاشع ، وأيام ذى نجب ، ورحرحان ، والوقيط ، وغيرها ، ثم عدا على الراعى وقومه فأجهز عليهم ، وفخر بتميم والإجازة[١٢].

وقد أجابه الفرزدق مفتخراً فذكر يوم الكلاب الأول[١٣] ورهْنَ حاجب ابن زُرارة قوسَه كسرى عن العرب ووفاءه له[١٤] ويوم (فيَف

---

(١) ص ٣٨٠ (٢) ص ٣٨٣ (٣) ص ٣٩٦
(٤) ص ٤٠١ (٥) ص ٤٠٥ (٦) ص ٤٠٧
(٧) ص ٤١٠ (٨) ص ٤١٤ (٩) ص ٤٢٠
(١٠) ص ٤٣٧ (١١) ص ٤٣٤ (١٢) ص ٤٥٠
(١٣) ص ٤٥٣ (١٤) ص ٤٦٢

الريح)[١] لنُمير ويوم (إراب) لتغلب على رياح بن يربوع[٢] ثم يتعالى على جرير وبنى كليب .

ويهجو جرير الفرزدق وعبيد بن غاضرة العنبرى ويذكر (المروت) وحادث المتغور عبيد بن غاضرة هذا[٣] ويمدح الحجاج ويشير إلى بناء الكعبة[٤] وما دعاه إلى هجاء ابن غاضرة[٥] ويجيبه الفرزدق بهجاء فاحش .

وكانت النقيضة السابعة والخمسون مبدأ التحام جرير والأخطل[٦] ولا بد أن تكون مع زميلتها سابقة فى الترتيب كما مرّ . وقد نسب جرير ، وفخر بالكرم ، ووازن بين قيس وتغلب ، وأنحى على تغلب بالهجاء ، وذكر ابن زفر والجحاف ، ونساء تغلب ، وسمات المسيحية[٧] ويومى البشر وسنجار[٨] . وأجابه الفرزدق هاجيا بنى كليب وشاعرهم جريراً .

ثم يتهاجيان فى سبيل بنى جعفر بن كلاب إذ يهاجهم الفرزدق ويذكر الدُهيم[٩] وحديث ابن ضبا[١٠] . ويجيب جرير فيمدح بنى جعفر ويفخر بقيس ويهجو مجاشعاً وشاعرهم كما هو معروف .

وفى صدر الجزء الثانى من النقائض قصة التحام الفرزدق مع ابن أبى بكر ابن حزم بالمدينة ذلك الذى تحدى الفرزدق بشعر حسان بن ثابت وقبول الفرزدق هذا التحدى وإنشائه القائية الفخمة التى تضمنت نسيباً جميلا طويلا على غير

---

(١) ص ٤٦٩ (٢) ص ٤٧٣

(٣) ص ٤٨٤ (٤) ص ٤٨٦

(٥) ص ٤٨٧ (٦) ص ٤٩٤

(٧) ص ٥١٠ (٨) ص ٥٠٧

(٩) ص ٥٢٦ (١٠) ص ٥٣٢

عادة الفرزدق ، ومدحا فى عبد الملك ، وفخراً بكرم قومه وبأسهم ، وأنهم ملوك ذوو أحلام ، وأصحاب الكعبة وبيت المقدس ، وهجاء جرير وأمه . وكانت هذه النقيضة الحادية والستون فى إمرة أبان بن عثمان أيام عبد الملك بن مروان . فنهض جرير للرد عليه ، ونسب مطيلا ، وعيّر الفرزدق بيوم (صوءر) وذكر يومى ذى نَجَب[1] والإياد[2] ونقضَ معانى خصمه ذاكر غدر مجاشع ، وصورة جعثن ، وزواج الفرزدق رُهَيمة بنت غنيم ابن درهم ومنافرتها له[3].

وقال الفرزدق لجرير : —

سمونا لنجرانَ اليمانى وأهله　　ونجرانُ أرض لم تُدَيَّثْ مقاوله

مشيدا بذكر الأقرع بن حابس[4] وجيشه ، هاجياً بنى كليب ، ذاكراً هدم داره[5] وهربه من زياد ، وملاحاته معاوية ، ولقاءه الأسد ، وقصده المدينة ومكة حتى موت زياد ورثاء مسكين الدارمى له ورد الفرزدق عليه فى الشارح[6] وهجاء كليب وجرير ؛ ويوم (صَوءر)[7] ويستمر فى النقيضة على عادته . فأجابه جرير بنسيب طويل ، وفخر عريض ، وذكر يوم ذى نجب وذى قار[8] ، ويهجو الفرزدق ويلتقيان بلباسيهما فى المربد[9] ولعلها أبيات أضيفت إلى النقائض .

---

(١) ص ٥٨٧　　(٢) ص ٥٨٠
(٣) ص النقائض ص ٤٩٤　　(٤) ص ٦٠٠
(٥) ص ٦٠٧　　(٦) ص ٦٠٨ـ٦٢١
(٧) ص ٦٢٥　　(٨) ص ٦٣٨
(٩) ص ٦٢٣ بيت ٥٩ و ٦٠ و ص ٦٥٠ بيت ٦٢ و ٦٣

وكذلك البيت الخامس والستون فى الصفحة الحادية والخمسين بعد الستمائة والبيت الثامن والثلاثون فى صفحة ٦٠٦ والبيت ٦٩ ص ٦٥١ .

بَنِى الخطفَى حتى رضينا بناءه ... فهل أنت إن لم يُرضِك القينُ قاتله

بنينا بناء لم تنالوا فروعَهُ ... وهدّم أعلى ما بنيتم أسافله

ويذكر يوم (أُوارة الثانى)[1] ويوم (شِعبِ جَبلةَ)[2] ويوم (أقرُن)[3] ويوم (زُبالةَ)[4] ويرمى ليلى بحبلها من جُبير ثم هدم داره[5] .

ويقول جرير للفرزدق والبعيث مفتخراً وهاجياً كعادته ويذكر هذا البيت الذى عبث به عمرو بن لجأ : —

لقومىَ أحمَى للحقيقةِ منكمُ ... وأضربُ للجبّار والنقعُ ساطعُ

وأوثقُ عند المردَفَات عشيةً ... لحاقاً إذا ما جرّد السيفَ لامعُ[6]

ويجيبه الفرزدق فيذكر جده محيي الموءودات[7] ويوم (إراب)[8] ويسرق بيت جرير (ص٦٩٢ لجرير و ص ٧٠١ للفرزدق) .

ويهجو جرير الفرزدق وآل الزبرقان بن بدر البَهْدليين ويردعليه الفرزدق فيشيد بما وهب النعمان لقومه بُردَى ابنه مُحرّق أخذهما عامر بن أُحيمر بن بَهدلة بحجة أنه أعزُّ العرب قبيلة[9] وورود الزبرقان بصدقات قومه أيام الردة[10] ويومَ (بُسُر)[11] وقصته مع معاوية .

---

(١) ص ٦٥٣ (٢) ص ٦٥٤ — ٦٧٨ (٣) ص ٦٧٩ (٤) ص ٦٨٠

(٥) ص ٦٨٣ (٦) ص النقائض ص ٦٩٣ (٧) ص ٦٩٧ (٨) ص ٧٠٣

(٩) ص ٧١٣ (١٠) ص ٧١٥ (١١) ص ٧١٦

ويأتى الفرزدق فيهجو جريراً ويعرّض بالبعيث ملما بقصة مسعود[١] وهرب عبد الله ابن زياد ورهن عبد الله بن حكيم المجاشعى نفسه بوفاء الأحنف بن قيس، وقبول الرسول شفاعة الأقرع بن حابس[٢] وقصة خالد بن عبد الله الأموى[٣]. ويجيبه جرير فيذكر يوم (نُشيان)[٤] ورؤيا هبيرة بن ضَمْضَم المجاشعى[٥] ويستمران فيذكر جرير يوم (ذى طلوح)[٦] ومسألة النوار وزواجها والزواج عليها[٧] ويذكر الفرزدق حكاية العبد (يسار) الذى قُطع إحليله[٨] وتصادفنا أثناء النقائض بقيضة ذات بيت واحد[٩] وقصة الفرزدق مع (حدراء) والتجائه إلى الحجاج وقصة حميدة الحنظلية امرأة مَعبد السليطى مع حوط بن سفيان وزوجها[١٠] أيام الحجاج فى صورة شنيعة وجارية جرير التى فركته وبعض قطع لانقائض لها ومناقضة بمناسبة وفاة خالدة بنت سعد زوج جرير[١١] وحرب البسوس[١٢] وهجاء الفرزدق لجندل بن الراعى وذى الأهدام الجعفرى وذكر يوم (الشباك)[١٣] ويوم (هراميت)[١٤] وهجاء الفرزدق بنى نهشل فى معاقرة بينهم وبين جناب شَريك من آل صعصعة رهط الفرزدق وذكر قصة عمر بن عمران مع حَرِىّ ابن ضمرة[١٥] وفخر جرير بأبناء إسماعيل وإسحاق[١٦] ويوم (الشيطين)[١٧] لبكر وتميم و (ثيتل)[١٨] و (تياس)[١٩] حتى نصل إلى هلاك الأخطل والمناقضة فى ذلك[٢٠] وهنا تنتهى النقائض .

---

(١) ص ٧٣١ (٢) ص ٧٤٧ (٣) ص ٧٤٩ (٤) ص ٦٠
(٥) ص ٧٦٨ (٦) ص ٧٨١ (٧) ص ٨٠٣ (٨) النقائض ص ٨٦١
(٩) ص ٨١٩ (١٠) ص ٨٣١ (١١) ص ٨٤٧ و ٨٦٦ (١٢) ص ٩٠٥
(١٣) ص ٩٢٧ (١٤) ص ٩٣٧ (١٥) النقائض ص ٩٤٤ (١٦) ص ٩٩١
(١٧) ص ١٠٢٠ (١٨) ص ١٠٢٣ (١٩) ص ١٠٢٥ .
(٢٠) ص ١٠٤١ و ١٠٤٣ .

ويتبع ذلك إضافات من الناشر جمعها لصلتها بأشياء وردت فى نصوص النقائض ، وهذه الإضافات مثل الأكابر ، ونبتل ، وعبد أبى سواج ، ورحرحان ، والنسار ، وجزع ظلال ، والغبيط ، وصوءر ، وفروق قو ، والكلاب الأول ، وذى نجب وأوارة ، وإراب ، والجفرة ، ويسار الكواعب ، وخزازى ، وجار عمرو بن عمران ، وغضوب ، وسعد ابن صبيح .

— ٧ —

وفى أثناء هذا العرض لاحظنا أن هذين الفحلين قد تناقضا غير مرة فى سبيل غيرهما فالتحما حول الراعى وحول بنى جعفر بن كلاب وحول ابن أبى بكر بن حزم لما تحدى الفرزدق بشعر حسان بن ثابت وحول مُخَرِّق بن شريك وحول بنى نهشل وحول الأخطل وحول الأصمّ بن باهلة ، وغالب هذه الحالات كان يعجز أحد هؤلاء فينهض جرير أو الفرزدق للرد عنه ، حتى رأينا الفحول الثلاثة يلتحمون معاً أول ما تدخل الأخطل بين زميليه وينتج من ذلك نقائض ثلاثة أشرنا إليها كثيراً .

وقد لاحظنا أيضاً أن النقائض كانت تنتهز المناسبات لتظهر حتى كان موت زوج جرير فرصة للمناقضة ، وكذلك موت الأخطل ، وتدخل الراعى ، والتحدى بفخر حسان وغير ذلك مما يدل على تربص كلّ بصاحبه .

كذلك لاحظنا أن فى هذا الديوان قصائد لا نقائض لها ، من ذلك قصيدة الفرزدق السابعة والثمانون وهى التى قالها لما أصابت جريراً حُمرة فتداوى بتزويج ابنته أم غيلان للأبلق التميمى[1] والقطعة الثامنة والثمانون لجرير فى تزويج الفرزدق

---

(١) النقائض ٨٤٠

عُصَيدة[١] وقد وردت فى ديوان جرير[٢] أنها قيلت فى ابن عم له خطب ابنته زينب فإذا صح ذلك خرجت من موضوعنا والقطعة التاسعة والثمانون لجرير لم أجد لها نقيضة فى ديوان الفرزدق ، والقصيدة الرابعة بعد المائة لجرير ليست لها نقيضة صريحة وإن وجدنا فى ديوان الفرزدق[٣] قصيدة من بحرها وقافيتها فى هجاء بعض بنى مازن وكانوا منعوا إبله الماء ولكن ليس فيها ذكر جرير . أما القطعة التاسعة بعد المائة لجرير فربما كانت نقيضتها قطعة من أبيات ثلاثة فى هجاء بنى كُليب وهذا فرض ليس غير : —

ألا إن اللئام بنى كُليب ... شِرار الناس مِن حضَرٍ وبادى

قُبَيِّلةٌ تَقاعسُ فى المخازى ... على أطناب مُكْرَبَة العمادِ

بأرباقِ الحمـــــــير مقوَّدوها ... وما يدرون ما قَوْدُ الجيـــــادِ[٤]

وربما كانت هناك نقائض لهذه القطع فضاعت ، وربما لم تكن تبلغ الشاعر فى حينها ، وربما كان الشاعر يرد على جملة منها فى قصيدة واحدة ، وربما كان الردُّ عليها فى غير أوضاع المناقضة .

وهناك فى ديوان الفرزدق قصائد فى هجاء جرير وغيره لم نر لها نقائض عند جرير مع أن اتجاهاتها تحتم الرد عليها ، فهناك هجاء جرير[٥] والأصم الباهلى[٦] وجند بن الراعى[٧] وقيس عيلان[٨] . وحكمها ، عندنا ، حكمُ سابقاتها . ويظهر أن شعر هؤلاء الفحول لم يُرْوَ لنا كاملا ، فذهبت هذه النقائض عنا إلى الآن .

هــذا وقد رأيت أن هناك معانى عامة تراميا بها خلال المناقضة كالذل ، واللؤم والجبن ، هجاء ، وكالأيام ، والـكرم ، والخِندِفية فخراً ، وأن جريراً ردد

---

(١) ص ٨٤٣ (٢) ص ٤١٦ (٣) ص ٣٥٣

(٤) ديوان الفرزدق ص ١٦٤ (٥) ص ٥٩و٥٧٦و١٠٠١و١١٠ وغير ذلك كثير .

(٦) ص ٣٤ و ٣٧ و ٧٢ . (٧) ص ٢٠٧و٦٢٤و٦٥٨

(٨) ص ٦٨ و٤٠٧ و٧٢٣ و٨١٥ و ٨٢٠ وغير ذلك كثير .

كثيراً معاني : القين ، وجعثن ، والزُبير ، والزنا ، وضربة الرومى فى هجائه الفرزدق ، كما فخر بتقواه وأيام يربوع وقيس والردافة والاجازة ، وأن الفرزدق أكثر من ذكر ضعة جرير وفقره ، وافتخر بالجود والمعاقرة وإحياء الموءودات والاجارة بقبر أبيه ورجالات قومه ، على أن كلا منهما تناول حرمات صاحبه ورماه فى كرامته وعرضه وصور ذلك صورا قبيحة لم يعرفها الهجاء حتى فى الجاهلية الأولى .

ونشير هنا فى أعقاب هذا العرض إلى الفوائد القيمة التى نجنيها من شرح هذا الديوان ، وهى فوائد لغوية قيمة تنفعنا كثيراً فى فهم النصوص ، وأدبية بتفسير بعض العبارات والأبيات مما لا نجده فى غير هذا الشرح .

وهناك ذكر كثير من معارف العرب وسننهم الاجتماعية وشرح أمثالهم وعاداتهم ورد أثناء الشرح فى مواضع مناسبة ، وأهم من ذلك كله جانبان خطيران : أيام العرب ، والحوادث التاريخية ، ثم أقباس من سير الشعراء ، والعظماء ، والأمراء ، والقواد ، وشىء كثير جداً من ذلك لا نظفر به فى غير هذا الشرح لأبى عبيدة وقد أشرنا إلى معظمه فى الصفحات السابقة أثناء العرض فلا داعى لذكره هنا حيث يضيق به المقام ، على أن قراءته فى مواطنه ومناسباته أجدى على القارىء ، والباحث ، والناقد ، والمؤرخ جميعاً .

نعم كثيراً ما نجد شرح النصوص ناقصاً من النواحى اللغوية والأدبية كما وجدنا ترتيب النقائض مضطرباً ، وبعضها ضائعاً ، لذلك نرجو أن يفرغ غيرنا ، لتحقيق هذه النصوص ، وترتيبها ، وشرحها شرحاً لغوياً أدبياً كافياً ، وقرنها بعصرها وحوادثها التاريخية العامة والخاصة ، لتسهل قراءتها والاستفادة منها ، كما أرجو أن يتخذ الشرح مجال دراسة خاصة للأيام ، والأنساب ، والحوادث ، والشواهد اللغوية ، والشعراء المغمورين ، والأمثال العربية ، والتقاليد الاجتماعية ،

ففيه من كل ذلك قد صالح ، قيم ، مفيد . كما فيه جوانب تمثل شخصيات القبائل ، والشعراء ، والزعماء ، في الجاهلية والإسلام .

ومن بين هذه النقائض جملة تعد مشهورة هامة لطولها ، أو قوتها الفنية أو لصلتها بحوادث خطيرة ، أو لغزارة معانيها أو لاعتزاز أصحابها . منها اللاميتان الأوليان[1] ، والميميتان في قتل قتيبة ابن مسلم[2] ، والبائيلان حول الراعي وقومه[3] ، والفائيتان اللتان أثارهما ابن أبي بكر بن حزم[4] ، واللاميتان الأخريان[5] والرائيتان في موت زوج جرير[6] ، والنونيات الثلاث[7] وغيرها .

وعلينا بعد أن عرضنا هـذا الديوان ، أن نقف عند بعض هذه النقائض بالتحليل ، وبيان طرق المناقضة ، وقيمتها الفنية ، وجوانبها المختلفة فذلك ، في رأيي ، هو صميم الدراسة وأخطر نواحيها ، ولنبدأ بما قالا في مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي مع توخي الإيجاز الشديد .

— ٨ —

في سنة ست وتسعين هجرية كان على عرش الأمويين بدمشق الوليد بن عبد الملك وكان في آخر عمره أراد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها لابنه

---

(١) النقائض ص ١٨٢ و ٣١١ — (٢) ص ٣٤٣ ، ٣٩٤

(٣) ص ٤٣٢ ، ٤٥١ — (٤) ص ٥٤٨ ، ٥٧٦

(٥) ص ٦٠٠ ، ٦١٩ — (٦) ص ٨٤٧ ، ٨٦٦

(٧) ص ٨٨٠ ، ٨٨٨ ونقائض جرير والأخطل ص١٩٧

عبد العزيز ودس فى ذلك إلى القواد والشعراء فحضه على ذلك جرير ، وبايعه على خلع سليمان الحجاجُ بن يوسف وقتيبة بن مسلم ، ولكن الوليد مات قبل أن يحكم هذا الأمر وقبله مات الحجاج وولىَ الخلافةَ سليمانُ بن عبد الملك سنة ست وتسعين فخافه قتيبة بن مسلم .

وكان قتيبة ، على عهد الوليد والحجاج ، على رأس الجيوش الإسلامية بخراسان يغزو أطرافها فأراد أن يستخلف عبدَ الله بن الأهتم فأتاه بَشير بن صفوان بن الأهتم يحذّره استخلافَ عبد الله لغدره وكفره فحمل قتيبة كلامَ بشير على حسد ابن عمه ، واستخلف عبد الله وغزا فرْغانة أوسِجِستان ، فجعل عبد الله يشقق الكتبَ فى قتيبة إلى الحجاج بعَوْراته ، ويحمله عليه ، ويطلب عمله ، فيطويها الحجاج فى كتبه إلى قتيبة ، فضاق هذا بذلك ، وشكا عبدَ الله إلى نفر من تميم فهرب عبدُ الله متنكراً ، وكتب قتيبة بذلك إلى الحجاج والوليد وأخذ شيبة بن عبد الله وأخاه فقتلهما وقتل بشير بن صفوان وابناً له ونفراً من ذويهم ،فغضب لذلك وكيع ابن أبى سُود اليربوعى رئيسُ تميم بخرسان فعزله قتيبة عن رياسة تميم واستعمل مكانه ضِرارَ بنَ حِصنٍ الضَّبّيَّ .

وتولى سليمان حينئذ فكتب إليه قتيبة يطلب إليه إقراره على عمله ، وذلك خشية يزيد ابن المهلب ، أن يحل مكانه فى خراسان ، ثم أراد حمل الناس على خلع سليمان فلم يجبه أحد ، فخطب فيهم عاتباً ، مهدداً ، ممتناً ، ولكن اليمانية أجمعت أمرها على قتل قتيبة فأتوا الحُضين ابن المنذر الذهلى من بكر بن ربيعة فأشار عليهم إسناد ذلك إلى وكيع بن أبى سُود فنهض وكيع بالأمر وتجمعت إليه تميم وقتلوا قتيبة سنة ست وتسعين وقُتل من بنى مسلم أحد عشر رجلا ، وبعث

وكيع بطاعته وبرءوس بنى مسلم إلى سليمان بن عبد الملك ، ولم يكن الفرزدق بَرِح المدينة حتى جاءت وقعة وكيع .

ورُوِى أن سليمان بن عبدالملك حج تلك السنةفبلغه بمكة إيقاع وكيع بقُتيبة، فخطب الناس بعرفات فذكر غدر بنى تميم ووثوبهم على سلطانهم وإسراعهم إلى الفتن وقال إنهم أصحاب فتن وأهل غدر وقلة شكر ، فقام الفرزدق وفتح رداءه فقال يا أمير المؤمنين : هذا ردائى رهن لك بوفاء تميم ، والذى بلغك كذب ، ووقعت طاعة وكيع من سليمان كل موقع ، وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يَخلَع ، واستعمل سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب على حرب العراق وأمره ، إن أقامت قيس البينة على أن قتيبة لم يخلع فينزعْ يدا من طاعة ، أن يُقيدَ وكيعاً به، ولـكنّ يزيدَ بنَ المهلّب كان يرى إهدارَ دمِ قتيبة فخلّى سبيل وكيع ، وسارت الأمور سيرها المطرد . ففى هذا الحادث قال الفرزدق قصيدته : —

تَحِنُّ بزَوراءِ المدينـــة ناقتى ‏ ‏ حنينَ عَجولٍ تبتغى البَوَّ رائِم

ونقضها عليه جرير بقصيدته : —

ألا حَىِّ رسمَ المنزلِ المتقادمِ ‏ ‏ وما حَلَّ مُذْ حلّت به أمُّ سالم

ولدراسة هاتين النقيضتين نتخذ قصيدة الفرزدق أصلا نطبق عليه قصيدة جرير إذ كان الفرزدق هو البادىء ، ونسير مع فنون القصيدتين واحداً بعد الآخر موازنين وملاحظين ما يلابس عناصرها من أمور : —

(١) بدأ الفرزدق نسيبه حزيناً وقوراً فخلع على ناقته ما بنفسه من ألم ، وقسم نفسه بين وطنه الأول (كاظمة قرينه هو وأسرته) وبين المدينة حيث يقيم حبيبه الذى لا يباليه ، وتمنى لو جمع له القدرُ بين هذين المكانين فى بقعة واحدة :

ويا ليتَ زوراء المدينةِ أصبحتْ ... بأحفار فَلْجٍ أو بسيفِ الكواظِم

وكم نامَ عَنّى بالمدينة لم يُبَلْ ... إلى اطِّلاعَ النفسِ دون الحيازم

ثم يغالب نفسه فيغلبها ويمنعها السوء توقرا راجياً النجاة من عقاب الله مُضمِّناً هذه الآية الكريمة « لا يؤاخذُكم اللهُ باللَّغوِ فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان » .

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله ... إذا لم تعمّد عاقداتِ العزائم

ثم رحل عن المدينة مع صحبه تاركاً أثيرة قلبه بها ، ثم شُغل بالرحلة إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك بدمشق ، فالنسيب ذو طابع حزين جليل وقور ، وهذا غير ما عرف عن الفرزدق من جاهلية وفسوق ، ولعل هذا كله كان من وحى هذا الحادث الذى أنشأ هذه القصيدة والذى يعرض تميا لسخط الخليفة ، ولعله كذلك متأثر بهذه المدينة المقدسة التى بدأ منها رحلته كما بدأ منها قصيدته .

أما جرير فكان فى نسيبه طبعياً كما عرف عنه وكما هو دأب الشعراء المحافظين جميعاً ، فقد حيّى ربع محبوبته الذى حته الخيل ، وهى دائماً بخيلة ممتنعة يرى فيها شفاء نفسه وإن كان لا يظفر منه بشىء : —

بِنا كالجوَى مِمّا يُخافُ وقد ترى ... شِفاءَ القلوبِ الصاديات الحوائم

ثم يتشبث بهواه معرضا عن لوم حبيبه جامعاً بين معنيين لامرىء القيس وعلقمة :

أغَرّكِ مِنى أنما قادنى الهوَى ... إليكِ ، وما عهدٌ لكنّ بدائم

ويلمّ بعدة أماكن فيها ذكريات له فيخلع عليها هواه القديم فى أسلوب رقيق

جميل . فالنسيب هنا طبعى ، رقيق ، صادق ، عليه طابع الحرمان ، ولـكنه حرمان ثائر ، لذلك كان جرير هنا أحسن توفيقاً من صاحبه الذى جاوز طبعه وخلط بين شوق وطنى وشوق إنسانى واصطنع الوقار اصطناعاً ، وكان جرير يستخدم النسيب فى وظيفته الأصلية فى الشعر ، وهى إعداد النفس للقول ، فانفرد بهذا القسم وانصرف به عن الفرزدق فلم يلتق معه إلى الآن ولم يشرك هذه الديباجة فى المناقضة ، وآية ذلك أنه أرجأ مناقشة ديباجة الفرزدق فى النسيب إلى الهجاء الذى انتقل إليه فُجاءةً دون تخلص كما فعل زميله الذى تخلص من نسيبه إلى مدح الخليفة وإن لم يكن تخلصاً رائعاً .

لذلك يحسن أن نستمر مع جرير قليلا لنرى كيف التقى مع الفرزدق وأخذ يناقش ديباجته .

لاحظ جرير أن الفرزدق يصطنع الوقار والتُّقى فى مطلع قصيدته حيث يقول :

إذا جشأت نفسى أقولُ لها ارجعى   وراءكِ واستحيى بياضَ اللهازم

فأسرع جرير وخلص من نسيبه وأخذ بتلابيب صاحبه ينكر عليه هـــذا الوقار المصطنع ويكذبه فيه :

لقد ولدتْ أمُّ الفرزدق فاجراً   وجاءتْ بوَزْوازٍ قصير القوائم

فهو فاجر طائش لا تقىٌّ ولا رَزين ، وهذا نقض إخبارى أو تكذيب المعنى الذى ادّعاه الفرزدق ، ثم يقول جرير :

وما كان جارٌ للفرزدق مُسلمٍ   ليأمنَ قرداً ليـله غيرُ نائمِ

يُوَصِّل حَبلَيه إذا جَنَّ ليلهُ   ليرقى إلى جاراته بالسلالمِ

وإذا كان الفرزدق قد قال :

إذا جشأت نفسى أقول لها ارجعى ... وراءك واستحيى بياضَ اللهازمِ

فقد سخر جرير من لهازمه وكذّبه فيما تنهاه عنه فقال :

أتيتَ حُدودَ الله مذ أنت يافعٌ ... وشِبْتَ فما ينهاك شيبُ اللهازم

تتبَّعُ فى الماخور كلَّ مُريبةٍ ... ولستَ بأهل المحصنَات الكرائم

ولعل هذا البيت الأخير رَدٌّ على قول الفرزدق فى رحلته على النوق :

نَوَاهِضَ يحملن الهمومَ التى جفَت ... بنا عن حَشايا المحصنات الكرائم

وإذا علمنا أن الفرزدق اعترف على نفسه فى قصيدة أخرى بالزنا وانتهاك الحرمات[١] فقد سجل عليه جرير اعترافه هذا ونقض ما ادعاه من صلاح .

وإذا لاحظنا امتحان عمر بن عبد العزيز لهذين الشاعرين لما قدما عليه المدينة[٢] وعرفنا نتيجة هذا الامتحان إن صحت القصة ، استطعنا أن نلحظ المقابلة بين قول الفرزدق فى مطلع قصيدته :

ولما أبوا إلاّ الرحيلَ وأعلقُوا ... عُرًى فى بُرًى مخشوشةٍ بالخزائم

وراحُوا بجثمانى وأمسك قلبَهُ ... حُشاشته بين المصَلى وواقِمِ

وبين قول جرير : —

رأيتك لا توفى بجــار أجرتَهُ ... ولا مُسْتَعِفاً عَنْ لئام المطاعمِ

هو الرجسُ يأهل المدينة فاحذروا ... مَداخلَ رِجْس بالخبيثاتِ عالمِ

لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكم ... طَهوراً لما بينَ المصَلى وواقِمِ

تَدلّيتَ تزنى مِن ثمانينَ قامةً ... وقصرتَ عن باع العلى والمكارم

---

(١) النقائض ص٢٩٨ س ٣ . (٢) النقائض ص ٣٩٦ .

لما ادعى الفرزدق أن خروجه من المدينة إنما كان لدواعى الرحلة التى ترك لها قلبه وهواه أفسد عليه جرير معناه فجعل خروجه قهراً وطهوراً للمدينة من رجسه الذى يُقرُّ به على نفسه ، فالمناقضة منصبَّة على سبب الخروج ، فهو عند الفرزدق قصده دمشق وهو عند جرير فسقه وضرورة الخلاص منه ، فالأصل هو التوجيه وإن شئت فهو التكذيب . ولا شك أن جريراً قد ظفر بصاحبه هنا إذ احتج بسلوك الفرزدق ، وشهادته على نفسه ، واصطناعه أموراً ليس منها فى شىء ، وعرفان الناس كذبه فى دعواه .

(ب) وبعد ما انتهى الفرزدق من النسيب تخلص إلى مدح سليمان بن عبد الملك ، فأيقظ السفْرَ وبشّرهم بلقاء الخليفة الماجد الكريم على الرغم من شوقهم إلى المدينة وبكائهم لفراقها ، وكان الفرزدق ، فيما يدعى ، جاداً فى رحلته التى لقى فيها بعض المشاهد الطبيعية والمشاق حتى انتهى إلى الخليفة :

لَيَمْلَئَنَّ مِلءَ الأرضِ نوراً ورحمةً وعَدلا وغيثَ المغيرات القوائم

ثم يمدحه مع أسرته :

ورِثتمْ قناةَ الملك غيرَ كَلالةٍ عن ابنَى مَنافٍ عبد شمس وهاشمِ
تَرى التاجَ معقوداً عليهِ كأنهمْ نُجومٌ حَوالى بَدرِ مُلكٍ قُماقِمِ

وهذا المدح ، على طوله النسبي ، انفرد به الفرزدق ولم يعرض له جرير ولعل السبب فى ذلك أن الفرزدق يواجه الخليفة ، ويحرص على زعامة تميم ، وحسن صلتهم بدمشق ، ولا سيما أن القاتل تميمى والمقتول قائد بارع ، وأن تميما متهمة بالغدر ، ولها سابقة فى قيس بقتل عبد الله بن خازم السُلمى ، ثم فى هذا المدح استغلالٌ لعداوة قيس القديمة لأمية والتقليدية لتميم فيرمى القائدَ بخلع سليمان وينسب إلى وكيع (أى إلى تميم) الوفاء للخلافة .

أما جرير الذى يحطب فى حبل قيس عيلان فلم يتجه إلى الخليفة مادحاً ، وهو من قبلُ صنيعة الحجاج القيسى ، ومشغول بحرج موقفه بين يربوع قومه ـ والقاتل منهم ـ وبين قيس حلفائه ـ والمقتول منهم ـ ولعل جريراً لاحظ أخيراً أن وكيعاً قتل قائداً ملحوظ المكانة وأنه هو مضطرب الصلة بسليمان لأنه كان قد حض الوليد على البيعة لابنه بولاية العهد دون سليمان مسايرا الحجاج وقتيبة فى ذلك كما مر .

ومهما يكن من شىء ، فقد انصرف جرير عن المدح ولم يشترك فيه مع صاحبه فلا وجه ، إذا ، للموازنة ، ولعل الفرزدق عدّ مدح الخليفة جاهاً له دون جرير ، وربما كان على حق ولا سيما أنه تعهد لسليمان بوفاء تميم فيما بعد إذ يقول :

فِدًى لسيوف مِن تميم وَفَى بها ردائى ، وجلّت عن وجوه الأهاتم
همُ سمعوا يومَ المحصّبِ مِن مِنًى نِدائى إذا التفت رِفاق المواسم
همُ طلبوها بالسيوف وبالقنا وجُرْدٍ شَجٍ أفواهُها بالشكائم

(جـ) وكان من الطبعى أن يهجو الفرزدق الحجاج ـ وإن كان قد مدحه حياً ـ لموقف الحجاج من ولاية العهد إذ كان على سليمان ، ولأن الحجاج قيسى ، وقيسٌ عدو تميم التقليدى ، وكان من الطبعى أن يمتنع جرير عن هجاء الحجاج لهذين السببين ، فجرير كان مع الوليد فى ولاية العهد ، وهو شاعر قيس وصنيعة الحجاج من عهد عبدالملك ، لذلك لم يجد وجهاً لمهاجمة الحجاج فانصرف عن ذلك وتركه لصاحبه . تناول الفرزدق طمع الحجاج ، وطغيانه ، حتى رماه الله بما رمى به أصحاب الفيل وخذله الله وبقى الأمر لسليمان :

نُصِرْتَ كنصر البيتِ إذ ساق فيلَه إليه عظيمُ المشركينَ الأعاجمِ
وما نُصِرَ الحجاجُ إلاّ بغيرهِ على كلِّ يوم مستحِرِّ الملاحمِ

أما غدرُه فقد أخرسه وألزمه الندم حتى هلك . وهنا لا مجال للموازنة اذ لم تتوافر المناقضة ، وكان الفرزدق معتزاً بمهاجمة الحجاج - وان كان ميتاً - لأن فى ذلك صلاح شأنه وشأن تميم مع الخليفة .

(د) وكان مقتل قتيبة هو الباعث على هذه المناقضة ، فالواقعة أذهلت الناس لخطرها ، ولـكن موقف تميم فيها سليم إذ كانت ثأراً لبنى الأهتم ، ووفاء للخليفة ، واستجابة لعهد الفرزدق مع سليمان بوفاء تميم لما بسط له رداءه بذلك :

أتانى ورحلى بالمدينة وقعـــةٌ ... لآل تميم أقعدتْ كل قائم
كأنَّ رءوسَ الناس إذ سمعوا بها ... مُدَمَّغَةٌ مِن هازمات أمائم
فِدًى لِسُيوف مِن تميم وفى بها ... ردائى وجلّت عن وجوه الأهاتِم
شفَينَ حَزازات النفوس ولم تدع ... علينا مَقـــالا فى وفاء للائم
أبأنا بهم قتـــلى وما فى دمائهمْ ... وفاء ، وهُنَّ الشافياتُ الحوائم
جزى اللهُ قومى إذ أراد خِفارتى ... قتيبةُ سَعيَ الأفضلينَ الأكارم

وهذا دأبنا مع الغادرين من قيس كعبد الله بن خازم السلمى الذى خرج على عبد الملك فقتلته تميم ، قتله وكيع بن عميرة القريعى ، وهو ابن الدوْرَقية :

وقبلكَ عجّلنا ابنَ عَجْلى حِمامَه ... بأسيافنا يَصْدَعْنَ هام الجماجِم

وعَجْلى أم عبد الله بن خازم وكانت حبشية فيما يقال .

ثم يذكر يوم (الحشّاك) لتغلب على قيس ، وشؤم قتيبة على قومه لما عصى الخليفة فى حين ثبتت تميم على طاعته وكانت رِدءا للخلافة تقتل من يخرج عليها :

فإن تقعـدوا تقعدْ لئامٌ أذِلَّةٌ ... وإن عدتمُ عُدنا ببيضٍ صوارم

ويعود إلى قيس وقتيبة الذى ذَلَّ أمام تميم ولم ينجده قومه اللئام وهكذا ضربت تميم بسيف الخليفة فأصابت نصراً مُؤَزَّراً :

ضربنا بسيف فى يمينكَ لم ندعْ   به دون باب الصين عَيناً لِظالم
به ضربَ الله الذين تحــزَّبوا   ببدر على أعنـــاقهم والمعاصم

وربما يؤخذ على الفرزدق هذا البيت الأخير لأن بنى أمية من الذين ضربوا يوم (بدر) إذ كان أبو سفيان بن أمية زعيم قريش فيه، إلا أن يكون البيت مثلا أو منصباً على البيت السفيانى خاصة، وقد وقع جرير فى مثل ذلك حين ذكر يوم (الحشّاك) وهو لتغلب على قيس عيلان.

ونلاحظ هنا أن الفرزدق حريص على رمى قيس بالغدر، من عبد الله بن خازم، إلى الحجاج، إلى قتيبة، ولعله يريد بذلك أن يرميهم بهذه الصفة التى رميت بها تميم من الخليفة نفسه.

وأما جرير فلم يُطل فى هذه النقطة وكان كلامه مقتضباً وإن كان قوياً فلما رأى أن الفرزدق نسب مصرع قتيبة إلى تميم عامة، وأنه وفى للخليفة بذلك، وثأر لبنى الأهتم، تناول المسألة من قرب وفى أفق ضيق فأخذ فضل ذلك ليربوع خاصة إذ كان القائل منهم فقال جرير:

فغيرُكَ أدّى للخليفة عهــدَه   وغيرُكَ جلّى عن وجوه الأهاتم

وهذا حق إلى حد ما؛ فوكيع من رهط جرير وإن كان زعيم تميم فى خراسان، وبذلك يكون جرير قد زحزح الفرزدق عن زعامته العامة وأخذ منه هذه الدعوى إذ كان جرير بها أولى، والفرزدق مُدَّعٍ ما ليس له، ومحاولٌ إضافة مجد يربوع إلى مجاشع فيجمع بين الجبن والفخر الكاذب:

فإن وكيعاً حين خارت مجاشــع   كفى شَعبَ صَدْعِ الفتنة المتفاقم
لقد كنتَ فيها يا فرزدقُ تابعاً   وريشُ الذُّنابى تابع للقــوادم
نُدافِعُ عنكم كلَّ يومِ عظيمةٍ   وأنتَ قراحِيٌّ بسيفِ الـكواظم

أجُبناً وفخراً يا بَنى زَبد استِها   ونحنُ نَشُبُّ الحربَ شيبَ المقادم

فكان جرير بذلك موقفاً استطاع أن يحول بين خصمه و بين مجد هذا اليوم من جانبه الحماسى ، وفسّر عمل وكيع بأنه وفاء يعود فضله إلى رهطه الأدنين وهم يربوع دون مجاشع ، وهذا هدم لدعوى الفرزدق فى زعامة تميم عامة حتى كان قتل عبد الله بن خازم بعيداً عن أثر مجاشع ، وتكون أبيات جرير فى هذا الحادث على قلتها ، أدخلَ فى أفق جرير الخاص وإن لم تجاوز أفق الفرزدق العام ، فخضعت المناقضة فيها إلى طريقة التوجيه إذ تناول كل من الشاعرين هذا الحادث من جهته .

ومع ذلك فلم ينس جرير قيس عيلان فاحتال محسناً، وذهب إلى باهلة رَهطِ قتيبة الأدنين يُعزِّيهم ، ويعللُ هذا الحادثَ بأنه ثأر ، فلا وجه للغضب :

أباهِلَ ماأحببتُ قتلَ ابن مُسلِمٍ   ولا أن تَرُوعوا قومكم بالمظالِمِ

أباهِلَ قد أوفيتمُ من دمائكم   إذا ما قتلتُمْ رهطَ قيس بن عاصم

والأهاتم من بنى منقر رهط قيس بن عاصم ، ولعله يرد بذلك على قول الفرزدق:

فإن تكُ قيس فى قتيبة أُغضِبتْ   فلا عطَست إلا بأجدعَ راغم

وما كان إلا باهلياً مُجدَّعاً   طغى فسقيناه بكأس ابن خازم

فالقتل عند الفرزدق للخلع والطغيان ولكنه عند جرير ثأر وانتقام والتاريخ فيه الروايتان معاً .

(هـ) وكان من الطبعى أن يفخر الفرزدق ويهجو، والفرزدق هنا يفخر بقوة تميم وحزمهم ودهائهم منذ طفولتهم ثم يفخر بضبة أخواله ، فهم مفخرة مُضَر الحماسية[1]

---

(١) أم الفرزدق لينة بنت قرظة من بنى السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة — ص١٨٨ نق

والناس بعد تميم وضبة حِشوة ، ولتميم على قيس أيام عظام الملاحم ، ماجدة الآثار ، ثم يرمى جريراً بتعلقه بقيس وأنه يرتشي منهم ، وليس من رءوس تميم : —

فما أنتَ مِن قيس فتنبحَ دونَها ... ولا مِن تميم فى الرءوسِ الأعاظِم
وإنك إذا تهجو تميما وترتشى ... تبابينَ قيس أو سحوقَ العمائم
كمهريقِ ماء بالفلاةِ وغرّهُ ... سَرابٌ أثارتْه رياح السمائم

وجرير وضيع الأب فقير يرعى الجِداء التوائم الهزيلة ، ومهما تعطه قيس فهى ذليلة أذلتها تغلب بما قتلت من رجالها وسبت مِن نسائها وانتهكت حرماتهن .

ويعود إلى تميم ودارم ، فتميم أمضى سيوفاً وأكثر عدداً وجرير ليس من تميم وإلا لما عاب على الفرزدق مدحَهم ، والفرزدقُ ابنها الصريح ووافدها فى المواسم ، ولسانها المدافع ، وأصلها أباً لا يبيع أعراض قومه برشوة قيس له ، ومن مظاهر مجد دارم أن حاجب بن زُرارة لما أسر يوم جَبلة افتدى بألف بعير لآسره ذى الرُقَيبة القُشيرى ، وللزَهدَمَيْنِ من عبس مائة ناقة بما نالا من ثيابه ، وأطلق له مائة من أسارى قيس كانوا فى تميم ، وإنما ديات الملوك ألف بعير فزادهم حاجب مائة ناقة ومائة أسير : —

وما علِم الأقوامُ مثلَ أسيرِنا ... أسيراً ولا أجداثِنا بالكواظم

وأما صاحب الجدث بكاظمة فهو غالب بن صعصعة والد الفرزدق ولا يعلم قبر أجار ولا قرَى فى جاهلية ولا إسلام غيرُه ، استجارت به امرأة فَرَدَ عليها ابنها من بعث السند كان مع تميم بن زيد القينى ، وأصاب رجل من بنى الأبيض من مجاشع دماً فسأل الناسَ فلم يُعطوه شيئاً فاستغاث بقبر غالب فافتكه الفرزدق بمائة ناقة : —

إذا عجزَ الأحياء أن يحملوا دماً ... أناخَ إلى أجداثِنا كلُّ غارمِ
ترى كلَّ مظلوم إلينا فِرارُه ... ويهرب منا جُهدَه كل ظالمِ

أبتْ عامر أن يأخذوا بأسيرِهم مئين من الأسرى لهم عند دارم

وقالوا لنا : زيدوا عليهم فإنهم نَقاء وإن كانوا نَعامَ اللهازم

رأوا حاجباً أغلى فِداء وقومَه أحقَّ بأيام العُلى والمكارم

فلا نقتل الأسرى ولكن نفكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارم

ومن الطبعى، إذاً، أن يفخر جرير بقيس، ومضر، ويربوع، وأن يَهْجُوَ دارما وضبةَ وتغلبَ، فبعد أن اعتذر لباهلة رهطِ قتيبة بن مسلم كما قدمنا انصرف إلى الفرزدق فأنذره مغبة إثارته قيساً : —

تُحَضِّضُ يابنَ القينِ قيساً ليجعلوا لِقومكَ يوماً مثلَ يومِ الأراقِمِ

ويوم الأراقم هو يوم (الحشَّاك) لتغلب على قيس قتِل فيه عُمَير بن الحباب السُلَمى من رءوس قيس عيلان وذكره جرير فادّعاه لقيس فيما يظهر : —

إذا ركبَتْ قيسٌ خُيولا مُغيرةً على القَين يقرَعْ سِنَّ خزيانَ نادم

وفكرة الندم هذه قلب لما ادعى الفرزدق من ندم قتيبة وقومه حيث يقول : —

ندمتَ على العِصيانِ لما رأيتنا كأنا ذُرى الأطواد ذاتَ المخارم

لقدشهِدَتْقيس فما كان نصرُها قتيبةَ إلا عضَّها بالأباهم

فرد جرير الندم على الفرزدق ورهطه .

وكما ادّعى الفرزدق أن قتيبة كان شؤماً على قيس عيلان إذ يقول : —

نبحتَ لقيسٍ نَبحةً لم تَدَعْ لها أنوفاً ومرَّت طيرُها بالأشائم

فكذلك ادّعى جرير، على سبيل الموازنة، أن كلا من الفرزدق والأخطل كان شؤماً على قومه فالفرزدق يحضّضُ قيساً ليُبيدوا قومه والأخطل أثار الجحَّافَ ابن حكيم السلمى فى حضرة عبد الملك فأوقع بتغلب يومَ (البشر) حتى شكا منه الأخطل إلى عبد الملك :

وقبلكَ ما أخزى الأخيطلُ قومَهُ   وأسلمَهمْ للمأزِقِ المتلاحمِ
رُويدَكمُ مَسحَ الصليبِ إذا دنا   هِلالُ الجِزَى واستعجلوا بالدراهمِ

وكانت شناعات يومى : الحشاك والبشر متشابهة والثانى لقيس على تغلب .

وكما افتخر الفرزدق بضبة أخواله وبتميم عامة ، نجد جريرا يفخر بقيس عيلان أخواله[1] ويرتفع إلى خندف ـ إلياس بن مضر ـ فيضيفها إلى قيس عيلان ويذلك يجمع فرعى مضر ويرد نسبه إليهما ، معنى ذلك أنه يفرق تميما فى خندف ثم يقرنها بقيس لينتهى بنسبه إلى مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان . ثم لا ينسى رهطه الأدنين يربوعاً فيضعهم بازاء دارم أو مجاشع ، ليضيّق على الفرزدق الخناق ، وقد فعل ، فقيس أنجاد أمجاد : ـ

إذا حَدبت قيس علىّ وخِندِفٌ   أخذتُ بفضل الأكثرينَ الأكارِمِ
أنا ابنُ فروع المجد قيس وخِندفٍ   بنَوا لِىَ عادِيّاً رَفيعَ الدعائمِ

وذلك كما جمع الفرزدق بين ضبة وتميم وجعل ضبة مفخرة مضر . وقيس كما قال جرير ، أصل الرسول منها العواتك من سُليم ، ومن العواتك آباء وأمهات هاشم وأمية . وإذا كان الفرزدق يعد نفسه ابنَ تميم ووافدها عند المواسم ومحاميها فإن جريراً ، نظيرَ ذلك ، يقفُ من مضر كلها هـذا الموقف وهو جِدُّ كافيه لا يقف دون غاية ولا يلين لغامز : ـ

لقد حَدبت قيس وأفناء خِندفٍ   على مُرهَبٍ حامٍ ذِمارَ المحارِمِ
فما زادنى بُعد المدَى نقصَ مِرّةٍ   ولا رقّ عظمى للضروس العواجمِ

ومذهب المناقضة هنا هو الموازنة أو التنظير .

---

(١) السفعاء بنت غنم الباهلية أم الأحال من بنى يربوع وهم سليط وعمرو وصبير وثعلبة ـ راجع النقائض ص ٤٠٣ ح ١ .

ولما رمى الفرزدقُ جريرا بالضعة والفقر ، وفخر بحسب أبيه وجاهه صارفاً النظر عن دارم ومجاشع ، عكسَ جرير الوضع فترك أباه — هنا — ووقف عند يربوع يُشيد :—

ترانى إذا ما الناسُ عَدُّوا قديمَهم وفضلَ المساعى مُسفِرا غيرَ واجمِ
بأيام قومى ، ما بقومِك مثلُها ، بها سَهَّلوا عنى خَبارَ الجرائمِ

وهكذا يتحاوران ، كل يتكىء حيث يجد مُتَّكأ ، ويخرج حيث يجد منفذا .

ويُعنى جرير بذكر أيام قيس كما يرد ذلك فى حينه . ونشير هنا إلى أن بيت جرير : —

وإنِّى وقيساً يابنَ قينِ مُجاشع كريمٌ أُصفِّى مِدحتى للأكارمِ

نقض لقول الفرزدق : —

أدِرْسانَ قيسٍ لا أبالك تشترى بأعراض قوم هم بُناةُ المكارمِ

فلا أُصَفِّيها لدارم أو ضبة أو تغلب . على أن مدح جرير لقيس يقابله مدح الفرزدق لسعد بن زيد مناة من تميم كما يلى .

وهناك مسألة الفداء التى افتخر بها الفرزدق إذا افتكّ حاجب بن زُرارة نفسه يوم جبلة بما يربو على فدية الملوك ، فلم يتركها جرير تمر دون أن يرد عليها بطريقة التوجيه فقد فسرها جرير بأنها ذلة لدارم التى خضعت لتحكم ذِى الرُّقَيبة فيها فقال : —

إذا عُدَّت الأيامُ أخزيتَ دارما وتُخزيك يابنَ القين أيامُ دارمِ
ألم تُعطِ غَضْباً ذا الرُّقَيبةِ حُكمَه ومُنيةَ قيسٍ فى نصيب الزهادمِ

(و) وهناك معنى طريف لهج به الشاعران هو ضربة الرومى ، وقصتها تقدمت آنفاً ، وقد تناول الفرزدق هذا المعنى معتذراً عن نفسه بِنُبُوِّ سيف ورقاء بن زهير ابن جَذِيمة العبسى عن رأس خالد بن جعفر بن كلاب وواضعاً أمام جرير والديهما معاً فليست هذه الضربة برافعة أبَ جرير عن هوانه فى كليب ولا مُكسِبَتِه أباً من دارم :

فهل ضربةُ الرومى جاعلةٌ لكم ... أباً عن كُلَيب أو أباً مثلَ دارم
كذاك سيوفُ الهند تنبو ظُباتُها ... ويقطعن أحياناً مناط التمائم

أما الانتساء فعذر يتمثل به العاجز المعترف بالتقصير ، وأما مسألة الآباء فهى وضع مفخرة أمام أخرى ، وإذا نظرت لجرير يفخر بعمله والفرزدق بأبيه .

أما جرير فقد اتسع فى هذا المعنى وقرن به أموراً أخرى واستطاع أن يغيظ به خصمه ساخراً منه لأنه يُلقى عجزه وفضيحته على كاهل قيس ويترك الحق وهو أنه ، كأسرته ، لا يحسنون الضراب فى المعامع بل يعمدون إلى عقر الحيوان مواءمة أو يحسنون صنع الفئوس إذ كانوا قيوناً :

أكلفتَ قيساً أن نَباسيفُ غالب ... وشاعت له أحدوثة فى المواسم
بسيفِ أبى رغوانَ سيفِ مجاشع ... ضربتَ ولم تضربْ بسيفِ ابن ظالم(١)
ضربتَ به عند الإمام فأُرعِشَتْ ... يداك وقالوا : مُحدَثٌ غيرُ صارم
ضربتَ به عُرقوبَ نابٍ بصوءرٍ ... ولا تضربون البَيضَ تحت الغمائم(٢)
عنيفٌ بهزّ السيفِ قينُ مجاشعٍ ... رَفيقٌ بأخرات الفئوسِ الكرازم

---

(١) أبو رغوان لقب مجاشع ، وابن ظالم هو الحارث بن ظالم المرى من فتاك العرب فتك بخالد بن جعفر وهو نازل على النعمان بن المنذر بن ماء السماء — أصل لقب رغوان فى النقائض ص٧٨

(٢) صوءر مكان المعاقرة بين غالب أبى الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحى اليربوعى .

وبالوقوف أمام هذه الصورة الجدلية نلاحظ أن الفرزدق لم ينكر الحادثة بل اعترف بها ، وأن جريرا ينكر على الفرزدق أن عبساً دست إليه سيفاً كايلا ويرى أن عذره لا وجه له ، وأن تمثّله ورقاء بن زهير لا ينفعه ، فالمسألة مسألة الضارب لا مسألة السيف ، ومردُّ الأمر أن قوم الفرزدق لا أصالة لهم فى هذا الفن العملى الحماسى ، وأنهم يحسنون عقر النِيب بسيوفهم الكليلة كما يحسنون صنع القؤوس الكرازم .

ويظهر أن دس العبسيين سيفَ جرير والفرزدق صحيحة فعبس قيسية يسرها انتصار جرير وهم أخوال سليمان بن عبد الملك ، ولكن هذا السبب توارى حين شاعت الأحدوثة ، وحين أخذ الفرزدق يتمثل الأمثال ويتخذها من رجال عبس أنفسهم . وقد ألح جرير بهذا المعنى على الفرزدق وظفر به من ناحيته ، وإن كان للفرزدق عذر فهو عذر نظرى غالباً إذ لم يعرف للفرزدق سابقة حماسية .

(ز) وبعد ذلك تُواجهنا مسألة (الأيام) وقد تردّد ذكرها أثناء الفخر والهجاء ، وكل ينوّه بأيام قومه وحلفائه . أما الفرزدق فذكر يومى : ذى نَجَب ليربوع على عامر ، والوَقِدات لنهشَل من دارم على هِلال بن عامر ، ثم ذكر يومَ المرُّوت ليربوع على عامر ، ومُلَزِق لسعد بن زيد مَناة على عامر ، والسُّوبان لتميم على عبس وعامر ، وغَوْل لضَبّة على كِلاب ، والدُفَينة لبنى مازن على سُلَيم ، والحشّاك لتغلب على قيس ومصرع قتيبة ليربوع على باهلة من قيس عيلان .

وقد لاحظنا أن الفرزدق لم يذكر لدارم أياماً ذاتَ خطر أو أياماً مستقلة بها فاضطر أن ينوّه بأيام تميم عامة ، وضبة أخواله ، وتغلب حلفائه ، أو يربوع خصومه ، يضعها أمامَ قيس عيلان كأنه ينفى جريراً عن تميم ويذيب يربوعاً فى

تميم التي يتزعمها الفرزدق ، لذلك كان سليم الموقف أمام قيس ، وإن لم يَفِظ جريراً من جانب يربوع ، فقد شغله من جانب قيس عيلان .

أما جرير فقد ذكر يوم سَفوان لعامر على النعمان بن المنذر ، ويوم القُوَير لعامر على شيبان من بكر ، ويوم جَبَلة الذى أسر فيه حاجب ولقيط ابنا زرارة ، وعمرو بن عمرو من دارم ، والجونان عمرو ومعاوية ابنا الجون الكندى ، ثم يوم الفَرُوقَين لعبس على سعد بن زيد مَناة وفيه لعنترة قصيدة مشهورة ، ويوم الوَقيط لبكر بن وائل على دارم وحنظلة ، ويوم رَحْرَحان لعامر على دارم وفيه أسر مَعبدُ بن زُرارة وفداه لقيط أخوه .

ويُلاحظ أن جريراً ذكر أياماً على دارم ، ولم يذكر أياماً ليربوع مع أنه واجد فيها ما يكفيه فخرا ، ولعله لم يشأ أن يُعيد ما ذكره خصمُه منها ، فقد كان مشغولا بقيس أكثر من تميم ويربوع خضوعا لموقف المناقضة فأخذ يدافع عن قيس ويذكر أيامَها ردا على خصمه ، والحقُّ أن جريراً سدَّ ثغور قيس أمام الفرزدق خاصة ، فإذا واجه الأخطلَ اعتزَّ بتميم ، ويربوع ، وقيس ، ومضر ، والإسلام ودولته ، وكذلك عُنيَ الفرزدق بتميم عامة وبأخواله خاصة دون قومه الدارميين أو أكثر منهم ،فالشاعران حاولا التحليق فى جو أسمى ،وأفق أوسع ، ومردُّ ذلك السياسة والعصبية اللتان عنيتا بمواقف القبائل الكبرى من الدولة أولا وفيما بينها ثانيا .

(ح) وفى النقيضتين ملاحاة تدور حول معان شتى عن الفخر والهجاء متصلة بالأنساب والأحساب ، حقا أو ادعاء ، اشترك فيها كلا الشاعرين فلمَّ بها هنا .

فالفرزدق يفخر على جرير بمجد قومه ، وأحلامهم ؛ ليس لهم كِفاء إلا بنى هاشم وعبد مناف ، وأنهم هُدَى الناس من جهالة لأنهم من مضر قوم الرسول : —

وما كان هذا الناسُ حتى هداهمُ   بنا اللهُ ، إلا مثــــلَ البهائم

وهذا الفخر لا يرد عليه جرير لأنه يساهم فيه وإنما أدخله فى الفخر بقيس إذ كان فخر الفرزدق أكثره على قيس عيلان .

وهناك هجاء الفرزدق قيساً وكليباً فيحلف بالله لتنزلَنَّ بقيس النوازل ، وأن هوازنَ من قيس أحقُّ بأن تلوم نفسها(١) وأما سليم فلا تستحق عقابى ، وكلتاهما من ذيول قيس ليستا من صميمها بل أذل فروعها ، وآية شقاء قيس كلها أن تحتمى منى بابن المراغة وتتعرض لسبِّى وهى عيوب كلها ، وأما قيس عامة فحسبها ما أنزلنا بقتيبة وما أنزلت تغلب بعمير بن الحُباب .

لقد كان مجال الفرزدق عريضاً ما تزعّم تميا ، ووقف بها أمام قيس ، ولـكن ماذا يفعل جرير ؟

يمدح قيساً لما علمنا ، ولا يستطيع أن يهجو تميا كلها كما هجا الفرزدق قيساً كلها ، وإذاً ، فلا بد أن يتسلل إلى الفرزدق فيصل إلى مجاشع من دارم ، وهنا يلتقى بصاحبيه مباشرة وقد فعل .

وهنا يتناول جرير الفرزدق بعدة معان مشهورة : جِعْثِن أخته ، والقُيون ، والغدر بالزُّبير بن العوام ، وقد بالغ جرير فى هذه المعانى وشنّع بها ، واعتمد

---

(١) راجع مدح الفرزدق هوازن فى النقائض ص ٤٦٨ .

على خياله فى توسيعها ، وإضافة عناصر أخرى ليست ، فى الأغلب ، من التاريخ فى شىء . ولنتناولها هنا مسألة مسألة لنرى كيف صوّرها جرير ، وهى مع مسألة السيف مشهورة فى كتب النقد الأدبى يحصونها كل ما اعتمد عليه جرير فى الهجاء .

٢ ١ — مسألة (جِعثِن) أخت الفرزدق تقوم على قصة[1] خلاصتها أن غالباً جاور طَلبَة بن قيس بن عاصم بالسيدان ، فكانت ظمياء بنتُ طَلْبة تحدّثُ إلى جِعثن فاشتهى الفرزدق حديثها وشُغلت أختُه ليلة فأخذ الفرزدق الجُلجُل الذى كانت جِعثِن تصفّق به لظَمياء لتجىء ، وغفّل نفسه لها ثم حرّك الجُلجُل فجاءت ظَمياء للعادة فارتابت بالفرزدق وهتفت وعادت إلى رحلها ، فلما سُمع بأمرها تجمّع فتيان من مُقاعس من سعد بن زيد مناة من تميم فاستخرجوا جِعثن من خِبائها ثم سحبوها ليُسمّعوا بها ولم يكن أكثرُ من ذلك . وكانت جِعثن امرأة عفيفة مسلمة صالحة[2] .

ولكن جريراً بالغ فى هذا الحادث واعتمد على خياله فى خلق صور قبيحة شنيعة أشاعها فى نقائضه وآذى بها الفرزدق وأسرته :

أتمدح يابن القَين سعداً وقد جرى لجعثنَ فيهم طيرُها بالأشائم
وتمدحُ يابنَ القين سعداً وقد ترى أديمَك منها واهياً غيرَ سالِمِ
تُبرّئهم من عُقرِ جِعثنَ بعد ما . . . .

---

(١) النقائض ص ٣٢٢

(٢) ممن اتهم جرير بجعثن عمران بن مرة المنقرى ص ٦٨٢ نق ، وسحار بن زيد بن سنان المنقرى ص ٨٥٥ نق

فإن مَجَـــرّ جِعثنَ ابنةِ غالب   وكيرَ جُبَيرٍ كان ضربة لازم

وماذا يقول الفرزدق فى هذا ؟ لم يقل شيئا ، ولكنه تناول أسرة جرير بنحو هذا فى غير هذا المقام ، ولما كان الفرزدق بادئا ويخاطب الخليفة لم يعرض لهذه المعانى .

٢ ـ وأما مسألة القيون التى ألصقها جرير بمجاشع فذلك نسبةٌ لعبد كان لصَعصَعة بن ناجية بن عقال يدعى (جُبَيرا) فنسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى القين وشهّر به فى ذلك فقال :ـ

تُلاقى بناتِ القين من خُبث مائه   ومن وهَجانِ الكيرِ سُودَ المعاصم
وإنك يابنَ القين لست بنافخ   بكيرك إلا قاعدا غـــير قائم

وهكذا يدعوه (ابنَ القين) فى عدة أبيات ، فإذا انتهينا إلى آخر القصيدة وجدنا جريراً يقول فى تمام هذا المعنى :ـ

قفَيرةُ مِن قِنٍ لِسَلْمى بن جَندلٍ   أبوكَ ابنُها بينَ الإماء الخوادم

أما جَندل فهو المجبَرُ بن نهشل بن دارم (١) وقفيرة أم صَعْصَعة بن ناجية بن عِقال وأمها المِذَّبَة وليدةُ كسرى وهبها لزُرارة بن عُدُس بن دارم فوهبها زُرارَةُ لابنة أخيه يَثْرِبىَ ابن عُدُس وزوجها مرثد بن الحارث ، فساعاها أخوه سكين بن الحارث ، فجاءت بقفَيرة جميلة فتزوّجها ناجية بنُ عِقال على أنها من عبد الله بن دارم ، فنعاها جريرٌ على الفرزدق كما رأيت (٢) .

وهكذا نجد جريراً ينتهز فرصة تحرّج الفرزدق عن ذكر السوْءات ويرميه فى نسبه من ناحية جدته الكبرى وأبيه القريب وذلك لأن جريراً كان يهجو وهو حر بعيد عن ساحة الخليفة ومواجهته .

---

(١) النقائض ص ٤٦٢ .   (٢) نفس المرجع ص٢١٩ .

٣ — أما مسألة الغدر بالزُّبير بن العوّام(١) فأصلها أن الزبير بن العوّام لما انصرف عن موقعة الجمل يُريد المدينة ، جاء رجل إلى الأحنف بن قيس زعيم تميم فقال : هذا الزبير ابن العوّام قد مرّ آنفاً ، فقال : ما أصنع به ؟! جمع بين فئتين من المسلمين فقتل بعضهم بعضاً ثم لحق بقومه ، فاستجار الزُّبير النَعِرَ بن الزِّمَّام المجاشعي فنهض عمرو بن جُرْمُوز وفَضَالة بن حابس ونُفَيع بن كعب السعديون فاتبعوا الزبير فلحقوه بوادى السباع بين مكة إلى البصرة فكرَّ عليهم الزبير حين رآهم فانهزموا ولحق الزبيرُ ابنَ جُرموز فقال له : أنشدك الله يا أبا عبد الله ، فكف عنه ورجع الزبير ، فانصرف فَضالة ونفيع ولزمه ابن جرموز فسايره فى ليلة مقمرة حتى أغفى الزبير فطعنه ابن جرموز فأذراه عن فرسه وأخذ سلَبه وذهب به إلى علىّ بن أبى طالب فغضب علىّ للزبير لسوابق هذا و بلائه فى خدمة الإسلام .

والزبير بن العوام قُرشى من بنى أسد بن عبد العزّى من قُصى بن كلاب ، وأمه صَفية بنت عبد المطلب بن هاشم ، و إذاً فقُريش تغضب لابنها على من غدر به من مجاشع ، وهنا يقف جرير مع قريش ويرمى مجاشعاً بالغدر ويبلغ فى هذا المعنى ماشاء مبالغة وتشهيراً حتى يسكت الفرزدق فلا يحير جواباً ، وقد ردَّد جرير هذا المعنى فى نقائضه وجعله سِمة لمجاشع يغمز بها خصمه ، وفى هذه القصيدة يذكر هذا المعنى غير مرة ويصله بقريش أصحاب الملك والدين : —

رأيتكَ لا تُوفِى بجارٍ أجرْتَهُ ... ولا مُسْتَعِفًّا عن لِئام المطاعمِ
فما وجدَ الجيرانُ حبلَ مجاشع ... وفيًّا ولا ذا مِرَّةٍ فى العزائمِ
ولامتْ قُريشٌ فى الزبير مُجاشِعا ... ولم يعذِروا مَن كان أهلَ الملاومِ

---

(١) النقائض ص ٨٠

وقالتْ قريش : ليتَ جارَ مُجاشِع دعا شَــيثاً أو كان جارَ ابن خازمِ [١]
ولو حبـلَ تيمىّ تناول جارُكم لمـا كان عاراً ذكرهُ فى المواسم [٢]
إذا نزلوا نجـداً سمعتم مَلامـــة بمجمع من الأعياص أو آل هاشم [٣]
أحاديث رُكبان المحجّة كلمـا تأوّهنَ خوصاً داميات المناسم

والواقع أن جريراً جلّى فى هذا المعنى ، وأحسن استغلاله حتى أخزى به مجاشـــعاً وأرضى قريشاً واكتسب عطفهم فكانوا يلتفون حوله أينما وجدوه وينصرفون عن الفرزدق لهـذا السبب ولغيره لأن قيساً كانت زبيرية من قديم وكان ابن الزبير يدعو ، فيما يقال ، إلى حكومة قرشية .

(ط) بقى الجانب الفنى للشاعرين وسنفرد له فصلا خاصا يتناول فن النقائض كله ، وإنمـا نقف هنا عند ما يتصل بهاتين النقيضتين ، فالمعروف أن الفرزدق من أسرة كريمة حسيبة غنية شديدة البأس تنفر من النظام فنشأ جاهلياً شكساً حديد اللسان ألدّ الخصام ، رصين الأسـلوب ، وأن جريراً من أسرة فقيرة وإن كانت تميم الـكبرى كثيرة العدد ، شديدة السلطان ، ثبت للفرزدق فى الهجاء وأسكت سائر الشعراء ، ومع ذلك فقد كانا فحلى تميم ولم يكن الأخطل من طرازهما .

ويمكن أن نذكر للفرزدق فى نقيضته هذه بعض الخصائص :—

(١) كثرة الفنون التى أطالت القصيدة حتى بلغت مائة وخمسة وخمسين

---

(١) شبث بن ربعى بن رياح بن يربوع ، وابن خازم هو عبد الله بن خازم السلمى صاحب خراسان .

(٢) تيم الرباب بن عبد مناة بن أدين طابخة بن مضر — راجع فهرس النقائض .

(٣) الأعياص من أمية الأكبر وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص .

بيتاً — فى حين أن قصيدة جرير أربعة وثمانون بيتاً — تناول فيها النسيب، والمدح، والهجاء، والفخر كما فصلنا، بخلاف جرير فلم يجد وجهاً للمدح ولا للمبالغة فى ذكر قتيبة ولا إطراء الحجاج فالأول ثائر والثانى مالأ الوليد على سليمان، ثم أكثر الفرزدق من ذكر الأيام ووصف الطبيعة والرحلة وذلك لم يشغل بال جرير.

(٢) فخامة الأسلوب، وقوة الأسر، لغلبة الفخر عليه، ولطبع الفرزدق الغليظ فكان لموضوعه وشخصيته أثر فى ذلك، وكان جرير أرق طبعاً، وأشد سفهاً، فكان هجاؤه ألذع وأسلوبه أسلس وبخاصة فى النسيب والسباب، تحس فى أسلوب الفرزدق ضخامة حتى فى النسيب.

(٣) وقد رأينا فى عبارات الفرزدق خروجاً على مألوف النحاة فتورط فى الخطأ والتعقيد وتتابع الإضافات والكلمات بنسق غير مألوف[1] حتى عدت له أبيات شاذة غريبة ولعله إمام المتنبى فى هذا الباب.

(٤) لم يتورط الفرزدق فى البذاء كما فعل جرير، ومردّ ذلك أن الفرزدق غلب عليه الفخر الذى يستمده من جانبه وأن جريراً غلب عليه الهجاء والسباب الذى يستمده من خصومه، مع دقة حسه، وكثرة أعدائه فكان سفيهاً سباباً.

وتبعاً لذلك نذكر لجرير خصائص قصيدته الآتية : —

(١) قلة فنونه، وقد نوهنا بذلك من قبل وعللناه، وبذلك قصرت قصيدته وكانت دون قصيدة الفرزدق بكثير فى العدد ويتصل بذلك إيجازه ووقوفه عند رءوس المسائل.

---

(١) راجع الأبيات ٧، ٩، ٩٤، ١٠٢.

(٢) رقة الأسلوب وسلامته ومرد ذلك طبع جرير ، وشدة تأثره بالإسلام، وقد ظهر ذلك فى باب النسيب والهجاء حتى اكتسب شعره سَيْرورة وشيوعا .

(٣) وواضح أن جريراً يمتاز بالنسيب خاصة اعتماداً على طبعه الإنسانى فقد سلك فيه مسلكين : مسلك مستقل إعدادى ، ومسلك نقض به على صاحبه نسيبه الجليل المصطنع .

(٤) وبراعة الهجاء عند جرير تقابل قوة الفخر عند الفرزدق وقد رأيت جريراً يتشبث بعدة معان رئيسية معروفة .

(٥) قوة الحجة وقد اعتمد فى ذلك على حقائق تاريخية ، وأخيلة ابتكارية مبالغة وكذبا . . وإن قبل الشعر كل ذلك .

(ى) وخلاصة الدراسة يمكن إيجازها فى النقط الآتية :

١ — أما النسيب فكان جرير فيه أخلصَ طبعاً ، وأصدقَ لهجة ، وأقربَ إلى الصواب ، وأرقَّ أسلوباً ، بعكس ما اصطنع الفرزدق من وقار وجلال ، فجرير هو المبرّز فى هذا الباب .

٢ — وهناك فنان انفرد بهما الفرزدق هما مدح الخليفة ، وهجاء الحجاج ، فلا وجه للموازنة وإدخالها فى التقدير الفنى إلا إذا لاحظنا أن الفرزدق كان فيهما لبقاً لمراعاته مقتضى الحال متأثراً بوحى موقفه .

٣ — وأما ما دار حول قتيبة ومصرعه فقد امتاز الفرزدق بسعة أفقه وتسديد موقفه فى السياسة العامة المتصلة بالخلافة وبموقف قومه ، كما امتاز جرير بأخذ مجد هذا الحادث لرهطه الأدنين ، وبحسن اعتذاره لباهلة ، وهنا يستويان .

٤ — وكذلك يتساويان فى الفخر لأن نزعة الفرزدق إلى زعامة تميم ،

والاعتزاز بأيامها ، وبضبة وسعد ، يوازى ما لقيس من أيام وما ليربوع معها ، لحسن حيلة الفرزدق تقابل صدق جرير مع حرج موقفه .

٥ — بقيت معانى الهجاء التى تفرّد بها جرير وهو فيها موفق من غير شك .

فإذا راعينا مقتضى الحال سوينا بين الشاعرين وإذا نظرنا إلى النقيضتين نظرة مستقلة وجدنا الفرزدق أطول نفساً ، وأعلى فخراً ، وأسلم موقفاً ، وأكثر فنوناً .

— ٩ —

وبهذه الطريقة يمكن دراسة النقائض كلها مع مراعاة خواص كل نقيضة وما يلابسها من مؤثرات ، ولنمثل لذلك بالإجمال ، وعلى الباحث أن يستمر فى درسه لعله واجد فى ذلك مشقة لذيذة ومجالا للمرانة العقلية والشعورية والذوقية جميعاً .

فإذا كان الفرزدق قد بدأ فيما درسنا واستطاع أن يملك ناصية الموضوع ، ويحيط بأطرافه ، ويأخذ على جرير منافذ الطرق ، فإن جريراً لما بدأ بالبائية فى هجاء الراعى استطاع أن يملك ناصية الموضوع ويحتل المكانة الأولى فيه فلما أتى الفرزدق لم يستطع معه شيئاً ، فقد نسب جرير وأطال نسيبه ، وهجا الفرزدق وقومه هجاء مراً قبيحاً ، وفخر عليه بمآثر قومه ، ثم التفت إلى الراعى فأطال فيه وفى بنى نمير الهجاء حتى أجهز عليهم وأسكت شاعرهم وصيرهم مثل السوء ، وعاد آخر قصيدته فملأ الدنيا فخراً ، وكان عالى الصوت مسيطراً على موضوعه بالغاً فيه الغاية حتى بلغت قصيدته مائة واثنى عشر بيتاً .

وأتى الفرزدق فافتخر وهجا ووقف مع بنى نمير ولكن لم يستطع أن يبلغ مبلغ جرير وكانت قصيدته سبعين بيتاً .

كذلك بدأ الفرزدق باللامية الأولى ورد عليه جرير وربما تكافآ فى هذا

الموقف . وكان الفرزدق موفقاً فى الفائية واللامية الثانية ، كما كان جرير موفقاً فى الرائية التى رثى بها زوجه ، ولولا خوف الإملال لعرضت عليك عيون النقائض فى درس عريض .

— ١٠ —

والآن أترك نقائض جرير والفرزدق وفى نفسى منها أشياء إذ لم أقل فيها شيئاً ، ولن تستطيع الدراسة أن تظفر منها بشىء أو تعرض ذخائرها القيمة النفيسة فمن شاء إدراك خطرها فعليه الاتصال بها مباشرة والعكوف على دراستها فى صبر واحتمال .

أتركها وهى فى حاجة سريعة إلى جهود جبارة لترتيبها وشرحها شرحاً لغوياً وأدبياً وتاريخياً واجتماعياً واستغلال شروحها لدراسات شتى سياسية ، وأدبية ، وقصصية ، وتاريخية ، وكل ما أرجوه من هذا الفصل أن يكون دليلا موجزاً على ما فى هذا الديوان الكبير الذى يعد من ذخائر الأدب العربى القديم .

الفصل السابع

نقائض جرير والأخطل

— ١ —

وهذا ديوان آخر للنقائض صغير ، نشره لأول مرة عن نسخة الآستانة الوحيدة الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، وطبعه فى بيروت بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية ، واستعان على ذلك بعدة مراجع ذكرها بعد المقدمة الفرنسية المؤرخة أول مارس سنة ١٩٢١ م.

وعنوان هذا الكتاب « نقائض جرير والأخطل تأليف الإمام الشاعر الأديب الماهر أبى تمام » . وآخره « تم كتاب نقائض الأخطل وجرير ، الحمد لله كما هو أهله ، وصلى الله على محمد وآله وسلم » .

يحتوى هذا الديوان على : ـ

١ — مقدمة فى حرب قيس وتغلب وما اتصل بها من شعر بين شعراء اليمن وقيس وتغلب نفصله فيما بعد .

٢ — ثم نقائض جرير والأخطل وعددها عشرون نقيضة نعرضها عليك فى هذا الفصل ، ومعها نقيضة للفرزدق .

٣ — ثم إضافات للناشر عن بعض أيام قيس وتغلب هى : الكُحيل ، وذو بَهدا ، والعِداب ، والرَّحوب ، وماكَسين ، والعُظالى .

والفهارس لأسماء الرجال ، والقبائل ، والأماكن ، والقوافى ، والمراجع .

٤ — وفى صدر الكتاب الأيسر هذه المقدمة الفرنسية التى أشرنا اليها .

وعدد صفحاته بما فيها الفهارس خمسون ومائتان .

والأصل الذى نشر هذا الديوان على أساسه ينقصه بعض الأوراق ، فضلا عن فساد بعضها ، وكان أثر ذلك نقص فى قصيدة الأخطل : —

ألا يا اسلمى يا هندُ هندَ بنى بدرِ　　وإن كان حيَّانا عِدًى آخر الدهرِ

واضطراب فى ترتيبها .

كذلك غاب عنا ، بضياع هذه الأوراق ، معرفة السبب الذى من أجله أورد أبو تمام فى هذا الديوان شعراً للسفاح التغلبى ، والمرقش الأكبر ، والزبّان الشيبانى ، وعمرو بن لأى التميمى ، ولعل ذلك لصلة هذ الشعر بحوادث تتصل بسير النقائض وتاريخها نستطيع معرفته فيما بعد .

— ٢ —

أما ترتيب هذه النقائض فمضطرب أيضاً كما يتراءى لنا خلال الدرس ، ومن شواهد ذلك الواضحة أنه فى الصفحة السابعة والتسعين بعد المائة نجد هذه الكلمة (تمت) ثم يورد قصة التحام الأخطل وجرير لما فضل عليه الفرزدق فى حضرة بشر بن مروان ، فهجا جرير الأخطل والفرزدق ومن معهما ، وذلك معروف بأنه بدء هذه النقائض .

بدأ الكتاب بحديث الشارح عن قيس وتغلب وموقفهما من بنى أمية وغيرهم بعد موت مُعاوية بن أبى سفيان ، وما كان من انتصار بنى كلب ليزيد بن

معاوية إذ هُم أخواله ، فأمّه مَيسون بنت مالك بن بَحْدل ، وأخوها حسّان بن مالك بن بحدل الذى قيل إنه ادعى الخلافة بعد موت معاوية أياماً ثم تركها . فلما أبى هذا الحىُّ من قيس بيعة يزيد وقعت الحرب بين أمية وقيس فهلك يزيد بن معاوية فى ربيع الأول سنة أربع وستين ، واستخلف ابنه معاويةَ بن يزيد ، وأمّهُ من بنى حارثة بن جناب من كلب اليمنية أيضاً ، وكانت خلافته أربعين يوماً وكان يُكنَّى أبا ليلى وله يقول على بن الغَدير الغَنوى القيسى هذه القصيدة : —

تعزَّوا يا بنى حَربٍ بِصَبرٍ ... فَمن هذا الذى يرجوا الخلودا
لقد وارَى قَليبُكمُ ثبـاتا ... وحِلماً لا كِفاء له وجودا
خـــلافةَ ربكم كونوا عليها ... إذا غُمِزَتْ عَنابِسةً أسودا
تَلقفها يَزيدٌ عن أبيـــه ... فدُونَكها مُعاوىَ عن يزيدا(١)

وكان هذا الشاعر قد حضَّ يزيد على المبايعة لابنه معاوية بقصيدة أخرى : —

يزيدُ يابن أبى سفيانَ هل لكمُ ... إلى سَناء ومجدٍ غير مُنْصَرِمِ
إنّ الخلافة إن تَثْبُت لثالثكم ... تثبت أواخيُها فيكم فلا تَرِمِ
فما لِمَنْ سالكَ الشُورى مُشاوَرةٌ ... إلا بطعنٍ وضربٍ صَايبٍ خذمِ(٢)

فنهض يزيد فبايع لمعاوية ، فلما أدركت معاوية الوفاة قيل له : أوص واستخلف ، قال : والله ماذقت حلاوتها فأصْلى بمرارتها ، إن يك خيراً فقد استكثر منه آل أبى سفيان ، وإن يك غير ذلك فوالله ما أحب أن أزودهم الدنيا وأذهب بِوِزْرِها

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١ — ٣ . (٢) المرجع السابق ص ٣ — ٥ .

إلى الآخرة ولكن ليُصَلِّ بكم حسانُ بن مالك بن بحدل أربعين ليلة وتشاوروا فى أمركم وأستودعكم الله ، ثم مات وحسانُ بن مالك على الجندَين : فِلَسطين والأردُنّ ، والضحّاك بن قيس الفهرى على دمشق ، والنُّعمان بن بَشير على حِمْص ، وسعيد بن مالك بن يزيد الكلبي على قِنَّسرين ، وعبيد الله بن زياد على العراق ، فوثب كل جند على عاملهم [١] فوثب زفر بن الحارث على سعيد بن مالك فأخرجه من قنَّسرين ودعا إلى طاعة ابن الزبير ، وبايع النعمانُ بن بشير بحمص لابن الزبير وخلع بنى أمية ، واستخلف حسانُ بن مالك بن بحدل رَوحَ بن زِنْباع على فلسطين ولحق بالأردُن ، ووثب ناتل بن قيس الجُذامِى فيمن تبعه من جُذام ولَخْمْ يدعو إلى ابن الزُّبير وأخرجَ رَوحَ بن زنباع من فلسطين وبقى الضحاك بن قيس بدمشق عاملا عليها يقدم رجلا ويؤخر أخرى يظهر طاعة بنى أمية والشكر لمعاوية ، ويدسُّ إلى هذا الحى من قيس أن ابن الزبير أولى بالأمر ، ثم همّ أن يُبَايع لابن الزبير ، وهمّ مروان بن الحكم أن يكون رسول الضحاك بالبيعة إلى ابن الزبير ، ولكن عمرو بن سعيد بن العاص وابنه عبد الملك دفعاه عن ذلك ونصحاه أن يدعو لنفسه ، فجدَّ مروان فى ذلك ، وكان حسان بن مالك ابن بحدل يطمع فى الخلافة ، ولكنه أسلمها إلى بنى أمية فلامه قومه من كلب فى ذلك ، كذلك وثب أهل العراق بعُبَيْد الله بن زياد فهربَ من البصرة إلى الشام ، وسجل عليه الشعراء ذلك [٢] .

وأما ابنُ الزبير فقد دعا لنفسه [٣] وأجلى بنى أمية من المدينة إلى الشام ثم حاول استرجاعَهم إلى المدينة فأبى مَرْوان بن الحكم وأخذ يدعو لنفسه ويطعن

---

(١) س ٦ وهذا أخذ عن شرح النقائض .

(٢) نقائض جرير والأخطل س ٦ — ١٠ (٣) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ف ٣ ب ٣

فى ابن الزبير ، ونجد الضحَّاك بنَ قيس وحسانَ بن بَجدل ينزلان الجابية داعَيين إلى أمية ومعهم أهلُ دمشق و بنو أمية ، فدبّت القيسية والزُبيرية من قيس واليمن فلقوا الضحاكَ فقالوا : دعوتَنا إلى بيعة ابن الزبير حتى إذا أجبناك خرجت تريد هـذا الأعرابي من كلب ليقلدها بنى أخته ! قال : فتريدون ماذا ؟ قالوا : تصرفُ الرايات فتنزل مرْجَ راهط وتظهر البيعةَ لابن الزبير ، ففعل وأمدّته القيسية ، ثم أرادته على أن يدعو لنفسه ففعل ، والناس يومئذ على هَوَيَيْنِ زُبيرى و بَحْدَلى : —

ومـا الناسُ إلا بَحدلىٌّ على الهوى   و إلاَّ زُبيرى عصاً فتَزَبَّرا[(١)]

وجاء مروان بمن بايعه ومعه كثرة يمانية وليس معه من قيس إلا ثلاثة نفر ، فالتقوا بمرج راهط فانهزمت القيسية وقُتِل الضحاك بن قيس ومعه تسعة آلاف من قومه ، فقال عمرو بنُ مِخلاةَ الكلبى يذكر وقعة المرْج من قصيدة :

ويَومٍ تُرى الرايات فيه كأنها   عوايفُ طيرٍ : مُستديرٌ وواقِعُ
فمن يكُ قد لاقى من المرج غبطةً   فكان لقيس فيه خاصٍ وجادعُ
فلن يَنصبَ القيسى للناس رايةً   من الدهر إلا وهو خزيانُ خاشعُ
ولما زحفنا بالصفوفِ فأقبـلوا   إلينا فقلنا اليومَ ما ثَمَّ واقعُ
وقلنـا سَلُوا الأقوام عنَّا وعنكمُ   عن الدِّينِ والأحساب كيف نُماصعُ[(٢)]

فأجابه زُفَرُ بنُ الحارث الكلابى القيسى وكان مع الضحاك ولكنه نجا ، فقال : —

فخرتَ ابنَ مِخلاةِ الحمار بمَشْهدٍ   علاك به فى المرج مَن لا تُدافعُ

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٦ .   (٢) نفس المرجع ٦٨ .

علاكَ به قومٌ كأنكَ وسْطهم ... إذا الحربُ شُبّتْ ، ثعلبٌ متطالع
فإن تكُ نازعنا قُريشاً فإنهم ... أخونا ومولانا الذين نُنازع
فأىُّ قبيلَينـا وأمّكَ ما يكُنْ ... له المُلكُ تتبعْهُ وخدكَ ضارع(١)

كانت وقعة المرج انتصاراً لليمن على قيس عيلان ، وظفراً للأمويين على الزبيريين الذين أوشكوا أن يظفروا بالبيعة العامة حتى من مروان بن الحكم لولا ابنه عبد الملك وعمرو بن سعيد بن العاص . فكان شعر عمرو بن المِخلاة الكلبى شماتة اليمن فى قيس وتعييراً لهم بهزيمتهم فى هذا اليوم ، وكان نقض زُفَر له قائماً على نقطتين : رمى عمرو وقومه بالجبن والخديعة ، وبيان أن بنى كلب أو اليمنية أجانب عن الملك ؛ وأنه فى مضر ، وأن النزاع حوله قام بين حيين قريبين ، وأن سلطان أحدهما معناه خضوع اليمن وذلتهم له .

ويظهر أنه حدث جفاء بين بنى أمية وبنى كلب اليمنية وكان ذلك على يد عبد العزيز بن مروان أخى عبد الملك فقام ابن جوّاسُ بن قَعْطَلَ الكلبىّ يمتنُّ على بنى أمية بنصرة كلب لهم ، ويهجو قيسَ عيلان من قصيدة :

كم مِن أميرٍ قبل مَرْوَانَ وابنِه ... كشفنا غِطاء الموتِ عنه فأبصرَا
فلو كنتَ مِن قيس بن عيلان لم أجِدْ ... فخاراً ولم أعــــدِلْ بأن أتنصرا
ضربنا لــكم عن مِنبر الملكِ أهلَه ... بجَـيْرونَ إذ لا تستطيعونَ منبرَا
فلا تكفروا حُسنَى مضتْ مِن بلائنا ... ولا تمنحونا بعــــد لين تجبُّرا(٢)

فأجابه مَعبد بن عمرو الكلابى من قيس عيلان من قصيدة :

لقينا بنى كلب بخيلٍ مُغــــيرةٍ ... تُثير عَجاجاً بالسنابكِ أكدرَا
فلما تلاقَى القومُ واختلَف القنـــا ... وقارعَ أطرافُ الذُّكور السَّنوّرا

---

(١) المرجع السابق ص ١٩ . (٢) ١٩ ص .

سموتُ إلى قرمٍ ولم أبغِ غيرَهُ ... فأحبوه عَضْبَ الشَفرتَينِ مُذكّرا
وجالدهم بالمرجِ منـــا أعزّةٌ ... يرَون المنـايا مَكرُماتٍ ومَفخرا[1]

فكان نقض مَعيد الـكلابى مكسوراً على الحماسة المدّعاة لكلب على قيس فى مرج راهط ونفيها . ولعلىّ بن الغدير الغنوى أبيات قيمة فى هذا الموقف يدعو فيها قيس عيلان قومه إلى ترك الحرب وتجنب الفتن وترك قريش تسوس أمورها وتختلف فيا بينها على الملك :

وخلُّوا قريشاً تقتتلْ إن مُلكها ... لهـا ، وعليها برُّها وأثامُهـــــا
فإن وسِعتْ أحلامُها وسِعتْ لها ... وإن عجزت لم يَدْمِ إلا كِلامُها
فإنّ قريشاً مُهلكٌ منَ أطاعَها ... تُنافس دُنيا قد أحمّ انصرامها[2]

ولعله يريد دعوة قيس رهطه أن يوفروا أنفسهم من قتال لا فائدة لهم منه ، ويتركوا الزبيريين والأمويين (وهم من قريش) يقتتلون فى سبيل دنيـاهم ، ولا سيا أن القيسية لا تستطيع الفوز بهذا الملك القرشى العتيد .

وفى يوم المرج قال زُفر بن الحارث الكلابى قطعته المشهورة :

أرينى سِلاحى لا أبالكِ إنّنى ... أرى الحربَ لا تزدادُ إلا تمـاديا
أتانيَ عن مروان بالغيب أنه ... مُقيدٌ دَمِى أو قاطع مِن لسـانيا
فنى العِيسِ مَنجاةٌ وفى الأرض مَهرب ... إذا نحن رفّعنا لهنّ المثـــانيا
فلا تحسبونى إذ تغيّبتُ غافِلاً ... ولا تفرحوا ، إن جئتكم ، بلقائنا
فقد يَنبُتُ المرعى على دِمَن الـثّرى ... وتبقى حزازات النفوسِ كما هيا
فيا راكباً إمّا عرضتَ فبلّغنْ ... كلاباً وحيّاً من عُقيلٍ مَقـاليا

---

(١) نفسه ص ٢٠ . (٢) نفسه ص ٢١ .

أتذهبُ كلبٌ لم تنلْها رماحُنا ... وتُترك قتلى راهط هِيَ ماهيا
لعمرى لقد أبقتْ وقيعةُ راهطٍ ... لمروانَ صَدْعاً بيننا مُتنائيا
أبعدَ ابنِ مَعنٍ وابن ثَوْرٍ تتابعا ... ومقتل همّام أمَنِّى الأمانيا
ولم تُرَ مِنى نبوة غير هذه ... فرارى وتركى صاحبَىَّ ورائيا
عشية أجرى بالصعيد ولا أرى ... مِن القوم إلاَّ مَن علىَّ وماليا(١)

فأجابه جوّاس بن قَعْطَلْ الكلبيّ فقال :

لَعمرى لقد أبقت وَقيعةُ راهطٍ ... على زُفَرٍ داء من الداء باقِيا
مُقيماً ثوى بينَ الضلوع محلُّهُ ... وبين الحشا ، أعيا الطبيبَ المداويا
يُبَكّى على قتلىْ سُلَيم وعامرٍ ... وذُبيانَ معذوراً ويُبكى البواكيا
دعا بسلاحٍ ثم أحجمَ إذ رأى ... سُيوفَ جَنابٍ والطِوال المذاكيا
عليها كأُسْدِ الغابِ فِتيانُ نجدةٍ ... إذا أشرعوا نحو السُكاةِ العواليا(٢)

قامت نقيضة زُفر على حماسة وعدم نسيان الثأر لقومه ، وما أبقت وقعة المرج من خلاف بينهم و بين الخليفة ، واعتذار عن فراره إلى قرقيساء(٣) .

وكان نقض جواس شماتةً بزُفر ، وسخريةً ببكائه قتلى قومه دون ثأر ، و بدعوته بسلاحه ثم جُبنه أمامَ فرسان الكلبيين .

ولما نزل زفر قَرقيساء من أرض الجزيرة سار إليه عُمَير بن الحبابُ السلمى فجعل زُفر يغير على كلب فى بلادها فيقتل فيهم وتغزو كليب قيسا و يغير عمير على كلب البادية حتى أمرت كلبُ الحاضرةِ حُميد بن حُرَيث بن بحدل فسار إلى مَن بالميل

(١) ص ٢٤ راجع معنى البيت الخامس فى نقائض جرير والفرزدق ص ٢٢٦ .
(٢) نقائض جرير والأخطل ص ٣٦ (٣) المرجع السابق ص ٢٥ هامش .

فقتلهم أجمعين ثم اتبع عمير بن الحُباب فهزمه حتى لحق بقرقيسيا ، وقال فى ذلك حميد بن حريث :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى   حُميداً قد تذرَّيتُ السَناما[1]

فلم يزل الأمر بينهم حتى فسدت العلاقة بين قيس وتغلب فذم زُفر ابن الحارث عُميراً لتركه حرب اليمنية إلى قتال النزارية ، ثم أن تغلب قتلت عميراً يوم الحشّاك[2] .

وكانت أول ظاهرة لهذه الحرب بين قيس وتغلب مناقضة بين الأخطل التغلبى و بين نُفيع بن صفّار المحاربى القيسى قال الأخطل :

ألا يَا اسلمِي ياهندُ هندَ بنى بدر   و إن كانَ حيّانا عِدًى آخرَ الدهرِ

نسب فيها نسيباً قصيراً تقليدياً فيه روح عنترة ـ ومثله القطامى ـ من قيام العداوة بين رهطى الحبيبين ، ثم تناول حرب قيس وتغلب فذكر ذلة قيس وسلطان تغلب على ما بين الشام والعراق ، وألمّ ببعض بطون قيس وما نالها من سوء كعامر ، وسُلَيم ، وغَنِيّ ، وباهلة ، وسُواءة ، ومحارب ، وجُشم ، وسلول ، وألحّ على ابن صفّار بالهجاء ، وتاريخ هذه القصيدة بعد يوم الحشّاك لذكره مقتل عمير بن الحباب ، و بعد الثرثار ؛ ولعله الثرثار الأول لتغلب على قيس :

لَعَمْرِى لقد لاقتْ سُليم وعامرٌ   على جانب الثرثارِ راغيةَ البَكْرِ

ثم ذكر شناعات حلت بقيس وهجاها هجاء مقذعاً وخصوصاً بنى العجلان ، وتمتاز القصيدة بالجزالة ، وحسن التنسيق ، والعفة النسبية ، وذلك هو فن الأخطل .

---

(١) نفس المرجع   (٢) ص ٣٢ هامش

فأجابه نُفَيع بن صفّار المحاربى القيسى مناقضة بقصيدته :

ألا حَيِّ هِنداً بالنبيّ إلى البِشْرِ وكيفَ تُحَيِّيها على النأى والهَجْرِ

وقد ألمّ فيها ببعض فنون :

نسيب قصير انصرف عنه إلى الحرب وكما نسب الأخطل بقيسية نسب نفيع بتغلبية ثم تركها إلى قومها . وعرض لما أصاب تغلب من قيس ، وخاطب الأخطل وذكر خذلانه رهطه ، وأشار إلى تقاليد النصارى وجبن الأخطل ومن قُتل بعُمير ثم شنع بما نزل بنساء تغلب أبكاراً وعوناً مقابلا بذلك معانى صاحبه .

— ٣ —

وبعد ذلك تقابلنا قصائد للمرقش الأكبر ، والسفاح التغلبى ، والزبّان الشيبانى ، وعمرو بن لأى التيمى ، ليست من صميم نقائض جرير والأخطل ، يستظهر ناشر النقائض أن مردها ضغائن كانت بين بنى تغلب وشيبان ، ولا بد أن تكون هذه المقطوعات متصلة اتصالا ما بموضوع الكتاب ولو اتصالا فرعياً كما رأينا فى مقدمة نقائض جرير والفرزدق من شعر متصل بذلك ويعزى الناشر عدم معرفة ذلك إلى فقد بعض أوراق النسخة الأصلية ، ومع ذلك فإنا نذكر هنا الملاحظات الآتية عن هذه المقطوعات :

١ — هناك مناقضة بين السفاح التغلبى وعمرو بن لأى التيمى ، كانت أبيات السفاح فى شأن بنى الزبّان الذين قتلهم بنو تغلب ، وكانت أبيات عمرو بن لأى حين قتلت بنو زهير .

٢ — هناك شبه مناقضة بين المرقش الأكبر وبين السفاح التغلبى فيما كان بين بكر وتغلب :

٣ — الزبان بن مجالد تعتذر إلى بنى غُبَر اليشكريين فيمن أصيبَ منهم .
وهنا تنتهى المقدمة وتبدأ النقائض بين جرير والأخطل .

— ٤ —

١ — أول ما يلقانا من هذه النقائض حسب ما ورد فى هذا الديوان رائية جرير التى مطلعها :

أخذنا على الخور قد يعلمونَ ... ردافَ الملوكِ وأصـــهارَها

وقد تبين الناشر حقاً أنها ردٌّ على نقيضة للاخطل فقدت ولم يبق منها إلا ثلاثة أبيات وردت فى ديوانه وهى فى حرب قيس وتغلب :

ولم أرَ مَلحَمــــة مثلَها ... أقِفْ لىَ أُخبرْكَ أخبارَها
أمرَّ عـــلى ثعلبٍ جائع ... وأشبعَ للذئب إن زارها
تركنا البيوتَ لأعدائنا ... وعُونَ النساء وأبكارها[1]

يقول تركنا البيوت لأجل غزونا أعداءنا ، وتركنا النساء لاشتغالنا بالحرب عنهن . فقال جرير مناقضاً للأخطل :

تركتم لقيسٍ بناتِ الصريخ ... وعُونَ النســاء وأبكارَها

على أن نقيضة جرير هذه ناقصة بترمنها أبو تمام ديباجتها[2] ولست أدرى فلعل صنعة اختيار النصوص غلبت على أبي تمام هنا فحذف الديباجة أو لعله آثر الجزء الخاص بالمناقضة ، ومطلع هذه القصيدة كما وردت فى ديوان جرير :

---

(١) ديوان الأخطل ص ٣٠١ (٢) ديوان جرير للصاوى ص ٣١٤

بان الخليطُ غداةَ الجنَابِ ... ولم تَقض نفسُك أوطارَها

هجا فى مطلعها الفرزدق وقومه فذكر يوم (الزُّبير) وخذلَ (القُيون) له وحادثَ (جِعثن) فى بَنى سعد، وشؤمَ بنى مالك أصل دارم ومجاشع، ثم ذكر سائر الأبيات عدا قول جرير:

لحقنَا بأبجـــرَ والحوفزانِ ... وقد مدَّت الخيلُ إعصارَها

وأما المعانى التى ألم بها جرير فى نقيضته هذه غير ما سبق فهى فخره بيوم الغَبيط ليربوع على شيبان أسر فيه بسطام بن قيس الشيبانى، وبأسُ قومه، ثم ذكرَ يومَ الـكُحيل لقيس على تغلب، ويوم حَزَّة بين قيس وتغلب[1] ثم ألم بلؤم تغلب ورجسها وقال آخرها:

ونحن ورثنا، فخَل الطريقَ، ... جَــــوابِىَ عاد وآثارَها

وأدْعُو الإلهَ وتدعُو الصليبَ ... وأدعُو قريشاً وأنصـــارها

فلو أصبحَ الناسُ حَرْباً عدًى ... لقيس وخندفَ ما ضـــارها

كَفَوْا خَزْرَ تغلبَ نصرَ الرسول ... ونقضَ الأمـورِ وإمرارَها[2]

٢ — ثم نقيضة الأخطل:

عفَا واسطٌ من آل رَضوَى فَنَبْتَلُ ... فمجتمَعُ الحُرَّين فالصبرُ أجملُ

ينسب فى صدرها، ويصف أثر فراق الأحبة فى نفسه بصرعة المدام ويستمر فى خمرياته كما شاء له فنه الخاص، وينصرف عن العُذَّال، ويصف الفلاة التى اجتابها إلى خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى بناقته الضامرة حتى يمدحه هو وقومه،

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٤٦ . (٢) نفس المصدر ٤٧

حتى يصل إلى عتاب الأمويين لاطمئنانهم إلى القيسية ، ويهددهم بالانصراف عنهم ولا سيما بعد يوم البِشر وما أساء فيه الجحّاف إلى بنى تغلب ، فقال : —

لقد أوقع الجحّاف بالبِشرِ وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعوّلُ
فإلا تغـــيرها قريش بمثلها يكن عن قُرَيش مُستماز ومَرحلُ

ولم يذكر الأخطل فى قصيدته هذه جريراً ولا رهطه فناقضه جرير فقال : —

أجِدَّكَ لا يصحو الفؤادُ المعلّلُ وقد لاحَ من شَيبٍ عِذارٌ ومِسحَلُ

ونسب فيها نسيبه الرقيق القصير ، ثم أشار إلى سبب الحرب بين قيس وتغلب وقصة أم دَوْبل [1] وبكاء ابنها لِفعل الجحاف بهم : —

بَكَى دَوْبَلٌ لا يُرقىء اللهُ دمعَه ألا إنما يبكى من الذُلّ دَوْبَلُ
جزِعْتَ ابنَ ذاتِ القَلسِ لما تداركتْ من الحربِ أنيابٌ عليكَ وكلكَلُ

ثم جابه خصمه بما يخزيه ويسكته فإن الأخطل هو الذى أثار يوم البشر حين دخل على عبدالملك بن مروان فوجد الجحّاف بن حكيم السلمى عنده فغضب من ذلك وقال : —

ألا سائل الجحّافَ هل هو ثائرٌ بقتلَى أصيبت من سُليم وعامرٍ

فغضب الجحّاف وجمعَ لتغلب ونكل بهم يوم البشر فى قصة مشهورة[2] فلما قال الأخطل لعبد الملك فى نقيضته : —

أأمركَ الجحّافُ ثمّ أمرتَهُ بجيرانكم وسطَ البيوتِ تُقتّلُ

---

(١) راجع ديوان الأخطل ص ٣٦ الحاشية .

(٢) راجع ديوان الأخطل ص ٢٨٦ .

قال جرير للأخطل يوقع عليه تبعة هذا اليوم : —

فإنكَ والجحافَ يومَ تحضُّهُ ... تُريدُ بذاكَ المُكثَ ، والوِردُ أعجلُ (١)
سرى نحوكم ليلٌ كأنَّ نجومَه ... مَصابيحُ فيهنَّ الذُّبالُ المُفتَّلُ

ولما كان الأخطل فى نسيبه قد قال : —

صحا القلبُ إلاَّ مِن ظعائنَ فاتنى ... بِهِنَّ ابنُ خلاَّسٍ طُفَيلٌ وعَزْهَلُ

سخِر به جرير فقال : —

لقد قتل الجحّافُ أزواجَ نِسوةٍ ... يَقُودُ ابنُ خَلاَّسٍ بِهِنَّ وعَزْهَلُ

فأحال عشيقاته أيامى ، ونسيبه هزيمة نكراء .

ولما قال الأخطل : —

فسائِلْ بنى مَروانَ ما بالُ ذِمَّةٍ ... وحَبلٍ ضعيفٍ ما يَزالُ يُوَصَّلُ
بنَزوةِ لِصٍّ بعد ما مَرَّ مُصعَبٌ ... بأشعثَ لا يُفلَى ولا هو يُغسَلُ (٢)

قال جرير : —

فإلاَّ تَعَلَّقْ مِن قُرَيشٍ بِذِمَّةٍ ... فليسَ على أسيافِ قَيسٍ مُعَوَّلُ (٣)
أجارَ بنو مَرْوانَ منكم دِماءَكم ... فمَن مِن بَنى مَرْوانَ أعلى وأفضلُ

---

(١) يقول أردت تأنى الجحاف وإبطاءه عنكم ، ولكن وروده إليكم كان أعجل .

(٢) بنزوة لص مثل الجحاف الذى أساء إلينا يوم البشر بعد قتلنا لكم مصعب بن الزبير قتله عبيد الله بن زياد بن ظبيان بن ثعلبة يوم دير الجاثليق بسبب قتل مصعب نابى بن زياد فقتل به — راجع الأصل ص ٦١ و ٦٢ .

(٣) يقول الشارح أى ليس عند قيس هوادة ولا محاباة ، ومعول مستغاث ؛ وفى الحاشية : « يقول إن لم تعلق بجوار قريش حتى تأمن فليس لك عندهم جوار ولا هوادة ولا بقيا » . راجع الأصل ص ٦٩ .

يفسد عليه قوله فيفهمه أنه إذا لم تحمه قريش فلن ينجو من قيس عيلان ، فما باله يَدِل على الخليفة أو على بنى مروان وهم الذين حموا دماء بنى تغلب من قيس عيلان ، ثم ضم إليه الخليفة حين هدده الأخطل بالانصراف عنه .

ويلاحظ أن جريراً كان فى نقيضته حسن التقسيم وربما كان ذلك تأثراً بالأخطل ومتابعة له بخلاف نقائضه مع الفرزدق فإن الخلط عندهما هناك واضح .

ومن البدهى أن هاتين النقيضتين كانتا بعد يوم البشر ، وعلى أثره اضطر عبد الملك أن يصالح بين قيس وتغلب حقناً للدماء ورغبة فى استقرار الأمن الداخلى .

٣ — وقال الأخطل يهجو جريرا :

كذَبتكَ عينُك أم رأيتَ بواسطٍ ... غَلَس الظلام من الرَّباب خيالا

وكان نسيب الأخطل فى ديباجتها موسوماً بخداع النساء ، وضعف حلومهن ، وكثرة مطالهن ، وتعلقهن بالشباب دون المشيب ، ثم وصل النسيب بالفخر ، وأخذ بعد ذلك فى هجاء بنى كليب :

أبنى كُليبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللذا ... قتلا الملوكَ وفَككا الأغلالا

وعمّاه هما أبو حنش قاتل شرحبيل بن الحارث عم امرىء القيس ، وعمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند ، أو هما كليب ومهلهل :

وأخوهما السفاحُ ظمّأ خيلَهُ ... حتى وردْنَ جِبا الكُلابِ نِهالا

يشير إلى يوم الكلاب الأول[1] ويستمر حتى يصل إلى جرير فيقول :

فأبَرْنَ قومَك يا جريرُ وغيرَهم ... وأبرْنَ مِن حلَقِ الرباب حِلالا

وطحَنّ حائرةَ الملوك بكلكلٍ ... حتى احتذَينَ مِن الدماء نِعالا

خُزرَ العيونِ إلى رياح بعد ما ... جعلتْ لضَبَّة بالسيوف ظلالا

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٧٤ .

وهذا الوصف ـ خزر العيون ـ جعله جرير سمة تغلب فى أهاجيه ثم يذكر يوم (إراب) لتغلب على يربوع بزعامة الهُذيل بن هُبيرة التغلبى[١] حتى يقول هذين البيتين اللذين تمثل بهما يزيد بن هبيرة للفزارى بالكوفة وبنت الحكم ابن عبدل : ـ

ما إن تركنَ من الغواضر مُعْصِراً ... إلا فصمنَ بساقها خلخالا
ولقد عطفْنَ على فزارة عطفة ... كرَّ المنيح وجُلن ثم مجالا

ثم يصل بفخره الرائع إلى الشرْعَبيَّة لتغلب على قيس[٢] ويوم خزازى[٣]

ولقد جشمتَ جريرُ أمراً عاجزاً ... ومنحتَ سوءةَ أمك الجُهالا
فانعق بضأنك ياجرير فإنما ... منتك نفسُك فى الخلاء ضلالا

وأنهى القصيدة بتفضيل دارم على يربوع .

فأجابه جرير : —

حَيِّ الغداةَ برامةَ الأطلال ... رسماً تحمَّل أهله فأحالا

ووصل نسيبه بهجاء تغلب استطراداً ، ثم أنحى على تغلب بالهجاء من ناحية الدين فقال : —

عبدُوا الصليبَ وكذّبوا بمحمد ... وبجبرئيل وكذّبوا ميكالا
لا تطلُبَنَّ خؤولة فى تغلبٍ ... فالزنج أكرم منهمُ أخوالا

وهذا البيت هو الذى أثار ثائرة الزنوج حتى هجا جريراً منهم سُنَيح بن رياح مولى بنى ناجية[٤] وبعده هذا البيت السائر فى هجاء بنى تغلب :

---

(١) نفس المصدر ص ٧٨ . (٢) ص ٨٠ ومثله لتغلب يوما : الثرثار الأول والحشاك
(٣) نفسه ص ٨١ (٤) نفسه ص ٨٨

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرى ... حكَّ استه وتمثَّل الأمثالا
أنسيتَ يومَك بالجزيرة بعدما ... كانت عواقبُه عليك وَبالا
حملَت عليك حُماة قيسٍ خيلَها ... شُعثاً عوابسَ تحمل الأبطالا
مازلتَ تحسَبُ كل شيء بعدهُم ... خيلا تشدُّ عليكمُ ورجالا

ويهجو أم الأخطل ، ويذكر يوم البِشر لقيس على تغلب[1] ويأخذ في الفخر بقومه وتعالى إلى خِندف ويضيف إليها قيساً ويذكر يوم ذى بهذا ليربوع على تغلب أسر فيه الهُذيل التغلبي[2] ثم غاظ الأخطل فقال : ـ

ولقد عطفنَ على حنيفة عطفةً ... يومَ الأراكةِ فاعتسرْنَ أثالا
ولقيتَ يربوعاً فغُودرَ منكمُ ... بسفَارِ قتلى ما تُطيق زوالا

ويستمر فى هجاء تغلب حتى يصل إلى مجاشع فيهجوها بهذا الأسلوب العجيب : —

أوجدتَ فينا غيرَ غدرمُجاشع ... ومجرَّ جعثِنَ والزبيرِ مقالا
إن القوافى قد أُمِرَّ مَريرُها ... لبنى فدَوْكَس إذ جدعْنَ عِقالا
لولا الجِزى قُسِمَ السوادُ وتغلبٌ ... فى المسلمينَ فكنتُمُ أنفالا

٤ — وقال الأخطل يمدح عبد الملك بنَ مروان ويهجو جريراً وقبائل قيس عيلان : ـ

عَتبتم علينا آل عيلانَ كلكمُ ... وأىُّ عدوٍّ لم نُبتهُ على عَتْبِ

هكذا ورد مطلع القصيدة فى شرح النقائض ، وقد استظهر الناشر عدم ترتيب أبياتها ترتيباً طبعياً[3] ومع ذلك فلنساير ترتيب الأصل وننبه على النظام الصحيح،

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٩١ .
(٢) نفس المرجع ص ٩٣ .
(٣) راجع الحاشية ص ٩٧

فقد بدأت بالفخر على قيس عيلان ويوم راهط إذ كان بنو تغلب مع مروان فافتخر الأخطل بذلك[1] ومدح أمية بمثل قول الأخطل : —

أهلوا من الشهر الحرامِ فأصبحوا   موالىَ مُلكٍ لا طريفٍ ولا غَصْبِ

ويظهر أنّ مطلع القصيدة هو البيت الثانى عشر :

لَعمرى لقد أسريتُ لاليلَ عاجزٍ   بساهمةِ الخدَّينِ طاويةِ القُرْبِ

ويصف الناقةَ والسير ، ويعود فيمدح عبد الملك مستطرداً متخلصاً حتى ينتهى إلى قوله : —

وقد جعلَ اللهُ الخلافةَ منهمُ   لأبيضَ لاعارى الخِوانِ ولا جَدْبِ

ولكن أراكَ اللهُ موضعَ حقها   على رغم أعداءٍ وصَدَّادةٍ كُذْبِ

ويعود إلى حرب قيس وتغلب فيذكر يوم الثرثار الأول وقتلَ ابن الخمس التغلبى الحارثَ بن ظالم المرى فى الجاهلية بأمر النعمان بن المنذر[2] : —

لَعمرى لقد لاقتْ سُليم وعامر   على جانب الثرثارِ راغيةَ البَكْرِ

ويهجو بنى كليب ويذكر الشارح هنا مسألة رأم الناقة[3] ويختمها بقوله : —

يقولون : ذَبِّبْ يا جريرُ وراءنا   وليس جريرٌ بالمحامى ولا الصُّلْبِ

فأجابه جرير : —

أصاحِ ، أليس اليومَ منتظِرى صَحْبى   نُحَيِّى رُسومَ الحَىِّ من دارةِ الجأْبِ

نسب وافتخر فى أولها ماشاء ، ثم التفت إلى الأخطل فقال : —

لعلك يا خنزيرَ تغلبَ فاخرٌ   إذا مُضَرٌ منها تسامَى بنو الحربِ

إذ صدعت قيسٌ وخِندف بينها   عصا الحربِ ما أوضعتَ فيها مع الكَرْبِ

---

(١) نفس المرجع ص ٩٨ .   (٢) ص نفسه ١٠٧ .

(٣) ص ١٠٨ ونقائض جرير والفرزدق ص ٣١٨ .

ثم نقض على خصمه ما ادعاه فى يوم المرج فقال : —

ولو كنتَ مَولى العِزِّ أيامَ راهطٍ ... شَغَبْتَ، ولكن لا يَدَى لكَ بالشَغْبِ

وإن لنا غورَ البلادِ عليكمُ ... وساحةَ نجدٍ والطوالَ مِن الهضْبِ

ستعلمُ ما يُغنى الصليبُ إذا غدت ... كتائبُ قيسٍ كالمبَدَّةِ الجُربِ(١)

ونقض عليه يوم الشرْعبية ، وتمرُّضه دون الفرزدق ، وختم نقيضته بقوله :

قُفَيرةُ حِزبٌ للنصارى ودينهم ... وأمسى الكرامُ الغالبون وهُم حزبى

٥ — وقال الأخطل : —

حَىِّ الظعائنَ إذ رَحلْنَ بُكورا ... برُوَيْقَتَيْنِ فقد رفعْنَ خُدورا

فنسب ووصف ناقته مسرعاً ، ثم التفت إلى جرير فقال فيه :

جَلبت كليبٌ للرهانِ مُكدَّما ... عند الحفاظِ مُسَبَّقاً مقمورا

وبعد أبيات نراه يفضِّل عليه الفرزدقَ ورهطه :

لما جرَى هو والفرزدقُ لم يكن ... نَزِقاً ولا لِمدَى المئينَ صَبُورا

يجرى له عُدُسُ بن زيدٍ بالقنا ... وجرَى بصعْصَعَة الوليدُ بَشيرا

قومٌ همُ سبقُوا أباكَ إلى العلا ... جرْياً وصرتَ مخلَّفاً محسورا

أزعمتَ أن بنى كُلَيبٍ سادةٌ ... قبحاً لذلكَ مَعشراً مذكورا(٢)

ويعيره بهزيمة قيس يومَ (الحشَّاك) وقتل عمير بن الحباب السُلمى وفرار زُفَر بن الحارث مهزوماً والتجائه إلى قُرْقيسياء تاركا نساء هوازن بغير حامٍ ولا غيور ، وبأسر جدِّه الخطَفَى يوم (إراب) أسَرهُ الهذَيل التغلبى ثم مَنَّ عليه .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٠٩ .

(٢) نفس المرجع ص ١١٤

فأجابه جرير :

رحلَ الخليطُ فزايلوكَ بُكورا   وحَسِبتَ بينهمُ عليكَ يسيرا

فأطال النسيب ثم اقتضبَ القول إلى الأخطل ومساعدته الفرزدق فقال :

وعوَى الأخيطلُ للفرزدَق مُجلبا   فتنازعا مَرِسَ القوى مشزُورا

وُجدَ الأخَيطلُ حين شمَّصه القنا   حَطِماً إذا اعتزم الجيادُ عَثورا

ويفخر بنفسه ، وبمضر ، فهم :

الضاربونَ على النصارَى جزيَةً   وهُدًى لمن تبعَ الكتابَ ونورا

اللهُ فضّلنا وأخزى تغلبـا   لن تستطيعَ لما قضى تغييرا

وإذا وَطِئتُكَ يا أخيطلُ وطأةً   لم يرجُ عظمُكَ بعدهُنَّ جُبورا

أقبِالصليبِ ومارسَرجِسَ تتَّقِي   شهباء ذاتَ كتائبٍ جُمهورا

ثم هجا تغلب ونساءهم هجاء فاحشاً ختمه بقوله :

قبحَ الإلهُ نُسيَّةً مِن تغلبٍ   يَجعلْنَ مِن قِطعِ العَباءِ خُدورا

لم يجرِ مُذ خُلِقتْ على أنيابها   ماءُ السواكِ ولم تمسَّ طَهورا

إنا نصـدِّق بالذى قلنا لكم   ويكونُ قولك يا أخَيطلُ زورا[1]

٦ — وقال الأخطلُ يهجو قيساً وزُفَر بن الحارث ويذكر فراره يوم المرج ويفتخر بقومه وبصبرهم فى ذلك اليوم :

أعاذلَ نعم قومُ الحربِ قومى   إذا نزلَ الملمّاتُ الكِبارُ

رَبيعة حين تختلف العوالى   وما بى إن مدحْتُهم ابتهـار

---

(١) ص ١١٩ وماوليها .

و يستمر فى فخره بالكرم ، والشجاعة ، والنجدة حتى يقول :

شفيتُ النفسَ مِن أشرافِ قيسٍ ... وذلكَ عنكَ من قيسٍ جُبارُ
أذاقونا منَ ٭ أسنتهم وذاقوا ... فكيفَ رأيتَنا صرنا وصاروا
لعمرِ أبيكَ والأنباء تنمى ... لقد نجَّاكَ يازُفَرُ الفرارُ،(١)

وهكذا حتى يذكر بُجَير بن الحارث بن عُباد وقتله يوم (واردات) بيد مُهَلهل وكان ذلك اليوم لتغلب على بكر فى حرب البَسُوس .

فأجابه جرير :

أتذكرهُمْ وحاجتُك ادِّكارُ ... وقلبكَ فى الظعائن مُستعارُ

فلما نسب فخر بير بوع وفوارسهم، و بقيس وخندف ، و يلحق الفرزدق بالنصارى :

لقد لحقَ الفرزدقُ بالنصارَى ... لينصرُهم وليس به انتصارُ
و يسجد للصليب مع النصارى ... وأفلج سهمنَا ولنا الخيارُ

و يلح على الفرزدق وقومه حتى يختم قصيدته بقوله :

غدرتم بالزّبير وما وفيتم ... فدادينَ يبيتُ لها جُؤار
فما رضيتْ بذمتكم قريش ... وما بعد الزُّبير بها اغترار،(٢)

٧ — وقال الأخطل :

مازال فينا رباطُ الخيل مُعلمةً ... وفى كليب رباط الذُّلِّ والعار
النازلينَ بدار الذلِّ إن نزلوا ... وتستبيحُ كليبٌ محرم الدار

و يهجو جريراً وقومه حتى يقول :

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبهم ... قالوا لأمهم : بولى على النار

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٢٧

(٢) المرجع السابق ص ١٣٦

لا يثأرون بقتلاهم إذا قُتِــلوا ولا يكرّون يوماً عنـد إجحارِ
هلاّ كفيتم معدًّا يومَ مُعضِلةٍ كما كفينا معداً يومَ ذي قارِ[1]

ويوم ذى قار لبكر خاصة على الأعاجم ، ويذكر يوم الكلاب الأول وموقفهم فيه ، وبأس قومه وكرمهم ، ويعير جريراً بأمه .

فأجابه جرير :

حيُّوا المقامَ وحيُّوا ساكنَ الدارِ ما كدتَ تعرف إلاّ بعدَ إنكارِ

حتى إذا نسب انتقل مقتضباً إلى الفخر بقومه موازنة لفخر الأخطل وبأسلوب كأسلوبه :

قومى تميمٌ هم القومُ الذين همُ ينفون تغلب عن بُحبوحة الدار
النــــازلون الحمى لم يُرْعَ قبلَهمُ والمانعون بلا حِلفٍ ولا جار

ويشيد بذكر قيس وقريش ومضر ، ثم يقول :

منّا فوارسُ ذى بَهْدا وذى نجب والمعلمون صباحا يوم ذى قار[2]

ووجه افتخار جرير بذى قار يرجع إلى فرار الربيع بن عتيبة اليربوعى من بسطام بن قيس الشيبانى بعد ما أسرَهُ ، ثم ردّه إبلا من ربيعة على قومه بدل ما أخذ بسطام ، ويذكر رجالات قومه ومآثر نفسه ، ثم يأخذ فى هجاء تغلب :

يا خُزرَ تغلبَ إنى قد وسمتكمُ على الأنوف وسوماً ذاتَ أخبار
ما فيكمُ حكمٌ تُرضَى حكومتُه فى المسلمينَ ولا مستشهدى شار

---

(١) نفسه ص ١٣٤ (٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٣

ويختم القصيدة بهجاء أم الأخطل ، فكانت نقيضته موازية لقصيدة الأخطل في موضوعها ، وتقسيمها ، ومعانيها .

٨ — وقال الأخطل :

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوًى في صرفها غِيَرُ

وأجابه جرير :

قل للديار سقى أطلالكِ المطَرُ قد هجت شوقاً فماذا تنفع الذِكَرُ

وسنفرد لها دراسة خاصة .

٩ — وقال الأخطل :

بئسَ الفوارسُ عند مختلَفِ القنا عِدلا الحمار مُحارب وسَلولُ

ورمى هؤلاء باللؤم والضعف وفضَّل عليهم قومه :

وإذا ترافدت القبائلُ بالقنا فمُحَاربٌ عند الهياج فُلولُ

زحفَ الأراقمُ بالمجاز لوردها كالسيل سالَ بأبطحيه سيولُ[1]

وكان الهجاء هنا مقصوراً على هذين الحيين من قيس عيلان . فأجابه جرير :

وَدِّعْ أُمامة حان منكَ رحيلُ إن الوَداع من الحبيب قليلُ

نسب فيها ووصف رحلته إلى الخليفة :

الله طوَّقك الخلافة والهُدَى والله ليس لما قضى تبديل

ولِّى المكارمَ والخلافة أهلها فالملكُ أفيحُ والعطاء جزيل

---

(١) نفس المرجع ص ١٧٧

ثم التفت إلى الأخطل فجأة فكذبه وفضل على تغلب تميا ، ورماهم بالكفر ونبزهم بالجزية يؤدونها للمسلمين ثم يقول : —

إن النبوة والخلافة والهدى رغمٌ لتغلب فى الحياة طويلُ

خالفتمُ سبلَ النبوة فاخضعوا بجزى الخليفة ، والذليل ذليل

ثم يعيِّره بأسر الهذيل بن هبيرة التغلبى ؛ أسره وأربعة له من البنين يزيدُ ابن حذيفة السعدى يوم ذى بهذا فى بلاد بنى ضبة : —

ماذا ذكرتَ من الهذيل وقدشتا فينا الهذيل وفى شواه كبول (١)

ثم أخذ ينقض على خصمه معانيه المتصلة بقيس وأرهاطها فقال : —

ولقد شفتنى خيلُ قيس منكمُ فيها الهذيل ومالك وعقيل

يشير إلى يوم الكحيل (٢) .

لولا الخليفة يا أخيطل مانجا أيامَ دجلة شِلوك المأكول (٣)

كذبَ الأخيطلُ ما لنسوة تغلب حامى الذمار وما يَغارُ خليل

ثم سخر بفخر الأخطل بالأراقم (٤) فسأله أين كانوا يوم الرَّحوب (البشر) :

أين الأراقم إذ تجرُّ نساءهم يوم الرَّحوب محاربٌ وسلول

أبناؤهن أقل قوم حُرمةً عندَ الشراب وما لهن عقول

إلى أن يقول :

أهلكتَ قومك إذ حضضتَ عليهم ثم انتهيتَ وفى العدو ذحول (٥)

---

(١) نفس المرجع ص ١٨٤ . (٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٨٥ .

(٣) يشير إلى أن عبد الملك أمر الوليد ابنه أن يحمل دماء قيس وتغلب تهدئة للحالة ، وأن يضمن الجحاف قتلى يوم البشر ، ص ١٨٦ .

(٤) ص ١٨٧ حاشية ٤ . (٥) ص ١٨٨ حاشية .

ويختمها بهجاء الأخطل وقومه .

١٠ — وقال الأخطل .

لقد جاريتَ يابنَ أبي جرير عَذوماً ليس ينظرك المطالا
نصبتَ إلى نبلك من بعيد فليس أوان تدخرُ النضالا

ويتعالى على يربوع ، ويرميهم بالهوان ، ونسوتهم بالرجس والفجور .

فأجابه جرير : —

أجدَّ اليوم جيرتك احتمالا ولا تهوى بذى العُشَرَ الزيالا

وبعد مانسب اقتضب الكلام إلى الأخطل فقال : —

رأيتُك يا أخيطل إذ جرينا وجربت الفراسة كنت فالا(١)
وقد نخس الفرزدق بعد جهد فألقى القوس إذ كره النضالا
ويربوع تحل ذرا الروابى وتبنى فوقها عمداً طوالا
فنحن الأفضلون فأىَّ يوم تقول : التغلبى رجا الفضالا

ويفخر بتميم ، وخندف ، ويلتفت إلى تغلب :

لقيتم بالجزيرة خيل قيس فقلتم : مارَ سرجس لا قتالا
فلم أر خيلكم صبرتْ لخيلى ولا أغنتْ رجالكمُ رجالا

ويصور أثر الخمر فى الأخطل وأمه تصويراً قبيحاً ثم يقول : —

تناولْ ما وجدتَ أباك يبنى فأما الخندفى فلن تنالا
لقد لاق الأخيطل خيل قيس فأبرح خيلهنَّ به وطالا

---

(١) ص ١٩٣ وانظر الحاشية

أبعلَ التغلبية لا نطأهـا فلا دنيـا أصبتَ ولا جمالا

وهنا تنتهى هذه النقائض العشرون التى دارت بين جرير والأخطل خاصة ويلاحظ أن الأخطل كان البادىء فيها وكانت مهمة جرير الرد والنقض ، ويلقانا بعد ذلك مناقضة ثلاثية بين جرير والفرزدق والأخطل .

— ٥ —

قلنا فيما مضى [1] إن الأخطل لما بلغه تهاجى جرير والفرزدق أرسل ابنه مالكا إلى العراق ليأتيه بخبرهما ، وكان من ذلك أن فضل جريراً على الفرزدق ، فلما وفد الأخطل على بشر بن مروان بالكوفة سنة اثنتين وسبعين هجرية رشاه محمد بن عمير بن عطارد المجاشعى ليغير رأيه أمام بشر بن عبد الملك ففعل ذلك الأخطل ، وهنا يشتبك الثلاثة ويدخل الأخطل المعركة ، ونظفر بثلاث نقائض تربطها معاً هذا الموقف الطارىء ويبدأها جرير بقوله : —

لِمَنِ الديارُ ببرقةِ الرَّوْحانِ إذْ لا نَبيعُ زمانَنا بزَمانِ

إن زُرتُ أهلكِ لم يبالوا حاجتى وإذا هجرتكِ شفَّنى هجرانى

وكان نسيبه رائعاً حقاً ، وقصيدته قوية جميلة ، أحسن لها اختيار البحر والقافية وبدأ المناقضة فكان حراً طليقاً ، وجمع فى الهجاء بين الأخطل والفرزدق والبعيث وعمرو بن لجأ التيمى وتناول موضوعه شاملا ، فالتحم مع الفرزدق أولا ونبزه بالزبير

---

(١) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤ و٨٧٩ والأغانى جـ ١١ ص ٦١ و جـ ٨ ص ٦٢ و ٧٢ و ٣١٥ ، ونقائض جرير والأخطل ص ١٩٢ .

وجعثن وأعينَ بن ضُبَيعة[1] وضمَّ إليه القرينَ وهو عبد الله بنُ حَكيم المجاشعي ومحمد بن عمير وفخر عليه بقومه وذكر رجال قومه و بعض أيامهم كيوم طِخفة[2] :

أنسيت ويلَ أبيكَ غدرَ مُجاشع ... ومجرَّ جِعْثِنَ ليلةَ الميدان
ونَسيت أعينَ والرِّبابَ وجارَكم ... ونوارَ حيث تصلصلَ الحِجْلانِ
لما جَبُنْتَ كفى الثغورَ مُشيَّعٌ ... مِنَّا ، غداةَ هُزِمتَ ، غيرُ جبان

فلما أجهز على الفرزدق التفت إلى الأخطل ففضل بكراً على تغلب :

بكرٌ أحقُّ بأنْ يكونوا مَقنعاً ... أو أنْ يَفوا بحقيقةِ الجيرانِ
قتلوا كليبكم بِلِقحةِ جارهم ... يا خُزرَ تغلبَ لستم بِهِجانِ
والتغلبي على الجواد غنيمةٌ ... والتغلبيةُ مَهرها فَلْسانِ

ثم وصل إلى قضاه الأخطل بينه وبين جرير في فنِّ الشعر فأبطلَ حكمَه واحتقر دينه :

يا ذا العَبايةِ إنَّ بشراً قد قضى ... ألا تجوز حكومة النشوان
فدعوا الحكومة لستم من أهلها ... إن الحكومة في بني شيبان
قبحَ الإلهُ من الصليب إلهَهُ ... واللابسين بَرانِسَ الرُّهبان

ثم يفضل عليهم قيساً بمجدها ، وإسلامها ، وأيامها على تغلب ، ويفخر بقومه ما شاء له الفخر :

ما زال عِيصُ بني كليبٍ في حِمًى ... أشِبٍ أَلفَّ مَنابت العصيان
الضاربون إذا الكماة تنازلوا ... ضَرباً يَقدُّ عواتقَ الأبدان

حتى ينتهي معتزاً بقومه و بقيس ويختمها بقوله للأخطل :

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٢٠٢

(٢) ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

ما زالَ منزلُنـــا لتغلبَ عاليا ... واللهُ شرّفَ فوقَهم بُنيــانى
فاقبِضْ يديكَ فإننى فى باذخ ... صَعبِ الذُّرى متمنِّعِ الأركانِ

وقال الفرزدق يردّ على جرير :

يابنَ المراغة والهجاءُ إذا التقتْ ... أعنــاقُه وتماحكَ الخَصمانِ(١)

فلا ينسب وإنما يهجم على موضوعه ، ويأخذ فى تفضيل تغلب والعلوّ بها على جرير ويشيد بإغارة الهذيل التغلبى على يربوع يوم إراب وآثاره فيهم وإذلال نسائهم :

كانَ الهُذَيلُ يقودُ كلَّ طِمِرَّةٍ ... دَهماءَ مُقْرَبةٍ وكلَّ حِصــانِ
يقطعْنَ كلَّ مَدًى بعيدٍ غَوْلُهُ ... خَبَبَ السباعِ يُقدنَ فى الأرْسانِ
وردوا (إرابَ) بجحفَلٍ من تغلبٍ ... لجبِ العشىِ ضُبارِكِ الأركانِ

وهكذا يستمر حتى يصلَ إلى الفخر بمآثر تغلب :

فاسأل بتغلبَ كيفَ كانَ قديمُهم ... وقديمُ قومِــكَ أولَ الأزمانِ
لولا فوارسُ تغلبَ ابنــةِ وائلٍ ... نزلَ العدوُّ عليكَ كلَّ مكانِ
حبسوا ابن قيصرَ وابتنوا برماحهم ... يومَ الـكُلابِ كأفضلِ البُنيانِ
قومٌ همُ قتــلوا ابنَ هندٍ عنوةً ... عمرًا وهم قسطوا على النعمانِ(٢)

وقد كان الفرزدق هنا يفضل تغلب على فرع من تميم ممــالأة للأخطل على خصمه ونكاية فى قيس عيلان ، فمدح تغلب وهجا جريراً . وكان من الطبعى

---

(١) يقول إنما يكون الهجــاء إذا التقت أعنــاقه وجد الشــاعران وتغاير فى شعرهما ؛ ص ٢١٣ الشرح والحاشية

(٢) نقائض جرير والأخطل ص٢١٧

أن ينهض الأخطل بمدح بنى دارم قوم حليفه الفرزدق وهجاء جرير وقومه :

بَكرَ العواذل يبتدرن مَلامتى ... والعــــاذلون فكلّهمْ يلحانى

فقد أعدَّ نفسه بالنسيب ، والفخر بشيمه ، وفرس صيده ، ثم اتصل بخصمه فعجب من تهجمه عليه ، وتعرضه لخصومته ، وأخذ فى هجائه :

قَبح الإله بنى كلَيب إنهـــم ... لا يحفظون محارمَ الجـــيران

قوم إذا نفخ الحقـبن بطونهم ... لم ينزعوا بقـــوارع الفُرقان

أجرير إنك والذى تسمو له ... كأسيفة فخرت بحدج حَصَان[1]

ثم يأخذ فى تفضيل دارم على يَربوع فيتدخل بين قبيلَى تميم فى سبيل الفرزدق وقومه :

تاجُ الملوك وصِهرُهم فى دارمٍ ... أيامَ يَربوع مــــــع الرُّعيانِ

إخسأ كليبُ إليك ، إن مجاشعاً ... وأبا الفوارس نهشلا أخوانِ

قوم إذا خطرت عليك قرومُهم ... طرحوك بين كلا كلٍ وجِرانِ

ثم يسخر بنسيب جرير فيقول :

أنَسيتَ قتلى بالكُلاب وحابسٍ ... وبكيتَ ويحكَ بُرقةَ الرَّوْحانِ[2]

ودَّت تميمُ بالكلاب لوَ انها ... باعت هنـاك زمانها بزَمانِ

وهنا تنتهى النقائض ، ويتم عرضُ هذا الديوان عرضاً مبتسراً ، فلنتركه إلى نقطة أخرى تكميلية .

---

(١) نفس المرجع ص ٣٢٢ (٢) نفسه ص ٣٢٤ .

— ٦ —

تلك هى دراسة نقيضتين دراسة خاصة لتكون نموذجاً مقارباً لدرس هذا الفن دراسة تاريخية ، اجتماعية ، فنية كما فعلنا ذلك فى الفصل الماضى . وهاتان هما قول الأخطل :

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوًى فى صرفها غِيرُ (١)

وقول جرير :

قل للديار سقى أطلالَكِ المطرُ قد هِجتِ شوقاً فماذا تنفع الذِّكَرُ (٢)

ولما كان الأخطل هو البادى، فإنا نتخذ نقيضته أصلا ثم نطبق عليها نقيضة جرير ، متوخين الإيجاز تاركين المقدمات التى مرت فى الفصول السابقة .

(١) كان النسيب هو الفن الذى يحتل مطلع القصيدتين ويتساوى عندهما فى عدد الأبيات ، فهو طويل عندهما فى مثل هذا الوضع التقليدى وهو لذلك يدل على تشبث وعناية ممتازة .

إلا أن الأخطل يمتاز مع ذلك فى فنه هذا بأشياء : منها أنه أضفى عليه من خمرياته ما جعله ذاهلا ، ثم أضاف إلى ذلك احتمال لوعته أو إصابته بالسحر ، وقد عنى بهذه الخمر فأجاد وصفها وعتقها متأثراً فى ذلك بالأعشى سواء فى إحلال الخمر ديباجة القصيدة وفى تعتيق الخمر وكرمها . ومنها تتبعه المسافرات على مذهب زهير وتأثرهن حتى بلغن مُرْتَبعهن ، وربما زاد على زهير ما أصابه من هذه الرحلة من حزن وبكاء ، ومنها ما وصف به النساء وطبيعتهن التى تقوم على الدَّلّ والعزوف عن المشيب ، والعبث بالرجال ، مستفيداً من عَبيد بن الأبرص .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٨ (٢) نفس المرجع ص ١٦٦ .

وقد ظهرت الصفة التقريرية فى أسلوب الأخطل ، نرى ذلك فى إحكام العبارة وتجويد الصورة ، وتنويع المشبه به وتأكيد الفكرة ، وكثرة الأوصاف ، ثم تجد نسيبه خالصاً لم يخلطه بفن آخر كالهجاء وأخيراً تخلص تخلصاً لا بأس به إلى مدح الخليفة حيث قال : —

وقعنَ أُصْلاً وعُجناً من نجائبنــا   وقد تُحُيِّنَّ مِن ذى حاجة سَفَرُ
إلى امرىء لا تعرِّينا نوافِلُهُ   أظفرهُ الله ، فليهنا له الظفرُ

أما جرير فـكان فى فنه هذا شاعراً عادياً ذهب مذهب الأقدمين عامة من الدعاء للديار بالسقيا ، وذكر الماضى ، ثم وقف عندها يودّع السَّفْرَ بقلبه وينظر إليهن من بعيد فلم يتابعهن كالأخطل حتى بَعُدْنَ وذهبت بهن السبيل ، وكان أشد حزناً من صاحبه لهذا الفراق الذى شغله وأشجى قلبه حتى أجرى حواراً رقيقاً حول هذا الحزن الشديد : —

إنّ الفؤادَ مع الظُعن التى بَكَرتْ   من ذى طلوح وحالت دونها البَصَرُ
قالوا : لعلك محزون ، فقلتُ لهمْ:   خلُّوا الملامة لا شكوَى ولا عِذَرَ

عُنِى جرير بالديار التى وقف عليها ، ولـكنَّ الأخطل عُنِى بمن رحلوا عن الديار ، وكانا مَعْنِيَّينِ معاً بسبب الرحلة والرحيل إلى المرتبع بعد جفاف الديار ، ولعل جريراً لمــا وجد الأخطل حائراً لا يتبين أوان الرحلة إذ يقول : —

خف القطين فراحوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوًى فى صَرْفها غِيَرُ

تنبه هو فَعَيَّنَ وقت الرحيل ، وأكده ، ونبه على عدم جَدْوَى الإشفاق والجزع الذى يقع فيه المحبون : —

نادَى المنادى ببين الحىّ فابتكروا   معا بُكوراً فما ارتابوا وما انتظروا

حاذرت بينهمُ بالأمس إذْ بكَروا منّا وما ينفع الإشفاق والحـــذَر

ثم نجد جريراً يخلط نسيبه هذا بهجاء الأخطل وقومه إذا برّأ السفرَ من تغلب فلم يكسُهم عباء الموصل الذى يلبسه التغلبيون : —

هل تُبصران حُمولَ الحىِّ إذا رُفِعَتْ حيًّا بغير عَباء الموصـــل اختدروا

ثم يقتبس من الأخطل هذا الشطر و بغير موقعه « يابُعدَ مَنظرهم ذاك الذى نظروا » هو هنا نسيب ، ولـكنه هناك هجاء وسخرية ومع ذلك فلم يتكىء جرير على غيره . و يمتاز جرير كذلك بجمال الطبع ، ورقّة الأسلوب ، و إن لم يحكم فنه ، و ينسقه تنسيق الأخطل ، فشعر جرير هنا فيه انفعال الشاعر المضطرب السريع ، وشعر الأخطل فيه طابع الصانع المجوّد المتئد ، ومع ذلك ، فإن الطبع الشعرى عند جرير أوضح منه عند الأخطل . . . ذلك فى النسيب .

(ب) وقد انفرد الأخطل بمدح الخليفة و بنى أمية ، وهذا طبعى إذا كان الأخطل ، كما قلنا ، شاعرَ الحكومة الرسمى ، وحليفَ الأمويين .

قد جمع فى مدحه بين مذهبين : جاهلى قديم معروف وهو المدح بالـكرم ، والشجاعة ، واليُمْن ، والحزم ، ومضاء العزيمة ، مستخدماً فى ذلك صوراً وعبارات بيانية محكمة من كناية ، وتشبيه ، وتفريع ، واستعارة ، و إسلامى يتصل بالخلافة وحسن السياسة ، و إخضاع الثائرين ، وسعة السلطان ، وتدبير الفتوح ، وقد ظهر المذهب الثانى فى ظل هذه الـكلمة « أمير المؤمنين » . أما مدحه بنى أمية فقد ظهر فيه الطابع الإسلامى أكثر ؛ فهم أسرة ملكية يحفّون بعبد الملك ، و يرجعون إلى محتد كريم ، يجتمعون على الحق ، أطهار صُبُر ، حسنو الحيلة ، ذوو حظ جليل لم يبطروا بهذا الملك بل أحاطوه بالرهبة وفضائل الشيم .

وقد أجاد الأخطل هذا الفن حتى صار مثلا فى الجزالة والإحكام والتصوير

الفنى وموطن الغبطة من الخلفاء ، ظهرت فيه شخصية الأخطل الفنية واضحة ولا سيما أنه قائم على معان حقيقية فالأمويون معروفون وبخاصة كبارهم بحسن السياسة والحزم ومضاء العزيمة والنزعة العربية القوية ، ولعل الأخطل فى مدحه هذا أشعر من صاحبيه بل أشعر الأقدمين جميعاً إلى آخر القرن الأول . ولم نجد لجرير مدحاً إلا ما لابس الفخر ، فكانت من ذلك معان أضفاها على قيس عيلان ، وقريش ، والأنصار ، وهى قليلة على كل حال : —

يَحمى الذينَ ببطحاوَى مِنّى حَسَبى تلكَ الوجوه التى يُسقى بها المطرُ[1]
أعطوا خُزَيمةَ والأنصار حكمهم والله عزّز بالأنصار من نَصروا[2]

الأبيات . وهى لا تصور فن المدح عند جرير إذا لم تُسق لهذا الغرض الرئيسى ولعلها فى جملتها صورة جاهلية ما عدا هذا البيت فى الأنصار ، ولعله رد على حملة الأخطل على الأنصار منذ عهد معاوية ويزيد إلى عبد الملك : —

بنى أميـــة قد ناضلتُ دونكم أبناء قوم همو آوَوا وهم نصَروا

وليس هناك وجه للموازنة فى باب المديح إذا لم يشترك فيه جرير فلنتركه .

(ج) والفخر عند الأخطل ضئيل هزيل لا يعتمد على مجد قديم ، ولا أصل حديث ، ولعله بالاستجداء أشبه ، فهو أولا امتنان على الأمويين بموقفه معهم من الأنصار : —

بنى أمية قد ناضلتُ دونكم أبناء قوم هم آوَوا وهم نصَروا
أفحمتُ عنكم بنى النجار قد علمت عُليا مَعدٍّ وكانوا طالما هدروا
حتى استكانوا وهم مِنّى على مَضَض والقول ينفذ مالا تنفذ الإبَرُ

---

(١) يعنى قريش البطاح .
(٢) خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . ولعله يريد مضر واليمن .

وهذا الشطر لاخطر له إذ كانت حوادثه أيام البيت السفيانى لا المروانى ثم هو امتنان على الرغم من قوة أسلوبه ، ثم هو ، ثانيا ، نُصح وإيقاع ، فالأخطل يحذّر عبد الملك من القيسية وزعيمها زُفر بن الحارث ويذكر معونة تغلب لأمية يوم المرج ، وقتل عمير بن الحباب السلمى يوم الحشّاك ، حتى خضعت قيس للخليفة : —

بنى أميّةَ إنى ناصحٌ لكمُ　　فلا يبيتنّ فيكم آمنا زُفَرُ
واتخذوه عَدُواً إن شاهدَه　　وما تغيّبَ من أخلاقه دَعُرُ
إن الضغينةَ تلقاها وإن قدُمت　　كالعَرِّ يكمن حيناً ثم ينتشر

ولعل فضل خضوع القيسية راجع إلى عبد الملك ، فالأخطل يدعى ماليس حتى اضطر أخيراً إلى هذا المعنى العام : —

وما سعى فيهمُ ساعٍ ليدركنا　　إلا تقاصر عنّا وهو مُنبهرُ
وقد أصابتْ كِلاباً مِن عداوتنا　　إحدى الدواهى التى تُخشى وتُنتظَر

أما جرير فقد جلّى فى هذا الضرب ووجد من مآثر قيس وتميم مادة قديمة وحديثه أحسن الاعتماد عليها ، والاحتجاج بها ، وبزّ أخره من الادّعاء والامتنان ، ولعل الفخر والهجاء هما قنا جرير فى نقيضته .

افتخر جرير على الأخطل بعدة أيام لتميم على غيرهم كيوم (طِخفة) ليربوع على النعمان بن المنذر ، ويوم (ذى نجب) ليربوع على كندة ، ويوم (الإياد) ليربوع على بكر ، ويوم (ذى بَهدا) لتميم على تغلب ، ثم يوم (البِشر) لقيس على تغلب ويوم (ما كسين ، لقيس على جُشم من تغلب ، وذلك مقابل يوم (الحشّاك) لتغلب على قيس وقد افتخر به الأخطل ، قال جرير : —

إنّا بِطخفةَ أو أيام ذى نجبٍ نعم الفوارس لمّا ابتلّت العُذَرُ
لولا فوارسنا فوارس يربوع بذى نجبٍ ضاقَ الطريق وأعيى الوِرد والصدر
إنْ طاعنوا الخيلَ لم يُشووا فوارسها أو نازلوا عانقوا الأبطال فاهتصروا
هل تعرفونَ بذى بهدا فوارسَنا يوم الهُذَيلُ بأيدى القوم مُقتسَر
فما منعتمْ غداة البِشر نِسوتكم ولا صبرتم لقيس مثل ما صبروا

ثم يفخر بقيس، وخِندف ، وقريش، الأولون حلفاؤه ، وخندف أصل مضر الذى يجمعهم مع قيس وقريش ، وأما قريش فهم قبيل الخلافة والنبوة وكثيراً ما احتكم إليهم شعراء النقائض كما قدمناه ، ثم يفخر بالدين صريحاً أو إشارة فيقول :

قيسٌ وخندف أهل المجد قبلكم لستم إليهم ولا أنتمْ لهمْ خَطر
يحمى الذين ببطحاوَى مِنًى حسَبى تلك الوجوه التى يُسقى بها المطر
ماعدّ قوم و إن عزوا و إن كرموا إلا افتخرنا بحق فوق ما افتخروا
نرضى عن الله ، إن الناس قد علموا أنْ لَنْ يُفاخرنا من خلقه بَشر

ولعل حديث جرير عن قريش إنما كان مناظرة لاحتفاء الأخطل بقريش قبيلة عبد الملك بن مروان ، إذ كانت على كل حال ملحوظة المكانة الدينية والسياسية ولا سيما بعد الإسلام وذلك قول الأخطل : —

فى نبعةٍ من قريش يعصبون بها ما إن يُوازَى بأعلى نبتها الشجر

فإذا تقدمنا فى هذا القسم وجدنا المناقضة تأخذ لوناً طريفاً يكاد يكون وطنياً ، فالأخطل ينفى قيس عيلان عن بلاد الجزيرة مجال المنافسة الاقتصادية بين قيس وتغلب ، وكان الحديث ، منصبا على بنى سُلَيم خاصة رهط عُمير بن الحباب قال الأخطل :

فأصبحتْ منهـمُ سِنجار خالية ... والمُحلبيَّات فالخابور فالسُّرَر
كرُّوا إلى حَرَّتَيهم يعمرونهما ... كما تَكُرُّ إلى أوطانِهـا البقر
فالتفتوا وهمْ يجنون حنظلهم ... إلى الفُرات فقلنا : بُعداً مانظروا

فأبى جرير فحبس صاحبه فى بلاد الجزيرة مغيظاً مُحنَقاً ، ونفاه عن بلاد مضر أنجاده وأغواره إذا كان الأخطل تغلبياً من ربيعة ، قال جرير : —

موتوا من الغيظ غمّاً فى جزيرتكم ... لن تقطعوا بطنَ واد دونه مُضَرُ
إنى نفيتك من نجد فما لكم ... نجدٌ وما لك من غور به حجر

وهكذا استطاع جرير أن يظفر بالأخطل فى الفخر ، وكان فيه أصيلا مجلياً ، لا مدّعيا ولا ممتنا مستجديا .

(د) وقد شغل الهجاء حيّزاً كبيراً فى هاتين النقيضتين وظهر فيه التحدى والتسابُّ ووقف به كل للآخر بالمرصاد ينهشه هو ومن يتصل به ، وتعدى الأمر إلى النساء وتصويرهن صوراً قبيحة شائنة فيها من سمات الفقر ، والفحش ، والخمر ، والدنس وإن كانت دون ما وجدنا فى نقائض جرير والفرزدق .

هجا الأخطل قيس عيلان عامة واختص بنى سليم منها بنصيب خاص ، فرماهم بالغدر ، والضلال ، وكفر النعمة حتى زالت عنهم ونفوا من بلاد الجزيرة : —

فلا هدى الله قيسا من ضلالتهم ... ولا لعاً لبنى ذكوان إذ عثروا
ولم يزل بسُـليمٍ أمر جاهلها ... حتى تعايا بهـا الإيراد والصدَر
حتى أصاب سُلَيما من عداوتنا ... إحدى الدواهى التى تخشى وتُنتظر
كانوا ذوى إمّةٍ حتى إذا علِقت ... بهم حبائل للشيطان وابتهروا
صُكُّوا على شارف صعب مراكبها ... حصّاء ليس لها هُلب ولا وبر

ويستمر ينفيهم حتى عن قيس نفسها ويمتن على الخليفة بقتلهم عمير بن الحباب السلمى يوم الحشاك ويصف ما حل به ساخراً شامتاً : —

يُعرّفونك رأس ابن الحباب وقد ... أضحى وللسيف فى خيشومه أثر
لا يسمع الصوتَ مُستَكّاً مسامعه ... وليس ينطق حتى ينطق الحجر
أمست إلى جانب الحشاك جيفته ... ورأسُه دونه اليحموم والصور
يسأله الصُّبْرُ من غسّان إذ حضروا ... والحزنُ : كيف قراك الغِلْمَة الجشَرُ

ثم يتقدم إلى زفر بن الحارث الكلابى وفساد خلقه ونفاقه الذى سرعان ما تبدو آثاره ، وذلك حين مال الأمويون إلى الصلح مع القيسية إقراراً للأمن فى بلاد الدولة الإسلامية ، ويذكر معه زفر بن الحارث السلمى ، جاهل سليم ، على حد تعبير الأخطل : —

بنى أميةَ إنى ناصح لكمُ ... فلا يبيتنّ فيكم آمناً زُفَر
واتخذوه عدواً إن شاهده ... وما تغيّب من أخلاقه دَعَرُ
ولم يزلْ بسُليم أمر جاهلها ... حتى تعايا بها الإيراد والصدَر

فيتقدم إليه جرير ليخزيه بذكر هذين الزعيمين القيسيين وما نالا من تغلب فى أيام قيس على تغلب جامعاً بين الفخر بقيس وهجاء تغلب فيقول : —

إنى رأيتكمُ والحقُّ مُغضبةٌ ... تخزَون أن يُذكَرَ الجحّافُ أو زُفَرُ
قوماً يرُدُّون سَرح القوم عادية ... شُعْثَ النواصِى إذا ما يُطرَدُ المكرُ
قادُوا إليكم صدورَ الخيل مُعلَمَةً ... تَمشى الطِّمانَ وفى أعطافها زَوَرُ
كانت وقائعَ قُلنا لن يُرى أبداً ... من تغلب بعدها عينٌ ولا أثرُ

وكانت طريقة المناقضة هنا هى التوجيه إذ فسر كل ما يتصل بزفر والجحاف تفسيراً ملائماً لموقفه .

ثم نجد جريراً يرد على الأخطل ما قال فى قيس عيلان : —

ضجُّوا من الحرب إذ عضَّت غوارَبهم   وقيسُ عيلان مِن أخلاقها الضجَرُ
ما إن سعى منهمُ ساعٍ ليدركنا   إلا تقاصرَ عنَّا وهو مُنبهِرُ

فقال جرير : —

هلاَّ سكتُّمْ فيخفَى بعضُ سوءتكم   إذ لا تَغيَّرُ فى قتلاكُم غِيَرُ
فما منعتُم غداةَ البِشْرِ نِسوَتكمْ   ولا صبرتم لقيس مثل ما صبروا
تهجون قيساً وقد جذُّوا دوابرَكم   حتى أعزَّ حصاكَ الأوسُ والنَّمِرُ

يُعَيِّر تغلب بما نكَّل بهم القيسيون وينصح لهم بالعدول عن مهاجاتهم والتسامى إليهم .

ويلتفت الأخطل إلى كليب بن يربوع ويختص بنى غُدانة اليربوعيين بنصيب خاص من هجائه المقذع ، فيقول فى الأولين : —

أمَّا كُلَيبُ بنُ يربوع فليس لهم   عند التفارُطِ إيرادٌ ولا صَدَرُ
مُخلَّفون ويقضى الناسُ أمرَهمُ   وهم بغَيبٍ وفى عمياء ما شعروا
مُلَطَّمون بأعقار الحياضِ فما   ينفكُّ من دارمىٍّ فيهمُ أثرُ
على العيارات هدَّاجون قد بلغت   نجرانَ أو بلغت سوآتِهم هَجَرُ
الآكلونَ خبيثَ الزادِ وحدهمُ   والسائلون بظهر الغيب : ما الخبر

فرمى كليباً بالهوان ليس لهم مشاركة فى تدبير الأمور، يقضى الناس فى شئونهم دون أن يعرفوا منها أمراً ، ذليلون مؤخرون ، يحتكم فيهم بنو دارم ويستذلونهم ، يركبون الخير ويعشون الليل للسرقة والفجور ، بلغت سوآتهم الآفاق ، بخلاء

خبيثو الزاد لا يحضرون المنتديات حيث يجتمع الأعيان وتدبر الأمور .

فنهض جرير يرمى بنى تغلب بنحو هذه الأوصاف ويزيد شؤمهم ، ولؤمهم، وتقاليدهم الدينية : —

أرجو لتغلبَ إذ غبَّتْ أمورهمُ ... ألا يُبارَكَ فى الأمر الذى ائتمروا

خابَت بنو تغلب إذ ضلَّ فارُطهم ... حوضَ المكارم ، إن المجد يُبْتَدَر

كانت بنو تغلب لا يَعْـلُ جدُّهم ... كالمهلَكين بذى الأحقاف إذدُمِروا

صبَّتْ عليهم عقيمٌ لم تَزل بهم ... حتى أصابهم بالحاصب القَدَر

تسربلوا اللؤم خَلَقاً من جلودهم ... ثم ارتدوا بثياب اللـؤم واتّزروا

رجسٌ يكون إذا صلوا ، أذانُهم ... قرع النواقيس لا يدرون : ما السوَر

الطاعنون على العمياء إن طعنوا ... والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

والآكلون خبيث الزاد وحدهم ... والنـــازلون إذا واراهم الخمر

لم يكن جرير موفقاً فى نقضه فلم يزد كثيراً على ما رماه به خصمه ، وكان أسلوبه فى المناقضة هنا قلباً أو رداً لمعانى الأخطل عليه ، ولم يبتكر شيئاً ذا خطر .

فإذا وصـل الأخطل إلى بنى غُدانة بن يربوع رهط وكيع بن أبى ســود وإخوة كليب بن يربوع شبههم بصغار الغنم المزنَّمة القـذرة ووصفهم بالذل ، والبخل ، والقذارة و نساءهم بالرجس والدنس : —

وما غُدانةُ فى شىء مكانَهمُ ... الحابسو الشاء حتى يَفضُلَ السُّؤَرُ

يتصـــلون بيربوع ورِفدُهمُ ... عنـــد التفاخر مغمورٌ ومحتقَرُ

صُفر اللحى من وَقودالأدخِناتِ إذا ... ردَّ الرِفادَ وكفَّ الحالبِ القِرَر

ثم الإياب إلى ســودٍ مُدَنَّسةٍ ... لا يستحِين إذا ما احتكَت النُقَر

وأقسمَ المجـــدُ حقاً لا يُحالفهم حتى يحالفَ بطنَ الراحةِ الشَعَر

ولم يسكت جرير عن نساء تغلب كما لم يسكت عن بعض سماتهم الاجتماعية من خمر وميسر : —

والتغلبية فى ثِنْيَيْ عباءتهـــا بَظْرٌ طويلٌ وفى باع ابنها قِصَر

من كل مُحْفَرَّةِ الأنياب فَقْرها لخم الخنانيص يَغلى فوقه السَكَر

الضاحكون إلى الخنزير شهوته يا قُبْحَتْ تلك أفواهاً إذا كشروا

والمقرِعون على الخنزير مَيْسِرَهم بئس الجزورُ و بئس القوم إذ جزروا

أحياؤهم شَرُّ أحيـــاء وألأمه والأرض تلفظ موتاهم إذا قُبِروا

ثم يختم نقيضته ببيت كبيت الأخطل معنى و إن تقابلا فإذا كان المجد بريئاً من بنى غدانة فإن اللؤمَ حليف تغلب : —

يا خُزرَ تغلبَ إن اللؤمَ حالفكم ما دام فى مارِدِينَ الزيتُ يُعتَصَر

(ه) أما عن فن الشاعرين فى هذه المناقضة فيلاحظ أن الأخطل كان حراً فى اختيار البحر والقافية إذ كان هو البادىء فاضطر جرير أن يتابعه فيهما ، وفى إمكان الأخطل أن ينفق من الوقت ما يشاء فى تنميق قصيدته بعكس جرير الذى يجب عليه أن يسرع فى الرد قبل فوات الأوان ، ذلك إلى أن الفرزدق حر فى اختيار الفنون وعفو المعانى والأساليب فلا يجد جرير شيئاً ذا خطر فيردّد أو يولّد أو يقع على أهون المعانى والصُوَرِ وذلك يجعل البادىء أقوى مكانة كما حدث هنا لجاء جرير متخلفاً لولا ما سنده من فخر ممتاز . ويتبع ذلك حرج موقف جرير هنا كما كان محرجاً مع الفرزدق فى الفصل الماضى ، فهو هنا قيسى يرد على شاعر الدولة وليس فى مكنته معارضة السياسة التى استغلها خصمه ، بل كان عليه

مجاملة قيس عيلان مع اضطراب صلتها بالخلافة ، فلما ضاقت عليه المذاهب التجأ إلى الفخر القبلى يتنفس من جانبه . هذا هو الوضع العام أجملناه هنا انفصله فى الفصل الآتى .

و بعد هذا نجمل لـكل شاعر منهما خواصه فى نقيضته :

١ — أحسن الأخطل تقسيمَ قصيدته وتنسيقَ فصولها فجاءت خالية من الاضطراب واختلاط الفنون كما رأيت ، ولـكن جريراً ظهر عنده الاضطراب والخلط بين النسيب والهجاء والفخر كما لم يحسن التخلص . ولا شك أن الأخطل كان يحكم فنه و يتأنى فيه بخلاف جرير ، ور بما كان للرواية أثر فى اضطراب نقيضته كما هو واضح من حاشية هذا الديوان .

٢ — وأما عن الأسلوب ، فالأخطل صَنَّاع ماهر وجرير طبعى عادى ، تجد ذلك فى اختيار الأخطل ألفاظه مثل : خفّ واستُبِدَّ وضمنّتها ، وفى تكوين الجمل ، و إحكام عناصرها بالروابط ، وفى إكمال المعنى وتحديده بكثرة الصفات والصُوَر كما فى وصفه الخمر ووصفه نفسه بأنه مخمور أو معمود أو مسحور ، وفى أخذه خير معانى السابقين وأنسبها ثم هذه الصور البديعة كالتفريع ، وتركيز المعانى فى البيت الواحد فـكان شعره دسماً .

وكان جرير دون الأخطل فى ذلك كله فجاء شعره خفيفاً جميلا ، ور بما كان أسلوبه أدخل فى فن الشعر و بخاصة النسيب والفخر ، ونجد عنده اقتضاب المعانى وقلة الصور فنسيبه دعاء ، فتقرير ، فجدل ، فتقرير ، مما يدل على السجية المطلقة غير المحكمة ، ولا شك أن الصنعة وعبادة الشعر تجعل منه أسلوباً جزلا رصيناً

محبوك الأطراف وهو أسلوب الأخطل ولكنها تحدُّ من جماله لقوة أثر التفكير وضعف سلطان العاطفة فتضعف الموسيقا تبعاً لذلك .

٣ — وقد استوعبت قصيدة الأخطل أكثر فنونه أو كلها فكانت ممثلة لشخصيته الفنية ولكن قصيدة جرير قصرت دون ذلك، فقد رأينا نسيب الأخطل، وخمرياته، ومدحه، وفخره. وهجاءه، ورأينا من جرير نسيبه وفخره وهجاءه دون مدحه ورثائه، فكان الأخطل أوسع أفقاً وأعرض منكباً .

٤ — وقد كان للحياة الإسلامية مظاهرها عند الشاعرين موضوعياً وفنياً، أو خارجياً وداخلياً، ومن الأصل الأول هذه الدولة الإسلامية الجديدة التي نرى عند الشاعرين رسولها، وخليفتها، وأسرها، وقبائلها، وهذه الأحزاب السياسية المؤيدة والمعارضة والتي كان لكل من شاعرينا فيها موقفه المعروف وهذه الحروب الإسلامية بين قيس وتغلب وقد شرحناها فيما مضى، وهذه العصبيات الجزئية داخل القبائل كما كان بين دارم ويربوع وما حالف كلا منهما .

ومن الأصل الثاني هذا الموقف بين الإسلام والنصرانية وكان واضحاً جداً عند جرير، ويتبع ذلك ذكر الرسول ورضاه على المسلمين وسخطه على الكافرين وخروج تغلب عن طاعته وحياتهم في بلاد الجزيرة يؤدون الجزى فكان الرسول مقياساً عند جرير وكان الخليفة سنداً للأخطل، وكانت خمريات الأخطل من فنونه لشيوع تناولها في بيئته مباحة فاتخذها جرير سبة لتغلب وخلق من آثارها صوراً قبيحة لنساء تغلب ورجالهم .

وكلا الشاعرين تأثر بالقرآن الكريم مباشرة وغيرذلك وإن كان تأثر جرير أوضح لإسلامه، وتدينه، ورقة طبعه فذكر الأخطل الصغر،

وتبين الضلالة ، والأثر ، والله ، وخليفته ، ويتهذب أسلوبه ، وتتحضر معانيه[1] .

وجرير يضمن شعره معانى القرآن ، ويذكر السور ، ويشير إلى قصة عاد ويصفيها على تغلب : —

كانتْ بَنو تغلب ، لا يعلُ جدهم … كالمهلكين بذى الأحقاف إذ دمَروا

صُبَّتْ عليهم عقيم ما تُناظرهم … حتى أصابهم بالحاصب القدَر

وذلك قوله تعالى : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » . ذلك إلى رقة أسلوب جرير ، ومهاجمته المسيحية مما يجعل منه رجلا مسلماً ألم بالقرآن وتأثر بأساليبه .

وللاسلام أثر سلبي عند الأخطل خاصة فلم يجرؤ على مهاجمته إذ كان دينَ الدولة التى يحالفها ، ويحتمى بسلطانها ، ويعيش فى ساح خلفائها ، فسد ذلك عليه السبيل أمام جرير فى هذه النقطة .

٥ ـ وقد لاحظنا أثناء الدرس أن جريراً أخذ من الأخطل عدة صور ، وعبارات ، ومعان وسردُ ذلك استحسانها ، أو سبق الأخطل إلى عفوها ، أو لردها عليه ، وقد بينا ذلك أثناء الدرس ولا سيا فى الهجاء حين أعاد جرير فى تغلب ما قال الأخطل فى كليب بن يربوع .

٦ ـ وخلاصة هذا الدرس أن جريراً يمتاز بالفخر فى هذه المناقضة امتياز الأخطل بالمدح من حيث انفراد كل بفن ، ويستويان فى الهجاء والنسيب ،

---

(١) راجع المختار من شعر بشار ص ٩

فكلاهما نال من الآخر وقومه ، وأفحش إلى درجة يساوى بها زميله . وأما النسيب فإن شعور جرير فيه وجمال أسلوبه يوازيان صنعة الأخطل وتعدد صوره .

ويمتاز الأخطل بحسن التقسيم ، وتجويد الأسلوب ، وجزالته كما يمتاز جرير بجمال الأسلوب وخفته ، وعلى كل فإن كان الأخطل أفضل من صاحبه فى هذه المناقضة فإن ذلك لا يعد حكماً عاماً ولا حاسما بينهما .

— ٧ —

ويمكن للدارس هنا أيضاً أن يتابع النظر فى هذه النقائض ليظفر بثمار قيمة تتصل بمواقف الشاعرين، وشخصيتهما الفنية ، وصلاتهما بالأسر والقبائل والأحزاب والدولة ، وبالقدر الفنى لكل من الشاعرين فى هذه النقائض . سيرى ، إن صحت رواية أبى تمام ، أن موقف جرير كان دفاعاً إلا فى بدء المناقضة فكان هجوماً وإن دفعه إلى ذلك انضمام الأخطل إلى الفرزدق فى حضرة بشر بن مروان . ولذلك أثره الموضوعى والفنى كما سبق ، كما كان الأخطل ضعيف الموقف من جانب الدين ، والدولة ، لولا ما احتضنه الأمويون لغرض سياسى أيام معارضة القيسية للدولة ، كذلك يلاحظ أن جريراً ، على الرغم من دفاعه ، كان موفقاً فى كثير من المواطن كالنونية التى هاجم بها الفرزدق والأخطل ، واللامية : —

حَىِّ الغداةَ بِرامةَ الأطلالا ... رَسْماً تحمّل أهلُه فأحالا

وفى اللامية المضمومة : —

ودِّع أمامةَ حانَ مِنك رَحيلُ ... إن الوَداعَ مِن الحبيبِ قليلُ

واللامية الأخيرة : —

أجِدَّ اليومَ جِيرتُك احتمالا ... ولا تَهوَى بذى العُشرِ الزيالا

وغيرها . ذلك إلى ما أشركه مع الفرزدق وغيره فى النقائض الكبرى .

— ٨ —

وإذا وازنا بين هذه النقائض وبين سابقتها التى دارت بين جرير والفرزدق ، استطعنا أن نخرج بعدة نتائج ندوّن بعضها هنا :

١ — كانت نقائض جرير والفرزدق أطول عمرا من زميلتها فإذا فرضنا أنها بدأت سنة خمس وستين وانتهت بموت جرير والفرزدق سنة عشر ومائة كان عمرها خمساً وأربعين سنة ، أما هذه فقد بدأت سنة اثنتين وسبعين وانتهت سنة خمس وتسعين بوفاة الأخطل فيكون عمرها ثلاثاً وعشرين سنة ، وكل ذلك تقدير تقريبى كما قدمنا .

٢ — ويتبع ذلك أن تكون نقائض جرير مع الفرزدق أكثر عددا ، ولكنها مع ذلك كانت أكثر أبياتاً . وأقوى فناً ، وأحفل بذكر الأيام والأحداث والأوصاف ، وذلك لفحولة الشاعرين ، وقوتهما ، ومعرفتهما التامة بدخائل تميم وقيس ، وقرابتهما ، وغزارة المادة التى يقبسان منها فهى سياسة ، وعصبية ، وأيام ، وأحداث ، وضغائن ، ووقوف فى صميم الحياة الإسلامية ودولتها . أما الأخطل ، فعلى كبر سنه كان يعيش مع قومه على هامش الدولة ، وتحت نفوذها ، ولم تكن لقومه مواقف خطيرة فى سياستها العامة ، وأظهر ما كان ، أيامها مع قيس التى هبت فترة ثم سكنت حتى قال بعض النقاد إن الأخطل لم يكن من نجار صاحبيه وإنما تعصبت له تغلب .

٣ — وكان جمع نقائض جرير والفرزدق مصحوبا بعناية واضحة فى تمام القصائد وترتيبها ، بخلاف هذه فقد ظهر فيها الحذف والاضطراب كأن أبا تمام اعتمد على الاختيار كما فعل فى حماسته ، وقد لاحظنا فى هذه النقائض أن

هناك قصائد لجرير فى هجاء الأخطل كانت تستوجب النقض ولكننا لم نجد لها عند الأخطل نقائض[1] كما لاحظنا قصائد للأخطل فى جرير كانت تستلزم النقض ولم نظفر عند جرير بنقائضها[2] ولا شك عندنا أن قسما كبيرا من شعر هؤلاء الفحول ضائع مع الأسف الشديد .

٤ — وفى نقائض جرير والأخطل عناصر جديدة كعنصر الدين الذى ألح عليه جرير وشنع على الأخطل من ناحيته فى حين أن الأخطل وقف أمامه مكتوف اليدين لا يستطيع فيه جدلا ، وكذلك عنصر الخمريات ذلك الفن الذى اختص به الأخطل وجرؤ عليه دون زميليه وكان تلميذ الأعشى فيه وأستاذ أبى نواس ومدرسته ، ومسألة الجزَى التى تؤديها تغلب للدولة الإسلامية فكثيراً ما غمز بها جرير صاحبه ، وكانت شخصية تغلب وأيامها مع قيس عيلان مادة لهذه النقائض وذات مكانة ممتازة فيها إذ كانت هاتان القبيلتان مجال الملاحاة بين الأخطل وصاحبه .

٥ — أما عن شرح هذه النقائض ، فكان مرجواً أن يتناول أبو تمام شرح هذه النقائض شرحاً أدبياً ولكنه لم يفعل ، ولعل ذلك لسببين : أولهما أن هذا الشرح الأدبى لم يكن معروفاً ولا محتاجاً إليه فى تلك الأيام اعتماداً على إدراك العلماء لمغازى هذه النصوص ، وثانيهما أنه تأثر أبا عبيدة فى تناوله نقائض جرير والأخطل فلم يعرض لهذا الجانب الأدبى ، لذلك وجدنا شرحاً لغوياً لهذين الديوانين ناقصاً لا يشفى غليلنا اليوم .

---

(١) راجع ديوان جرير للصاوى ص ٣٠ و ٥٩ و ١٠٦ و ١٤٥ و ١٥٦ و ٣٠٣ و ٣٥٤ و ٣٥٨ و ٣٩٤ و ٤٨٧ و ٤٩٤ و ٥١٣ و ٥١٩ و ٥٤١ و ٥٧٧ و ٥٩٣ .

(٢) راجع ديوان الأخطل ص ٦٥ و ١٥٦ و ٢٠٣ و ٢٢٠ و ٢٧٥ و ٢٧٨ و ٢٨٤ و ٣٩٩ .

ومع ذلك فقد امتاز شرح أبى عبيدة بكثرة لغوياته وغزارتها وإن لم تكن دقيقة دائماً ، كذلك كثرت شروح بعض العبارات عنها فى شرح أبى تمام .

وأما الأيام ، والحوادث السياسية ، والاجتماعية ، والقصص ، والأنساب ، وما إليها فلن يُجارَى فى ذلك أبو عبيدة ، وليس أبو تمام بجانبه شيئاً ، وإن كان يترجح أنه استفاد منه كثيراً .

على أن نشرَ نقائض جرير والفرزدق كان حظها فى النشر خيراً من حظ الأخرى لتعدد أصولها ، وكثرة شروحها ، والدقة فى إصلاحها ، وتوفر طبقة من المستشرقين على العناية بها .

* * *

وإذا كنتُ قد تركتُ النقائض الأولى وفى نفسى منها أشياء ، فإنى أترك هذه وفى نفسى منها أشياء أخرى تتصل بترتيبها ، وفنونها ، وملابساتها السياسية والاجتماعية والأدبية ، وإكمال نقصها ، وشرحها شرحاً أدبياً كافياً .

ومن يدرى فلعل أحد الباحثين ينهض بذلك فيتم ما بدأنا ويتعقبنا فيما عسى أن يكون قد فاتنا فى هذا الباب .

الفصل الثامن

فن النقائض الأموية

— ١ —

نريد بفن النقائض الأموية هذه الخواص التى امتازت بها هذه القصائد فى أرقى عصورها ، ودرجة نُضجها الفنى فى تاريخ الأدب العربى ، وقد قلنا فيما مضى إن هذا الفن بدأ حياته مع طفولة الشعر العربى ، واستقامت قناته قبل الإسلام ، حتى إذا كان عصر البعثة نشطت حياته بين مكة والمدينة خاصة ، وكان أداةً إسلامية عالية الصوت ، بعيدة الأثر ، وكان فى كلا العهدين طوابعه الموضعية والغائية كما رأيت . فلما جاء العصر الأموى توافرت له دوافع وأغراض قوية ، وعوامل جديدة ، قفزت به إلى مستوى ممتاز له خصائصه الفنية .

وهذه الخصائص أو الميزات بعضها خاص بهذا العصر بحيث ينفرد به ، وبعضها غالب عليه كثر فيه ونما نمواً عظيما كالجدل ، والأدب المكشوف ، وتمزيق الأعراض ، وهتك الحرمات ، وبعضها تلوّن فيه ألواناً جديدة كالنسب الذى اختلط بالهجاء ، ومثله الرثاء ، وكالموازنات فى الفخر ، وغير ذلك مما يلى . وسنحاول هنا بيان الخواص العامة لهذا الفن أولا ، ثم ميزات كل من هؤلاء الفحول ثانياً .

وقد ذكرنا فى التمهيد شرائط النقائض عامة ، وطرقها المعنوية ، وكلا هذين يدخل فى كيان النقائض وتكوينها الفنى ، ولكننا فى هذا الفصل نتقدم خطوات أخرى داخلية لنتبين ما أحدثت البيئة الأموية فى فن النقائض مكتفين ببعض

الشواهد معتمدين على متابعة القارئ، دراسته بالرجوع إلى دواوين النقائض التى وصفناها فى الفصلين السابقين .

١ — أول ما يبدو من هذه الميزات ظهور السمات الإسلامية ظهوراً أصيلا فى هذا الفن وإن كان فحوله أقل تأثراً بالإسلام وكتابه من غيرهم كشعراء الخوارج مثلا ، إذ كان من المقرر أن جريراً والفرزدق عاشا عيشة بدوية تقرب من الحياة الجاهلية فيها شراب ، وتساب ، ومفاخرة ، وإشادة بالأحساب الأنساب ، وإذكاء للحمية على تفاوت بينهما فى ذلك ، وكان الأخطل مسيحياً فلم يكن كزميليه فى هذه الخاصة . وكان التأثر منوعاً بين تضمين آى القرآن ، أو أحكام الإسلام أو مسايرة روحه ، والفخر به ، وإنكار ما عداه كالمسيحية وشعائرها ، ودخلت هذه المعانى فى صلب النقائض فخراً وهجاء أو فيما لا يمسهما من نسيب ورثاء . وكان دخولها يبدو مهضوماً واضحاً فى نفوس الشعراء أكثر مما رأيناه فى شعر البعثة المحمدية حينما كانت هذه السمات سطحية أو مصطلحات تتردد على ألسنة الشعراء لم تمتزج بنفوسهم تماماً لجدتها ، ولأصالة المواهب الجاهلية عندهم بحيث يصعب انتزاعها أو تغييرا تاماً .

فإذا رحنا نلتمس الشواهد على هذه الظاهرة وجدناها كثيرة شائعة فى شعر هؤلاء الفحول ، قال الفرزدق فى صدر نقضية له لامية : —

إن الذى سمكَ السماء بنى لنا　　بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول

من قوله تعالى : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها »[1] .

ضربتْ عليكَ العنكبوت بنسجها　　وقضى عليكَ به الكتاب المنزل

---

(١) سورة ٧٩ آية ٢٧ و ٢٨ .

من قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون »[١] .

ويقول فى نقيضة أخرى : —

فإن التى ضَرَّتكَ لوذقتَ طعمَها عليكَ من الأعباء يومَ التخاصمِ

من قوله تعالى : « ثم إنكم يومَ القيامة عند ربكم تختصمون »[٢] .

ولستَ بمأخوذٍ بلغوٍ تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائمِ

من الآية : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكنْ يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان »[٣] .

كما بعث الله النبى محمداً على فترةٍ والناس مثل البهائم

من قوله تعالى فى المائدة : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل » .

وهذه قصة الفيل يتمثلها الفرزدق فى هذه النقيضة متحدثاً عن الحجاج وطغيانه[٤] ومعها قصة ابن سيدنا نوح حين عصى أباه وقال : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصمَ اليومَ من أمر الله من رَحِمَ ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »[٥] : —

فلما عتا الحجّاج حينَ طغى به غِنًى ، قال : إنى مرتقٍ فى السلالم

فكانَ كما قال ابن نوح سأرتقى إلى جبلٍ من خشيةِ الماء عاصم

رَمى الله جثمانه مثل ما رمى عن القبلة البيضاء ذات المحارم

جنوداً تسوق الفيل حتى أعادها هباءً ، وكانوا مُطرَخمِّى الطراخم

نُصرتَ كنصر البيتِ إذ ساق فيله إليهِ عظيمُ المشركين الأعاجم

---

(١) س ٢٩ : ٤١ . (٢) س ٣٩ : ٣١ . (٣) س ٥ : ٨٩ .
(٤) س ١٠٥ . (٥) س : ٤٢ و ٤٣ .

وزعم الفرزدق فى حضرة الحسن البصرى أن شعره مشتمل على أحكام فقهية؛ فقد سأل رجل الحسنَ عن المرأة يصيبها الرجل فى المغازى وهى ذات زوج : أفيحل له غشيانها ولم يطلقها زوجها ، وكان الفرزدق حاضراً فقال : أو ما سمعتَ ما قلتُ فى ذلك ؟ قال الحسن : فما قلت ؟ قال الفرزدق :

وذاتِ حَليل أنكحتنا رماحُنا　　حلالٌ لمن يبنى بها لم تُطَلَّقِ

ونحو هذه الحكاية رويت فى البيت السابق :

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله　　إذا لم تعمّد عاقدات العزائم

ذلك غير الاصطلاحات الإسلامية الكثيرة الواردة فى نقائضه والإشارات إلى قصص القرآن الكريم ، كالصلاة والصوم والحساب والبعث وقصة يأجوج ومأجوج والسامرى، ثم ما لابس الإسلام من خلافة، وإمارة ، وسياسة، ومضرية، وقريش ونحوها، وإن كان تأثره هذا عقلياً أكثر منه قلبياً فإنه كان كثير التحلل من شعائر الدين جريئاً على حدوده منتهكا حرماته .

وكان جرير أشد تأثراً بروح الإسلام وكان لالتحامه مع الأخطل يحمل على المسيحية وينكر شعائرها ، فقد أشار أيضاً إلى قصة أصحاب الفيل حين أرادوا هدم الكعبة : —

لما رأوا جَمَّ العذابِ يُصيبُهم　　صار القُيونُ كَـاقةِ الأفيالِ

ورمى الفرزدقَ والبعيث بالغدر إذ لا يقرآن سورة الأحبار :

إن البَعيث وعبد آلِ مُقاعِسٍ　　لا يقرآن بسورةِ الأحبارِ

وهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود »[1] .

---

(١) نفسه س ٥:١ .

واقرأ رثاءه زوجه تجد روح الإسلام مسيطرة عليه ودعواته واضحة ناطقة :

فجزاكِ ربُّكِ فى عشيركِ نظرةً ... وسقى صداكِ مُجلجلٌ مِدْرارُ
ولهتِ قلبى إذ علتْنى كَبْرةٌ ... وذَوُو التمائم من بنيكِ صِغارُ
كانت مكرَّمةَ العشير ولم يكنْ ... يخشى غوائلَ أمِّ حزرةَ جارُ
ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ... ومع الجمالِ سكينةٌ ووقارُ
والريحُ طيّبةٌ إذا استقبلتِها ... والعِرض لا دنِسٌ ولا خوّارُ
صلى الملائكةُ الذينَ تُخُيِّروا ... والصالحون عليكِ والأبرارُ
وعليكِ مِن صلوات ربِّكِ كلَّما ... نَصبَ الحجيجُ مُلَبِّدين وغاروا(١)

فإذا اشتبك مع الأخطل شنّع بمسيحيّته وشعائرها فقال من نقيضة :

قبح الإلهُ وجوهَ تغلبَ كلما ... شَبحَ الحجيجُ وكبروا إهلالا
عبدوا الصليبَ وكذّبوا بمحمدٍ ... وبجبرئيل وكذّبوا ميكالا(٢)

وسخر بها فى نقيضة أخرى فقال :

أفبالصليبِ ومارِ سَرجِسَ تتّقى ... شهباءَ ذاتَ كتائبٍ جمهورا(٣)

وقال :

مافيكمُ حَكَمٌ تُرْضى حكومتُه ... فى المسلمينَ ولا مستشهدٌ شارِ
قوم إذا جمعوا جمعاً لحجّهم ... صرُّوا الفلوسَ وحجُّوا غيرَ أبرارِ
لم تدرِ أمك بالحكمِ الذى حكمت ... إذ مسَّها سُكرٌ مِن دَنِّها الضارى
تَغلى الخنانيصُ والغولُ الذى أكلت ... فى حاوياءَ ردومِ الليلِ مِجْمارِ(٤)

---

(١) النقائض ص ٨٤٧ .
(٢) نقائض جرير والأخطل ٨٧
(٣) نفسه ص ١٢٥ .
(٤) نفسه ص ١٤٧ .

وقال :

فعليك جزية معشرٍ لم يَشهدوا ... والله أن محمـــداً لرسولُ

تبعوا الضلالةَ ناكبين عن الهُدَى ... والتغلبيّ عن القرآن ضَـــلول

يقضى الكتاب على الصليب وأهله ... ولكلِّ مُـــنزَلِ آيةَ تأويل

إن النبوّةَ والخلافةَ والهدَى ... رَغمٌ لتغلبَ فى الحياة طويل

خالفتمُ سبلَ النبوّةِ فاخضَعُوا ... بجزى الخليفة والذليلُ ذليل (١)

وليس من المعقول أن ينجو الأخطل من تأثير الإسلام وكتابه الكريم وهو يأخذ عن هذه اللغة التى هذبها القرآن ، ويحيا فى بيئة إسلامية تأخذ عليه أقطار دنياه ، ويتلاحى مع زملاء مسلمين ، ويعيش فى بلاط الخلفاء الإسلاميين، ويكاد يكون كزميليه لولا أصل عقيدته المسيحية فدخلت فى شعره الألفاظ والمعانى الإسلامية مدحاً وهجاء فى السياسة والعصبية ، من ذلك قوله فى مدح عبد الملك من نقيضة :

إلى إمامٍ تُغادينـــا نوافـــله ... أظفرَه الله فليهنأ له الظفــرَ

الخائض الغَمر والميمــون طائره ... خليفــة الله يُستسـقى به المطرَ

فى نَبعةٍ من قريش يعصبون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجرُ

حُشْدٌ على الحقّ عيافو الخنا أُنُف ... إذا ألمّتْ بهم مكروهةَ صبروا

وهكذا تجد فى سائر الأبيات كثيراً من معالم الإسلام وشئون حكومته الأموية، ويقول لبنى أسد :

فما خُتِمتْ أكتافكم لِنبُوّةٍ ... وأستاهُكم قد أنكرتْها المنابرُ

---

(١) نفسه ص ١٨٤ .

والحق أن الأخطل كان مغموراً بهذا المحيط الإسلامى فكان يتنفس فيه ويتفاعل معه ؛ حتى ضعفت الصبغة المسيحية فى شعره لولا أبيات نادرة تُعَدُّ أيضاً أثراً عكسياً لهذه الحياة الإسلامية : —

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طوعا ولستُ بآكلٍ لحم الأضاحى
ولست بقائم أبداً أنادى كمثل العير حى على الفلاح
ولكنى سأشربهـــا شمولا وأسجد عند منبلج الصباح (١)

وقد منعه عن مهاجمة الإسلام هذه الحكومة الإسلامية التى تظله وتحميه كما منعه عن مهاجمة مضر أنها أصل قريش والأسرة الحاكمة . وهكذا رأينا الإسلام يبدو فى النقائض بمظاهر شتى طردية وعكسية وكان ظهوره فيها أمراً طبيعياً ليس منه مناص .

٢ ــ وهناك ظاهرة قد تبدو غريبة فى هـذه البيئة الإسلامية القوية هى الإفحاش فى الهجاء، والإقذاع فيـه إلى درجة تشمئز منها النفوس ، وتنكرها الأخلاق الفاضلة ، والتعاليم الدينية ، وتستحى الألسنة أن تردد نصوصها وإن كانت الدراسة العلمية والتاريخية مضطرة أن تتناول كل شىء فيه حتى لا يفوتها عنصر من مقومات هذا العصر الأدبية والاجتماعية ، وكانت هذه الملاحاة والمناقضة تحمل كلا من الشاعرين على الغلو فى هتك حرمات الآخر ، ونهش أعراضه ، والتشنيع بمخازيه ، حقاً أو تخييلا واختراعاً حتى لتعد هذه الصور خطوة جريئة ، وأمراً غريباً فى ظل الإسلام لم تر الجاهلية مثله أبداً إلا إذا صحت أبيات منسوبة لزهير ابن أبى سلمى، على أنها إذا صحت كانت نشازاً أدبياً فى ذلك العصر القديم ، أما

---

(١) ديوان الأخطل ص١٥٤

فى هذه الفترة فكانت المناقضة البذيئة عنصراً هجائياً أصيلا ولا سيما بين جرير والفرزدق . وإذا لاحظ بعض النقاد الأمويين خطر غزل عمر بن أبى ربيعة على نساء الحجاز إذ ذاك فلا شك أن هذا الفحش العراقى كان مسبة شنيعة يستخزى منه النساء والرجال جميعاً . كان خطر الغزل العمرى ناشئاً ، فيما أرى ، عن أنه يوقظ غرائز المرأة ، ويثير شهواتها ، ويغرى الرجال باللهو والعبث . وكان خطر الفحش الهجائى ناشئاً عن تصوير العورات ، واختلاق الشناعات ، والإلحاح فى وصفها ، وسرد تفاصيلها بلغة مكشوفة ، وأسلوب واقعى ، ليس أسلوب الجاحظ فى النثر شيئاً بجانبه ، فعاد قبيحاً شنيعاً ، كان عمر يحبب المرأة إلى رجل ، وكان الهجاءون يبغضونها إليه ، وقد نال جعثن أخت الفرزدق وأم جرير من ذلك أذى كثير ، وإنا لنرمز إلى شىء من شواهد ذلك ، وعلى من أراد تبين هذه الصورة رجع إلى دواوين الفحول ونقائضهم ففيها حقائق ما وصفنا ؛ هذه أم جرير يقول فيها الفرزدق . —

أزرى بجزيك أن أمك لم تكن ... إلا اللئيم من الفحوله تفحَلُ
قبح الله مقرة فى بطنها ... منها خرجت وكنت فيها تحمَلُ
نشفت مجزيه أبيك فهى خبيثة ... وبها إلى قعر المقرة يفصل
يبكى على دمن الديار وأمه ... تعلو مصبه العبير . وتسفل (1)

وهذه حقة امرأة من غدانة من يربوع يقول فيها الفرزدق : —

وقفت لتزجزنى فقلت لها اركى ... ياحق أنت وما جمعت الأسفلُ
وكشفت . . . .

---

(1) النقائض ص ٢٠٣ .

. . . .

وتركت أمك ياجرير كأنها . . . .

وكأنما . . . . النباح فتيتل (١)

ويقول فى نساء بنى كليب : —

سُودُ المحاجرِ سيِّئ لبَاتُها من لُؤمِهِنَّ غيرَ حَلالِ

يعوين مختلط الظلام كما عوت خلف البيوت كلابها اِعظال

يرفعن أرجلهن عن مفروكة مق الرفوغ رحيبة الأجوال

تلقَى . . . . بغال

يَسلَخنَ . . . . الإنزال (٢)

ولم يكن جرير دون صاحبه سفاهة بل كان أشد فحشا وأبلغ فى الإقذاع وربما نشأ ذلك عن تـكالب الشعراء عليه ، وهوان حسبه ، وشدة انفعاله ، حتى تولد فى نفسه مايدعى (مُرَكَّبُ النقص) وصار لا يحتمل من أحد غمزاً ولا مسبة فإذا هاجمه شاعر ، أو أعان عليه شخص ، أو نقده ناقد أنشب فيه جرير مخالبه ونهش عرضه ، ونشر مخازيه أو ابتدع له منها ماشاء خياله الخصب وتصويره العجيب . أنظر إليه يهاجم الفرزدق من ناحية (جعثن) : —

وافاك غدرك بالزبير على منى ومجر جعثنـكم بذات الحرمل

بات الفرزدق يستجير لنفسه وعجان جعثن كالطريق المعمل

أسلمت جعثن إذ يُجَرُّ برجلها والمنقرىُّ يدوسها بالمنشل

---

(١) ص ٢٠٤ . (٢) ص ١٢٩ .

تهوى استها وتقول يالَ مجاشعٍ ومَشَقُّ نقبتها كعين الأقبل
لو . . . أمك بعد أكل خزيرها لتعدّ مثل فوارسي لم تفعلِ
في مُزبد غمق كأنَّ . . . . . خلُّ المجازة أو طريقُ المُنصُلِ(١)

ويقول في بني ضِرار : —

إذا ما كنتَ ملتمساً . . . . فلا تعدلْ . . . . بني ضِرارِ
ولا تمنعْك مِن أربٍ لِحاهم سواء ذو العمامة والخمارِ
وإن لاقيت ضَبِّيا . . . . . فكل رجالهم رِخوُ الحِمارِ(٢)

ويقول في رهط الفرزدق : —

قَبح الإلهُ بني خضافٍ ونسوةٍ بات الخزيرُ لهنَّ كالأحقالِ
مِن كل آلفةِ المواخر تتقي بمُجَرَّدٍ كمجَرَّدِ البَغالِ
قامت سُكينةُ للفحول ولم تقم بنتُ الختاتِ إسُورة الأنفالِ
ودّتْ سُكينةُ أن مسجدَ قومِها كانت سواريه أيورَ بغالِ(٣)

وكان الأخطل دون صاحبيه في هذا النوع من السباب ، ولعلّ مرجع ذلك خشيتُه أن يهاجمَ نساء المسلمين في دولة إسلامية ترعاه ، أو يخلط مدائحه في الخلفاء بهذا السباب ، أو يتورط في شيء لا يلائم طبعه فقلّت في شعره هذه الصور القبيحة وعدنا نعثر على نحو قوله في جرير : —

إذ كان منزلكَ المرُوتَ مُنحجِزاً يا بنَ المراغةِ يا حُبلى بمختارِ
جاءتْ به مُعجلاً غبٌّ سابغةٍ من ذي لمَالهَ جهمِ الوجهِ كالقارِ

(١) النقائض ص ٢٠٢ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٤٩ . (٣) ص ٣٢١ .

أمٌّ لئيمةُ نجلِ الفحلِ مُقرِفَةٌ أدّتْ لفحلٍ لئيمِ النجلِ شخّارِ[1]

وعلى نحو قوله فى بنى غدانة من يربوع : —

ثم الإيابُ إلى سُــودٍ مُدَنَّسَةٍ لا يستحين إذا ما احتكّتِ النُقَرُ[2]

ونحو قوله : —

فلا تدخُل بيوتَ بنى كُلَيبٍ ولا تقــربْ لهمْ أبداً رِحالا

ترى فيهــا لوامعَ مُبرِقاتٍ يكَدْنَ .... بالحدَقِ الرجالا

قَصيراتُ الخُطا عن كلِّ خيرٍ إلى السّــوءات مُسْمِحَةٌ عِجالا[3]

وقد أدّى ذلك إلى تبيّن أشــد ما هجيت به كل قبيلة أو طائفة ، فقد روى عن بنى كليب زعمهم أنهم لم يُهجو بشىء أشد عليهم من قول البعيث : —

وكل كُلَيبيٍّ صَفيحةُ وجهِهِ أذلُّ لأقدام الرجالِ من النّعـلِ

وكل كُلَيبى يقــود أتانه له حاجة مِن حيث تُنفَرُ بالحَبْلِ

وزعمت بنو مجاشع أنهم لم يُهجو بشىء أشد عليهم من قول جرير : —

وبَرْخَرحانَ غداةَ كُبِّلَ مَعبدٌ نُكحتْ نِساؤكمُ بغــير مهور

وقال جرير : ما هجينا بشىء قط أشد علينا من قول الأخطل : —

ما زالَ فينا رِباطُ الخيـل مُعلَمَةً وفى كُليبٍ رِباطُ الذُّل والعارِ

قومٌ إذا استنبَحَ الأضيافُ كلبَهم قالوا لأمهم : بُولى على النـارِ

قال جرير : لأنه هجانا من وجوه شتى : أما أحدها فإنه جعل أمّنا خادمنا ،

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٣٩ . (٢) نفس المرجع ص ١٦٥ .

(٣) ص ١٩٠ .

وأما الثانى فأمرنا إياها أن تطفىء النار من ضيف يتنوّر بها ، والثالث أن تفتح ... والرابع بُخلُ القِرى . وزعم الفرزدق أنه لم يُهج بشىء قط أشد عليهم من قول جرير : —

ودّتْ شُكينةُ أن مسجدَ قومِها كانت سواريه أُيورَ بِغالِ

قال الفرزدق : فوالله ما دخلتُ مسجداً قط إلا ذكرتُ هذا من قوله إذا نظرت إلى سواريه (١) . وكان جرير يقول عن قوله فى بنى تغلب : —

والتغلبى إذا تنحنَح للقِرى حكَّ استَه وتمثّل الأمثالا

قلتُ لهم بيتاً لو طُعن أحدهم فى استه لم يحكّها ، ولما قال جرير فى بنى نمير : —

فغضَّ الطَرفَ إنكَ مِن نُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

قالوا : والله لودِدنا أننا افتديناه بأملاكنا .

٣ — هذه الواقعية وذلك الهجاء العارى المكشوف بدا فى عدة مظاهر : فى هذه الألفاظ المفردة التى تدل على معانيها دلالة حقيقية سافرة لا رمزَ فيها ولا كناية ، وهذا رأيناه مثله فى نثر الجاحظ ، وفى كتاب الحيوان خاصة ؛ فقد وجدت هؤلاء الفحول يؤدون العورات بألفاظها الحقيقية دون موارية بل يختارون من أسمائها أدلها على الفحش وأقربها إلى الابتذال .

وفى الصور تجد العُرى والسفورَ شنيعاً قبيحاً حسياً كما رأيت الأخطل يصف نسوة كليب ، وكقول جرير : —

---

(١) النقائض ص ١٠٥٢ .

تَرَنَتْ أمُّ الأُخيطِل وهى تَشْوِى ... على الخنزيرِ تحسَبه غَزالا
تَظَلُّ الخمرُ تخلجُ أخدَعَيْها ... وتشكو فى قوائمها امذلالا
من المتولِّجاتِ على القَشاوَى ... ولم تَلِج الخدورَ ولا الحِجالا(١)

وكقوله السابق : —

والتغلبىُّ إذا تنحنح للقِرَى ... حَكَّ استهُ وتمثَّل الأمثالا(٢)

وكانت الواقعية تبدو أحيانا كثيرة فى المعانى فهذا الفرزدق يلتجىء إلى عمرو بن لجأ ليعرف منه مثالب بنى جعفر بن كلاب وما يهجون فلما أخذها عنه هجاهم بها فى قصيدته التى يقول فيها :

ونُبِّئْتُ ذا الأهدامِ يَعوِى ودونَه ... مِن الشامِ زَرّاعاتُها وقصورها
إلىَّ ولم أترك على الأرض حيَّةً ... ولا نابحاً إلا استسَرَّ عَقورها
عوَى بشقاً لا بنى نمير ودوننا ... نضادِ فأجبالُ الستارُ فنيرُها
ونبئتُ كلبَ ابنى حُميصة قد عوَى ... إلىَّ ونارُ الحرب تغلى قدورها(٣)

٤ — ومع هذه الواقعية كان هناك خيال خصب يبتكر الصور ، ويبالغ فى المعانى ، ويخترع الوقائع والحوادث غير آبه بما يرتكب فى سبيل ذلك من كذب وبهتان ، فمع اعتراف جرير بصلاح (جعثن) وعفافها نجده شنع بها ، وعرضها عرضاً قبيحاً ، ونجد الفرزدق يخترع قصصاً غرامية شتى كتلك القصة التى وضعها على امرىء القيس (دارة جُلْجُل)(٤) وقصة زوجه حذراء بنت زيق بن بسطام ابن قيس الشيبانى التى تزوجها على النوار وما انتهت به حياتها مما يشبه (الدراما)(٥) وقد علمت فيما مضى قصة جعثن وأنها حادث يسير لا خطر فيه ولكن انظر كيف صوّرها جرير ، وأطنب فيها ، وأكثر مناظرها ، وشنع بها : —

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٩٥ . (٢) نفس المرجع ص ٨٩ .
(٣) النقائض ص ٩٠٢ . (٤) نفسه ص ١٠٠٥ . (٥) نفس المرجع ص ٨٠٣ — ٨٠١ .

نسيتم عُقرَ جِعْثِنَ واحتبيتم ألا تبًّا لفخرك بالحُبُـاتِ
وقدْ دَميتْ مواقعُ رُكبتَيها من التَبراكِ ليس من الصلاة
تبيتُ الليلَ تُسلَقُ إسكتاها كدأبِ التراكِ تلعبُ بالكُراتِ
وحطَّ المِنقَرىُّ بها فقرّتْ على أمِّ القفا والليلُ عاتِ
تنادى غالباً وبنى عِقالٍ لقد أخزيتَ قومك فى النُداة
وجدنا نِسوةً لبنى عِقالٍ بدارِ الذُلِّ أغراضَ الرُماةِ
غوانٍ هُنَّ أخبثُ مِن حميرٍ وأمجنُ مِن نساء مُشركاتِ
وسوداء المُجرَّد مِن عقالٍ تبايع مَن دنا خُذها وهات(١)

وكان هذا رداً على ما صور به الفرزدق نسوة بنى كليب وأم جرير إذ يقول : —

جَزعتَ إلى هجاء بنى نُمير وخلّيت استَ أمك للرُماةِ
فأبصرْنى وأمك حينَ أرمى مَشقَّ عِجانها بالنافرات
وتُمسى نسوةٌ لبنى كُليبٍ بأفواه الأزقة مُقعياتِ
زَوايا سكةٍ نبتت حديثاً بأخبث نبتة شرِّ النبات
بأحراحٍ خبيثاتٍ اللاقى شَمِطْنَ وهُنَّ غيرُ مُختّنات
يبعنَ فروجهُنَّ بكلِّ فلسٍ كبيع السوق خُذْ منِّى وهات
تخالُ بُظورَهن إذا أُنيختْ على ركباتِهنَّ مخويَّات
أيورَ الخيل قد سقطت خصاها بأطراف المفاوز لاغباتِ
كَبِرْنَ وهنَّ أزنى مِنْ قرود وأمجنُ مِن نِساء مشركات(٢)

---

(١) النقائض ص ٧٧٨ .
(٢) النقائض ص ٧٧٢ .

٥ — الميل إلى الاستقصاء ، وحشد الأيام والحوادث والأسماء مما جعل النقائض سجلا تاريخياً لصفات القبائل وأيامها وحوادثها ورجالها المشهورين وما ألم بحياتهم من مواقف كريمة مجيدة أو وضيعة ذليلة ، وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصلين السابقين ونحن نعرض النقائض ، وكان ذلك أمراً طبعياً ، فكل شاعر حرص على أن يحشد فى جانب قومه فضائلهم وأيامهم ومواقفهم وأمجادهم وأن يضع بجوارها مثالب خصمه وهزائم رهطه ومخازيهم وجبنائهم إلى غير ذلك مما تقتضيه مواقف التحدى والمفاخرة وكان علينا أن نكتفى بالإشارات السابقة ولكننا نلم هنا ببعض الشواهد الجزئية خدمة لهذه الدراسة الفنية ، قال جرير فى بنى ضبة أخوال الفرزدق : —

يا ضبُّ قد فرغت يمينى فاعلموا ... طَلَقاً وما شغل القيون شِمالى
يا ضبُّ علّى أن تصيب مواسمى ... كوزاً على حنَق ورهطَ بِلال
يا ضبُّ إنى قد طبخت مجاشعاً ... طبخاً يزيل مجامعَ الأوصال
يا ضبُّ لولا حينكمْ ما كنتمُ ... غرضاً لِنبلى حينَ جدَّ نِضالى
يا ضبُّ إنكم البِكارُ وإننى ... متخمطٌ قطِمٌ يخافُ صيالى
يا ضبُّ غيركم الصميمُ وأنتمُ ... تبعٌ إذا عدَّ الصميمُ موالى
يا ضبُّ إنكمُ لِسَعْدٍ حِشْوَةٌ ... مثل البكار ضممتها الأغفال
يا ضبُّ إنَّ هوى القيونِ أضلَّكمْ ... كضلالِ شيعة أعو الدجال(١)

وهكذا أخذ يستقصى جرير مثالب ضبة وينظمها فى هذه النقيضة الطويلة ، وقال الفرزدق فى ميميته المشهورة يسرد من أيام وحوادث : —

ويوم جعلنا الظلَّ فيه لعامرٍ ... مصمّمة تفأى شئونَ الجماجم
فمنهنَّ يومٌ للبُرَيكَين إذ ترى ... بنو عامرٍ أن غانمٌ كلُّ سالم

---

(١) نفس المرجع ص ٣٢٢ .

ومنهن إذ أرخى طُفيلُ بنُ مالك　　على قُرْزُلٍ رَجْلَى رَكوض الهزائم
ونحنُ ضربنا من شُتَير بن خالد　　على حيثُ تستسقيه أمُّ الجماجم
ويوم ابن ذى سيدانَ إذ فوَّزت به　　إلى الموت أعجاز الرماح الفواشم
ونحن ضربنا هامةَ ابن خُوَيلد　　يزيدَ على أمِّ الفراخ الجواثم
ونحن قتلنا ابنى هُتيم وأدركت　　بجيرا بنا ركض الذكور الصلادم
ونحن قسمنا من قُدامةَ رأسه　　بصدْعٍ على يافوخه متفاقم
وعمرا أخا عوف تركنا بملتقى　　من الخيل فى سام من النقع قاتم
ونحن تركنا من هلال بن عامر　　ثمانين كهلا للنُسور القشاعم
بدهنا تميم حيث سُدَّت عليهم　　بمعترك من رملها المتراكم
ونحن منعنا من مَصادٍ رِماحَنا　　وكنَّ إذا يلقينَ غير حوائم (١)

ويأخذ الفرزدق فى ذكر رجاله الأمجاد فى نقيضته اللامية وغيرها واجداً فى ذلك مدداً خصباً ، وفخراً عريضاً ، وجلالا عالياً : —

بيتاً زُرارةُ محتَبٍ بفنائه　　ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلُ
يلجون بيت مجاشع وإذا احتبوا　　برزوا كأنهم الجبال المُثَّل
وإذا دعوتُ بنى فُقَيم جاءنى　　مجر له العدد الذى لا يعدَلُ
وإذا الربائع جاءنى دُفّاعها　　موجاً كأنهم الجراد المرسل
هذا وفى عَدَوِيَّتى جُرثومةٌ　　صعب مناكبها نِياف عَيطل
وإذا البراجم بالقُروم تخاطروا　　حولى بأغلبَ عزُّه لا ينزل

---

(١) ص ٣٨٥ وراجع ص ٣٣٣ و ٤٨٤ و ٦٠٧ و ٦٢٥ و ٦٢٧ و ٧٣١ و ٧٤٩ و ٨٥٣ و ٨٤٤ .

وإذا بذخت ورايتى يمشى بها ... سفيان أو عدس الفعال وجندل
الأكثرون إذا يعد حصاهم ... والأكرمون إذا يعد الأول[١]

وكذلك عدد طبقات الشعراء الذين أورثوه الشعر[٢] ويقول جرير : —

أبنو طهية يعدلون فوارسى ... وبنو خضاف وذاك مالم يعدل
وإذا غضبت رمى ورائى بالحصى ... أبناء جندلتى كخير الجندل
عمرو وسعد يا فرزدق فيهم ... زهر النجوم وباذخات الأجبل[٣]

٦ — وإذا كانت المناقضة طويلة العهد ، كثيرة العدد ، فإنها تستنفد المعانى بسرعة وتستغرقها بحيث يفرغ الشعراء ما فى جعبهم فى عدد قليل منها ، لذلك عمدوا إلى التكرار ، وترديد المعانى ، والأيام ، والأحداث ، فالأخطل يكرر أيام قومه على قيس ، ومآثر دارم ، ومثالب كليب ، والفرزدق يفعل ذلك بالأيام والرجال . وأما جرير فقد لاحظ النقاد إلحاحه على الفرزدق بمعانى الزبير ، وجعثن والقيون ، والزنى ، والنفى من المدينة ، والسيف وكأنهم عدوا ذلك قصراً فى هجائه وضيقاً فى مجاله ؛ وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك وناقشه فى المثل السائر (ص ٤٩٠ بلاق) . كذلك ردد مع الأخطل الخمر ، والكفر ، والجزى ، وقذارة نسوة تغلب ، وهزائم رجالهم[٤] .

يقول جرير فى نقيضته : —

فلو أيام جعثن كان قومى ... هم قوم الفرزدق ما استجارا

(١) النقائض ص ٢٣٨
(٢) ص ٣٠٠ . (٣) ص ٢٢٤
(٤) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٣٢٢ و ٣٥١ و ٣١٨ و ٣٩٨ و ٤٢٩ و ٤٨٣ و ٥٤٢ و ٥٩٠ و ٨٥٢ ونقائض جرير والأخطل ص ٨٧ و ١٢٥ و ١٧٤ .

فظل القينُ بعد نكاح ليلى يُطير على سِبالكم الشرارا[1]

ويقول فى أخرى : —

لاقيتَ أعينَ والزّبيرَ وجمعْناً أعدالَ مُخزيَة عليك ثِقالِ
ودعا الزبير مجاشعاً فترمَّزتْ للغدر ألأم آنُف وسِبال[2]

ويقول للأخطل فى قومه : —

عبدوا الصليبَ وكذَّبوا بمحمد وبجبرَئيلَ وكذبوا ميكالا[3]

ويقول فى نقيضة أخرى : —

أفبالصليب ومارِ سَرْجِسَ تتّقى شهباء ذاتَ كتائب جمهُورا[4]

٧ — وإذا كان الفخر والهجاء أهم فنون النقائض فقد غلبا على القصائد أولا ، ثم وردا فيها مختلطين ثانياً بحيث تجد الأبيات المتجاورة جامعة بين الفنين دون فصل أو تنسيق ، بل تجد البيت الواحد يجمع بين الفنين ، وذلك لأن الفرزدق مثلا يفخر بتميم ويهجو بنى كليب ثم يضع مآثر تغلب وتميم أمام مثالب قيس ويربوع ويقرن المعانى معاً ويوازن بينها ، وكذلك جرير يفخر بيربوع وقيس ليهجو تغلب ودارما ، والأخطل يخلط بين الفخر بقومه وهجاء قيس وهكذا . نعم رأينا فيا مضى أن الأخطل كان يحسن تقسيم قصيدته وتصنيفها أحياناً فيتأثره جرير فى ذلك ، كالرائية التى مدح بها عبد الملك ، ونقضها عليه جرير .

يقول جرير للفرزدق فى مصرع قتيبة : —

فغيرُك أدى للخليفة عهدَه وغيرُكَ جلّى عَن وُجوهِ الأهاتِم

---

(١) ص ٢٥٣ . (٢) ص ٣١٨

(٣) نقائض جرير والأخطل ص ٨٧ . (٤) نفسه ص ١٢٥ .

فإن وكيعاً حين خارت مجاشعٌ ... كفى شعب صدع الفتنة المتفاقم
لقد كنت فيها يا فرزدقُ تابعاً ... وريشُ الذنابَى تابعٌ للقوادم
نُدافعُ عنكم كلَّ يوم عظيمةٍ ... وأنت قُراحيٌّ بسيف الكواظم
أجُبناً وفخراً يا بنى زَبدِ استِها ... ونحن نَشُبُّ الحربَ شِيبَ المقادم[1]

فخر بيربوع ، وهجاء لمجاشع ، وفخر ثانية ، وهجاء ، ثم فخر فى خمسة أبيات .

وهذه الصورة غير لازمة بهذه الدقة ، فقد تجتمع أبيات الفخر وحدها ثم أبيات الهجاء وحدها . ولكنك تجد أبيات فخر ، فأبيات هجاء ، فأبيات فخر ثم عودة إلى الهجاء وهكذا . وقد تجد نسيباً وقصصاً خلال ذلك أو فى ديباجة القصيد ولكنه نسيب قوى من الفخر والهجاء بل قد يكون أحدهما نوعاً من النقائض أيضاً كما قدمنا .

٨ — وكانت الجزالة هى الطابع الغالب على النقائض الأموية ، وإذا كانت الجزالة تقابل الرذالة والإسفاف اللفظى فقد نجا شعر هذه المناقضة من هذه الرذالة وزاد فخامة وقوة نشأت عن طبيعة الفخر والهجاء وعن شخصيات الشعراء وفحولتهم التى بلغت ذروتها فى الشعر العربى على عهد الأمويين ويمكن تبين هذه الجزالة إذا وازنا بين النقائض وبين الشعر الغزلى والشعر السياسى فى هذه الفترة ذاتها ، فقد امتاز الغزل بالرقة الجزلة ، وامتاز الشعر السياسى بالسهولة والوضوح ثم القوة أحياناً ، وكان لهذه الموضوعات أثر واضح فى أساليب الشعر وعباراته وصوره[2] ولكن يلاحظ

(١) النقائض ص ٣٩٩ .
(٢) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف فى مواطن خواصه الفنية . وكتاب الأسلوب للمؤلف أيضا فى فصل اختلاف أساليب الشعر .

بجانب ذلك أيضاً أن هذه الجزالة كانت من طبع جرير والفرزدق والطرماح وغيرهم ، ومن صنعة الأخطل وعبادته الشعر ، شأنه فى ذلك شأن زهير وبنيه والحطيئة ممن كانوا يعدون قصيدهم فى أناة ، وقصد ، وإحكام . وهذه الملاحظة غالبية فلم يخل شعر الأخطل من طبع كما لم يخل شعر أصحابه من جهد ومشاق (١)

ولعلنا لا نحتاج إلى الاستشهاد لهذه الخاصة فكل شعر النقائض شواهد على ذلك ، تجد ذلك عند الفرزدق فى مثل قوله : —

إن الذى سمك السماء بنى لنـا ... بيتاً دعائمـه أعزُّ وأطولُ
بيتاً بناه لنا المليكُ وما بنى ... حكمُ السماءِ فإنه لا يُنقلُ
أحلامنا تزن الجبالَ رزانةً ... وتخالنا جناً إذا ما نجهلُ
فادفع بكفك إن أردت بناءنا ... ثهلانَ ذا الهضبات هل يتحلحل (٢)

وعند جرير فى نحو قوله : —

ألسنا نحنُ قد علمتْ معدٌّ ... غداةَ الروعِ أجدرَ أن نغارا
وأضربَ بالسيوفِ إذا تلاقتْ ... هوادى الخيل صادية حرارا
وأحمدَ فى القِرى وأعزَّ نصراً ... وأمنعَ جانباً وأعزَّ جارا (٣)

وصنعة الأخطل ظاهرة جداً فى رائيته التى تشبه حوليات زهير بن أبى سلمى ومنها قوله : —

حُشد على الحق عيّافو الخنا أُنُفٌ ... وإن ألمّت بهم مكروهةٌ صبروا
لا يستقلُّ ذوو الأضغانِ حربَهمُ ... ولا يُبيَّنُ فى عيدانهم خوَرُ

(١) راجع النقائض ص ٤٣٢ — ٤٣٣ عن جرير وص ٥٤٦ — ٥٤٨ عن الفرزدق . ونقائض جرير والأخطل ص ١٣٤ .   (٢) النقائض ١٨٢ — ١٨٥ .   (٣) نفسه ٣٥٣ .

شُمسُ العداوةِ حتى يُسْتَقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا (١)

٩ — ومسألة المعانى تحتاج إلى ملاحظة خاصة ، وإنما أقصد بالمعانى هنا الأفكار والحقائق النظرية والواقعية ، فإلى أى حد تصح هذه الأفكار التى دارت فى النقائض الأموية ؟ وهل كميتها تكفى لملء هذه الدواوين الضخمة ؟ وإذا كان هناك اختراع وافتراء فهل يجوز ذلك فى هذا الباب ؟ أما عن كميتها فقد قلنا من قبل: إنها كانت قليلة فاضطر الشعراء إلى تكرارها ، نعم إن هذا التكرار كان فى صور مختلفة أحياناً ولكنها صور ضاقت عن التنوع الكافى والتجديد المقبول (٢) وأما عن صحة هذه المعانى فقد رأيت جريراً مثلا رمى جعثن بغير حق ، والفرزدق يشنع بأم جرير تشنيعاً باطلا ، والأخطل يفخر بأيام ليست له . وأما عن ذلك البهتان والمبالغة فكان التوجيه يبرر بعضها كمعانى السيف ، وأسر حاجب ابن زرارة ، والغدر بالزبير بن العوام ، وادعاء يربوع يوم ذى قار ونحو ذلك . على أن الكذب فى الشعر لا يتسع لكل ما ادعى هؤلاء وحادوا فيه عن جادة الصواب .

وهناك هذه الأفكار القيمة والحكم الخالدة ، ولا أراها كثيرة تلائم كثرة النقائض بل هى قليلة إلا أبياتاً سائرة صارت مثلا معروفة وإلا أبياتاً مضمنة حكما قرآنية كقول الفرزدق : —

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تَعمَّد عاقدات العزائم

على أن الأفكار القيمة ، والنظريات الاجتماعية ، والحقائق المقررة إنما كثرت

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٥٥

(٢) راجع المثل السائر لابن الأثير طبع بولاق ص ٤٩٠ و ٥٠١ و ٥٠٣

فى الشعر العربى بعد ذلك العهد وحين تقدمت الحضارة العباسية فأثمرت أبا تمام وأبا العتاهية ، وابن الرومى ، والمتنبى ، والمعرى وأضرابهم .

١٠ — وهل كانت العواطف التى بعثت هذه النقائض كلها ، فكانت بغضاً وحنقاً فى الهجاء ، وكانت حباً وولهاً فى النسيب ، وكانت تحدياً وتعالياً فى الفخر أكانت عواطف صادقة ؟

كان نسيب جرير كما لاحظنا طبيعياً مع عفافه ، بمعنى أنه كان يصور حب الرجل للمرأة أو هذا الشعور الإنسانى الطبعى الذى يستكن فى نفس الرجل نحو المرأة لذلك كان رقيقاً شجياً بخلاف نسيب الفرزدق فكان صنعة أو جافياً غليظاً ليست فيه رقة جرير ولا صدقة وكذلك الأمر فى الأخطل وكان فخر الفرزدق بقومه صادقاً طبيعيا وكذلك فخر جرير بقومه أمام تغلب و بيربوع أمام درام . بقى فخر جرير بقيس والفرزدق بتغلب ، والمفروض أنه لا يبلغ درجة سابقه فى الصدق والقوة ، ولكن الذى بعث فيه الحياة موقف التحدى والملاحاة بين المتناقضين . وكان هجاء جرير عاطفياً عنيفاً يمثل السخط الحقيقى ويؤدى هذه الرسالة التى بعثه بها أهله إلى المربد يذود عنهم كل من هجاهم ، وسيأتى القول فى ذلك . ولكن المسألة التى نريد التنبيه عليها الآن هى أن هذه المهاجاة قد استحالت أحياناً إلى نوع من العبث الفنى والمباراة الأدبية لا غير دون أن تعبر عن حقد أو سخط يدلنا على ذلك تلك القصة التى نلقناها عن ابن خِلِّكان [1] حين قصد الرصافة جرير والفرزدق إلى هشام بن عبد الملك مرتدفين على ناقة ، فنزل جرير لقضاء حاجته فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال : —

(١) ج ١ ص ١٠٣ من وفيات الأعيان .

إلامَ تلفَّتينَ وأنتِ تحـــتى ... وخــيرُ الناسِ كلهــمُ أمامى
متى تردى الرصافة تــستريحى ... مِن التهجير والدَّبَرِ الدوامى

ثم قال: الآن يجىء جرير فأنشده البيتين فيقول: —

تلفَّتُ أنهـــا تحت ابن قين ... إلى الكيرين والفأس الكَهام
متى تردُ الرُّصافةَ تخزَ فيهـــا ... كخزيك فى المواسم كلَّ عام

فجاء جرير، والفرزدق يضحك، فقال: مايضحكك يا أبا فِراس؟ فأنشده البيتين الأولين، فأنشـده جرير، البيتين الآخرين، فقال الفرزدق: والله قد قلتُ هذا. فقال جرير: أما علمت أن شيطاننا واحد؟!

إذا صحت هـذه الحـكاية دلت على أن المناقضة كانت فى بعض الأحيان تستحيل صنعة فنية كما يفعل المتبارون فى الغناء والملاحاة بالمواويل، دون حقد، بدليل ما كان يعرف كل اصاحبه من قيمة فنية.

١١ — وهناك قوة الجدل والتحام الشعراء بالملاحاة فى المعانى والأحداث وعناية كل بالاحتجاج لنفسه وتأييد وجهة نظره حتى فى الأمور المقررة التى لاتقبل جدلا كضربة الرومى وأسر حاجب بن زُرارة، وهذا الجدل كان حتما ليظفر كل بالنصرة لنفسه ولرهطه فى هـذه البيئة الثائرة الناقدة التى تلتقط كل كلمة يقولها شاعر، من ذلك ماقال الفرزدق فى لاميته: —

إن الذى سمكَ السماء بنى لنـــا ... بيتاً دعائمه أعزُّ وأطـــولَ

قال له جرير: —

أخزى الذى سمكَ السماء مجاشعاً ... وبَنى بناءكَ فى الحضيض الأسفلِ
بَيْتاً يُحَمِّمُ قينـكم بفنائه ... دَنِساً مقاعده خبيثَ المدخـلِ

ولقد بنيتَ أخسَّ بيت يُبتنى ... فهدمتُ بيتكمُ بمثلى يذبل(١)

ولما قال الفرزدق أبياته فى وراثته الشعر : —

وهبَ القصائدَ لى النوابغُ إذمضوا ... وأبو يزيدَ وذو القروح وجرول(٢)

قال له جرير : —

خنثُ الفرزدق أن تسبَّ مجاشعٍ ... وبعــدة شِعرَ مرقّش ومهلهل

لمــا وضعتُ على الفرزدق ميسمى ... وضغا البعيث جدعتُ أنفَ الأخطل

أعــددتُ للشعراء سما ناقعاً ... فسقيتُ آخرهم بكأس الأول

إنى انصببْتُ من السماء عليكمُ ... حتى اختطفتكَ يافرزدقُ من عَلِ

من بعــدِ صكتىْ البعيث كأنه ... خربٌ تنفّجَ من حذار الأجــدل

ولقد وسمتــك يا بعيث بميسَمى ... وضغا الفرزدق تحت حدِّ الكلكل(٣)

ولما قال الفرزدق : —

فِدًى لسيوفٍ من تميم وفَى بهــا ... ردائى وجلّت عن وجوه الأهاتم

شفين حزازات النفوس ولم تَدعْ ... علينــا مقالا فى وفاء للائم(٤)

قال له جرير : —

فغيرُك أدى للخليفة عهــده ... وغيرُك جلى عن وجوه الأهاتم

فإن وكيعاً حين خارت مُجاشع ... كفى شعبَ صدعِ الفتنة المتفاقم

لقــد كُنتَ فيها يافرزدقُ تابعاً ... وريش الذُنابى تابع للقــوادم(٥)

ولما قال ابن ميّادة : —

فجرْنا ينابيعَ الكلام وبحرَهُ ... فأصبح فيه ذو الرواية يَسبحُ

---

(١) النقائض ص ٣١٣ . (٢) نفس المرجع ص ٣٠٠

(٣) نفســه ص ٣١٨ . (٤) ص ٣٧١ . (٥) ص ٥٩٩ .

وما الشعرُ إلا شعرُ قيسٍ وخندفٍ وقولُ سِـواهم كُلفةٌ وتملّحُ

قال عقال بن هاشم : —

لئن كان في قيس وخِندِف ألسُنٌ طِوال وشِعرٌ سائر ليس يُقدحُ
لقد خرّق الحى اليمانونَ قبلهم بحورَ الكلامِ تُستقى وهى تطفحُ (١)

ولما قال الأخطل : —

حتى أصابتْ سُليما من عداوتنا إحدى الدواهى التى تُخشى وتُنتظر
فأصبحتْ منهمُ سِنجار خالية فالمحلبيّاتُ فالخابورُ فالسُرَرُ
كرُّوا إلى حَرّتيهمْ يعمرونَهما كما تكرُّ إلى أوطانِها البقرُ (٢)

قال له جرير : —

موتوا من الغيظِ غمًّا فى جزيرتكم أن تقطعوا بطنَ وادٍ دونَهُ مضرُ
إلى نفيتك من نجد فما لكمُ نجدٌ، ومالكَ من غورٍ به حجرُ (٣)

وهكذا ، ولم تخل النقائض الجاهلية والإسلامية الأولى من هذا الجدل إذ كان أصلا من أصول المناقضة ، ولكنه جدل لم يبلغ من القوة ، والدقة ، والتربص مبلغه فى عهد الأمويين للرقى العقلى ، ولشدة المحادة ، ولعناية النقاد والناس جميعاً بهذا الفن وارتقابهم الفائز فيه ، ذلك فوق العصبيات الحادة ، والنزعات السياسية ، والمنافسة الشعرية التى خضع لها الشعراء .

١٢ — على أن كثرة النقائض والتحام الشعراء أدّى إلى أخذ الشعراء بعضهم من بعض معانىَ وعبارات وأبياتاً ، إما استحساناً لها ، وإما لملاءمتها مقتضى الحال ،

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٠٨ دار الكتب . (٢) نقائض جرير الأخطل ص ١٥٩
(٣) المرجع السابق ص ١٧٣ .

وإما لسيرورتها ودورانها على الألسن وشدة تأثيرها فى الأذهان ، فجاءت خلال الكلام عرضاً أو عمداً ، من ذلك اعتزاز الفرزدق بالخلافة والنبوة إذ يقول :

إنّا وإخوتَنا إذا ما ضمَّنا ... بالأخشبين منازلُ التجمير
عرفَ القبائلُ أننا أربابُها ... وأحقها بمناسِكِ التكبير
جعلَ الخلافةَ والنبوة ربنا ... فينا وحُرمةَ بيتِه المعمورِ (١)

وقال جرير للأخطل :

إنَّ الذى حرمَ المكارم تغلبا ... جعل النبوّةَ والخلافةَ فينا
مُضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم ... يا خُزرَ تغلب من أب كأبينا
هذا ابنُ عَمّى فى دِمشقَ خليفةٌ ... لو شئتَ ساقكمُ إلىّ قطينا (٢)

وقال الفرزدق فى اعتزازه ببنى أسد بن خزيمةَ بن مُدركة بن الياس من مضر : —

وإذا بنو أسد رمت أيديهمُ ... دُونى ورجّع قرمُهم بهديرِ
خشعَ الفِحالة تحتهُ ورأت له ... فضلا على متفضلين كثير (٣)

وقال جرير فى ذلك المعنى :

وإذا بنو أسد علىّ تحدّبوا ... نصبَتْ بنو أسدٍ لمن راداني
والغرُّ مِن سَلَفَى كِنانةَ إنهم ... صِيدُ الرءوس أعزّةُ السلطانِ
مالتْ عليكَ جبالُ غورِ تِهامةٍ ... وغرقْتَ حيثُ تناطح البحرانِ (٤)

وقال الأخطل فى كليب بن يربوع :

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٩١٢ (٢) الأغانى جـ ٨ ص ٦٠ دار الكتب .
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص٩١٤ (٤) نفسه ص٩٠١

الآكلون خبيثَ الزاد وَحدهم   والسائلون بظهر الغيب ما الخبرُ[1]

فقال جرير فى بنى تغلب :

والآكلونَ خبيثَ الزاد وَحدهم   والنازلون إذا واراهم الخَمر[2]

ونحو ذلك كثير بجده من رجع إلى دواوين النقائض .

١٣ — وكان أسلوب الموازنة مِن سمات النقائض الأموية ، لجأ إليه الشعراء للاحتجاج والدقة فى التحدى ، والمقابلة كقول الفرزدق :

أتعدِل أحساباً لِئاماً أدِقَّةً   بأحسابنا ، إنى إلى الله راجع[3]

أخذاً من قول جرير :

أتعدِلُ أحساباً كِراماً حُماتها   بأحسابكم ، إنى إلى الله راجع[4]

وقال جرير :

أحسبتَ يَومَك بالوقيطِ كيومِنا   يومَ الغَبيطِ بِقُلةِ الأرحال[5]

وقال للأخطل :

هلاَّ طعنتَ الخيلَ يومَ لقيتَها   طعنَ الفوارسِ مِن بَنى عُقفانِ
فدعِ الحكومةَ لستم مِن أهلها   إن الحكومة فى بنى شيبانِ[6]

ويقول جرير للفرزدق موازناً بين موقفيهما من قيس وتغلب :

فخرتُ بقيس وافتخرتَ بتغلبِ   فسوف ترى أى الفريقين أربحُ
فأما النصارى العابدون صليبَهم   فخابوا وأما المسلمون فأفلحوا[7]

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٦٤   (٢) نفس المرجع ص ١٧٣
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٧   (٤) نفسه ص ٦٩٢ .
(٥) نفسه ص ٣٠٥   (٦) نقائض جرير والأخطل ص ٢٠٨
(٧) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٦

ويقول للأخطل :

أنا كلَّ عامٍ جزيةً ، تتقى بها، عليكَ ،وما تلقَى من الذلَّ أبرح
وما زال ممنوعاً لقيسٍ وخِندفٍ حِمًى تتخطَّاه الخنازيرُ أفيحُ
إذا أخذتْ قيسٌ عليك وخندف بأقطارها لم تدرِ من أين تسرح[1]

فلما سمع الأخطل هذا البيت الأخير قال : لا أين ، سدّ والله عليّ الدنيا .

فلما أنشد قوله :

فما لكَ فى نجدٍ حصاةٌ تعدها ولا لكَ فى غورَىْ تهامةَ أبطَح[2]

قال الأخطل : لا أبالى والله ألا تكون لى ، فتح لى والصليبِ القولَ ، ثم قال : —

ولكنْ لنا برّ العراقِ وبحرُه وحيث ترى القرقورَ فى الماء يَسْبَحُ
إذا ابتدرَ الناس السجالَ وجدتنا لنا مقدحًا مجدٍ وللناس مَقدح
وإنا لمدودونَ ما بين مَنْبِجٍ فَخافِ عمانٍ فالحِمَى لى أفيَح[3]

١٤ — وكان للنقائض الأموية قيمة ممتازة ، ومنزلة رفيعة ، وصيت بعيد عما كان لها فى الجاهلية وصدر الإسلام وذلك لأمور أشرنا إلى بعضها فى التمهيد ، منها ما كان لهذه النقائض من صلة بالسياسة العامة للدولة الأموية إذ قامت على علاقات القبائل بالدولة والانتصار لها أو عليها كما مضى ، ومنها ما أحيت من عصبيات قبلية اشتد أوارها فأعقب أياماً ، ومنافسات ، وأحداثاً خطيرة استغلها الأمويون فكانت عليهم وبالا كما كان بين قيس وتغلب وبين اليمنية والمضرية وبين الشام والعراق والحجاز وفى داخل القبائل وقد وضحنا ذلك من قبل .

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٦٠٥ (٢)و(٣)نقائض جرير والأخطل ص XI

ومنها ما أثارت حولها من نشاط نقدىّ قسم العلماء والأدباء ، واللغويين شيعاً، وجعل من شعراء النقائض أنفسهم نقاداً بعضهم لبعض ، حتى شغل العصر بهؤلاء الفحول وما أقاموا للشعر القديم من دولة ، ثم ما لا بس ذلك من مثالب أخرى اجتماعية وخلقية تراها فى الفصل التالى . معنى ذلك أن النقائض الجاهلية عاشت فى ظل الأيام ، والإسلامية الأولى عاصرت الغزوات فى حياة الرسول ، وأما الأموية أو الإسلامية الحقة فقد كانت مشغلة العصر، وعمادَ حياته ، وأداة سياسته وصحيفة حياته الأدبية الأصيلة فاستحقت عناية خاصة فى دراستها .

— ٢ —

وكان من الخير أن نفرد كلا من جرير وصاحبيه بدرس مفصل لما لهم من أثر خطير فى تاريخ هـذا الفن ونضجه ، ولكننا خشينا أن يكون ذلك أشبه بالاستطراد الذى يعدو على منهج كتابنا هذا فعدلنا عن هذه الدراسة المفصلة إلى كتاب آخر يتناول فحول القرن الأول أو شعراءه جميعاً . ومع ذلك فلا بد من الوقوف عند كل منهم وقفة قصيرة تتناول جانبه الفنى المتصل بالنقائض ، ولعل ذلك أنفع لموضوعنا وأوفق لمنهجنا هنا .

ذكرنا الميزات العامة لهذا الفن الأموى، وهى الميزات التى كانت حقاً مشتركاً بين هؤلاء الفحول جميعاً ، ونريد هنا أن نشير إلى بعض الخواص التى امتاز بها كل فى هذا الفن ، وما يفرق بينهم فيه لنختم بذلك هذا الفصل الثامن .

(١) ويمكن رد مُقوِّمات جرير التى أثرت فى نقائضه آثاراً خاصة إلى هوان أسرته وفقر قومه بالإضافة إلى أسرة الفرزدق ورهطه فكان يفاخر ويهاجى غير متكىء على ما يتكىء عليه خصمه ، فعمد إلى أخذ معانيه من مثالب خصومه

غالباً لا من مآثر أهله ، فكان بذلك هجّاء مفحشاً سفها أقعده أهله بالمِرْبد لا يكسبهم دنيا سوى سبٍّ مَن سبهم ، فهذا شيء . وشيء آخر هو طبع جرير ورقته وذلك جعل شعره أقل من فخامة الفرزدق أولا ، ويسّر عليه تجويد النسيب والرثاء فغلب زميليه في هذين وصار أستاذ النسيب العربي ذلك النوع التقليدي الذي يفتتح به القصيد وقد تلمذ له في ذلك البحتري . وهناك سبب آخر لهذه الرقة في النسيب والرثاء هو حسن إسلام جرير فقد هذب نفسه وأكسبه الموعظة الحسنة فجوّد الرثاء ، ثم منعه الزنى والفجور فأصابه بشيء من طهارة النفس وكبت العاطفة الجنسية فصار ينسب متأثراً برقة طبعه ، وبميله الطبعي إلى المرأة ميلا إنسانياً طبعياً دون حاجة ليكون كالمجنون ، وبهذه العاطفة المكبوتة نوعا ما التي فيها شيء من جميل بثينة ، لذلك أسف على أن شغله الهجاء عن أن ينسب نسيبا تحن به العجوز إلى شبابها . ولكن حاجته إلى الرعاية والمال حملته على المدح ، فمدح ابن الزبير ، والحجاج و بني أمية ، وقيساً وغيرهم حتى يعيش ملحوظ المكانة مكفيّ المئونة . هذا من الناحية العامة .

وأما من حيث صياغته الفنية فقد كان محافظا أكثر من الفرزدق على نسق القصيدة الجاهلي ، إذ غلب عليه الابتداء بالنسيب الرقيق ، وكان نسيبه أحياناً يأخذ شكلين : شكلا خاصاً به مستقلا يرضى به فنه ويعبد نفسه ، وشكلا نقضياً يتصل فيه بخصمه ساخراً أو مكذباً ، كما رأينا في تحليل الميميتين في مصرع قتيبة بن مسلم إذ نسب جرير لنفسه أولا ثم أخذ ينقض على الفرزدق نسيبه المصطنع . نسيب جرير ، إذاً ، يمكن النظر إليه من وجهين : وجه جاهلي من حيث الابتداء به والتزامه في أغلب النقائض ، ووجه إسلامي من حيث رقته وعفافه ، ويشبهه في ذلك ذو الرُّمة الذي كان إسلامياً في نسيبه وجاهلياً في وصفه الطبيعة .

وهناك جانب جاهلى فى جرير أو أشد من الجاهلى هو إفحاشه فى الهجاء وهذا يمثل سخطه الذى يحمله على السباب والتعرض للمحارم وذكر العورات . ومع ذلك فقد كان من الناحية العملية صالحاً يخشى الله واليوم الآخر ، فكأن سبابه مسألة فنية يضطر إليها دون أن يكون فاجراً أو فاسقاً لذلك هجا الفرزدق بالزنى ومحالفة الأخطل النصرانى ، كما هجا الأخطل بكفره ، وشربه الخمر ، وعدوله عن الإسلام ، وأكله لحم الخنزير إلى نحو ذلك .

وميزة أخرى غلبت على شعر جرير هى سهولة إنشائه وعدم تعمله وعبادته الشعر ، فجاء فنه طبعياً سهلا خفيفا مكشوف العاطفة وإن لم يسلم أحيانا من الصنعة والعنت ، ومن الغريب أن عنته أنتج أسهل قصائده وهى بائيته فى الراعى .

وهذه الميزة السابقة أكسبت شعره سيرورة حتى جرى على أكثر الألسنة وظفر ببعد الصيت أكثر من زميليه حتى كان أشعر عند العامة كما يقول بعض النقاد ، وعلى هذا نفسر الموازنة بين بيت جرير : —

ألستم خيرَ مَن ركبَ المطايا وأندى العالمين بطونَ راحِ ؟

وبيت الأخطل :

شُمسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلامًا إذا قدروا

والحكم بأن بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجل وأرزن .

كذلك يمكن تفسير رواج مرثية جرير لزوجته خالدة بنت سعد حتى نُدب بها على بعض هوالك الفرزدق وهى النقيضة التى مطلعها :

لولا الحياءُ لهاجنى استعبارُ ولزُرتُ قبركِ والحبيبُ يزارُ

ولقد نظرتُ وما تمتُّع نظرة فى اللحد حيث تمكّنَ المحفار

فجزاك ربك فى عشيرك نظرة　　وسقى صداك مجلجل مدرار
ولهت قلبى إذ علتنى كبرة　　وذوو التمائم من بنيك صغار(١)

ونحو قوله فى النسيب : —

ألا حىّ رهبى ثم حىّ المطاليا　　فقد كان مأنوساً فأصبح خاليا
فلا عهد إلا أن تذكّر أو ترى　　ثماما حوالى منصِب الخيم باليا

إلى أن يقول : —

قفا فاسمعا صوت المنادى لعله　　قريب وما دانيت بالظن دانيا
إذا ما جعلت السىّ بينى و بينها　　وحرّة ليلى والعقيق اليمانيا
رغبت إلى ذى العرش مولى محمد　　ليجمع شعباً أو يقرّب نائيا(٢)

ونحو قوله : —

ولو وُزنت حلوم بنى نُمير　　على الميزان ما وزنت ذبابا
فغض الطرف إنك من نمير　　فلا كعباً بلغت ولا كلابا
إذا غضبت عليك بنو تميم　　حسبت الناس كلهم غضابا
ألسنا أكثر الثقلين رجلا　　ببطن مِنًى وأعظمه قِبابا(٣)

وهكذا يمتاز جرير برقة النسيب ، وصدق الرثاء ، وخبيث الهجاء ، مع تجويد الفخر ، وجمال الأسلوب وجزالته .

(ب) أما الفرزدق فقد نشأ فى أسرة غنية ذات مآثر محفوظة ، وقوم ذوى حسب ضخم ، ورجع إلى أعمام ، وأخوال ، وآباء مذكورين ، فاتخذ من ذلك مادة لفخره واتخذ منه معانية فامتاز بالفخر وعُرف به ، ذلك إلى سلامة موقفه

---

(١) النقائض ص ٨٤٧ - (٢) نفسه ص ١٧٢ - (٣) نفسه ص ٤٥٥ .

فى قومه واعتزازه بهم أكثر من جرير الذى أشرك معهم قيس عيلان إلى حد كبير، فكان الفرزدق يدعى دائما زعامة تميم والمحامى وراءها ، وتجاوز به الأمر إلى أن يمتن على قومه بالدفاع عنهم وعدم وجود من يعدله فى ذلك حيث يقول : —

أرونى مَن يقومُ لكم مَقامى إذا ما الأمرُ جَلَّ عن العتاب
إلى مَن تفزعون إذا حَثوتم بأيديكم علىَّ مِن التراب[1]

يضاف إلى ذلك جفاء طبعه وعنجهية فيه جاهلية جعلته أشد تحللا من شعائر الدين وأميلَ إلى الحرية وتجاوز الحدود إلى مقارفة الفسوق والعصيان والفخر بذلك ، والاجتراء على المحارم فكان يمثل فى حياته وشعره جانبا يقابل ما يمثله جرير ، كان ضخم الألفاظ غريبها ، فخم العبارات ، يتجاوز قوانين النحو المشهورة وقد تلمذ عليه المتنبى فى ذلك . ثم لم يلتزم هذه الديباجة الغزلية التى غلبت على جرير ، بل كثيرا ما كان يهجم على موضوعه دون التقدم إليه بالنسيب وإذا نسب جاء شعره جافياً غليظا متأثراً بروح الفخر الذى لزمه ولاءم طبعه ، وذلك أن فسوقه ومقارفته الآثام جعل نسيبه خاليا من صدق الشعور وأحاله وصفاً وقصصاً وفخرا ، بعكس نسيب جرير الذى كان شكاية وحزناً مما هو ثمرة التقى والحرمان ، وإن اصطنع الفرزدق الجلال والوقار أحياناً كما بينا فى درس ميميته . كذلك لم يؤهله طبعه الجاهلى للتجويد فى الرثاء والعتاب وسائر العواطف الرقيقة وإنما أهّله لأن يهدد معاوية ويفخر عليه ، ويهجو بعض الخلفاء والولاة ويقضى شطراً من حياته منفياً مهددا مطرودا ويخاطب معاوية بقوله : —

---

(١) الديوان ص ١١٤

أبوكَ وعمى يا معاوىَ أورثا ... تراثاً فيحتازُ التراثَ أقاربُه
فما بالُ ميراثِ الحُتاتِ أخذته ... وميراث حربٍ جامدٌ لكَ ذائبه
فلو كان هذا الأمر فى جاهلية ... علمت مَن المرء القليل حلائبه
ولوكان فى دين سوى ذا شنئتم ... لنا حقّنا أو غصَّ بالماء شاربه(١)

وكل ذلك وغيره جعل شعره وقفاً على الخاصة وحرمه الذيوع والسيرورة و إن لم يحرم الأمثال والأبيات المأثورة . و إذا كان جرير محافظاً على الديباجة القديمة مجددا فى نسيبه و رقة أسلوبه ، فإن الفرزدق كان على عكس ذلك إذ حافظ على الغريب ، وضخامة الأسلوب والتعقيد أحيانا ، ولكنه تحرر من التزام النسيب ، وهناك ما يفرقه عن جرير فقد ظهر على شعره أنه شعر جهد ومشقة وقصد إلى تفخيم الألفاظ وضامتها تجد ذلك واضحاً فى كل شعره مثل : —

ومأثرةُ الأعضادِ صُهبٌ كأنما ... عليها مِن الأين الجِسادُ المدَوَّفُ
بدأنا بها من سِيفِ رَملِ كُهيلَة ... وفيها نشاط من مِراحٍ وعَجرف
وقد علم الجيرانُ أن قدورَنا ... ضوامِن للأرزاق والريحُ زَفزَف
نعجّل للضيفانِ فى المحل بالقرى ... قدورا بمعبوط تُمد وتغرف
وما حُلّ من جهلٍ حُبَى حلمائنا ... ولا قائل بالعُرفِ فينا يعنَّف
وما قامَ منا قائمٌ فى نَدِينا ... فينطِقَ إلا بالتى هى أعرفُ
و إنى لمن قومٍ بهم تُتقى العِدَى ... ورأبُ الثأى والجانبُ المتخوَّفُ
لنا العزةُ القعساء والعددُ الذى ... عليه إذا عُدَّ الحصَى يتخلّفُ
ترى الناسَ ما سِرنا يسيرون خلفنا ... و إن نحنُ أومأنا إلى الناسِ وقفُوا(٢)

---

(١) النقائض ص ٦٠٨ .

(٢) النقائض ص ٥٥٧ .

معنى ذلك امتياز الفرزدق بالفخر ، وضخامة الأسلوب ، وكثرة الأيام والمآثر التى ردّدها و بعضها جاهلى كالمعاقرة ، وقد استطاع تجويد الهجاء وعرض صور قبيحة فى أثنائه لنسوة كليب وأم جرير خاصة . وهناك وصف الطبيعة وقد جلى فيه الفرزدق ، كالاحظنا فى قوله :

ومَاءٍ كأن الدِمْنَ فوقَ جِمامِهِ عَباءٌ كَستْهُ من فروجِ المخارمِ
رياحٌ على أعطانِهِ حيث تلتقى عفا ، وخلا من عهده المتقادم
وردتُ وأعجازُ النُجوم كأنها وقد غار تاليها هجائنُ هاجم[1]

ووصف الجيش فى نحو قوله : —

تَمَوناَ لِنجرانَ اليمانى وأهلِهِ ونجرانُ أرض لم تُدَيَّثْ مقاوِلُه
بمختلِفِ الأصوات تسمع وسطَهُ كرِزُّ القطا لا يفقَه الصوت قائلُه
انا أمرُه لا تُعرفُ البُلْقُ وسطه كثيرِ الوَغامن كل حىٍّ قبائلُه[2]

وله قصص غزلى فى نقيضته : —

ألستُمْ عائجين بنــــا لعنَّا نرى العَرَصاتِ أو أثرُ الخيامِ

يقول فيها : —

و بيضٍ كالدُمَى قد بِتُّ أسرِى بِهِنَّ إلى الخلاء عن النيـامِ
ثلاث واثنتان فهن خمس وسادِسة تميلُ إلى الشمامِ
ظِباءٌ بدَّلَتهنَّ الليـــالى مكانَ قُرونِهن ذُرى جمامِ
ترى قُضُبَ الأراكِ وهنَّ خُضْرٌ يَمخَنَ بها وعيدان البَشامِ
ذُرَى بَرْدٍ بكرنَ عليه عَذْبٍ وليس بكورُهن على الطعامِ

---

(١) النقائض ص ٣٤٦ (٢) نفسه ص ٦٩٠

ولو أن امرأ القيس بن حُجْرٍ   بدارةِ جُلجُلٍ لرأى غرامى [(١)]

وهكذا يستمر مطيلا حتى ينتهى من قصته التى تشبه نسيب عمر بن أبى ربيعة

(ج) ولفهم ميزات الأخطل الفنية يجب أن نلاحظ أولا أنه من عبيد الشعر وصناعه وأنه امتداد لسلسلة زهير وبنيه والحطيئة وأضرابهم ممن كانوا يعكفون على القصيد يجوّدونه، ويهذّبون أطرافه، ويحذفون فضوله، ويحسنون تقسيمه ويدققون فى صوره وعباراته حتى يبدو محكما متلاحم العناصر جزلا حَوْليًّا؛ وهذه صفات الأخطل الأسلوبية الغالبة مما جعله لا فى سهولة جرير، ولا فى ضخامة الفرزدق، وإنما هو أسلوب عمِلَ فيه العقل وأحكمته الأناة حتى تأثر به جرير فى بعض نقائضه معه.

فذلك أمر. وأمر آخر هو أن الأخطل تغلبى من هؤلاء القوم الذين بقوا على مسيحيتهم ولم يسلموا ففرضت عليهم الجزية، ولكنهم عاشوا فى أكناف الدولة الإسلامية ينافسون قيس عيلان خاصة منافسة سياسية واقتصادية فاحتموا بالخلفاء وكان الأخطل وافدهم ولسانهم الذى أجاد مدح الخلفاء وصار شاعر البيت الأموى أو شاعرَ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وبذلك ثبت لقيس أو لحليفها جرير فهاجاه فى سبيل هذه الخصومة وحالف عليه الفرزدق، فأجاد المديح، وشارك فى الهجاء، ولما كان يشرب الخمر فقد أجاد وصفها ولعله تلميذُ الأعشى وأستاذ أبى نُوَاس وطبقته.

وهناك أمر ثالث ضيّق على الأخطل مذاهب المهاجاة والمفاخرة فخصمه جرير من مضر أصل قريش قبيلة النبوة والخلافة التى تحميه هو وقومه، فلم يستطع

---

(١) النقائض ص ٥٠١

الأخطل أن يهجو جريراً من هذين الجانبين فى حين فخر عليه جرير بمضريته وبالنبوة والخلافة وهجاه بنصرانيته وحرمان قومه مكارم السلطان والإسلام كما أسبقنا .

وهناك عدم تورط الأخطل فى الفحش والإقذاع بدرجة زميليه ، وهو أمر واضح ، وقد يكون سببه أن الأخطل يتجه بشعره إلى مدح الخلفاء والأمراء فلم يشأ أن يخلط ذلك بكثير الهجاء ومقذعه وإن فعل ذلك أحياناً ، وإن كثر فى مدائح صاحبيه ، وقد يكون السبب أن الأخطل ، لنصرانيته ، لم يجرؤ على التشنيع بنساء قيس ويربوع المسلمات ففى ذلك حرج وعدوان على مكانة الدولة وتقاليدها المحترمة ، وقد يكون مرجع ذلك عدم افتتان الأخطل بهذا البذاء فلم يكثر منه توقراً ولاسيما أن مدرسته الفنية لم تتورط فى الفحش وإن لم تخل من هجاء مقذع فى بعض الأحيان ، فسارا الأخطل على نهجها ولم يكثر السباب والتشنيع ، على أن مهاجاة الأخطل مع جرير غلبت عليها النزعة القبلية دون الفردية الشخصية ، وتلك تستدعى الأيام ، والمثالب العامة ، من جبن ، وبخل ، أكثر من استدعائها جرح الأعراض ، وقذف المحصنات ، وتصوير العورات مما دار بين زميليه متصلا بنسوة كليب ومجاشع وبجهثن وأم جرير .

كل ذلك ضيق مجال الهجاء أمام الأخطل وقلّل من معانيه فاعتمد على التصوير الحسى ، سيمة مدرسته ، ليسد هذا النقص ، ويضمن الظفر ، مادامت المعانى المجردة قليلة وغير مؤثرة ، لذلك تجده يقول فى بنى كليب : —

قوم إذا استنبح الأضيافُ كلبهمُ ... قالوا لأمهم : بولى على النار
أمٌّ لئيمةُ نجلِ الفحلِ مقرِفةٌ ... أدّتْ لِفحلٍ لئيمِ النجلِ شخّار
يومَ الكلاب وقد سيقت نساؤكمُ ... سوقَ الجلائب من عُونٍ وأبكار (١)

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٣٥ وما يليها

ثم يقول فى بنى يربوع :

وما اليربوعُ مُحتضِناً يديه يمُنّ عنِ بنى الخطَفى قِبالا
تُسدُّ القاصــعاء عليه حتى يُنفّقَ أو يموتَ بهــا هُزالا
فلا تدخُلْ بيوتَ بنى كُليب ولا تقــرَبْ لهم أبداً رِحالا
ترى فيها لوامـــع مُبرِقات يكدن . . . بالحدق الرجالا
قصيراتُ الخطا عن كل خير إلى السوءاتِ مُسْمِحَةً عِجالا(١)

ويقول من نقيضة :

تاجُ المــلوكِ وصهرُهم فى دارم أيام يربوع مع الرُّعيـــانِ
مُتلفّفٌ فى بُرْدةٍ حبَقيّــةٍ بِفنــاء بيتِ مذلّةٍ وهوانِ
يغذو بنيه بِشَــلةٍ مذمومةٍ ويكونُ أكبرَ همِّهِ رِيقــانِ
أجريرُ إنك والذى تسمو له كمسيفةٍ فخرت بحِدج حصانِ
حملتْ لِربّتها فلما عُوليتْ نسلتْ تعارضُها مع الأظعانِ(٢)

كذلك يمتاز نسيبه بذكر الخمر معه ووصفها ، ولم يكن يلتزم هذه الديباجة التقليدية دائماً فقد بدأ إحدى نقائضه بقوله :

مازال فينا رِباطُ الخيل مُعلَمةً وفى كليبٍ رِباطُ الذلّ والعار(٣)

واقرأ رائيته التى درسناها سابقاً ثم اقرأ نقيضته :

بَكرَ العَواذلُ يبتدِرْنَ مَلامتى والعــاذلون فكلهم يَلحانى
فى أنْ سُقيتُ بشربةٍ مقدِيّةٍ صِرفٍ مُشَعْشَعةٍ بماء شُنانِ
فظللتُ أسقى صاحبى مِن بَردِها عمــداً لأرويَه كما أروانى

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ (٢) نفسه ص٢٢٢ (٣) نفسه ص١٣٤

وذكرتُ إذ جرت الشمالُ فهيّجت ... شـــوقاً لنا رَيّا وأمَّ أبانِ[(١)]

وقد رأيت فيما قدمنا كيف أجاد مدحَ عبد الملك حتى سارت أبياته فيه مثلا حُسد عليه عبد الملك:

الخائضُ الغمرِ والميمونُ طائرُه ... خليفةُ الله يُستَسقَى به المطَرُ

الأبيات[(٢)].

كان الأخطل من طراز خاص يمتاز بتجويد نظمه، وإحكام مدحه، ووصفه الخمر، واعتماده على التصوير، وتقليله من الفحش والإقذاع. وكان هجاؤه جريراً بالقلة، والفقر، وتقديم دارم على يربوع، كما كان هجاؤه قيساً بالأيام التى كانت لتغلب عليهم مع قلتها.

— ٣ —

وإنما ننتهى من هذا الفصل بالموازنة بين فحول النقائض الأموية فى هذا الجانب المتصل بموضوعنا، وليس من ثمرات الموازنة دائماً أن نُفَضّل شاعراً على آخر، إذ أن النقد الأدبى يكون توضيحاً كما يكون ترجيحاً، وربما كان التوضيح والوصف أجدى على الباحث، فليس يخلو شاعر من ميزة تفضله على نظيره مهما تكن قيمتها، والتاريخ الأدبى حافل بروايات شتى تصور ما أثار هؤلاء الفحول من آراء نقدية، واختلاف بين النقاد فى المفاضلة بينهم، وبيان خضوع هذه الآراء للأمزجة، والعصبيات، والمواهب العلمية والفنية حتى لم يتفق أهل مجلس قديم على تفضيل واحد على الآخرين.

وكان هؤلاء الفحول بعضهم فى بعض آراء نقدية مذكورة فى المراجع القديمة لا يعنينا هنا إيرادها وإن إشرنا إلى أكثر ذلك فيما مضى من فصول.

---

(١) نفسه ص١١٩ (٢) نفسه ص١٥١

وقد لاحظنا فى الصفحات الأخيرة أن جريراً يمتاز بالنسيب والرثاء ، والأخطل بوصف الخمر ومدح الملوك ، والفرزدق بالفخر ، أما الهجاء فكان قدراً مشتركاً بين ثلاثتهم ، وعنده نقف قليلا لنلاحظ أن الأخطل اتصل بصاحبيه كبير السن فلم يكن فى قوتهما ، وكان محرَجا فلم يستطع مجاراتهما فى الهجاء ، فقلت معانيه واعتمد على التصوير يسدّ به هذا النقص ، ولـكنه كان مغلَّبًا فيه على كل حال .

وكان جرير سفِهًا سَلِيط اللسان مُرّ الهجاء ، وقد ساعده سهولة أسلوبه وسَيْرورَة شعره فـكانت معانيه على بساطتها تسير فى الناس وتحدث آثاراً ساحرة عجيبة .

أما الفرزدق فمع كثرة معانيه وتنوعها أعوزه الأسلوب السائر السمح الذى يجعل لهجائه آثاراً بعيدة ، وصيتاً عَريضا .

على أن فخرَ الفرزدق يسند هجاءه، وهوانَ حسبِ جرير مع ثبوته الأدبى لهؤلاء الخصوم يدل على قوة شكيمته و براعته الفنية .

ومهما يكن من أمر فنرجو أن تتاح لنا فرصة للتوسع فى هذا الدرس الفنى لفحول النقائض الأمويين .

الفصل التاسع

قيمة النقائض الأموية

— ١ —

ماذا أفدنا من هذه النقائض ؟ وماذا أنكرنا منها ؟

هذه هى المسألة الأخيرة التى نتناولها ، بالنظر ، فى هذه الفصول ، وهى أيضاً ، بحسب المنهج التاريخى لموضوعنا ، تأتى آخر ما ندرس ، إذ كانت ثمرة الدراسة التاريخية كما هى ثمرة الدراسة الفنية منذ ارتقت النقائض إلى ذروتها فى عهد الأمويين .

ولما كانت النقائض فناً ممتازاً فى تاريخ الأدب العربى ، وشغل من عصوره ، ومادته ، ورجاله ، قدراً خطيراً ، كان من الطبعى أن نسأل عن قيمة هذا الفن وما خلّف لنا من فوائد أو مضار .

وأول جانب ندرسه من حيث فوائده هو الجانب اللغوى .

من الأمور المقررة أن أنماط اللغة الدائرة فى عصر ما إنما هى تراث الماضى البعيد وثمرة عصور سحيقة تعاقبت عليها بالزيادة ، والنقص ، والتحريف ، والتصحيف ، سواء فى المعانى والألفاظ والعبارات والأساليب ، لأن كل عصر يتخذ (مادة) اللغة وسيلة للتعبير فيكيفها ، إلى حد ما ، بحسب أغراضه ، ويضفى عليها روحه ، ومواهبه ، ودنياه الحسية والمعنوية لذلك يجمع العصر اللغوى الواحد

خليطاً من القديم والحديث ، ويُحيي مجموعات من الألفاظ ويميت أو يضعف أخرى حسب حاجته الكلامية .

ولما كانت النقائض الأموية نهضة فنية خاصة نشطت بعد فتور ، وقويت بعد ما كانت ضعيفة ، واعتمدت على فنى الفخر والهجاء أكثر من غيرهما ، كان من الطبعى أن يكثر استعمال السباب ، والبذاء ، هجاء ، وألفاظ الفخامة والتهويل والاعتزاز . فخراً ، فهذا شىء بدهى ، وإذا كانت (الأحساب) وقفاً فى الجاهلية على النجدة ، والمروءة ، والكرم ، والشجاعة فإن هذه (الأحساب) زادت فى الإسلام معانى البلاء فى الفتوح ، ونصرة الدين ، والقربى من أسرة النبوة والخلافة ، والمشاركة فى المواقف السياسية والدينية ، كذلك (المثالب) اتسع معناها فشملت عكس ما ذكرنا ، وكان معنى « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » يفهم على حقيقته فى الجاهلية ، ثم فسر فى صدر الاسلام تفسيراً آخر ، ولكنه عاد إلى معناه القديم فى بعض البيئات الاسلامية التى أعادت الحمية الجاهلية سيرتها الأولى .

ولما كانت النقائض كثيرة العدد مديدة الطول كثرت قوافيها فاضطر الشعراء إلى إحياء قواف قديمة وحديثة سداً لحاجة النظم واستكمالا لأبواب المناقضة والملاحاة فظهرت ثروة لغوية أكسبت المعاجم مادة غزيرة ، ووضعت أمام الكتاب والشعراء والخطباء ذخيرة كلامية نافعة ، وهناك معان جديدة تولدت أثناء هذا الحوار المتواتر كموت الهوى فى قول جرير : —

ولقد أرى بِكَ ، والجديدُ إلى بِلًى، موتَ الهوَى وشِفاء عين المجتلى[1]

---

(١) النقائض ٢١٢ .

وقوله : —

فلما التقى الحيّانِ أُلقيت العصا وماتَ الهوى لما أصيبَتْ مقاتله[١]

وكقول الفرزدق : —

وما تنفكُّ تُبصر فى طريقٍ كُلَيبيًّا عليـــــه مزادتان[٢]

فلهجت بنو مجاشع بإنشاد هذا البيت لخفته وصورته الساخرة المضحكة حتى قال جرير لبنى مجاشع مشيراً إلى هذا البيت :

أغرَّكم الفرزدقُ من أبيكم وذكرُ مزادتين على حمـار[٣]

كذلك الانتفاع بمعانى القرآن الكريم وأساليبه كما قدمنا فى الفصل الماضى.

وقد رأينا فى النقائض آثار اللهجة التميمية القديمة كقول الفرزدق : —

إذا عجزَ الأحياءُ أن يحملوا دما أناخ إلى أجدافِنا كل غارم[٤]

فى رواية لكلمة (أجداثنا) .

وقد وجدنا فى النقائض شذوذ الفرزدق النحوى كقوله : —

وعضُّ زمان يا ابنَ مروانَ لم يَدَعْ من المـال إلا مُسحتاً أو مُجرَّف[٥]

برفع (مجرف) مما أتعب النحاة ، وكقوله : —

بخير يدَى من كان بعدَ محمد وجاريه والمظلوم لله صـــائمِ[٦]

بجر صائم ، والوجه الرفع .

---

(١) النقائض ص ٦٣٠ .

(٢) نفسه ص ٢١٨ .

(٣) نفسه ص ٢٤٨ .

(٤) ص ٥٥٦ .

(٥) ص ٣٤٥ .

(٦) ص ٢٧٩ .

ووجدنا معاظلته وتعقيده الذى جعل التعبير ألغازاً لغوية عسيرة الفهم والتوجيه كقوله : —

أبى مَن إذا ما قيلَ من أنتَ مُعتزٍ ... إذا قِيلَ مِمَّن قومُ هذا المُراجم (١)

وهناك بعض الصور الفنية الجميلة التى ترد خلال النقائض كقول الفرزدق فى ماء مرّ به فجرا : —

وردتُ وأعجازُ النجومِ كأنها ... وقد غار تاليها هجانٌ هاجم (٢)

ولفخامة شعر النقائض وبداوة فحوله حوىّ الغريب من اللغة ولا سيما على لسان الفرزدق الذى قيل فيه لولا شعره لذهب ثلث اللغة ، وقد سجلت النقائض أسماء (الأيام) العربية ، والجاهلية خاصة مما دعا الشراح إلى إيراد أخبارها فكانت مادة للتاريخ والقصص غزيرة نافعة . واستطاع النظم أن يضبطها هى وأسماء الأماكن ، والمدن ، والقرى ، وإن ثنى أو جمع مفردها كالكواظم فى (كاظمة) وهكذا .

— ٢ —

ومن الجانب الأدبى تعدُّ النقائض رُقياً عظيما للشعر القديم وخاصة الفنون التى كانت قوامها ، وذلك لأن النقائض قامت على أساس المنافسة والتحدى فاجتهد شعراؤها فى تجويدها من حيث المعانى ، والألفاظ ، وَالصور ، وَالأساليب حتى كانت آخرَ ما انتهى إليه الشعر الإسلامى المحافظ ، وَيمكن اعتبار النقائض، إلى حد كبير ، امتداداً ناضجاً للشعر الجاهلى وتطوراً خطيراً له ، وربما كانت

(١) النقائض ص ٣٤٦ . (٢) نفسه ص ٢٣٨ .

تاريخاً للحياة الجاهلية نفسها أكثر من الشعر الجاهلى فى أكثر من جهة كالأيام ، والحوادث ، وشخصيات القبائل القديمة ورجالها كما يلى ، وقد شبه هؤلاء الفحول بفحول جاهليين كالأعشى ، وزهير ، والنابغة وظهر الروح الجاهلى فى شعرهم واضحاً كقول الفرزدق : —

وقد علم الجـــيرانُ أن قدورنا ضوامنُ للأرزاق والريحُ زفزفُ
نُعجّلُ للضيفان فى المحل بالقرى قدوراً بمعبوطٍ تُمدُّ وتغرفُ
تُفرّغُ فى شيزى كأن جفانها حياضُ جبى منها ملاء ونُصّفُ
ترى حولهنّ المعتفين كأنهم على صنمٍ فى الجاهلية عُكّفُ
وما حُلمٌ من جهلٍ حُبى حُلمائنا ولا قائلٌ بالعرفِ فينا يُعنَّفُ (١)

وقد لاحظنا أن الفخر والهجاء امتازا بخواص جعلتهما أشد فنون النقائض خضوعا للاستحالة والقوة ، كالطول ، والإفحاش ، والاستقصاء ، وقوة الجدل والاحتجاج .

كذلك خلفت لنا النقائض ثروة نقدية ذات مذاهب لغوية وأدبية ، واجتماعية ، سجلتها الكتب القديمة وبخاصة أغانى أبى الفرج الأصفانى فى سير هؤلاء الفحول وغيرهم ممن اتصلوا بهم كذى الرمة ، والراعى ، وإن لم يتفق النقاد على رأى حاسم فى المفاضلة بين جرير وصاحبيه ، فكان يونس يقدم الفرزدق على جرير مرة ، ثم يقدم عليهما الأخطل مرة أخرى ، وكان الرواة يؤثرون الفرزدق والشعراء يفضلون جريرا ، وأبو عمرو يفضل الأخطل وهكذا كثر الكلام حولهم متأثرا بثقافة النقاد ومواهبهم وظروفهم .

---

(١) النقائض ص ٥٦٣ .

كذلك ظفرنا من النقائض وحدها بفهم الأساليب الشعرية المختلفة التى وصفناها فى الفصل الماضى ما بين شعر محكّك مصنوع وشعر سهل طبعى ، وثالث فخم جليل ، وعندى أن النقائض كانت خير معرض لدراسة هذه الأساليب لأنها صورتها فى أقوى صفاتها وأوضحها ما دامت المنافسة قائمة ، والموازنة يسيرة لوحدة الموضوع والأسلوب .

كذلك نجد فى النقائض الفرق بين هـذا الشعر الذى غلبت عليه المحافظة و بين ذلك الشعر الذى غلب عليه التجديد و إنما أقصد الشعر الغزلى والسياسى .

كان شعر النقائض جزلا فخماً غريب الألفاظ وكان شعر الغزل والسياسة سهلا مأنوساً مألوف الألفاظ ، وكانت النقائض تأخذ معانيها من الماضى كثيرا بعكس هذين فكانت معانيهما إسلامية حديثة من واقع الحياة الجارية ، وكانت النقائض مشغلة الفحول فى حين شغل بالسياسة والغزل مَنْ هم دونهم مكانة وجلالا . وقد نما الغزل فى الحجاز ، والنقائض فى العراق ، وغلب الشعر السياسى على العراق أيضاً .

وجد النسيب فى النقائض والسياسة ثانويا ولكنه عاش سيدا فى الحجاز ، ولم تخل النقائض من السياسة ولكن العصبيات كانت أشد تأثيرا فيها ، وطبعا لها بطابعها الجاهلى العنيف .

استطاعت النقائض أن تمد (المربد) عكاظ الإسلام بمادة غزيرة هى ، فيما يخيل إلى ، أضخم وأكثرُ من مادة عكاظ الجاهلية فقد كانت حلقات أدبية تعقد فى المربد وينشد فيها جرير والفرزدق نقائضهما ، وينقلها الرواة وغيرُهم بين الشاعرين ، وتنتظر القبائل شعر هذين فإذا به يسير فى أقطار العالم العربى حافلا بشخصيات القبائل ، والرجال ، والنساء ، والشعراء ، وقد نهض جرير والفرزدق

بتمثيل قوميهما تمثيلا قوياً ، ونافحا عنهما أشد منافحة حتى قال جرير للراعي وابنه جندل : « أما والله يابنَ بَرْوَع لتأتينَّ بني نمير بأعباء ثقال ، إن أهلي ساقوا بي و براحلتي حتى وضعوني بقارعة الطريق بالمربد ، والله ما أكسبهم دنيا ولا أخرى إلا لأسُبَّ من سبهم من الناس ، و إن عُبيدا بعثه أهله على رواحلهم من أكناف خُلُصَ وهُبُودَ يلتمس عليها الميرة والخيرَ وأيمُ اللهِ لأُوقِرَنَّ رواحِله مما ساء نسوةَ بني نمير(١) » .

وقال الفرزدق : —

أنا ابنُ تميم والمحامي وراءها إذا أسلم الجاني ذِمارَ المحارم(٢)

وفي المربد اتخذ كلٌّ زيا خاصاً تناقضا حوله كما مر .

مثلت النقائض ، بمكانتها هذه ، الحياة الأدبية بأفخم وأقوى جوانبها ، بالشعر المحافظ القوى ، وذلك لرقي الشعر ، وسيرورته ، وصلته بالسياسة ، والاجتماع وحفاوة الناس بهذا الفن ، وتمثيله أعظم نشاط في العصر الأموى ، حتى إن مؤرخ الأدب الأموى إنما يصطدم أول مايصطدم بشعر الفحول أولا و بنقائض جرير وزميليه ثانياً .

— ٣ —

والنقائض تصور لنا جوانب شتى من الحياة السياسية الأموية لذلك تعد مصدراً تاريخياً قيما . وقد بكرت النقائض بتمثيل ذلك منذ اختلف علي ومعاوية على الخلافة الإسلامية ووقف كعبُ بن جُعَيل مع معاوية يقول : —

---

(١) النقائض ص ٤٢٨ . (٢) ص ٣٢٩ .

أرى الشام تكرهُ مُلكَ العِراقِ وأهـــلُ العراق له كارهونا
وكلٌّ لصـــاحبه مبغضٌ يرى كلَّ ما كان من ذاك دينا
وقالوا : عليٌّ إمامٌ لنـــــا فقلنا : رضينا ابنَ هندٍ رضينا

فيرد عليه النجاشي الحارثى عن علىٍّ بقوله :

دَعنْ معـــاوى ما لن يكونا فقـــد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهـــل العراق وأهل الحجاز فما تصـــنعونا
فإن يكرَهِ القومُ مُلكَ العراق فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا[1]

وهى مناقضة تلخص لنا موقف العراق من الشام ، وعلى من معاوية ، وما استتبع ذلك من حرب انتهت بخدعة التحكيم ، وظهور الأحزاب ، وفوز الأمويين . فإذا تقدمت الأيام وقام بالأمر يزيد بن معاوية خرج عليه ابن الزبير ونصره على أهل الشام الخوارج والمرجئة والشيعة ، وكان عُظْم الخوارج من تميم إذ ذاك فقاتلوا مع ابن الزبير حتى مات يزيد بنُ معاوية وذلك قول جرير فى شطره الثانى :

عَنِ المنـــبر الشرق زادت رِماحُنا وعن حُرمةِ الأركان يُرمَى حَطيمُها[2]

وأما المنبر الشرقى فهو منبر البصرة حين غلب عليها سلَمَةُ بن ذؤيب الرياحى أيام فتنة ابن الأشعث[3] . فلما كانت وقعة المرْج تناقض حولها اليمنية والقيسية بين عَمرو بن مِخلاة الكلبي وزُفَر بنِ الحارث الكلابى كما قدمنا[4] و بين جوّاس الكلبي ومَعبد بن عَمرو الكلابى[5] وهى مناقضة تصوّر لنا موقف

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٦٢ .
(٢) النقائض ص ١١٨ .
(٣) النقائض ص ١١٨ .
(٤) نقائض جرير والأخطل ص ١٧ — ١٩
(٥) نفس المرجع ص ١٩ — ٢١ .

اليمن مع الأمويين وموقف القيسية عليهم كما تصوّر لنا أن الأمويين لم يشكروا لبنى كلب نصرهم إياهم وذلك حيث يقول جواس الكلبي : —

ضَرَبْنا لكم عَن مِنبَرِ المُلكِ أهلَهُ (بجَيرونَ) إذ لا تستطيعون مِنبَرا
وأيامَ صِدقٍ كلّها قد علمتُم نصرْنا ويومَ المرْجِ نصراً مؤزّرا
فلا تكفروا حُسْنى مضَتْ مِن بلائنا ولا تمنحونا بَعْدَ لِينٍ تجبُّرا

كذلك تدل المناقضة بين زُفر بن الحارث الكلابي القيسي و بين جوّاس الكلبي [1] على هرب زُفر ذلك اليوم وأسفِه وعزمه على معارضة الأمويين والثأر لقتلى قومه يوم المرج كما تدل على شماتة كلب بقيس عيلان ، وقد رأينا موقف تغلب مع مروان هذا اليوم من قول الأخطل لجرير :

وقد كان يوماً راهطٍ من ضلالكم فَناه لأقوامٍ وخَطباً مِن الخُطْبِ [2]

وفيه قُتل الضحاك بن قيس الفهرى من قيس عيلان .

فإذا كان عهد عبد الملك وقد حميت المناقضة واشتبك فيها فحولها الثلاثة رأيناها تسجل لنا حكومة نشيطة ، وصراعاً بينها و بين معارضيها ، وعصبيات تستغلها السياسة العليا وولاة وأمراء ذوى سياسة خاصة ممتازة ، وصلات بالروم وغيرهم وفوزاً للخليفة مُؤَزَّراً ، وأسرة حاكمة مُوقَّرة حازمة . ظهر ذلك فى شعر الأخطل كقوله من نقيضة ، فى عبد الملك :

يَعلو القناطرَ يبنيها ويهدمُها مُسَوَّمٌ فوقَهُ الراياتُ والقَتَرُ
حتى استقلَّ بأثقال العراق وقد كانت له فيهم أيدٍ ومُدَّخَرُ
فى نَبعةٍ مِن قريش يعصِبون بها ما إن يُوازى بأعلى نبتها الشجرُ

---

(١) نفسه ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) نفسه ص ٩٨ وانظر الحاشية

وتبيّن من هذه النقيضة أموراً سياسية أو متصلة بالسياسة إلى حد بعيد ، فبنو أمية أهل حزم وحصافة وحق ملكي :

لم يأشِروا فيه إذ كانوا مَواليَه ولو يكون لقومٍ غيرهم أشِرُوا

وهم أعداء قيس الزبيرية بزعامة زفر بن الحارث الكلابي :

بني أميّة إني ناصحٌ لكمُ فلا يَبيتَنَّ فيكم آمناً زُفَرُ
واتّخذوه عدواً إن شاهدَه وما تغيّبَ مِن أخلاقِه دَعَرُ

وقد وقف الأخطل مع أمية على الأنصار :

بني أمية قد ناضلتُ دونكمُ أبناءَ قومٍ همُ آوَوا وهم نَصرُوا
أفحمتُ عنكم بني النجار قدعلمت عُليَا مَعدٍّ وكانوا طالما هدروا

ووقف قومه مع أمية على قيس فقتلوا عُميرَ بنَ الحُبابِ السلمي يوم الحَشّاك :

وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنينَ بنا لما أتاكَ ببطنِ الغوطةِ الخبرُ
يعرّفونكَ رأسَ ابنِ الحبابِ وقد أضحى وللسّيفِ في خيشومه أثرُ
أمستْ على جانبِ الحشّاك جيفتُه ورأسُه دونَه اليحمومُ والصوَرُ(١)

ونرى من النقائض الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أمير البصرة يهدم داري جرير والفرزدق لتهاجيهما فيلومانه معاً ، أما الفرزدق فيخلط لومه بعزته :

أحارث داري مرّتين هدمتها وكنتَ ابنَ أختٍ لاتُخافُ غوائله
فقبلكَ ما أعيَيْتُ كاسرَ عينِه زياداً فلم تقدِرْ عليّ حبائلُه(٢)

وأما جرير فاحتجّ بكتاب الله وهجا الفرزدق وزوجه النوار :

أحارث خذ مَن شئتَ منّا ومنهم ودعْنا نقِسْ مجداً تُعَدُّ فواضِلُه

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٥٤ (٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٠٧ .

فما فى كتابِ الله تهديمُ دارِنا بتهديم ماخور خبيثٍ مداخِله
وفى مخدعٍ مِنه النوّارُ وشَربُهُ وفى مَخدع أكيارُه ومراجِله(١)

وهـذا الحجاج الثقفى والى عبد الملك على العراق وقاتل ابن الزبير تذكره النقائض فى قول جرير من نقيضة : —

أرى الطيرَ بالحجاج تجرى أيامِناً لـكم ياأميرَ المؤمنين وأسعُدا
رجعتَ لبيت الله عهـدَ نبيِّهِ وأصلحتَ ما كان الخُبيبان أفسدا(٢)

والخُبَيبان عبد الله ومصعب ابنا الزبير ، وكان عبد الله نقض الكعبة لما وحرقت ، وأخل الحِجْرَ فيها ، فلما ظفر الحجاج هدمها و بناها على بنائها اليوم ، وأحرق البيتُ ليلة مات يزيدُ بن معاوية .

وقد مر القول فى العصبيات الكبرى وأثرها فى سياسة الدولة وتصوير النقائض لذلك تصويراً واضحاً ، فنقائض جرير تصوّر العصبية القيسية على تغلب أدارم وأمية أحياناً ، ونقائض الفرزدق تصور عصبية تميم على قيس ونزعة العراق للاستقلال عن الشام ، ونقائض الأخطل صحيفة تغلب على قيس ويربوع ومع أمية ما دامت تحمى تغلب وتساير صوالحها .

وهنـاك الأيام الجاهلية والإسلامية التى أحصت النقائض كثرة منها ضخمة وقد ذكرنا منها ما يكفى فى الفصول السابقة ، ونشير هنا إلى يوم مرج راهط ، وصفين ، وعبد الله بن خازم السلمى وفيه يقول الفرزدق : —

كأنكَ لم تسمعْ تميماً إذا دعَتْ تميمٌ ولم تسمعْ بيوم ابنِ خازِمِ
وقبلكَ عجّلنا ابنَ عَجْلَى حِمامَهُ بأسيافنا يصـدعْنَ هامَ الجماجم(٣)

---

(١) نفس المرجع ص ٦٨٣ . (٢) النقائض ص ٤٨٦ .
(٣) نفسه ص ٣٧٣ .

وكان صاحب خراسان قتله ابن الدورقية وهو وكيع بن عمير القريعى ، وذلك الشعر كان فى عرض تصوير حادث قتيبة بن مسلم ، قتله وكيع بن حسان ابن أبى سود بن كليب ابن يربوع : —

لقد شهدتْ قيسٌ كان نصرُها قُتيبةَ إلا عضَّها بالأباهمِ
أتغضبُ أن أذنا قُتيبة حُزَّتا جِهاراً ولم تغضبْ ليوم ابنِ خازم
وما منهما إلاَّ بَعثْنَا برأسِه إلى الشَّامِ فوق الشاحِجاتِ الرواسم (١)

ذلك أيام هشام بن عبد الملك سنة ٩٦ ﻫ .

وتدلنا النقائض على أن عبد الملك صالح قيساً فغضب الأخطل لذلك وأخذ يغرى عبد الملك بقيس وزعمائها حتى كان من ذلك يوم البِشْر الذى صاح منه شاعر تغلب وأخذ يهدد الأمويين : —

لقد أوقع الجحافُ بالبِشرِ وقعةً إلى اللهِ منها المُشتكَى والمعوَّلُ
فإلا تُغيِّرها قريشٌ بِملكِها يكنْ عَنْ قُريشٍ مُستمازٌ ومَزحَلُ
وتعرُزْ أناساً عزَّةٌ يكرهونها فنحيا كِراماً أو نموتُ فنُقتَلُ
فإن تحملوا عنهم فما مِن حَمالةٍ وإن عظمت إلا دمُ القومِ أثقلُ
وإن تعرِضوا فيها لنا الحقَّ لا نكنْ عن الحقِّ عُمياناً بل الحقَّ نسألُ (٢)

فهذه أمثلة جزئية تدل على مقدار ضئيل لتصوير النقائض عصرها السياسى وليس فى وسع هذه الصفحات استقصاء ذلك الجانب .

— ٤ —

وربما كان تصوير النقائض لعصرها الاجتماعى أوسع وأوفى ، ذلك لأن

(١) ص ٣٧٤ .   (٢) نقائض جرير والأخطل ص ٦٣ .

الفحول لم يفرغوا للسياسة فراغ شعراء السياسة الذين ألممنا بهم في غير هذا المكان[١] وإنما عاشوا حياةً اجتماعية ، بدوية ، جاهلية ، تؤثر فيها العصبيات القبلية والتقاليد الاجتماعية ، ولا حاجة بنا هنا إلى القول في العصبيات بعدما قدمنا في الفصل الأول من هذا الباب ، وحسبُنا أن نذكر هذه العصبية التي فرقت بين تغلب وقيس النزاريتين وجمعت بين تغلب واليمن ، والتي جمعت بين الأخطل التغلبي والفرزدق التميمي على جرير التميمي ففرقت بين دارم ويربوع وكانت النقائض ديوان ذلك في أكثر نُصُوصها .

وكانت النقائض معرضاً اختلطت فيه التقاليد الإسلامية والجاهلية معاً ، من مفاخرة (بالمِربد) ومعاقرة[٢] يفخر بها الفرزدق :

ألم تعلموا أني ابنُ صاحبِ صَوءرٍ ... وعندي حُساما سيفِهِ وحمائلُهْ[٣]

وينكرها عليه جرير : —

ولا يستوي عقر الكَزُوم بصوءرٍ ... وذو التاج تحت الراية المتسيِّفُ[٤]

والحج ، والأسرى ، والجزَى ، وصلاح جرير وعفته ، وفجور الفرزدق وسفاهته ، والصلاة ، والصوم ، والنبوة ، والخلافة ، ثم الردافة[٥] في يربوع : —

والرِدفِ إذ ملكَ الملوكَ ومَن له ... عِظمُ الدسائع كلَّ يومِ فِضالِ

والإجازة : —

لنا حوضُ النبي وساقياهُ ... ومَن ورِثَ النبوة والكِتابا

ومِنا مَن يُجيرِ حجيجَ جمعٍ ... وإن خاطَبْتَ عزكمُ خِطابا[٦]

---

(١) تاريخ الشعر السياسي للمؤلف . (٢) النقائض ص ٤١٣ و ٩٤١ و ٩٩٩

(٣) نفسه ص ٦٢٥ . (٤) نفسه ص ٥٨٠

(٥) نفسه ص ٢٩٨ . (٦) نفسه ص ٤٥٠

كذلك أشارت إلى كثير جداً من الحوادث الاجتماعية المتصلة بالسياسة وغيرها كحادثة ضرب الروى المشهورة [1] ومقتل أعين أبى النوار [2] وحميدة المالكية امرأة معبد السليطى مع حوط بن سفيان : —

حُمَيْدَةُ كانت للفرزدق جارةً ... ينادم حَوطاً عندها والمقطّما [3]

حتى رُجمت فى مقبرة بنى شَيْبان .

وهناك أحساب القبائل ومثالبها ومن بين هاتين تتبين شخصيات القبائل ورجالها ، كحسب دارم ، وفقر يربوع وشجاعتها ، ومجد قيس ، وكذلك الأنساب كقضية أخوال الفرزدق ، و بيوت شيبان [4] .

وهذه الطوائف ذات الألقاب الخاصة السائرة كقول الفرزدق : —

وإذا الرّبائع جاءنى دُفّاعُها ... موجاً كأنهمُ الجرادُ المرسَلُ

هذا ، وفى عَدَويتى جُرثومةٌ ... صَعبٌ مناكبها نيافٌ عَيطَلُ

وإذا البراجمُ بالقُروم تخاطروا ... حولى بأغلبَ عِزّهُ لا يُنزلُ [5]

الربائع ثلاثة ربيعة الكبرى ، وربيعة الوسطى ، وربيعة الصغرى ، والعدوية فكيهة بنت مالك من زيد مناة فولدت صُدَيّاً وَزَيْداً ويربوعا فغلبت على بنيها فنسبوا إليها ، والبراجم خمسة من بنى حنظلة بن مالك : قيس ، وغالب ، وعمرو ، وكُلفةُ ، والظُلَيم .

ثم الأحمال فى قول جرير :

أبنى قُفيرةَ من يُوَرِّعُ وِردَنا ... أم مَن يقومُ لشدةِ الأحمالِ [6]

---

(١) النقائض ص ٣٨٣ (٢) نفسه ص ١٢٥
(٣) ص ٨٣٠ (٤) ص ٥٨٦ — ٥٨٧
(٥) ص ١٨٦ (٦) ص ٣٠٤

والأحمال من بنى يربوع هم سليط ، وعمرو ، وصُبير ، وثعلبة ،وأمهم السفعاء الباهلية . والصِمّتان فى قوله : —

سَعَرْناعليكالحربَ تغلىقدورَها ‏ ‏ ‏ فألاَّ غداةَ الصِمّتين تُديمها [١]

والصمتان معاوية بن مالك بن علقة بن غزيّة وأخوه : والكملة من شعر الفرزدق : —

وهم الذين عَلوا عُمارةَ ضربةً ‏ ‏ ‏ فوهاء فوق شئونه لا توصل [٢]

عمارة بن زياد العبسى أحد الكملة الأربعة ، والأراقم فى قوله : —

وما لقيت قيس بن عيلانَ وقعةً ‏ ‏ ‏ ولا حرَّ يوم مثل يوم الأراقم [٣]

والأراقم هم جُشَم وهم رهط مهلهل ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن ثعلبه ، رهط الهذيل بن هُبيرة ، وحنش بن مالك ، ومعاويةوالحارثُ بنو بكر بن حبيب بن غَنْم بن تغلب . والعواتك فى قول جرير . —

بنو المجد قيسٌ والعواتكُ منهم ‏ ‏ ‏ ولَدْنَ بحوراً للبُحور الخَضارم [٤]

والعواتك من بنى سُليم منهن أم هاشم والمطلب وعبد شمس بنى عبد مناف وأمهم عاتكة بنت مُرّة ، وعاتكة بنت فالج بن ذكوان أم جد الرّسول . هاشم بن عبد مناف بن زهرة جد رسول الله من قِبل أمه آمنة ، وسائر العواتك أمهات الرسول فهن تسع . والأجارب فى قوله : —

قتل الأجاربُ يا فرزدقُ جارَكم ‏ ‏ ‏ فكلوا مزاوِد جاركم فتمتّعوا [٥]

والأجارب خمس قبائل من بنى سعد وهم ربيعة ، ومالك ، والحارث ، وعبد العزّى ، والحرام . ونحو ذلك كثير [٦]

---

(١) النقائض ص ١١٩ ‏ ‏ (٢) ص ١٩٣ ‏ ‏ (٣) ص ٣٧٣
(٤) ص ٤٠٣ ‏ ‏ (٥) ص ٩٦٩
(٦) راجع الأكابر والأحاليف والأقارع والأعياص والعنابس مستعينا بالفهرس ج ٣ من النقائض

وقد رأينا كيف رمى جرير صاحبيه من ناحية الدين ، فالفرزدق زان ، يحالفُ النصارى ، والأخطل يسجد للصليب ، ويشرب الخمر ، ويأكل لحم الخنزير ويدفع الجزية ، ولا يعرفُ شعائر الإسلام .

وأما أعيان القبائل فقد تردد ذكرهم خلال النقائض ، ومنهم الجاهلى والإسلامى ، فالهذيل التغلبي أوقع ببنى يربوع يوم (إراب) وذلك حيث يقول الأخطل من نقيضة : —

ولقد سما لكم الهُذيلُ فنالكم ... بإرابَ حيثُ يقسِّمُ الأنفالا
فى فَيلقٍ يدعو الأراقِمَ لم تكن ... فُرسانُها عزلا ولا أكفالا (١)

ويقول ذاكراً أعمامه : —

أبنى كُلَيبٍ إن عمَّىَّ اللذا ... قتلا الملوكَ وفَككا الأغلالا
وأخوهما السفَّاح ظمَّأ خيلهُ ... حتى وردْن جُبا الكُلاب نِهالا (٢)

عماه هما عُصَم بن النعمان بن حنش قاتل شرحبيل بن عمرو الكندى وعمرو ابن كلثوم قاتل عمرو بن هند . ويقول جرير : —

كذبَ الأخيطلُ إن قومى فيهمُ ... تاج الملوك وَرايةُ النعمان
منهم عتيبةُ وَالمحلُّ وَقعنَبٌ ... وَالحَنتَفانِ وَمنهم الردْفانِ (٣)

يريد عتيبة بن الحارث بن شهاب ، وَالمحل بن قدامة بن ثعلبة بن يربوع ، وَقعنبَ بن عتاب بن الحارث الرياحى ، وَالحنتفان أوس بن رياح اليربوعى ، والردفان عتاب بن هرْمِىّ الرياحى وَابنه عوف وَقيس بن عتاب ابنا عتاب ابن هرمىّ .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٧٧ . (٢) نفس المرجع ص ٧٣ .
(٣) النقائض ص ٨٩٢ وراجع ١٩٨ .

وأما الفرزدق فقد أكثر من ذكر رجاله إذ يقول : —

إن الأقارعَ والُحتاتَ وغالباً وأبا هنيــدةَ دافعوا لمقامى[1]

يريد الأقرع بن حابس ، والحتات المجاشعى ، وغالباً أباه ، وأبو هنيــدة صعصعة جده ، وهنيدة كانت تقول من جاء من نساء العرب بأربعــة كأربعة يحل لى أن أضع خمارى معهم فلها صِرمتى ، أبى صعصعة ، وأخى غالب ، وخالى الأقرع ، وزوجى الزِبْرِقان .

ويقول : —

زيد الفوارس وابن زيد منهم وأبو قُبيصــة والرئيس الأول[2]

ولا ينسى جرير أسرهم ذا الجدين بسطام بن قيس الشيبانى فيقول : —

أقنا بمــا بين الشَرَبةِ والملا تُغنى ابنَ ذى الجدّيْن فينا سلاسلُه[3]

والنقائض تدل على مقدار الثروة الضخمة التى كانت فى يد الخلفاء والأمراء بمــا لابسها من جوائز الشعراء ، وتفاوت القبائل والأقاليم فى الثروة ، والمنافسة الاقتصادية بين قيس وتغلب فى بلاد الجزيرة ، وهــذه الأرستقراطية الأموية القائمة على عناصر الجنس والمال ، وهذه كلها أيضاً إشارات إلى ما يمكن أن تغذونا به النقائض من معارف اجتماعية واقتصادية لذلك العصر الذى أنشئت فيه .

— ٥ —

وقد استدعت النقائض شروحا تعد مصــدراً خصباً جداً لدراسات لغوية ، وأدبية ، واجتماعية ، وسياســية ، لا نجد أكثرها فى غير هــذه الشروح وبخاصة

(١) النقائض ص ٢٦٤ . (٢) نفسه ص ١٨٨ . (٣) نفسه ص ٦٣٧ .

شَرْح نقائض جرير والفرزدق . ولنذكر لذلك أمثلة تاركين للدارس الرجوع إلى هذه الشروح .

من ذلك شرح أبيات غير أبيات النقائض نفسها وذلك بيت زفر بن الحارث الكلابي : —

وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا

قال الأصمعي : والمعنى في هذا البيت ، يقول قد يصلح نبات الدِمَن بعد فساده وخبثه إذا غسلته الأمطار وذهب ما فيه من الوباء ، وما في النفس من الحزازات لا يذهبها شيء[١] .

ومن الأمثلة في شرح أبيات النقائض بيت للفرزدق : —

فقلت أظَنَّ ابنُ الخبيثةِ أنني   شُغلتُ عن الرامي الكِنانةَ بالنَّبْلِ

يريد ، بهذا ، جريراً بهجاء البعيث وغيره كما صنع صاحبُ الكِنانة وهو أن رجلا من أسَد ورجلا من فَزارة رامِيَين التقيا ومع الفزاري كنانة جديدة ، ومع الأسدي كنانة رَثّة فلم يدر الأسدي كيف يأخذها من الفَزاري ، فقال له الأسدي أنا أرمى أم أنت ؟ فقال الفزاري : أنا أرمى منك ، أنا علّمتُك الرمي . فقال له الأسدي : فإني أنصبُ كنانتي وتنصب كنانتك حتى نرمي فيهما ، فنصب الأسدي كنانته في خطر قد سمّياه فجعل الفزاري يرميها فيقرطس حتى أنفد سهامه كل ذلك يصيبها ولا يخطئها ، فلما رأى الأسدي أن سهام الفزاري قد نفدت قال : انصب لي كنانتك حتى أرميَها فنصبها له فرمى نحو الكنانة ثم عطفه وسدّده نحوه حتى قتله ، فضرب به الفرزدق مثلا يعني أن جريراً يهجو البعيث ويعرّض بالفرزدق وغيره من بني مجاشع[٢] .

---

(١) النقائض ص ٧٢٦ .   (٢) نفسه ص ١٢٨ .

فإذا ذكرنا الأيام وأحاديثها هنا فقد ذكر القصص العربي الجامع بين الشعر والنثر وذكرنا قسطاً كبيراً من النثر الجاهلي والإسلامي يبحث عنه كثيراً مؤرخو الأدب العربي .

وعند بيت الفرزدق : —

أتاني ورحلي بالمدينــــة وقعة ... لآل تميم أقعدت كل قائم [(١)]

بسط الشارح بإسهاب موقف القيسية ، والتميمية ، واليمنية في خُراسان آخر عهد الوليد وأول عهد هشام سنة ٩٦ هـ وما أعقب موت الوليد من اضطراب أدى إلى قتــل (قتيبة) وما تخلل ذلك من تدبير وكيد ، وأهم من ذلك تلك الخطبة التي خطبها قتيبة في القبائل العربية لأنها لم تبايع له فسبها ومدح السغد ، ولعل هذا الإسهاب غير وارد في مراجع تاريخية كبيرة . كذلك ذكر الشارح [(٢)] سبب التحام جرير والأخطل مسهباً . وعند قول الفرزدق : —

ومنّا الذي أعطى يديه رهينــة ... لغارَيْ مَعَدٍّ يوم ضرب الجماجم

كفى كلَّ أم ما تخافُ على ابنها ... وهنّ قيـــامٌ رافعاتُ المعاصم

عشيةَ سال المربدان كلاهما ... عَجاجةَ موتٍ بالسيوف الصوارم [(٣)]

يفصل الشارح ما سماه حديث مسعود ، وما أعقب قتــل الحسين من ندم يزيد ثم ما أعقب موت يزيد من فتن وهرب ابن زياد وعبث أهل العراق به ، وموقف مسعود بن عمرو المحاربي من حماية ابن زياد ، وقتل مسعود وما إلى ذلك مما يندر أو يستحيل وجوده في غير هذا الشرح .

وقدأورد الشارح قصة الفرزدق مع النوار وزواجه عليها والتجاءها إلى جرير لتغيظ الفرزدق ، وقصة حَدْراء وموتها [(٤)] ونحو ذلك كثير .

---

(١) النقائض ص٣٤٩ .
(٢) نفسه ص ٧٢٠ .
(٣) نفسه ص٤٩٤ .
(٤) نفسه ص ٨٠٣ ــ ٨٢٩ .

على أن شرح أبي عبيدة ملىء بآثار شعرية ونثرية لشعراء وأدباء مغمورين ، وبأسماء بقاع ، ومدن ، ونجوم ، وجبال ، وأنهار ونحوها مما دلت عليه الفهارس .

— ٦ —

ومع ذلك كله وغيره لم تكن النقائض خيراً مطلقاً للأدب والأخلاق والحياة الاجتماعية الماضية والحاضرة .

وأول ما يلقانا من مساوئها هـذا الهجاء الفاحش والأدب المكشوف الذى آذى الأخلاق ، ونال من الحرمات ، وأفصح عن العورات وصوّرها صوراً قبيحة مزرية جعلت النقائض وصمة خلقية واجتماعيـة شنيعة ، فبدلا من وقوف الهجاء عنـد نفى المحامد المعروفة كالكرم والنجدة والمواهب النفسية الكريمة ، رأيناه يشنع بالمرأة ، ويبغضها إلى الرجل ، وينحط بها إلى درك مهين .

وَمهما يقل رجال النقد الأدبى من الفصل بين الأدب وَالأخلاق وَأن مهمة الأدب التعبيرأو « الفن للفن »فليس من شك أن مثل هذه الصور تؤذى الشعور المهذب وَتنافى رسالة الأدب العظيم ، لذلك تأذّى الناس بالهجاء الأموى خاصة وَاضطر الحارث بن أبي ربيعة المخزومى وَالى البصرة من قبل ابن الزبير أن يهدم دارى جرير وَالفرزدق لتهاجيهما ، وَلعل شيئاً من التوقر وَالتجافى عن الدنس اللغوى كان من بواعث إقلال الأخطل من الفحش فى الهجاء فصار دوَن زميليه فى هذا الباب .

ومع ذلك فإن التاريخ الأدبى وَالاجتماعى لا يعفينا من قراءة هذه النصوص وَوَصفها استكمالا لمهمتنا ، وَوَفاء لموضوعنا .

وَثانى ذلك ما أذكت النقائض من نار العصبيات الجاهلية فى ظل الإسلام فأثارت أحقاداً كانت كامنـة و إحناً كانت مستترة ، وَرأينا القبائل تتناحر

بالسيف واللسان ،والشعر ينشر المخازى ويُعيد الأيام الجاهلية جَذَعة . وإثمُ ذلك يعود كثيره إلى هؤلاء الذين مزّقوا أعراضهم وفرقوا بين عشائرهم ، فاشتد موقف تغلب من قيس ، واليمنية من المضرية ، وكان بيت من الشعر للأخطل سبباً فى وقعة البشر التى تعد من شر أيامقيس على تغلب صرخ منها الأخطل بعدما أشعلها على قومه ناراً موقدة . ومن سوء الحظ أن هـذا الشعر كان يجد قبولا فى نفوس العشائر وصدى فى سلوكها استجابة للحمية وامتداداً للسفاهة الجاهلية فتنابذ الرجال واستخذى النساء ، وكان ذلك شراً و بيلا .

وثالث ذلك أن هذه المفاخرة والمناقضة جعلت هؤلاء الفحول يلتفتون كثيراً إلى الماضى البعيد يستمدون منـه موادهم فتخطوا حدود التاريخ الإسلامى إلى أيام الجاهلية وتقاليدها ونشروها ، ثم تشبثوا معها بالأساليب القديمة ، والصور البدوية ، والألفاظ الغريبة ، وعادوا بالشعر إلى الوراء أو وقفوا به محافظين لم يضفوا عليـه روح عصرهم تماماً ففقد عناصر التجديد القوى واستطاع شـعراء الغزل والسياسة أن يسبقوهم فى هـذه الناحية ، فكان فن النقائض نافعاً من حيث إحياء القديم والاحتفاظ بالجزالة والقوة العربية للأساليب الشعرية ، ولـكنه وقف عند ذلك فى أغلب الأحيان وصار شعراؤه الفحول يقرنون بالفحول الجاهليين .

الفصل العاشر

خاتمـــة

— ١ —

رأينا أن النقائض فن من الشعر خاص، له شرائطه من حيث اتحاد الموضوع والبحر والقافية وتقابل المعانى وطرق نقضها بحيث يقف الشاعر من خصمه موقف المحادّة والملاحاة يريد أن يفسد عليه معانيه ويظفر به فى باب الجدل، والمفاخرة، والمهاجاة، ورأينا أن هذا الفن يوجد فى النثر أيضاً وإن لم تتضح فيه الخواص الموسيقية وضوحها فى النظم ومثلنا له بما دار بين الكتاب والخطباء. وكانت النقائض الشعرية مجالا تناول فنون الشعر العربى الغنائى وإن كان الفخر والهجاء أشدها ظهوراً.

وقد لاحظنا أن هذا الفن قديم العهد وجد منذ طفولة الشعر العربى قبل الإسلام، وكان وجوده، فيما استظهرنا، نتيجة عَدْوَى نفسية أدبية جمعت بين نفسى الشاعرين المتناقضين فى مجال فنى خضعتا له فتشابهت قيثارتاهما وألحانهما وإن تخالفت غاياتهما.

وعلى الرغم من مقوماته التى ذكرناها فى الباب الأول فقد عاش فى الجاهلية، أكثر ما عاش، فى ظل (الأيام) وبقى صحيفتها السائرة حتى ظهر الإسلام

فصارت النقائض من عوامل النشاط الأدبى الذى استدعته الحياة الجديدة وقامت مكةَ والمدينة كلٌّ تحادّ الأخرى وتنازعها النفوذ والسلطان حتى سكنت مدرسة مكة ، ثم توارت فى هذا التيار الجارف الذى طمّ بفتح مكةَ واستقرار الإسلام .

وكان من الطبعى أن يهدأ صخب النقائض تحت الراية الإسلامية لميل الدولة إلى الوحدة ، ودفن الأحقاد والضغائن القديمة استجابة لروح الإسلام الكريم وقد تحقق ذلك فترة أعقبتها الحرب الأهلية بين على ومعاوية فى سبيل الخلافة فبدت بشائر النقائض وإن تكن خافتة ، أو كانت ، من الناحية الفنية ، بصيصاً ضئيلا ما لبث أن توارى فى عهد معاوية الذى اجتمعت عليه الأمة لحسن سياسته ، وارتقاب هـذا الجليل الإسلامى من الشعراء الذين سينهضون بفن النقائض فى أرقى أطواره ، ويبلغون به مستوى يشغلون به الناس جميعاً ، من رُواة ، ونقاد وعلماء ، وخلفاء ، وأمراء ، وقبائل ، وأسر ، رجالا ونساء .

وقد توافرت فى العهد الأموى ، كما قلنا ، عوامل سياسية واجتماعية وأدبية بعثت النقائض ، وقوّتها ، وأكسبتها سيرورة ، وجذبت إليها كثرة من الشعراء ، وأخضعت لسلطانها الفحول حتى كثرت قصائدها ، وطالت وظهرت فيها السمات الإسلامية واضحة أصيلة ، وبعدت آثارها ، ونضجت قرائح شعرائها ، فأخصب خيالهم ، وتنوعت معانيهم ، وتمايزت أساليبهم ، واجت فيها النزعة الجدلية قوية ذات ضروب شتى ، وقامت حولها مدارس نقدية حتى عادت النقائض مدرسة الجيل الإسلامى الجديد ومشغلته فى المدن والأقطار وحتى انتهت إلى ميادين القتال ، وخلفت لنا آثاراً قيمة ، وهنات منكرة ، أشرنا إلى أهمها منذ حين .

— ٢ —

استمرت النقائض الأموية حامية الوطيس بين جرير وزميليه خاصة حتى إذا مات الأخطل سنة خمس وتسعين هجرية أيام الوليد بن عبد الملك بقيت حادة بين شاعرى تميم إلى أن ماتا أوائل القرن الثانى ، أواخر عقده الأول أو بعد ذلك بقليل ، فسكنت نأمة هذا الفن وانتهت حياته القوية الرائعة إلى الآن فلم يبعث من جديد بعثة قوية وإن بقيت شواهدة تبدو فى تاريخ الشعر .

أقُضِىَ على هذا الفن نهائياً ؟ وما سبب خفوته من ذلك الحين ؟

لا يمكننا البت بأن النقائض إنما توجد مرة واحدة فى تاريخ الشعر العربى فقد تبعثها أسباب قوية أو ضعيفة ، ولكن الذى يظهر لى أنها لن تحظى بما حظيت به أيام الأمويين ، إن لم يكن فى كمها ، ففى كيفها ، وخصائصها التى شغلت بها عصراً بأكمله طولا وعرضاً .

ترى لماذا لم يستمر هذا الفن بعد موت جرير وصاحبيه أوائل القرن الثانى ؟

قد يعود ذلك إلى أن فحولة هؤلاء أيأست غيرهم من الشعراء أن يقودوا سيارتهم فسكتوا بعد موتهم كما كانوا مُتَوارِين فى حياتهم .

وقد يعود إلى أن السياسة لم تعُدْ فى حاجة إلى استغلال هذا الفن الذى ملّه الناس ، أو كادوا ، فلم يأخذ به الشعراء أنفسهم فمات .

وربما كان السبب أن هذه العصبيات القرعية بين قيس وتغلب وتميم ، وفى داخل تميم ، قد فترت ، ولم تجد من يؤرّثها بعد أن ماتت صحفها ، فلم يتقدم أحد ليخلف هؤلاء الفحول فى هذا الميدان .

ولعل هـذا الفن كان بغيضاً إلى الناس لسوء آثاره وما لا بسه من هنات فاحشة زهّدت فيه الشعراء فانصرفوا عنه طائعين .

وقد يكوان لعفاء المِربد ، وزال مجده ، وعدم العناية بالمفاخرات القبلية أثر فى ضعف النقائض وموتها .

على أن الجيل الإسلامى من الشعراء أخذ ينقرض ، ويتقدم إلى المسرح جيل مُحْدَث مُتَحضِّر فيه طائفة من الموالى لم يرقهم هذا الفن البدوى الأعرابى الذى مضى زمنه ، فنبذته أذواقهم وتقدموا هم بطابعهم الحضرى البغدادى ولا سيما أن الموالىَ لم يعرفوا هذه النعرة العربية القبلية فأنكروها وأنكروا كل عرابى وصاح أبو نواس فى وجه التقاليد القديمة .

ولعلّ لِـكل تلك الأسباب أثراً فى سكون هذا الفن العتيد .

— ٣ —

وعلى الرغم من هذا الخفوت الذى أصاب النقائض فإنها ستبقى موضوع دراسات فنية تاريخية خصبة قيمة جداً ، يرى فيها اللغويون حاجتهم اللفظية ، والمعنوية ، والصورية المألوفة والغريبة . ويجد الأديب أوفى مادة لدراسة الشعر القديم : فنونه ، وأساليبه ، وفحوله ، وما يلابسه من نقد وتاريخ أدبى . وأما الرجل الاجتماعى فيجد فى النقائض مرآة صادقة تعرض عليه صورة الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها تامة الرسوم ، واضحة العادات ، بيّنة المعارف ، فيها الأخيار والأشرار ، والمؤمنون والجاهلون .

وليس للمؤرخ السياسى غِنًى عن قراءة النقائض وما استلزمت من شروح فقد تستطيع أبيات من الشعر وصف العصر الأموى وصفاً يُعجز الكتاب

والباحثين ، وقد يجد فى شرح النقائض من حوادث مفصلة وأنباء دقيقة لا يجدها فى مراجع أخرى .

وقد رجوتُ ، ولا زلتُ أرجو ، أن يتاح لى أو لغيرى من الجهد والوقت ما نستأنف به البحثَ فى دواوين النقائض لتحقيقها ، وترتيبها ، وشرحها ، وحُسن عرضها ، تيسيراً للانتفاع بذخرها التى لا تنتهى ، ولكنْ مَن لنا بتحقيق الرجاء ، وموافاة الأمانى ؟ !

* * *

أما بعد فقد طال السُرى ، وانتهينا إلى حيث يحسن السكوت ، فلنترك القلم شاكرين الله على ما أعان ، راجين ــ وما أكثر ما نرجو ــ أن يكون فيما قدمنا فى هذه الفصول حفز للباحثين ومتاع للقارئين .

أحمد الشايب

دار الكتب المصرية
قسم التصحيح

والباحثين ، وقد يجد فى شرح النقائض من حوادث مفصلة وأنباء دقيقة لا يجدها فى مَرَاجِع أخرى .

وقد رجوتُ ، ولا زلتُ أرجو ، أن يتاح لى أو لغيرى من الجهد والوقت ما نستأنف به البحثَ فى دواوين النقائض لتحقيقها ، وترتيبها ، وشرحها ، وحُسن عرضها ، تيسيراً للانتفاع بذخرها التى لا تنتهى ، ولكنْ مَن لنا بتحقيق الرجاء ، وموافاة الأمانى ؟ !

***

أما بعد فقد طال السُرى ، وانتهينا إلى حيث يحسن السكوت ، فلنترك القلم شاكرين الله على ما أعان ، راجين ــ وما أكثر ما نرجو ــ أن يكون فيما قدمنا فى هذه الفصول حفز للباحثين ومتاع للقارئين .

أحمد الشايب

دار الكتب المصرية
قسم التصوير الميكروفيلمى